المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد

التناسب في تفسير الإمام الرازي
دراسة في أسرار الاقتران

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد
منال مبطي حامد المسعودي

إشراف
د . محمد محمد أبو موسى

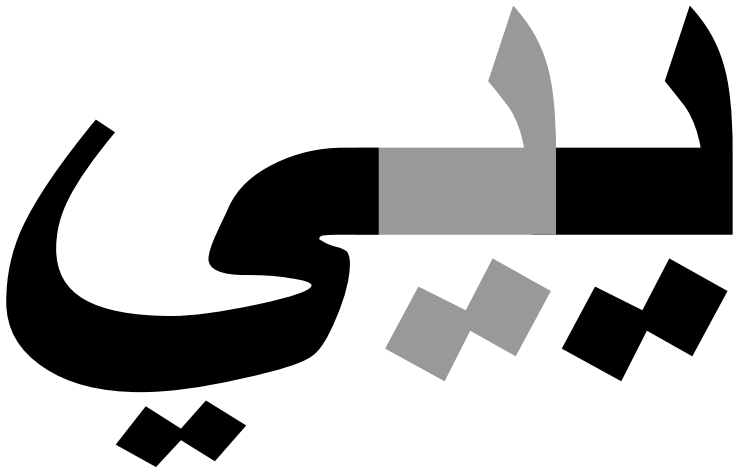

بسم الله الرحمن الرحيم

الملخص

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

فهذه الأطروحة تحرك أحد عناصر البلاغة الغائبة في حقل التفسير وهو علم المناسبات الذي هو فروع أمتد واتسع في الدراسات القرآنية حتى كاد أن يستقل وتنسى نسبته إلى جذوره الضاربة في أعماق نظرية النظم، وقد عمم علم المناسبات وجوه الترتيب وضروب التعليق ونزعه عن علم النحو وجعل مناطه المعاني واعتبار الوجوه العقلية في ترتيب مقاطع الكلام.

وقد اتخذ هذا العلم صفته العلمية من تفسير الإمام فجعله علماً مستقلاً يشابه النظم ويلتقي معه في أن مدارها على الترتيب والتنسيق لما ظاهره الاختلاف ويتخذ مساراً آخر من جهة شمولية التعليق فيحيط بالنص على تباعد مساحاته واختلاف أغراضه فهو كشف منظم لحركة المعاني داخل النسق مع ملاحظة تحولات المعنى وتنقلاته والوشائج الناظمة لهذه التنقلات والضابطة لها.

وقد جاء تقسيم البحث في تمهيد وبابين ، تناولت في التمهيد مبحثين هما :

المبحث الأول : الإمام الرازي حياته وتفسيره

والثاني : النظم والتناسب بين الجملة والنص

وخصصنا الباب الأول بدراسة التناسب في بناء السورة وجاء في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التناسب في الفواتيح والخواتيم

الفصل الثاني : التناسب بين الآية والآية

الفصل الثالث : التناسب بين الأغراض المختلفة

وأما الباب الثاني تناول التناسب بين السور وترتب في ثلاثة فصول أيضاً هي :

الفصل الأول : التناسب في ترتيب السور

الفصل الثاني : التناسب بين السور المتشابهة المطالع

الفصل الثالث : التناسب على مستوى السياق العام للقرآن

المشرف: د/ محمد أبو موسى. عميد كلية اللغة العربية: د/ عبدالله القرني الباحثة: منال المسعودي

Abstract

Thank Goodness, Peace and praise be upon our prophet Muhammad, his relative, followers and companions,…… After that.

This dissertation moves one if the absent rhetorical elements in the field of explanation, it is the science of situations which is expanded wide branch and deep in Quranic studies, it seems to be independent and to be forgotten with it's deeped roots in composition theory. The situations science generalized the organization faces, ways of commentary about syntax science, Making meanings it's essence, and to take in consideration the mental faces in the arrangement of speech syllables.

This science took it's scientific characteristic from Emam explanation, he made it an independent science similar to composition and their path on organization and coordination and difference and take another path in comprehensive commentary as it surrounds the text even if it was wide area with different purposes as it is an organized recovery for meanings the controlling rules of meaning.

The research is divided into preface and two parts, in the preface I delt with two themes.

First theme: Emam EL Razi his life and explanation.

Second theme: composition and suitability between the sentence and the text.

First part studied the suitability in surah construction, it has three chapters:

Chapter one:- suitability in openings and ends.

Chapter two: suitability between verse and another.

Chapter three: suitability between different purpose.

Second part delt with suitability between surahs, it is organized in three chapters:-

Chapter one: suitability in surahs orders.

Chapter two: suitability between surahs that have similar opening.

Chapter three: suitability in general context of Holy Quran.

إهداء

إلى روح والدي الذي كان شفوقاً علي من عنائي في

الدراسة ، وانتظاره المتواصل لراحتي .

إلى أمي الحنون " وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً "

جزاء إحسانهم ثمرة هذا البحث . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله المجيد على ما من علينا به من خدمة كتابه المجيد ، ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من فتنة القول ، ونعوذ به أن نتكلف لما لا نحسن كما نعوذ به من العجب فيما نحسن ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد ،،

سرت البلاغة في كيان جسد الفكر الإسلامي وخالطت علومه ، وداخلت نسيجه فلا يكاد يخلو فرع من فروعه من توظيف لمعطياتها بما يتلاءم وتلك الحقول المنقولة إليها ، فتغيرت بالنقل صورتها وتهيأت في كل فرع بهيأته وما يتلاءم مع طبيعته مما يؤكد خضوعها لتحويرات بالزيادة أو تغيير المنهاج ، فتطورت كثير من تلك الأصول ونمت منها فروع متكاثرة غارت في حقول أخرى وغابت ، وأصبح معه ردها إلى نبعها الذي تحدرت منه مع ما حصل فيها من إضافات وتطويرات ضرورة لتحريك الدرس البلاغي وتوسيعه ، والخروج به من دائرة القاعدة المجملة المقننة التي استقرت عند المتأخرين إلى التفصيل والتحليل الذي امتد به إجراؤها في نصوص التشريع حيث أصبحت أداة من أدوات الاستنباط ، فتكاثرت في منأى عن أصلها أي إن البلاغة تكاملت وطرحت ثمارها في أودية أخرى وأن الوقوف عند جانب الدرس المتخصص ممثلاً فيما أصله البلاغيون طي لمرحلة تاريخية حاسمة من مراحل نموها ، لو أعطيت حقها من العناية لأغلقت باب اللجاجة وصدت ا لكثير عن تلمس فتات الحضارات الأخرى ، حتى أصبح البيان العربي أشبه بفأر تجارب يجري فيه كل مصل دون احترام لخصوصيتها وتكريمها من لدن سبع سموات باختيارها آية لإعجازه والتحدي بها للكافة في قوله تعالى :" وكذلك أنزلناه حكماً عربياً " .

ثم تأمل الفارق بين القراءة الحديثة لبياننا في ضوء معطيات الآخر وقسها بصنيع حازم مع ما نقله شيخه ابن سينا عن أرسطو ، وتقريره أن القدر الذي يصح الوقوف عنده في علم الشعر اليوناني هو الأصول العامة التي يتفق عليها أو ما يسمى بعلم الشعر المطلق المتعارف عليه عند جميع الأمم، ثم نبه على الخصوصية بقوله " ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونان ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال ، والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظاً ومعنى ، وتبحرهم في أصناف المعاني ، وحسن تصرفهم في وضعها ، ووضع الألفاظ بإزائها ، وفي أحكام

مبانيها واقتراناتها ، ولطف التفاتاتهم وتتمياتهم واستطراداتهم ، وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاؤوا لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية " [1].

وقابله بالانفتاح اللامحدود لتدخل تلك العلوم والإصرار على غرسها في لحمة الحضارة الإسلامية بتعديتها إلى مجال الدراسات القرآنية تحت مظلة التجديد ، حيث بدأ الاتجاه الحديث بالالتفات إلى الدراسات التفسيرية للنص التي نشأت " في دائرة الدراسات اللاهوتية .. لفهم النص الديني الكتاب المقدس " [2] وقد ظهرت الكثير من المؤلفات التي تحمل مضامين متفقة وهي القراءة الحديثة المعاصرة للقرآن بمقارنته بالكتب الدينية الأخرى متناسية خصوصية النص القرآني باعتبار منزله وغاياته وملابساته ومتجاهلة خصوصية إعجازه ووحيه التشريعي .

ويصف أحدهم هذا التحوير يقول :" إن المفسرين الكلاسيكين إذا نظروا إلى القرآن بوصفه خطاباً عربياً فهم قد استخدموا في تفاسيرهم مصطلحات كالعموم والخصوص والمحكم والمتشابه والظاهر والباطن والناسخ والمنسوخ ، في حين نحن نستخدم المفاهيم الإجرائية التي تزودنا بها علومنا الحديثة التي تتداول بشكل خاص في الحقل المعرفي الغربي " [3] .

أي أن الغاية من الدراسة هي التحول عن الخطاب العربي لأن الكلاسيكين نظروا إليه بوصفه خطاباً عربياً ويتبع هذا تغييب الأدوات التي استعان بها القدماء في فهم النص ، ومن ثم القضاء على خصوصية لغة الإعجاز البياني .

فالأخذ هنا كيفما اتفق دون ضوابط تصحح ذلك ، وهذا بخلاف مناهج العرب القدامى حيث ذكر روزنتال أنه : " لم يسلم عالم أو فيلسوف أغريقي قديم من سهام الانتقاد من المسلمين حتى الفلاسفة والمتكلمين منهم الذين كانوا من أشد أنصار الإغريقية " .

وقد صرح أحد المستشرقين " أرنالديز " بدقة مناهج المسلمين قال : " إن المفسرين في العصر الكلاسيكي للإسلام ، أي ما يقابل العصور الوسطى عندنا كانوا قادرين على أن يستخرجوا من الآيات القرآنية كل ما هو مُقال أو متضمن فيها تقريباً ، ولهذا السبب أقول : أن المسلمين المحدثين الذين يستعيرون المناهج الغربية كان أحرى بهم أن يكتفوا بمناهج أسلافهم من القدماء

---

(١) " منهاج البلغاء " ٦٩ .

(٢)" إشكاليات القراءة " نصر أبو زيد ١٣ .

(٣)" نقد النص " علي حرب ٧٨ .

فهي توصلهم بالدقة نفسها لأن يستخلصوا من الآيات القرآنية ما توصلهم إليه هذه المناهج التابعة للعلوم الإنسانية " [1] .

والنص يشير إلى حقيقة في غاية الأهمية وهي أن مناهج تفسير النص في التفسير الإسلامي بلغت غاية الدقة في ضبط الدلالة في العصور التي كانت فيها المناهج الغربية في ركود.

والتجديد لا يكون إلا بتحريك القلم تجاه الأصول المتفقة في الدراسات والعمل على تطويرها والامتداد بها من خلال إجرائها في النصوص حتى تتسع مع ملاحظة الأصول المتفقة ومتابعة انتقالها في المناهج المتقاربة ورصد ما طرأ عليها من أنواع الزيادة ، ثم محاولة التأنيس بين فروع التراث الإسلامي ومجالاته المعرفية المتعددة مع عدم إغفال خصوصية كل علم ، فالتفاعل بين العلوم هو الذي يحفظ للمناهج استمراريتها وتكاملها .

فالحاجة أصبحت ملحة إلى منهج آخر سوى يبحث الحاضر الشامخ على أرفف مكتباتنا والموجود بين ظهرانينا واستخراج دفائنه وكنوزه ، وشأن البلاغة وتحليل النص خاصة لا يتأتى اكتماله بالرجوع إلى كتب البلاغة واللغة فحسب وإنما المنهج تتبعه في منظومة العلوم الإسلامية الفقه وأصول الحديث وشروحه وعلوم التفسير ، لأنها جميعاً التفت حول أصل واحد ونشأت خدمة للتنزيل كتاباً وسنة وصاحبتها وتفاعلت معها زمناً ممتداً وتطورت عناصرها حينما تمرست في الشروح وحقل الاستنباط والتحليل فوصلت الغاية ، وحينما لا نجد تنظيراً مكتملاً للتحليل النصوص في الدرس البلاغي فليس ذلك قصوراً فيه بل لأن الأنظار لم تتجاوز المنطقة الضيقة وهي البحث عنها في حقل واحد بينما امتدت الأدوات وتكاثرت وسد كل علم ثغرة من ثغرات العلم الآخر فالتفسير وشروح الحديث غذتها علوم الأدب بأدواتها المتنوعة ثم نمت هذه الأدوات وتشعبت منها فروع داخلت النص في شعابه المختلفة وانعطفت معه في منعطفاته الصعبة وعالجتها . وهذا النوع من الاستمداد يتطلب إقبالاً واعياً بخصوصية كل مجال والغايات والوسائل المستخدمة فيه ،ثم الإحاطة بالعناصر العامة ومحاولة مجاذبة أصولها وفروعها وإعمالها في حقل آخر يقترب منه في مضمونه وهذا الشأن "له أثر كبير في هذه المعلومات ، وهذه المعارف وخصوصاً إذا كانت تتلاءم مع الحقل الجديد"[2] .

---

(١)" الفكر الإسلامي " محمد أركون ٣٢٧ .

(٢)" البلاغة القرآنية " د . محمد أبو موسى، ٨ .

ومن هذه الكنوز المطمورة في غير تربته علم المناسبات الذي هو فرع امتد واتسع في الدراسات القرآنية حتى كاد أن يستقل وتنسى نسبته إلى جذوره الضاربة في أعماق نظرية النظم المتعلقة بوجوه الإبانة في تصريف الترتيب داخل الجملة الواحدة باعتبار من علم النحو، وعلم المناسبات عمم الأصل وهو وجوه الترتيب وضروب التعليق ونزعه عن ملاحظة النحو وجعل مناطه اعتبار الوجوه العقلية التي يحسن معها اقتران الكلام وتجاوره في البناء الواحد . إذن هذا العلم صفحة من صفحات الدرس البلاغي لأنه قائم في أصوله وخصائصه على معطيات البلاغة وغذي بلبانها ، إلا أن درسه وتصنيفه استقر في علوم القرآن وأصبح بمنأى عن وطنه ، وكأن طول مكثه في تلك الأبواب قطعت أواصر نسبه إلى البلاغة ، والذي هو الحق أن أول انتقاله لهذا الباب إلى التفسير كانت على يدي إمام بلاغي وهو الرازي الذي أصل قانون باب المناسبات وأجراه في الكشف عن البلاغة التي تمتد وتطول وتبتعد عن الكلمة والجملة والجملتين إلى آفاق أرحب وأوسع تشمل النص بجهاته المتنوعة بل وتشمل العلاقات بين النصوص المتعددة .

وقد تكشف لي من خلال قراءة تفسيره وتتبع عمل الإمام إنه كان في محاولة دؤوب وإصرار مستمر على الزيادة على علمي الشيخ عبد القاهر والزمخشري فلم يقف عند الاستعارة والمجاز والكناية وعلم المعاني بعناية مثل غيره من المفسرين وإنما يحاول مرمى آخر لم يصل إليه قلم الزمخشري في صفحات علم الشيخ عبد القاهر وكأن أبواب البلاغة التطبيقية تبدأ بما في الكشاف وتنتهي بما أضافه الرازي والغريب أننا لا نعد تفسير الكشاف في أبواب الدراسة القرآنية وإنما يصنف تحت علوم البيان والحال يجب أن يكون كذلك مع تفسير الرازي لأن تفسيره بمثابة تكملة على الكشاف ، ولكن لما كان اكتمال هذا الفن الذي ابتدأه الإمام على عين علوم القرآن وفي غيبة الدرس البلاغي ، غاب وابتعد عن أنظار المصنفين المتأخرين .

وقد بعثت الدراسات البيانية الحديثة جانباً مشرقاً لأقوال المفسرين في هذا الباب نحو كتاب " التناسب البياني " أحمد أبو زيد ، و" التناسب في تفسير نظم الدرر " للدكتور محمود سعد . وله أيضاً " الإمام البقاعي جهاده ومنهاج تأويله بلاغه القرآن الكريم " ، وكذلك مشهور موسى مشاهرة " التناسب القرآني عند الإمام البقاعي دراسة بلاغية " . ولم أجد عناية باستخراج هذا العلم من تفسير الإمام الرازي رغم ما تناقلته كتب علوم القرآن حول أنه قد أكثر من هذا الباب ، ومرد الانصراف ما يتجشمه الباحث من عسر وعناء في استخراج النصوص لاختلاطها وتداخلها مع علوم ومعارف شتى أكثر الإمام من إيرادها حتى أصبح تفسيره منظومة علمية شاملة لجميع معارف الفكر

الإسلامي في ذلك العصر مع غموض كثير من النصوص شأنه في ذلك شأن المعرفة وليدة النشأة لذلك لم يغفل البحث رؤية نمو هذه الفكرة في تفسير الإمام وتطورها حتى قارب بها الكمال ، حيث كانت قبله أقوال تجود بها قرائح بعض الآئمة في آيات دون جميع الآي ، فجمعها واستنبط منها قانوناً كلياً ضبط به وجوه الترتيب والانتظام بين آي القرآن وفصوله وسوره وطرائقه في تصريف الترتيب وما وراء الاقتران من لطائف وخصوصيات تماسك الكلام وتجعل له هيئة متفقة .

وقد جاء تقسيم البحث في تمهيد وبابين ، تناولت في التمهيد مبحثين هما :

المبحث الأول : الإمام الرازي حياته وتفسيره

والثاني : النظم والتناسب بين الجملة والنص

وخصصنا الباب الأول بدراسة التناسب في بناء السورة وجاء في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التناسب في الفواتيح والخواتيم

الفصل الثاني : التناسب بين الآية والآية

الفصل الثالث : التناسب بين الأغراض المختلفة

وأما الباب الثاني تناول التناسب بين السور وترتب في ثلاثة فصول أيضاً هي :

الفصل الأول : التناسب في ترتيب السور

الفصل الثاني : التناسب بين السور المتشابهة المطالع

الفصل الثالث : التناسب على مستوى السياق العام للقرآن

وقبل طي عملي في البحث يتبقى امتنان وعرفان للشيخ الدكتور / محمد أبو موسى فقد كان من نعم الله التي لا يبلغها حمدي أن هيأ لي صحبته وملازمته زمن دراستي العليا ، فكشف لي وجوه الحقائق ، وغرس في نفوسنا الإنصات للسان الصدق الممتد من غيب الماضي واستخراج دفائنه وما تحته من أصول يصلح معها الحاضر .

والله و لي التوفيق والسداد ، فهو حسبي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب .

التمهيد

المبحث الأول :

الرازي حياته وتفسيره

المبحث الثاني :

النظم والتناسب بين الجملة والنص

المبحث الأول : الرازي حياته وتفسيره

حفلت حياة الرازي بالعديد من المنعطفات والتحولات التي أسهمت في تكوين فكر الرازي ، وتشكيل استقلاليته في كل علم خاض فيه ، فعلم المناسبات الذي هو مجال البحث كان غرساً مثمراً بذره الإمام في تربة الدرس البلاغي ، وسقاه بأصول علم المعقولات الذي صال فيه وجال وبذَّ الأقران ، فشقق فروعه من خلال النظم القرآني وانعطف مع منعطفاته فاستوعب بذلك تنوع البيان القرآني في تشابه أغراضه ومعانيه وتناسبها .

فكان الوقوف على حياة الرازي إضاءة تنير طريق القارئ ، وتكشف عن أبرز المحطات التي كونت شخصيته ،وغذت عقله وقلمه . وهناك كتب كثيرة اختصت بالتعريف بحياته[1] فأغنت عن التفصيل وحدت القلم نحو الإجمال المستكشف لبعض الظواهر التي أحدثت نقلة في حياة الرازي وكان لها تأثير بالغ في تكوينه المعرفي دونما إغفال لبعض نواحي نشأته وحياته الشخصية .

فالرازي اسمه محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي البكري التيمي[2] ، طبرستاني الأصل رازي المولد[3] يكنى بأبي عبد الله وأبي المعالي ، ويعرف بابن الخطيب نسبة لوالده ضياء الدين عمر . سلطان المتكلمين في زمانه ، وفخر هذا الدين وبه كان لقبه ، ذكره الصفدي بذلك في بعض مدائحه يقول :

علم الأصول بفخر الدين منتصر به تصول بإعجاب وإعجاز

أضحت به السنة الغراء واضحة قد استقامت لمختار ومجتاز [4]

---

(١) ينظر : " الإمام فخر الدين " علي العماري ، و " فخر الدين الرازي بلاغياً " ماهر مهدي هلال.

(٢)" طبقات الشافعية " ٢ الدمشقي /٦٥ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ٣٨١/٣ .

(٤)" الوافي " الصفدي ٢٥٦/٤ .

وله العديد من الألقاب التي تنبي عن أي سماك بلغ ، وأي شأو ارتقى ، فشاع لقبه بالإمام ، فكان إذا أطلق في عصره لم يقصد به سواه[1] ، ويقول السبكي : " أما ما اشتهر به فابن الخطيب والإمام " [2] ، ولهج به المادحون ، وسارت به الركبان شرقاً وغرباً ، فتغنى ابن عنين في كثير من قصائده بمدح الإمام ، يقول :

ريح الشمال عساك أن تتحملي خدمي إلى المولى الإمام الأفضلي

وقفي بواديه المقدس وانظري نور الهدى متألقاً لا يأتلي

أما في هراة فكان لقبه السائد " شيخ الإسلام " [3] .

كان ولادته بالري سنة أربع وأربعين[4] ، وقيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة النبوية[5] – على صاحبها أفضل الصلاة والسلام – والمختار أنه ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة . ويؤكد هذا ما ذكره الرازي عند تفسيره لقوله تعالى :

يقول : " وإذا توكل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين " . ثم قال في ختام تفسير السورة " تمَّ تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان ... سنة إحدى وستمائة " [7] .

---

(١)" طبقات الشافعية " ابن كثير ٢١٧/٢ .

(٢)" طبقات الشافعية " السبكي ٣٦/٥ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ٣٨٤/٣ .

(٥) البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٥٦/٣ ، الكامل ، ابن الأثير ٦٢٥/٩ .

(٦) سورة يوسف ، آية : ٤٢ .

(٧) " التفسير الكبير " ٤٦٢/٦ .

فإذا كان عمره في سنة إحدى وستمائة سبعاً وخمسين وخمسون ترجح أن سنة أربع وأربعين وخمسمائة هي السنة التي ولد فيها .[1]

ونشأ في بيت علم وفقه فوالده ضياء الدين عمر من أئمة علم الأصول والكلام في زمانه ، ومن أشد المنافحين عن مذهب أهل السنة، وله في ذلك كتاب " غاية المرام " أكثر كتب السنة تحقيقاً وأنفسها بياناً [2]. فتلقى الرازي رعايته وتعليمه مبكراً على والده ، وكان حفياً به لما رأى عليه علامات النبوغ والذكاء.

فأخذ عن والده المذهب السني الأشعري الشافعي ، وقد ذكر الرازي في كتابه "تحصيل الحق " السلسلة التي أخذ عنها المذهب نقله ابن خلكان يقول: " اشتغل على والده، ووالده على أبي محمد الحسين البغوي وهو علي القاضي المروزي وهو علي أبي العباس بن سريج وهو على أبي القاسم وهو على إبراهيم المزني وهو على الإمام الشافعي — رضي الله عنه" [3].

وبرع فيه وجاهد في تقريره ، ونشر قواعده ، فناظر المخالفين وأبطل مذاهبهم وردّ عليهم أقوالهم .

وبرغم وضوح منهجه تحامل عليه بعض العلماء ، وطعن في عقيدته ، من ذلك قول الذهبي عنه : " وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة ، والله يعفو عنه فإنه توفي على طريقة حميدة والله يتولى السرائر " [4] .

ويقول ابن كثير : " إنه رجع عن مذهب الكلام فيها إلى طريقة السلف وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله " [5] .

وهذه المقولة ليست وليدة ما بعد عصر الرازي وإنما مخضها عصره ، وظلت كتبه تصطرخ في لظاها ، لكنها أحكمت قبضتها واستمرت وأمرت زمناً تطاول إلى ما بعد عصره مع

---

(١)" فخر الدين " العماري ص١٧ .

(٢) " طبقات الشافعية " السبكي ٢٨٥/٤ .

(٣)" الوفيات " ابن خلكان ٣٨٤/٣ .

(٤) " سير أعلام النبلاء " ٥٠٠/٢١ .

(٥) " البداية والنهاية " ٥٥/١٣ .

وجود أصوات علت دفاعاً عنه وكان أول هذه الأصوات صوت الرازي فقد تعجب وعجب القارئ لكتاباته من مقولة تثبت له خلاف ما يقرأ فتسمه بالانحراف عن السنة وهو يجاهد فيها ويدفع ما عداها من المذاهب بل ويرد براهينهم إلى أفواههم . يقول : "إن الأعداء والحساد لا يزالون يطعنون فينا وفي ديننا ويعتقدون أنني لست على مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد علم العالمون أنه ليس مذهبي ولا مذهب أسلافي إلا مذهب أهل السنة والجماعة " [١] .

وكذلك ابن تيمية الذي كان كثيراً ما يتتبع آراء الرازي خاصة دون غيره من الفلاسفة لمكانته من هذا العلم وبراعته فيه ، نجده يقرر أن الرازي لم يستقر على ضلالة ، ويبرر كثيراً من مواقفه. يقول: " ومن الناس من يسيء به الظن ، وهو أنه يتعمد الكلام الباطل، وليس كذلك، بل تكلم بحسب مبلغه من العلم والنظر والبحث في كل مقام بما يظهر له ... ولو أنه قد جمع ما تبرهن له في العقل الصريح من كلام شتى الفرق لوجد أن كل ذلك يوافق ما جاء به، ووجد صريح المعقول مطابقاً لصحيح المنقول " [٢] .

ونشأ في أول أمره فقيراً معدماً تقلبت به صروف الدهر ألواناً وسامته خسفاً ، ويروي داود الطيبي التاجر " المدعو بالنجيب " وكان يشارك في أخبار الناس ، قال : " رأيت ابن الخطيب ببخاري مريضاً في بعض المدارس المجهولة وشكا إلى إقلاله ، فاجتمعت بالتجار المستعربين وأخذت منهم شيئاً من زكاة أموالهم وأرفقته بذلك " [٣] .

فلما بعد صيته وتوقد شعاعه دنى منه الملوك والوزراء والأمراء وطلاب العلم من أقطار الأرض وقصدوا مجلسه ، فقربه الملوك إليهم ، وبالغوا في إكرامه وتنافسوا في ذلك وبنوا له الكثير من المدارس في بلدان شتى ، فنمت ثروته " وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار ، وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والأثاث والملابس ،وكان له خمسون مملوكاً من الترك " [٤] .

---

(١) نقلاً عن " فخر الدين " العماري ص٧٥ .

(٢) شرح حديث النزول ، ١٧٦ .

(٣)" تاريخ الحكماء " القفطي ٢٩١ .

(٤)" البداية والنهاية " ابن كثير ١٣/٥٥ .

واتصل بالعديد من الملوك فعامل شهاب الدين الغوري صاحب غزنه في جملة من المال وحصل منه على مال طائل ، ولازم سلطان خراسان محمد بن تكش ونال عنده أسنى المراتب ، فنزل عنده منزلة لم يبلغها أحد غيره ، وله مدائح لبعض السلاطين منها قصيدته في علاء الدين علي خوارزم شاه يقول فيها :

الـــدين ممـــــدود الـرواق موطد	والـــكـــفر محلول النطاق مبدد
بـعـد عـــلاء الـــدين والملك الذي	أدنى خـصـائصه العلى والسؤدد
شـمس يشق جبينه حجب السما	والليـــل قـــاري الـدجنة أسود
هـــو في الجحافل أن أثير غبارها	أسد ، ولكـــن في المحافل سيد
فـــإذا تـــصـــدر للـــسماح فإنه	في ضـــــمن راحته الخضم المزبد
وإذا تمـــنطـــق للكـــفاح رأيـته	فـي طـــي لأمتـــه الهزبر الملبد
بالجهد أدرك ما أراد مـن العلى	لا يـــدرك العلياء من لا يجهد
أبـــقـــت مســاعي أتسز محمد	سنـــنا تـــخيرها النبي محمد
أأعـــد نـــعاماً عـــليّ غـــزيرة	والكـثر لا يحصى فلست أعدد
أجرى ســـوابقه عـــلى عاداتها	خـــيل جياد وهو منها أجود [1]

وقيل في سبب ثرائه أنه لدى عودته من بلاد ما وراء النهر إلى الري صادف أن كان طبيب ذا ثروة طائلة وكان للطبيب ابنتان ولفخر الدين ابنان فمرض الطبيب وأيقن بالموت فزوج ابنتيه لولدي الرازي ،ومات الطبيب فاستولى الرازي على جميع أمواله ، فحصل له هذا الثراء وتلك النعمة . [2]

ولم يسلم الكثير من المحققين بأن هذه القصة هي مصدر ثراء الرازي لما تحمله لفظة استيلاء من غميزة ،و لما تثيره شرعية تملك الرازي للمال أو عدمها من شكوك [3] وأكثر العلماء أن مصدر التحول ارتبط بتعامل الرازي مع السلاطين واتصاله بهم ، والأبيات السابقة شاهد لما

---

(١)" عيون الأنباء " ابن ابي صبيعة ٢٩/٢ .

(٢)" الوفيات " ابن خلكان ٣٨٢/٣ ، " الوافي " الصفدي ٢٤٩/٤ .

(٣)" مرآة الجنان " اليافعي ٩/٤ ، " الوافي " الصفدي ٢٥٢/٤ .

نحن فيه . على أن مكانته عند السلاطين كانت سبباً لانتقاص فضله وعلمه ، فقامت عليه الكثير من الشناعات لأنه " كان يصحب السلطان ويحب الدنيا ، ويتسع فيها اتساعاً زائداً ، وليس ذلك من صفة العلماء " [١] .

ويرد ما قيل في إقباله على الدنيا وحرصه على أعراضها الفانية ما ذكره ابن عنين الشاعر عن جود الرازي وبذله الخلع الكاملة والهبات المصطفاة يقول : " حصلت ببلاد العجم من جهة فخر الدين بجاهه نحواً من ثلاثين ألف دينار "[٢] .

ويرد الرازي مكانته وثراءه إلى خدمة علوم الدين وانقطاعه لها يقول : " وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية ، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم " [٣] .

فقلب عليهم القضية وجعل من صفات العلماء المخلصين إسباغ الله عليهم منائحه ونعمه لسلامة بواطنهم وتطلعهم إلى ما عند الله فتحصل لهم سعادة الدين والدنيا .

وذكرت كتب التراجم أن السلاطين كانوا يتقربون منه ويتنافسون في دعوته إليهم ،وحضور مجالسه و " كان يتعاظم حتى على الملوك " [٤] ، بل وكان يغلظ عليهم القول في الوعظ ، فقد وعظ يوماً بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري فلحقه الوجد فاستغاث بملك الملوك وتصاغر عنده سلاطين الأرض فقال : " يا سلطان العالم لا سلطانك يبقى ، ولا تلبيس الرازي يبقى وأن مردنا إلى الله " [٥] .

ومن كان كذلك لم يصح عنه حب الدنيا والتزلف لأصحاب السلطان . ونقل ابن أبي أصيبعة صورة من مجلسه وما فيه من أبهة وحشد عظيم ، تتخلله صنائع المعروف التي اشتهر بها ، فحينما قصد بلد باميان " تلقاه السلطان بها وهو حسين خرمين وأكرمه إكراماً كثيراً

---

(١) " البداية " ابن كثير ١٣/٥٥ .

(٢)" عيون الإنباء " ابن أبي أصبعه ٢/٢٤ .

(٣) التفسير : ٥/٦٥ .

(٤)" عيون الأنباء " ابن أبي أصبعه ٢/٢٤ .

(٥)" طبقات الشافعية، السبكي ٥/٣٦ .

ونصب له بعد ذلك منبراً وسجادة في صدر الإيوان من الجامع بها ليجلس في ذلك الموضع ويكون له يوم مشهود يراه فيه الناس ويسمعون كلامه ... والشيخ فخر الدين في صدر الإيوان وعن جانبيه يمنه ويسره صفان من مماليكه الترك متكئين على السيوف وجاء إليه السلطان حسين بن خرمين صاحب هراة وأمره الشيخ بالجلوس قريباً منه وجاء إليه أيضاً السلطان محمود ابن أخت شهاب الدين الغوري .. فسلم وأشار إليه الشيخ أيضاُ بالجلوس في موضع أخر قريباً من الناحية الأخرى ... وبينما نحن عنده في ذلك الوقت إذ بحمامة في دائرة الجامع ووراءها صقر يكاد أن يقتنصها وهي تطير في جوانبه إلى أن أعيت فدخلت الإيوان الذي فيه الشيخ ومدت طائرة بين الصفين إلى أن رمت بنفسها عنده و نجت فذكر لي شرف الدين ابن عنين أنه عمل شعراً على البداية ثم نهض لوقته واستأذنه في أن يورد شيئاً قد قاله في المعنى فأمره الشيخ بذلك فقال :

جاءت سليمان الزمان بشجوها والموت يلمع من جناحي خاطفي

من نبأ الورقاء أن محلـــــلكم حـــرم ، وأنك ملجأ للخـائـــق " [1]

فنأمل مكان السلاطين واستأذانهم لمجلسهم بين يدي الإمام ، وحرصهم على حضور مجلسه ، تم توجيهه بأماكن جلوسهم ينبيك بخبر الرجل وأن له قدم صدق في عصره وعند ملوك عصره .

وتكشف القصة أيضاً جانباً من شخصية الإمام وما كان عليه من رقة القلب ولين الجانب : وقد عُرف الإمام بهذه السمة فكان كثيراً ما يلحقه الوجد في حال الوعظ فيكثر البكاء[2] والقارئ لتفسيره يقف على صحة ذلك ، فغالباً ما يغالبه الوجد عند آيات التهديد والوعيد فيستأنف كلاماً يكشف عن أحوال نفسه فتخشع لغته ويهتف بالإنابة والخضوع لرب الملكوت فيناجيه بأبلغ النعوت وأسمى الأسماء طالباً منه الرحمة ، لائذاً في حماه يستجيره من لظى عذابه ، ورمضاء غضبه ، فيقول عند خاتمة سورة غافر ↓ ▫♦🖬■☺❶🖎

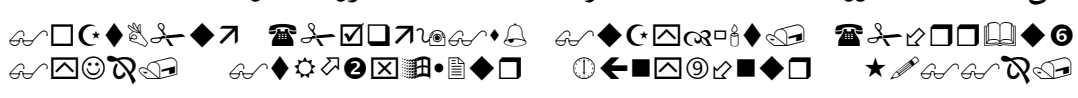

(١)" عيون الأنباء " ابن أبي أصبيعة ٢٣/٢-٢٤ .

(٢)السابق ٢٥/٢ .

يقول : " يا [1] من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوت الناعتين يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادئ أسرار كبريائه أفهام المتفكرين وأنظار المتأملين لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين المبطلين ، ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين ، فإنك أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين"[2].

وبلغ الإمام – سقته سحائب المغفرة والرضوان – مبلغاً عظيماً في حسن الخلق ورزانة الحلم والتغاضي عن هفوات الخلق ، وبذل المعروف لهم ويصور ذلك ما جرى مع أخيه الأكبر " ركن الدين " الذي كان كثيراً ما يشنع على الرازي ويشتد في أذيته ويحيق به المكر السيئ فيسفه علمه بين الناس حسداً ويعيب على المشتغلين بكتبه ، وكلما بلغه ذلك شق على نفسه وأحسن إليه ، فيزداد ركن الدين إساءة ويزداد الفخر إحساناً ، حتى بلغ الأمر منتهاه فأنهى أمره إلى السلطان والتمس منه تركه في بعض المواضع على أن يكون له ما يقوم بكفايته وسد كل ما يحتاج إليه ، فاقطع له السلطان بعض القلاع و أجرى له ألف دينار في كل سنة [3] .

ولازم الرازي الأسفار في بدء حياته طلباً للعلم فرحل مع شيخه المجد الجيلي ، للتدريس في مراغه[4] . واشتغل في الفقه بمرند على والد القاضي محي الدين قاضي مرند[5] . فلما لمع نجمه وذاع صيته رحل إلى بلدان عديدة للوعظ والمناظرة فدخل خوارزم وجرت بينه وبين المعتزلة مناظرات ثم رحل إلى ما وراء النهر ، يصف الرازي امتداد رحلاته يقول : " لما دخلت بلاد ما وراء النهر ، وصلت أولاً إلى بلدة بخارى ثم إلى سمرقند ثم انتقلت منها إلى

---

(١) سورة غافر ، الآيات : ٨٤–٨٥ .

(٢) " التفسير " الرازي ٥٣٦/٩ .

(٣) " عيون الأنباء " ابن أبي اصيبعة : ٢٥/٢–٢٦ .

(٤) " وفيات الأعيان " ابن خلكان : ٢٨٣/٣ .

(٥) " عيون الأنباء " ابن أبي أصيبعة : ٢٣/٢ .

خجند ثم إلى البلدة المسماة (ببناكت) تم إلى غزنة وبلاد الهند ، واتفقت لي في كل واحدة من هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل والأعيان " [1] .

وكثرة أسفاره كان لها عظيم الأثر في الإعلام عن مكانته وإذاعة صيته وصناعة شهرته وأسهمت في نشر علمه وكتبه في الآفاق وخلفت له تلاميذ في شتى البلدان فمكنت من لم يستطع الرحلة من الاستماع إليه والتلمذة عليه.

واستقر به الأمر في هراة بعد أن أخرجته مناظراته مع الكرامية من غزنه وأبعدته عن الري مربع صباه و حاضنة ثقافته .

والري تعد أحدى حواضر الإسلام التي ازدهرت فيها العلوم والثقافة وكان هذا الشموخ العلمي والحضاري في عصر تعصف به الفتن والأحداث ففي النصف الثاني من القرن السادس الهجري ضعف مركز الخلافة العباسية واختلفت الأمة الإسلامية ، وتفرقت كلمتها فقاتل بعضهم البعض مما أطمع فيهم الأعداء فكانت هدفاً لمختلف ضروب التوحش والهمجية التي جاء بها الغزاة الصليبيون " فسادت الفوضى ، وعم الخوف ، وزاد تفكك المسلمين " [2] .

ويقابل هذا التفكك السياسي تعانق العلوم المختلفة وتشاربها في الري ، حيث كانت معرضاً واسعاً للعلوم المتنوعة من فقه و نحو وعلم الكلام والبلاغة والفلسفة والطب وغيرها ، غير أن العلوم الحكمية العقلية نالت النصيب الأوفر في تربة الري ، وساعد على نضجها أن الري كانت مسرحاً لمختلف الآراء والمذاهب والأفكار ، فهذه خصيصة تميزت بها وتفاخر بها علماؤها ، فهذا ابن فارس يقول عنها : " فإن الري أجمع البلاد للمقالات والاختلافات في المذاهب على تضادها وكثرتها " [3] .

فتشكلت ثقافة الرازي في هذا الخضم الهائل من الثقافات المتباينة والمتنوعة ، وأعانه أن يستوعب ذلك الاختلاف أمران :

---

(١) " مناظرات فخر الدين " ، ص١٧ .

(٢)" التاريخ الإسلامي " محمود شاكر: ٣٨/٢ .

(٣) "بغية الوعاة " ١٥٣ .

أولاً : ما وهبه الله له من فطرة خصبة تنمي ما غرس فيها ، وذكاء متقد مع ذاكرة ضابطة لكل ما حصلته ، فتعينه على إيراد البراهين والأدلة في موضعها وعند الحاجة إليها ، فكان جيد الفطرة ، حاد الذهن ، حسن العبارة كثير البراعة وقوي النظر " وقيل أنه يحفظ كتاب " الشامل " لإمام الحرمين[١] .

ثانياً : حرصه الشديد على القراءة والمطالعة فأفنى عمره في البحث والدرس حتى شهر عنه أنه " كان شديد الحرص جداً في العلوم " [٢] ونقل عنه شمس الدين الخويي ما يفصل شدة الحرص المبهمة في الكلام السابق يقول " والله إني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل ، فإن الوقت والزمان عزيز " [٣] .

فقرأ علوم الأوائل ، وأتقن الكثير منها ، واختلف إلى علماء عصره فنهل من ثقافتهم فـ"كان علمه محتفظاً من تصانيف المتقدمين والمتأخرين " [٤] فاشتغل أولاً على والده ضياء الدين عمر في الفقه وعلم الخلاف والكلام ، كان حفياً بعلم والده كثير النقل عنه والإشادة به في كتاباته ويطلق عليه " الأستاذ الوالد " و" الشيخ الوالد " [٥] وقد ذكر السبكي في فضائله أنه "كان أحد أئمة الإسلام مقدماً في علم الكلام .... وكان فصيح اللسان ، قوي الجنان ، فقيهاً أصولياً ، متكلماً صوفياً ، خطيباً محدثاً ، أديباً ، له نثر في غاية الحسن تكاد تحكي ألفاظه مقامات الحريري من حسنه و حلاوته ، ورشاقة سجعه "[٦] .

ونقل أيضاً عن أساتذة والده بإسناد الرواية إليه يقول : " وحكى الشيخ الإمام الوالد عن أبي القاسم الأنصاري عن إمام الحرمين رحمهم الله " [٧] .

---

(١) " عيون الأنباء " ابن أبي أصيبعه ٢٣/٢ .

(٢) " وفيات الأعيان" ابن خلكان ٣٨٢/٣ .

(٣)، عيون الأنباء ٢/ ٢٣ ابن أبي أصيبعه، " وطبقات الشافعية السبكي ٣٥/٥ .

(٤)" وفيات " ابن خلكان ٣ /٣٨١ .

(٥)" التفسير الكبير " الرازي، ٥٠١/٩ ، ٤٤٨/١٠ .

(٦)" طبقات الشافعية " السبكي ٢٨٥/٤ .

(٧)" التفسير " الرازي ١٥/٧ .

ثم قصد الكمال السمناني بعد وفاة والده ، واشتغل عليه في الفقه ، واشتغل مدة طويلة لازم فيها المجد الجيلي – أحد تلامذة الغزالي – في الفقه وعلم الكلام وأتقن عليهما علوماً كثيرة وبرز فيها ، وسمع الحديث من الشيخ الإمام مظهر الدين أبي محمد محمود بن محمد بن العباس بن رسلان ثم اشتغل على نفسه زمناً بالعلوم الحكمية ففاق أهل زمانه[١] ، وكانت له تصانيف في فنون مختلفة ، فدرس الطب وله شهرة فيه ، فقد عده ابن أبي أصيبعه في طبقات الأطباء ، ويظهر أثر هذه الثقافة في تفسيره لكثير من الآيات[٢] .

وتفسيره يبرهن على الثقافة المتنوعة التي كان يصدر عنها . وبرع في علوم الشريعة والحكمة ، وفاق فيها وساد ، فكان في " الشرعيات تفسيراً وفقهاً وأصولاً وغيرها .. بحر لا يجارى ، وبدراً إلا أن هداه يشرق نهاراً " [٣] . أما في الحكمة فقد " دخل في كل أبوابها"[٤]، أبوابها"[٤]، فكان سلطان المتكلمين " فريد عصره ، ونسيج وحده ، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل "[٥] .

فصرف حرصه وذهنه لهذا العلم وأعطاه من الثمين من وقته ، واشتغل فيه على نفسه بعد أن وقف على تصانيف أبي علي بن سينا والفارابي ، فقدح منها علماً كثيراً لذلك " كانت شهرة هذا الرجل منطقية جدلية ، وهذه أنسب العقليات للنبوغ في علم الكلام إذ كان هذا العلم يقوم أساساً على الجدل ومقارعة الحجة بالحجة " [٦] .

وقد انضج عقليته المنطقية بيئة الخلاف التي عاش في أجوائها ، حيث كانت بضاعة القوم يقول ابن خلدون : " ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة

---

(١)" البداية " ابن كثير ١٧/٢ ، " وفيات " ابن خلكان ٣٨٢/٣ .

(٢)" التفسير " الرازي جـ٥/٧٣ وجـ٧/٩٩–٢٣٨ و٢٣٩.

(٣)" طبقات الشافعية " السبكي ٣٤٠/٥ .

(٤) السابق نفسه .

(٥) " وفيات الأعيان " ابن خلكان ٣٨١/٣ .

(٦)" الإمام فخر الدين " علي العماري ص٤٥ .

وخصوصاً في عراق العجم وما بعدها فيما وراء النهر ، وأنهم على ثبج من العلوم العقلية لتوافر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم " [1] .

فثقافة الاختلاف يتجاوز فيها العقل التحصيل إلى التمحيص والتدقيق والاختبار لذلك لم يكن الرازي محصل للثقافة بقدر ما كان ممحصاً لها ، فأوغل السير في جميع المذاهب وعلوم الأوائل واختلافاتهم ثم انتقى وانتقد وقرب وأبعد وقارع كل حجة بأقوى منها ، فالاختلاف فتح للرازي باب الاجتهاد الذي أدمن قرعه وطال في حنادسة سراه .

وعلمه وإن كان محتفظاً من علم الأوائل كما ذكره القفطي[2] إلا أنه أضاف الكثير على ما علمه منهجاً وأسلوباً ، فاختط لنفسه سمتاً تفرد به عن أئمة علم الكلام ومشايخه .

ويذكر ابن خلدون صنيع الرازي في المنطق ، وكيف أعاد هيكلته فدرسه بصفته فناً برأسه لا من حيث أنه آلة للعلوم ، وارتضى طريقته من جاء بعده ، واتبعوه في ذلك يقول "ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم ، نقلوها من كتاب " البرهان " وحذفوا كتاب " المقولات " لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات ، وألحقوا في كتاب " العبارة " الكلام في العكس ، لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه ، ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم، لا بحسب مادة ، وحدّقوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة : البرهان والجدل والخطابة والشعر السفسطة .

ربما لم يلم بعضهم باليسير منها إلماماً ، وأغفلوها كأن لم تكن هي المعتمد في الفن ، ثم تكلموا فيما وصفوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث أنه فن برأسه ، لا من حيث أنه آله للعلوم ، فطال الكلام فيه واتسع . وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب"[3] .

---

(١) المقدمة ، ٥٤٤ .

(٢) " تاريخ الحكماء " ، ٢/٤٠٠ .

(٣) المقدمة ، ٤٩١-٤٩٢ .

أما الأسلوب فقد أشرقت عبارات الفلاسفة في كتبه ، وابتعد عن الالتباس والتقييد غير النافع " فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم " [١] .

فاشتغل الناس بمصنفاته وأقبلوا عليها ، وصرفتهم عن كتب الأوائل ، فقد " اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره ... من أمثاله وهي : سعة العبارة في القدرة على الكلام ، وصحة الذهن ، والإطلاع الذي ما عليه مزيد ، والحافظة المستوعبة والذاكرة التي تعينه على ما يريده في تقرير الأدلة " [٢] .

ولما اجتمعت له هذه المزايا فضله الكثير على ابن سينا ، ولخص ابن عنين ذلك ببيان أغناك عما أطنبنا سابقاً يقول :

غلط أمرؤ بأبي علي قاســـه هيهات قصر عن مداه أبو علي
لو أن رسطا ليس يسمع لفظه من لفـظه لعـــرته هزة أفكل
ويحـــار بطلميوس لاقاه مـن برهـــانه في كل شـكل مشكل
فلو أنـــهم جمعوا لديه تيقنوا أن الفضـــيلة لم تكـــن للأول [٣]

وبالغ في ذلك أبو يعقوب السكاكي ، فقال :

اعـلـمـا عـلـمـاً يـقـيـنـــاً أن رب الـــعـــالميـــنا
لو قـــضى في عـــالميـــهـم خـــدمـــة للـــعالمـــينا
خـــدم الـــرازي فـــخـراً خـــدمـــة العبد ابن سينا[٤]

---

(١) " المقدمة " ابن خلدون ، ص٤٦٧ .

(٢)" الوافي " الصفدي ٢٤٨/٤ .

(٣)" طبقات الشافعية " السبكي ٣٥/٥ .

(٤)" الوافي " الصفدي ٢٥٨/٤

فإذا ما تركنا البيان جانباً وجئنا إلى أهل صناعة علم الكلام وجدنا أحد أئمتها وهو القطب المصري يقول في تفضيله للرازي : " فهذا مما تنخل من كلام الإمامين العظيمين الإمام المتقدم ، والإمام المتأخر عنه زماناً الراجح عليه علماً وعملاً واعتقاداً ومذهباً " [1] .

وبراعته في علم المنطق والفلسفة طرحت ثمارها في مناظراته الكلامية في تصحيح العقائد وإبطال حجج الفرق الضالة والتصدي لهم بالبرهان والحجة ، فلم يألو جهداً في تقرير البراهين وسبرها حتى لم يدع بها حارة في صدر شاك إلا أخرجه من ظلمة الريب إلى نور اليقين فجاءت الشريعة والفلسفة ممتزجتان في كتب الرازي لا غنى لأحدهما عن الأخرى ، فالشريعة تثبت بالعقل كما تثبت بالنقل والإسلام دين يدعو إلى النظر والتأمل حتى إن بعض علمائنا يُعلى من شأن العقل ويجعله مقدماً على النقل إذا تعارض ظاهر النقل مع العقل " قال أحد علماء الملة : الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء ، والأطباء يطببون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ،و أما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلاً " [2] .

وعلى هدى من ذلك جاءت فلسفة الرازي متوافقة مع الشريعة تسير على محجة بيضاء ، فكان كثيراً ما يعدل في نظريات الفلاسفة بما يتوافق مع الشريعة ، فهو – مثلاً – لا يجعل العلم بالصانع وصدق الرسول علماً نظرياً ، ويقول بأن العلم بالصانع قد يحصل بالاضطرار ، فالعلم بكون الصانع قادراً معلوم بالاضطرار ، والعلم بصدق الرسول عند ظهور المعجزات التي تحدى الخلق ،وعجزوا عن معارضتها معلوم بالاضطرار . وأن السمعيات التي جاءت في إثبات الصانع وتصديق رسوله ليس فيها ما يناقض الأصول العقلية التي بها يعلم السماع بل الذي في السمع يوافق هذه الأصول . [3]

---

(١)" عيون الأنباء " ابن أبي أصيبعه ٣٠/٢ .

(٢)" الإسلام والحضارة العربية " محمد كرد علي ٢/ ٤٥ .

(٣)"تعارض العقل والنقل " ابن تيمية ٩١/١-٩٤ .

فصحح كثيراً من قواعد الفلاسفة ، ونقض نظرياتهم بما يتوافق والشريعة ، فهذا ابن دقيق العبد يقول : " فخر الدين وإن كان قد أكثر من إيراد شبهة الفلاسفة وملأ بها كتبه فإنه قد زلزل قواعدهم " [1] .

فالرازي مفكر إسلامي أندس في بواطن المذاهب المختلفة ومحص براهينهم ودفع بهذه النظريات الكثير من البدع ، فالتأمت به تفاريق الفرق ، وأتى على أركانهم ، وآواهم إلى ركن من الدين شديد ، فواجه فرقاً متعددة كالمعتزلة والأشعرية المحافظة، والشيعة والغيلانية والواصلية والحشوية والخوارج والروافض ، وطال صراعه مع الكرامية فناضلهم واستمر بهم ، واستمروا به بالفتن التي لاحقته حتى أخرجته من كل بلد[2] ، ويذكر ابن الأثير قصة تدل على شدة وطأة مقالات الرازي على الكرامية أنه لما عبر إلى ما وراء النهر بالغ سلطان الغور غيات الدين الغوري بإكرامه ، وكان مذهب الكرامية قد تسلطن في الغور ، فجرت مناظرة بين الرازي وشيخ الكرامية القاضي مجد الدين عبد المجيد المعروف بـ " ابن القدوة " فاشتد عليه الرازي ، وذهب في حديثه كل مذهب ، فرجع جمع غفير عن الكرامية ، فثار الناس ، وكادوا يقتتلون فأخرجه السلطان خشية الفتنة، وأعاده إلى هراه[3]، وعبارة ابن الأثير تجعل الخير عياناً يقول : " وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة، وكادون يقتتلوا ويجري ما يهلك فيه خلق كثير ".

فالرازي كان في بحث دؤوب عن الحقائق ، واختبار دقيق للمذاهب الكلامية ، ومداها الذي تنتهي إليه ، فلم يسلم بأقوال القدماء ، وإنما استقصى ، وصحح وخطأ، ليصل إلى نتيجة اطمأن لها قلبه حيث وصلت به إلى المعلم الذي رسمه القرآن بداءة في تقرير حقائق الأشياء ، ووضعها وضع الظواهر البينة حتى لا يدخل العقل في مضايق وتشعبات يحار في طرقها ثم لا يهتدي ، واستدل بصور من المنهج العقلي للقرآن في عرض قضايا عظيمة شائكة بصورة الظاهر الذي لا مرية فيه ولا اختلاف فلما تعمق فيها الإنسان ضل وأضل .

---

(١) " الوافي " الصفدي ٤/٢٥١-٢٥٢ .

(٢)" طبقات الشافعية " السبكي، ٥/٣٣ – ٣٤ .

(٣) " الكامل " ٩/٥١٩ .

يقول : " ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن ، وقرأ في التنزيه (والله الغني وأنتم الفقراء) وقوله تعالى : (ليس كمثله شيء) و (قل هو الله أحد) وأقرأ في الإثبات (الرحمن على العرش استوى) و (يخافون ربهم من فوقهم) و (إليه يصعد الكلم الطيب) وأقرأ أن الكل من الله قوله (قل كل من عند الله) " [1] .

والإمام في دراسته للقرآن كان يبحث عن منهج القرآن العقلي لذلك لم نجد في تفسيره عناية كبيرة بالبلاغة أو علوم العربية ، وإنما هو تأمل في أسرار القرآن ومنهجه في عرض الآراء والبراهين والاستدلال ولم تأت هذه الدراسة جملة واحدة ،و إنما اختبرها أولاً على سورة الفاتحة ، ويبين ذلك قوله : " أعلم أنه مرّ على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة ، فاستبعد هذا بعض الحساد ، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد ، وحملوا ذلك على ما ألفوه من التعليقات الفارغة عن المعاني ، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني " [2] وهذا يبين لنا طريقة استنباطه وأنها ليست تهويمات للعقل لا تضبطها قرائن ولا تعقدها تحقيقات تحقق دلالتها وتنبه على خبئها . ثم أجرى ذلك على سورة البقرة وعنون لذلك بـ " تفسير البقرة على الوجه العقلي لا النقلي " ، فلما تثبت من صحة ما أراد استمر بتفسير القرآن على الوجه العقلي وقد صدق ظني قول الصفدي : " وصيته تدل على حسن عقيدته .... ومقصده بتصانيفه " [3] .

والمقصد الذي ذكره في تصانيفه هو : " ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمتناقضات ،و ما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة .... فلهذا أقول كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجودة ووحدته وبراءته عن الشركاء ... فذلك هو الذي أقول به ، والقى الله به ، وأما

---

(١) " شذرات الذهب " العماد ٥/٢١-٢٢ .

(٢) " التفسير " ١/٢١ .

(٣) " الوافي " الصفدي ٤/٢٥٠ .

ما ينتهي الأمر فيه إلى الدقة والغموض فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد فهو كما هو " [1] .

وبعد ما أبعد التطواف في البحث عن الأدلة والبراهين يتبرأ الرازي من بيان كل برهان ومن تحويمات العقل ، ويطلب إيماناً بالدين كإيمان العجائز تسليماً محضاً ، يدخل من الأذن ليقر متمكناً في القلب لا يزعزه برهان و ولا يشتته جدل ، يقول : " من لزم مذهب العجائز هو الفائز " [2] .

وأما علوم العربية فلها أثر واضح في بعض تصنيفاته ، فصنف في البلاغة والأدب والنحو ، ففي النحو له كتاب " شرح مفصل الزمخشري " ، ويظهر أثر هذا الجانب أيضاً في تفسيره في تصديه لبعض المسائل النحوية .

وكان من طالع سعد البلاغة أن هيأ لها إماماً من أئمة المنطق كالرازي ليقعد أصولها ، ويضبط قوانينها في منهج عقلي واضح دون أن يكدر عذوبتها وصفو معينها ، ودون أن يجف بين أصابعه نبعها ، وإنما فتح الطريق لمن جاء بعد ، فثمر عند السكاكي وشراح التلخيص . فكان حلقة الوصل بين البلاغة الأدبية عند عبد القاهر والبلاغة الاصطلاحية عند السكاكي[3]، وذلك في كتابه " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " .

وجاءت عنايته بالدرس البلاغي لارتباطه بالعلوم التشريعية ، لأن مدار التحدي بالإعجاز القرآني قائم في البلاغة فصرف إليها بعضاً من حرصه وظهر تأثير الدرس البلاغي في عقل الرازي من خلال تفسيره حيث امتد بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ، وانطلق من جزئية النظرية إلى كليتها ، وأصل بها لعلم المناسبات فدرس صوراً لعلاقات النظم القرآني بدءاً من الجملة والجملة إلى عناصر السورة كلها فاتحة وآيات ومقاصد وأغراض ومقاطع . وانتهى إلى الامتداد الواسع للنظرية بدراسة عناصر انتظام القرآن جملة واحدة . وهذا الجهد هو مدار هذه الدراسة وعمودها .

---

(١)" عيون الأنباء " ابن أبي أصيبعه ٢٧/٢ .

(٢) " الوفيات" ابن خلكان ٢٨٢/٣ .

(٣)" البلاغة عند السكاكي " أحمد مطلوب ٢٥٠ ، و " الإمام فخر الدين " علي العماري ٥٧ .

وعرف عنه أنه ذو بيان عال فكان خطيباً محدثاً وواعظاً مبلغاً مؤثراً ، قصد مجلسه العامة والخاصة[1] ، وله شعر بالفارسية قيل أنه كان جيداً ، وأما شعره بالعربية فـ " ليس في الطبقة العليا ولا السفلى " [2] .

ويغلب على شعره الموضوعات التأملية والمعاني العقلية كما في قوله :

نهاية أقـــــدام العقول عقـال وأكثر سعـــــي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصـــــل دنيانا أذى ووبال
ولم تستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجـــال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالـوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبـــال [3]

وأظن أن سبب نزوع الرازي للشعر التأملي العقلي لطبيعة الجدل الذي خاضه في مدافعة العقائد الفاسدة ، وأتخذ من الشعر أداة يعالج بها بعض القضايا الشائكة كالوجود والتوحيد ، وينظمها في بيان صافي بعيد عن تشعيبات الكلام من ذلك قضية التوحيد التي كثر شعره فيها ، فنظم قصيدة طويلة سماها "الهادية للتقليد المؤدية إلى التوحيد " يقول في مطلعها :

يا طـالب التوحيـــد والإيـــــمان أبشـــــر بـــكل كـــرامة وأمـــان
واعلم بأن أجل أبواب الهـــــدى تـــقـــــرير دين الله بـــالبـرهان [4]

وله قصيدة في تنزيه الله وأفعاله من العيب والعبث ذكر مطلعها في التفسير يقول :

الحمد لله ذي الآلاء والـــنـعـــم والفضل والجود والإحسان والكرم
منزّه الـفعل عن عيـــب وعن عبث مقدس الملك عن عزل وعن عـــدم [5]

---

(١)" عيون الأنباء " ابن أبي أصيبعه ٢٣/٢ .

(٢)" الوافي " الصفدي ٢٤٩/٤ .

(٣)" طبقات الشافعية " السبكي ٤٠/٥ .

(٤)" البداية والنهاية " ابن كثير ٥٦/٣ .

(٥) " التفسير الكبير " ٥٧٦/٩ .

وقال أيضاً :

تـتـــمة أبواب السعادة للخلق بذكر جلال الـواحد الأحـد الفرد
مـــــدبر كل الـــممكنات بأسرها ومبدعها بالعدل والقصـد والصدف
أجل جلال الله عن شبه خــلقــه وانصر هذا الدين في الغرب والشرق
إنه عظيم الفضل والعدل والتفـــي هو المرشد المغوى هو المسعد المشقي [1]

ويرتقي شعره إلى الطبقة العليا حينما يصطبغ بيانه بما في نفسه من خواطر وهواجس وأشجان ، ويبتعد عن تقرير الحقائق والبرهنة لها والتأمل فيها فتتسامى لغته ، وتتفيأ معانيه صوراً بلاغية تكشف عن ملكة بيانية مفعمة بالعطاء والخصوبة ، ولكن سيطرة العقل والتفكر على الرازي شغلته عن ترك نفسه على سجتها وإطلاق العنان لصوت الحس ، ولكن حينما مات ابن له تفجر ألمه وفاضت نفسه حرقة وحزناً ، فجاءت كلماته مصبوغة بالأسى يقول فيها :

فلو كانت الأقدار منقادة لـنـــا فديناك من حماك بالـــروح والجسم
ولو كانت الأملاك تأخذ رشــوة خضعنا لها بالرق في الحكم والأســـم
ولكنه حكم إذا حـــان حينـــه سرى من مقر العرس في لجة اليـــم
سأبكي عليك العمر بالدم دائمــا ولم انحرف عن ذاك في الكيف والكم
سلام على قبر دفنـــت بـــتربه واتحفـك الرحمن بالكرم الجـــــم
وما صدني عن جعل جفني مدفنا لجســـمك إلا أنه ابداً يـــهمـــي
وأقسم إن مسوا رفاتي ورمـــــتي أحسوا بنار الحزن في مكمن العظـــم
حياتي وموتي واحد بعد بعدكـم بل الموت أولى من مداومة الـــغـــم
رضيت بما أمضى الإله بحـــكمه لعلمي بأني لا يجاوزني حكمـــي [2]

(١)" البداية والنهاية" ابن كثير ٥٦/٣.

(٢)التفسير الكبير " الرازي ٥٢٣/٦ .

فتأمل " وما صدني عن جعلي جفني مدفناً " فهي من النمط العالي ، و " مسوا رفاتي ورمتي " في سياق القسم ، ثم قف عند البيت الآخر وتأمل تجد النفس استقرت بعد أن طارت شعاعاً وحسرة لتثبت بحقيقة " بأني لا يجاوزني حكمي " .

واصطبغ بعض شعره بروح تشاؤمية بعثها فيه واقع الرازي وما فيه من ألم ومحن ، وسرت إليه هذه الروح – أيضاً – من أبي العلاء فقد كان حفيا ببيانه يكثر الاستشهاد بشعره ويلقبه بحكيم الشعراء.

جاء ذلك في تفسيره يقول : " وقال حكيم الشعراء :

الروح عـــــند إله العرش مبدؤه وتربة الأرض أصـــل الجسم والبدن

قد ألف الملك الـــحنـــان بينهما ليصلحا لقبـــول الأمـــر والمحـــن

فالروح في غربة والجسم في وطـــن فاعرف ذمام الغريب النازح الوطـن" [1]

وشرح شعره وردد كثيراً من معاينه وتأملاته ، ولا غرو في ذلك فالرازي صناعته الفلسفة والمنطق وأبو العلاء يشبع هذا النهم الفكري لديه .

ومن تأملاته في الحياة قوله :

أرى معالم هذا العالم الـــفاني ممزوجة بمخافات وأحـــزان

خيراته مثل أحلام مفزعـــــة وشره في البرايا دائم دانـــي[2]

وقوله :

أرواحنا ليس تدري أين مذهـبها وفي التراب توارى هذه الجثث

كون يرى وفساد جاء يتـــبعـــه اللّه أعلم ما في خـــلقه غبـــث [3]

وبعد هذه الحياة الحافلة بالعطاء مرض الشيخ فخر الدين في خوارزم ، وأوصى تلاميذه بنقله إلى هراة ، ودفن في الجبل المصاقب لقرية مزدخان ، وكان ذلك في عيد الفطر سنة ست

---

(١) " التفسير " ٤١١/٥ .

(٢) السابق حـ٧ ص٥٥.

(٣)" الوافي " الصفدي ٢٥٧/٤ .

وستمائة للهجرة[1] ونفذت وصيته كما ذكر ابن خلكان " ودفن آخر النهار في الجبل المصاقب لقرية مزدخان " [2] .

وقيل في سبب مرضه أن الكرامية دسوا عليه من سقاه السم[3] ، وقد كان بينهم وبينه عداوة شديدة ، لشدة وطأة مقالة الرازي عليهم ، فنالوا منه بالسب والتكفير .

أما ما عقبه من الأبناء فقد ذكر المؤرخون أن له من العقب ثلاثة ابنان وبنت واحدة، تزوجها علا الملك وزير السلطان ، وأكبر أبنائه ضياء الدين اشتغل في العلوم زمناً ثم تجند لخدمة السلطان محمد ابن تكش[4] والآخر لقبه شمس الدين ، وقد توسم فيه الرازي سيما النبوغ فقد رزق " فطرة فائقة وذكاء خارقاً وكثيراً ما يصفه الإمام فخر الدين بالذكاء ، ويقول : إن عاش ابني هذا فإنه يكون أعلم مني ، وكانت النجابة تتبين فيه من الصغر " [5] .

ويذكر الرازي في تفسيره أنه كان له ولد اسمه محمد توفي في الغربة في عنفوان شبابه ، وكان كثيراً ما يدعو له عقب إتمامه لتفسير بعض السور ويطلب ممن نظر في تفسيره أن يخصه ببعض الدعوات [6] ورثاه بشعره كثير .

تصانيف الرازي :

وللرازي مصنفات كثيرة اشتهرت وذاعت في الأفاق ، وتفاوتت المصادر التي ترجمت له في العدّ والإحصاء ، وبالغ البعض ، فانتهى بعددها إلى ما يزيد عن مائتي مصنف. لشهرة الرازي وتأليفه في فنون متنوعة ، ولانتشار مصنفاته فقد قيل عنها : "انتشرت تصانيفه في الأفاق ، ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا فيها ورفضوا كتب المتقدمين[7].

---

(١)" طبقات الشافعية " السبكي ٣٩/٥ ، و " عيون الأنباء " ابن أبي أصيبعه ٢٦/٢-٢٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٣٨٤/٣ .

(٣) السابق ، ٣٨٢/٣ .

(٤)" الوافي " الصفدي ٢٥٢/٤ .

(٥)" عيون الأنباء " ابن أبي أصيبعه ٢٦/٢ .

(٦) " التفسير " الرازي ٣١١/٦ ، ٥٥/٧ .

(٧) " البداية والنهاية" ابن كثير ٥٥/٣

وقد استعنت في ترتيب مصادره بدراسة الدكتور محمد صالح الزركان في رسالته "فخر الدين الرازي وآراءه الكلامية والفلسفية " [1] تتبع فيها كتب الرازي في المصادر القديمة المطبوعة والمخطوطة والمراجع الحديثة وخلصها إلى ثلاث مجموعات : الصحيح ، والمشكوك في نسبته ، والمنحول .

ووصل عدّ مصنفاته إلى مائة وثلاثة وتسعين كتاباً ، صحح نسبه ثلاثة وتسعين منها، والمائة الباقية موزعة بين المشكوك والمنحول . واقتصرت في اختياري على ما ثبت صحته أما المشكوك فيه فهي التي لم ترد عن القدماء وإنما ذكر د . الزركان أنه وجد أسماءها في فهارس بعض المكتبات التي تعذر وصوله إليها وليس لها سند من الكتب القديمة ولا في إحالات الرازي[2] . فلما لم يصح سندها أثرت تركها ، أما المنحولة فوجه إسقاطها ظاهر .

والكتب التي صحت نسبتها هي :

التفسير :

١- أسرار التنزيل ٢- تفسير سورة الإخلاص

٣- تفسير سورة البقرة على الوجه العقلي لا النقلي .

٤- تفسير سورة الفاتحة أو مفاتيح العلوم .

٥- التفسير الكبير مفاتيح الغيب .

٦- رسالة في التنبيه على بعض الأسرار المودعة في بعض آيات القرآن الكريم . [3]

علم الكلام :

٧- أجوبة المسائل النجارية ٨- كتاب الأربعين في أصول الدين

٩- إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار . ١٠- أساس التقديس

---

(١) عرض هذه الدراسة د . محمد هلال في كتابه " فخر الدين " ص٧٧ .

(٢)" فخر الدين " محمد هلال ص٨٢ .

(٣) وأيضاً طبع كتاب " عجائب القرآن " دار الكتب العلمية – بيروت – ضبطه جماعة من العلماء ١٤٠٤هـ . وأشار إلى إلى مضمون الرازي في التفسير وسماه بدلائل الإعجاز . ينظر " التفسير الكبير " ٣٤٨/١ .

١١- الإشارة في علم الكلام .

١٢- البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان .

١٣- تحصيل الحق ١٤- الجبر والقدر

١٥- الجوهر الفرد ١٦- حدوث العالم

١٧- الخلق والبعث ١٨- كتاب الخمسين في أصول الدين

١٩- الزبدة في علم الكلام ٢٠- شرح أسماء الله الحسنى

٢١- عصمة الأنبياء ٢٢- الرسالة الكمالية في الحقائق الإلهية

٢٣- المباحث العمادية في المطالب المعادية

٢٤- المحصول في علم الكلام ٢٥- رسالة المعاد

٢٦- المعالم في أصول الدين ٢٧- رسالة في النبوات

٢٨- نهاية العقول في دراية الأصول ٢٩- الأربعين في أصول الدين [1]

المنطق والفلسفة والأخلاق :

٣٠- الآيات البينات في المنطق ٣١- الآيات البينات في المنطق الكبير

٣٢- أجوبة مسائل المسعودي ٣٣- الأخلاق

٣٤- أقسام اللذات ٣٥- رسالة في زيارة القبور

٣٦- تعجيز الفلاسفة أو تهجين تعجيز الفلاسفة

٣٧- شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا

٣٨- شرح عيون الحكمة لابن سينا ٣٩- لباب الإشارات

---

(١) ذكره ابن أبي أصيبعه ورأينا إضافته هنا " عيون الأنباء " ٣٠/٢ .

وذكره أيضاً الزركشي في " تشنيف المسامع " ونقل عنه جـ١/١٥٨ .

وذكره الرازي في تفسيره قال : "وفي استنباط الحجة من قوله "وخلقهم " ما بينا في هذا الكتاب، وفي كتاب الأربعين في أصول الدين " ٨٩/٥ .

٤٠- مباحث الحدود في المنطق ٤١- المباحث المشرقية

٤٢- مباحث الوجود والعدم ٤٣- الملخص في الحكمة والمنطق

٤٤- المنطق الكبير ٤٥- في النفس والروح

٤٦- الهدى في الفلسفة

علم الكلام والفلسفة معاً :

٤٧- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين .

٤٨- المطالب العالية .

الجدل والخلافات :

٤٩- الجدل والكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل .

٥٠- الجدل

٥١- شفاء العي والخلاف .

٥٢- الطريقة العلائية في الخلاف .

٥٣- الطريقة في الخلاف والجدل .

الفقه والأصول :

٥٤- إبطال القياس ٥٥- أحكام الإحكام

٥٦- البراهين البهائية ٥٧- شرح الوجيز للغزالي

٥٨- المحصول ٥٩- المعالم في أصول الفقه

٦٠- منتخب المحصول ٦١- النهاية البهائية في المباحث القياسية

٦٢- المحصل [1]

---

(١) ذكره ابن أبي أصيبعه ورأينا إضافتها " عيون الأنباء " ٩٢/٢ .

أدب اللغة العربية وعلومها :

٦٣- شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري

٦٤- شرح نهج البلاغة .

٦٥- المحرر في حقائق أو " دقائق " النحو .

٦٦- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز .

في التاريخ والسير :

٦٧- فضائل الأصحاب أو الصحابة الراشدين .

٦٨- مناقب الإمام الشافعي .

في الرياضيات والفلك :

٦٩- الهندسة

٧٠- رسالة في علم الهيئة

الطب والفراسة :

٧١- الأشربة

٧٢- التشريح من الرأس إلى الحلق

٧٣- شرح القانون لابن سينا

٧٤- الطب الكبير أو الجامع الكبير

٧٥- رسالة في علم الفراسة

٧٦- مسائل في الطب

٧٧- النبض

السحر والرمل والتنجيم : [1]

٧٨- الأحكام العلائية في الأعلام السماوية .

٧٩- كتاب في الرمل .

---

(١) وذكرنا سابقاً أن كثيراً من العلماء أبطل نسبة كتب السحر إليه وأجمع أكثرهم أن السر المكتوم ليس له . ينظر مقدمة ابن خلدون .

٨٠- السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم .

٨١- منتخب درج " تنكلوشا " .

كتب عامة :

٨٢- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين .

٨٣- جامع العلوم .

٨٤- حدائق الأنوار .

٨٥- الرياض المونقة في الملل والنحل .

٨٦- اللطائف الغياثية .

٨٧- مناظرات الفخر الرازي .

٨٨- الوصية .

كتب مجهولة الموضوع :

٨٩- تهذيب الدلائل وعيون المسائل .

٩٠- جواب الغيلاني .

٩١- الرعاية .

٩٢- رسالة في السؤال .

٩٣- الرسالة الصاحبية .

٩٤- الرسالة المجدية .

٩٥- نفثة مصدور .

وقبل طي الحديث عن مصنفات الرازي هناك قضية رأيت الوقوف عندها ببعض البسط لأمرين :

الأول : اتساع مساحة هذه القضية في كثير من الكتب التي ترجمت للرازي حتى

أصبحت مسلمة لم أجد من يشكك في صحتها من العلماء إلا قلة ، فكان من حق الإمام عليَّ أن أراجع ما قيل وأحدث بما يمكن أن يقال في حل هذا الإشكال .

الثاني : وهو يتعلق بمنهجية البحث وتصحيح مساره حتى لا يدخل غير آراء الرازي في علم الرازي ، وقد قيدت بحث التناسب بصورته عند الإمام فلو ثبت أن نصف التفسير ليس له لكان عملاً في غير معمل ، ولو غضضت الطرف عنه وكان للرازي لقضيت بهذا الإغضاء على نمو دراسة التناسب عنده ؛ لأن فكرة التناسب طرحت ثمار غرسها في النصف الأخير حيث اكتملت رؤيته للأنماط المتنوعة لعلم التناسب ، فاستقام له ما كان يحاوله في بدء تأليفه وهو تفسير القرآن بالطريقة العقلية التأملية .

وأمام إلحاح هذه القضية تتبعت ما قيل فيها فوجدت أكثر العلماء على أن الرازي لم يكمل التفسير وأن هناك من جاء بعده فأكمله والكثرة أجمعت على أنه وصل فيه إلى الأنبياء ثم أكمله نجم الدين القمولي ، وهناك من قال أن شهاب الدين الخويي هو الذي أكمل التفسير إلى سورة الأنبياء ثم أتم نجم الدين التفسير ، وبهذا القول لا يكون للرازي إلا ربع التفسير إن لم يكن أقله .

ومن خلال التتبع الزمني للمصادر التي شاع فيها هذا القول وجدت أقدم من قال به ابن خلكان توفي سنة ٦٨١هـ [١] ثم تبعه تاج الدين السبكي ٧٧١هـ[٢] ثم الدمشقي[٣] ، ثم ابن حجر العسقلاني ٨٦٢هـ[٤] .

ولم أجد لهذا القول أدلة تسد بلغة الحقيقة فضلاً عن ترويتها ، بينما نجد الحقيقة تجد متونها البراهين ثم يجليها التأمل عند الذين قالوا بخلاف ذلك ، فجمال الدين أبي الحسن القفطي (٦٤٦)هـ وهو أقرب من ترجم للرازي لعصره يذكر أن التفسير للإمام يقول :

---

(١) وفيات الأعيان ، ٣٨١/٣ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ، ١٧١/٢ .

(٣)" طبقات الشافعية " الدمشقي ١٥/٢ .

(٤) الدرر الكامنة ، ١٢٩/٥ .

"كان في زماننا الأقرب .... من تصانيفه كتاب تفسير القرآن الكبير سماه مفاتيح الغيب — سوى تفسير الفاتحة وأفرد لها تصنيفاً — أثنى عشر مجلداً بخطه الدقيق " [1].

ويرجح كلامه قرب عهده من عصر الإمام ورؤيته للتفسير بقوله " بخطه الدقيق " برهان على رؤيته للنسخة التي بخط الرازي ، ثم تزداد مصداقيته بتفصيله لأجزاء التفسير فالفاتحة والبقرة استقلتا في مجلد مجلد ، وعرضت هذه المقولة على التفسير ووجدته يأنس بها فالفاتحة كتبت بطريقة مختلفة عن بقية التفسير ، فهو يجعلها فصولاً ، وفي تفسير البقرة يجعله مسائل ثم يفرع عنها فروعاً تستوفي ما في الآيات من معان ومعارف وعلوم ، وهي الطريقة العقلية التي بنى عليها تفسيره لسورة البقرة فلما استقامت معه الطريقة أجراها بعد ذلك على آل عمران حتى أتمَّ القرآن على الوجه العقلي لا النقلي .

وهذا الصفدي (٧٦٤هـ) يؤكد أن الرازي " أكمل التفسير على المنبر إملاء " [2] .

ويكتفي بعض المحققين بإثبات ذلك بقوله " وله التفسير الكبير " [3] .

أو بالإعراض عن ذكر التردد في نسبة التفسير بينما يقف عند غيره من الكتب المنسوبة للرازي ويشكك في نسبتها فهذا ابن كثير (٧٧٩هـ) يقول : " وصنف في فنون كثيرة ، فمن ذلك تفسيره المشهور ، وله تفسير الفاتحة في مجلد مفرد " ويشكك في إتمامه للوجيز يقول " وقد شرح الوجيز أو أكثره " ويشكك في نسبة كتاب " السر المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم " يقول : " ومنهم من أنكر أن يكون من مصنفاته والله أعلم " [4] .

وفضلاً عن ذلك لم أجد السيوطي يجعل القمولي أو شهاب الدين في طبقات المفسرين فلو كانت تكملة التفسير لهما لبوأتهما مكاناً مسبطراً في رواق علم التفسير .

وإذا تركنا التراجم جانباً وعدنا إلى التفسير وجدنا منظومة متكاملة لا يشذ فيها بيان عن بيان و ولا نهج عن نهج يصدق بعضه بعضاً ، تتعانق فيه الآراء يحيل فيما هو بصدد

---

(١) " تاريخ الحكماء " ، ص٢٩٣

(٢) الوافي ٢٥٤/٤ .

(٣)"طبقات المفسرين " السيوطي ١٥٠ .

(٤) طبقات الشافعية ، ٧١٦/٢ .

تفسيره على المواضع السابقة المشابهة فيغرس الأفكار في لحمة اللاحقة فيصبح كلاماً متعانقاً يثني بعضه على بعض ، ويرتد آخره مصدقاً لأوله ، وهذه درجة عالية في أحكام المنهج ، وغالباً ما تكون الإحالة بضمير المتكلم ، مثل قوله في تفسير سورة الزمر : " واعلم أن بالغنا في سورة الأنعام في تفسير قوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) في تفسير شرح الصدر وفي تفسير الهداية و ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا "[1] .

فالزمر داخلة في حيز المشكوك في نسبته للرازي ، والأنعام من السور التي قطع بنسبتها له فلما عانق بين سورة الزمر والأنعام بضمير المتكلم المثبت لحضور الرازي في تفسير هذها لسورة تأكد لدى صحة النسبة وقس على ذلك الفتح وغيرها .

والتفسير ليس فيه حضور لغير الرازي إلا ما نجده من إضافات للناسخ وهي على نوعين :

النوع الأول :إضافة عبارات الثناء أو الدعاء وغالباً ما تتكرر في ختام كثير من السور التي أرخ فيها لانتهائه من تفسير السورة مثل " قال المصنف رحمه الله " و " قال المصنف رضي الله عنه " و " قال مولانا رضي الله عنه " [2] .

وأحياناً تتخلل تلك العبارات كلام الإمام وتختلط به ويكون بعضها قطعاً من وضع الناسخ كما في قوله : " قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه "[3] وفي موضع آخر : " قال المصنف الداعي إلى الله رضي الله عنه " [4] .

والبعض الآخر من وضع الإمام نفسه كما في سورة النساء قال : " ويقول محمد الرازي مصنف هذا الكتاب ختم الله له بالحسنى " [5]. وفي الأنعام : " يقول مصنف هذا الكتاب

---

(١) التفسير الكبير ٣١/١٠ ، ٦٨٣/٩ .

(٢) السابق ٥٠٣/١٠ .

(٣) السابق ٤٤٠/٩ .

(٤) السابق ٣١/٦ .

(٥) السابق ٨١/٦ .

محمد بن عمر الرازي " [1] . وكذلك وردت هذه الإضافات فيما شك في نسبته للرازي وذلك في سورة غافر " يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله " [2] .

النوع الثاني : التدخل في أصل المتن وهذا النوع لم يوجد إلا في سورة الواقعة في موضعين :

الأول : في قوله : " وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين رحمه الله بعد ما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطري خاطره على أني معترف بأني أصبت منه فوائد لا أحصيها " [3] .

الثاني : في قوله : " المسألة الأولى أصولية ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها " [4] .

وعلق عليها مصحح الكتاب : " هذه العبارة تشعر وتؤكد أن الكتاب أو هذه السور لمؤلف آخر غير فخر الدين الرازي ، وإنما هذا لأحد تلاميذه أكملها بعد وفاته أو نقص بالأصل وكمله أحد العلماء المتأخرين والله أعلم " [5] .

واضطر هذان النصين الدكتور العماري لاستثناء سورة الواقعة فقط ونسبتها إلى غير الرازي [6] .

وأقول : أن مثل هذه الإضافة لا تقوم دليلاً على نسبة كل ما بعد الأنبياء لمضيفي هذه العبارة ، وإنما الحكم على الشيء باعتبار موقعه وما هو حادث فيه ، والمتعارف عليه بين الباحثين أن إقحام بعض التعليقات والشروح وانتقالها من حواشي الكتاب وهوامشه إلى متنه يكون بتدخل النساخ وأن المنهج الصحيح هو تصفية المتن وردها إلى مكانها وليس نزع المتن

---

(١) " التفسير الكبير " ٥٦/٤ .

(٢) السابق ٦٥/٥ .

(٣)التفسير : ٣٩٨/١٠ .

(٤)السابق نفسه .

(٥)السابق نفس الهامش .

(٦) " ا لإمام فخر الدين " ، ١٧٩-١٨٠ .

ونسبته إلى غير مؤلفة ، وأما إذا كانت الإضافة لإتمام نقص فيبقى عليها مع التنبيه على ذلك.

وهذه الإضافة وإن كانت تثير بعض الظنون إلا أنه يمكن قراءتها باعتبارها دليلاً مقوياً لنسبة الكتاب للرازي لما تحمله في طياتها من مضامين تدل على أمانة جامع الكتاب أو الناسخ، وأنه لم يضف شيئاً على كلام الرازي من خارج فكر الإمام ، فهو يستعين على إتمام النقص بما ورد في كتبه ، وهذا أشد توثيقاً لأنه لا يعول على خاطرة ولا يثبت إلا ما وافقه فيه الإمام صادف مثله في كتبه . والثاني ظاهر في رجوعه إلى كتب الإمام أما الأول ففيه غموض لأنه فصل مسائلها وأطنبها ومن عادة الإمام أنه إذا ذكرها من قبل أحال عليها وهنا أعاد تفسير قوله تعالى ↓ ▪ ⑩ ★ ⑥ ↑ [1] أثناء تحليله لقوله : ↓ ☎ ↑[2] فقد ذكر الإمام فيها إشكال دخول الكاف على المثل فظاهرها يوجب إثبات المثل وإن كان المقصود منها إيجاب نفي المثل عن الله تعالى بقوله : " وعندي فيه طريقة أخرى ، وهي أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفي التشبيه الدليل الدال على كونه منزهاً عن المثل ، وتقريره أن يقال لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه ، وهذا محال فإثبات المثل له محال ، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر وأما بيان أن هذا محال فلأنه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله في تلك الماهية ، ومبايناً في نفسه ، وما به المشاركة غير ما به المباينة ، فتكون ذات كل واحد منهما مركباً وكل مركب ممكن ، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان هو في نفسه واجب الوجود ، إذا عرفت هذا فقوله ليس مثله مثل شيء إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئاً بناء على ما بينا أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لماكان واجب الوجود فهذا يحتمله اللفظ " [3] .

---

(١) الشورى ، آية : ١١ .

(٢) الواقعة ، آية : ٢٣ .

(٣) التفسير ٥٨٥/٩ .

وأعاد ذلك في سورة الواقعة وكان داعي ذلك بيان الفرق بين مستويين في الإبانة يفيدها دخول الكاف على المثل ففي الواقعة أفاد الحقيقة وفي الشورى للمبالغة وذلك لأن الشيء إذا كان له مثل فهو مثله ، ويتضح من النص الثاني التفصيل لكلام الرازي ، وتوضيح ما غمض في النص الأول حيث زاد عليه بيان موقع الكاف ، وأن حمل الكاف على المبالغة دون الحقيقة يفيد الإيجاز ،وتضمنت رداً على المشرك والمعطل ،وبين وجه كونها توحيداً مع الدليل .

وهذا ظاهر في أنه زيادة على كلام الإمام ومبني على تلك المسألة التي ذكرها في الشورى وقد بين ذلك في قوله أن شيء مما ذكر هنا رآه في كلام الإمام أي أنه لم يخرج في إتمام النقص عن منهج الإمام في تناول المسألة ، وليس في ذلك غضاضة لأن الرازي كان يذكر بعض آراء تلاميذه في بعض المواقع وينسبها لهم مثل قوله : " ثم قال تعالى : (نجعلها تحت أقدامنا) قال مقاتل يكونان أسفل منا في النار (ليكونا من الأسفلين) قال الزجاج : ليكونا في الدرك الأسفل من النار ، وكان بعض تلامذتي ممن يميل إلى الحكمة يقول المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب ،وإليهما الإشارة في قصة الملائكة بقوله : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ثم قال والمراد بقوله (نجعلهما تحت أقدامنا) يعني يا رب أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية ، والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها، وأن لا يكونا مسؤولين عليها قاهرين لها "[1] .

ولا يسكن إلى الحقيقة إلا بالأدلة التي تقرر واقعاً ملموساً يطمئن له قلب القارئ فتسكت عنه الظنون ،ويجمع شعب أوديتها وليس أدل بالبرهان على ماكان من الحقائق سوى التأريخ ،وهو الأداة التي استخدمها الرازي ليصدع بهاا لظنون فيبلغ حقيقة كتابته للتفسير ، فأرخ لبدء تفسيره من أول سورة آل عمران، في عام ٥٩٥هـ ، واستمر في التأريخ لكثير من السور باليوم والشهر والسنة وفي أي ساعة من نهار أو ليل في بعض الأحيان حتى وصل إلى سورة الفتح التي ينقطع عندها التأريخ يقول الناسخ : " قال المصنف رحمه الله تعالى : تم

---

(١) التفسير : ٥٥٨/٩ .

تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام " [1] .

أي قبل وفاته بسنتين وتسعة أشهر ، علماً بأنه كان ما بين تفسيره للسورة والسورة التي تليها في الأجزاء الأخيرة ما يقارب اليومين إلى الخمسة أيام تقريباً .

وهذا قاطع على أن الرازي أتم التفسير ، ولكن يظل هناك تساؤل يتعثر فيه اليقين وتلتبس فيه الحقيقة وهو كيف أطبق هذا الجمع الغفير على أنه لم يتمه ؟

وفي ظني أن سبب ذلك أن الرازي كتب تفسيره وأملاه في أسفاره في أماكن متفرقة ، ما ين غزنين وبغداد ثم أكمله في هراة .

وأثبت ذلك الإمام حيث قال في ختام سورة إبراهيم : " تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة ختم بالخير والغفران في صحراء بغداد " [2].

وقال في سورة المؤمن : " تم تفسيره هذه السورة يوم السبت الثاني من ذي الحجة من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة من بلدة هراة " [3].

فكانت هناك نسختان، نسخة كتبها الرازي بخطه ويؤكد ذلك قوله : " وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله : في اليوم الذي كنت أكتب هذه الأوراق وهو اليوم الأول من محرم سنة اثنتين وستمائة حصلت زلزلة شديدة ، وهده عظيمة وقت الصبح"[4] .

ونسخة أملاها في هراة فلما وافاه الأجل جمع تلميذه نجم الدين القمولي أو شهاب الدين الخويي النسختين بالرجوع إلى ما أملاه الرازي على تلاميذه وإلى ما كتبه بخطه ،

---

(١) السابق ٩٠/١٠ .

(٢) التفسير الكبير : ١١٥/٧ – ٤٢٠/٧ – ٥٠٤/٧ .

(٣) " السابق " ١١٥/٧ .

(٤) السابق ٥٣٦/٩ .

ويؤكد ما ذهبت إليه قول جامع التفسير في ختام سورة هود : " تمت السورة بحمد الله وعونه وقد وجد بخط المصنف رضي الله عنه في النسخة المنتقل منها " [1].

أو قد تكون قاله سوء أشاعتها الكرامية وقذفت ألفاظاً فارغة جوفاء لم تعرض على تفسير الرازي على تفسير الرازي لينفي خبثها ويطرح طلعها ، ويئد جنينها ، وكأنها قذفت من الغيب ليعلم ماكان يعالجه الإمام – رحمه الله – من عداء وفتن أحاطت به قبل موته فدافع منهاما دفع ، فلما أسكتته المنية بقيت الأحقاد تنفث سمومها في فضل إنائه لتنتقص فضله ، ولتصد ظمأ المعرفة عن مشاربه فنسب إليه علم السحر وهو منه براء ، وقد صد هذا القول السبكي[2] وابن خلدون [3] . ونفيت عنه نسبة التفسير كاملاً إليه وهذه مفارقة عجيبة أن يثبت له كل علم الباطل ويضن عليه بنصف علم كتاب الله ، وكأنهم يحاولون بالمناقلة في الإثبات والنفي – أي إثبات الشر له ونفي الخير عنه – يحاولون إزالته عن موضع الصدارة التي تسامق في علياء كمالها حتى قيل أن بلاد ما وراء النهر لم " نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة " [4] .

تفسير مفاتيح الغيب :

جاء هذا التفسير في خاتمة مصنفات الإمام وبعد حياة حافلة في ميادين متنوعة من العلوم والمعارف كان لها الأثر البالغ في أن جعلت له سمتاً خاصاً تميز به " وفاق به غيره من التفاسير " [5] ، فكان أشبه بمدونة ضخمة لعلم الإمام في مختلف فروع المعرفة التي زاولها فتجد فيه اللغة والبلاغة وعلم الكلام والفقه وأصوله والجدل والمناظرة والطب وعلم الهيئة وغيرها . وكل ذلك ينسل من الآيات ويتداعى من نظمها وليس تزوداً أو جمعاً منتزعاً من معارف شتى ليس بينها صلة وإنما تنبعث من تحت نظم الآية وتنبع من لغتها وتراكيبها ، فيخرج من فن إلى فن ومن فائدة إلى أخرى ، تلتقي جميعها عند الآية وتصب فيها .

---

(١) السابق ٢٢٣/٧ .

(٢) التفسير الكبير " ٤١٥/٦ .

(٣) طبقات الشافعية ٣٦/٥ ، المقدمة : ٥٤٤ .

(٤) المقدمة ، ٤٤٥ .

(٥)" وفيات الأعيان " ابن خلكان ٣٨١/٣.

وهذا منهج عام اتبعه الإمام في كتبه واستحسنه الناس وكان سبباً في إقبالهم على تآليفه واشتغالهم بها، يقول ابن خلكان " انتشرت صانيفه في البلاد واشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه " [1] ، و " أتى فيها بما لم يسبق إليه لأنه يذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها ، وقسمه فروع ذلك التقسيم ويستدل بأدلة السبر والتقسيم فلا يشذ منه عن تلك المسألة فرع له بها علاقة ، فانضبطت له القواعد وانحصرت معه المسائل " [2] .

بينما عده أبو حيان جامعاً لأشياء " كثيرة طويلة لا حاجة لها في علم التفسير ؛ ولذلك قال بعض العلماء [3] ؛ فيه كل شيء إلا التفسير " [4] .

ورد ذلك أبو الحسن علي السبكي :" ما الأمر كذا إنما فيه مع التفسير كل شيء " [5].

[5].

فهذه الطريقة استطاع بها الإمام استيعاب كل ما في الآيات من دلائل من خلال مجاذبة باطنها بفرض الأسئلة في محاولة للإحاطة بجميع ما تحتويه من مسائل فكرية ولغوية مع عرض الآراء والاختلافات وتقريرها والاحتجاج لما صح عنده . وقد تميز الإمام بقدرة نافذة على استنباط المسائل وبيان عال في عرضها ومنطق محكم في الاحتجاج لصحة ما يذهب إليه وهو في توزيعه للمعارف المتنوعة يتعاهد النظم ويرعى حق المعنى واستقامته وهذا أصل في باب التفسير ذكره الزمخشري : " ومن حق التفسير أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها " [6] .

---

(١) السابق ٣٨٢/٣ .

(٢)" الوافي " الصفدي ٢٤٩/٤ .

(٣) نسب الصفدي القول إلى ابن تيمية ". ينظر " الوافي " ٢٥٤/٤ .

(٤) " البحر المحيط " ٢٢/١.

(٥) " الوافي " الصفدي ٢٥٤/٤ .

(٦) الكشاف : ٦٣/٣.

ويبين رعاية الإمام للنظم القرآني وبلاغته إيراد بعض المباحث الكلامية للكشف عن الجانب الباهر في تأليفه وتنظيمه ولا يتسنى الوصول إليه إلا بهذه المباحث نحو تفسيره لقوله تعالى :

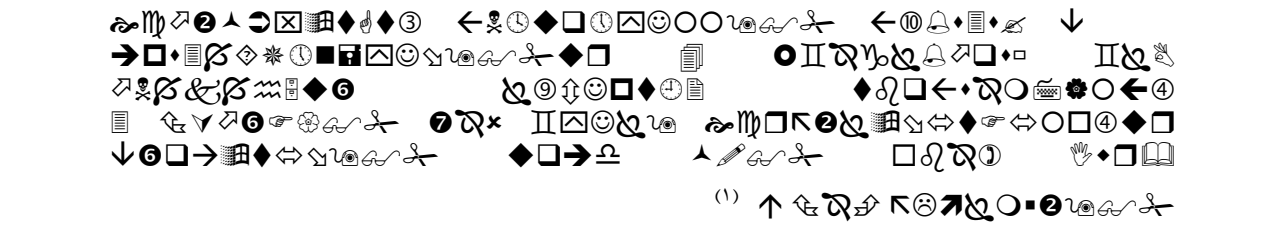

يقول : " واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان : عالم الجسمانيات وأعظمها السموات ، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة ، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيبته في الجسمانيات ، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات ، والدليل عليه أنه تعالى قال في سورة أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات فقال : 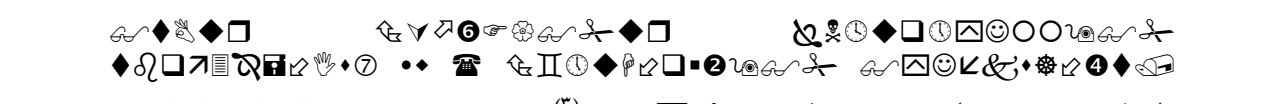 ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات ، فقال : فكذلك القول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات ، فقال : ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات فقال : فهذا ترتيب شريف وبيان باهر.

---

(١) الشورى ، آية : ٥

(٢) النبأ ، آية : ١

(٣) النبأ ، آية : ٣٧ .

(٤) النبأ ، آية : ٣٨ .

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثر لا يقبل الأثر ، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام ، ومتأثر لا يؤثر ، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام ، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول ، ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانية المقدسة،وهو المرتبة / المتوسطة ، إذا عرفت هذا فنقول الجواهر الروحانية لها تعلقان : تعلق بعالم الجلال والكبرياء ، وهو تعلق القبول فإن الجلايا القدسية والأضواء الصمدية إذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها، وأشرقت ماهياتها ، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية ، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات ، وإذا كان كذلك فلها وجهان : وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال ووجه إلى عالم الأجسام والوجه الأول اشرف من الثاني إذا عرفت هذا فنقول .

قوله تعالى : ↓ ④🡐○❁🖮❍←⬧🝢❑♦♌🗎◆❻ 🝪⑨⇳☺◘♦🕘 ♦♌❑←⬧🝢❍🖮❁○🡐④ ↓ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الجلال والكبرياء وقوله : ↓ ❒◆④◘○⇔♦☞⇔○◘④◆❒ ✂🖋❁☞⬀⍲ 🝪⑨☺🝪❷🝪❒⍓♒ ×🝢❼ 🝪☺⍰❒◆④ ↑ إشارة إلى الوجه لهم عالم الأجسام ، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها في جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق ، إذا عرفت هذا فنقول أما الجهة الأولى وهي الجهة العلوية المقدسة ، فقد اشتملت على أمرين : أحدهما : التسبيح ، وثانيهما : التحميد ، لأن قوله ↓ ❒◆✂🖋❁☺⍓■❏⛢❋⛇⬧🗏🡒◘ ④🡐○❁🖮❍←⬧🝢❑♦ 🗎🕘◆❻ 🝪⑨⇳☺◘♦🕘 ↑ يفيد هذين الأمرين ،و التسبيح مقدم على التحميد ، لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي ، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات وكونه منزهاً في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره ، وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره ، فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد ، ولهـــذا قال :⍓ ❒◆✂🖋❁☺⍓■❏⛢❋⛇⬧🗏🡒◘ ④🡐○❁🖮❍←⬧🝢❑♦ 🗎🕘◆❻ 🝪⑨⇳☺◘♦🕘 ↑.

وأما الجهة الثانية : وهي الجهة التي لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات ، فالإشارة إليها بقوله : ↓ ❒◆④◘○⇔♦☞⇔○◘④◆❒ ⍲⬀🖋❁☞ 🝪☺⍰❒◆④❷🝪❒⍓♒ ×🝢❼

✂✍❀☞❻↗↘↑ والمراد منه تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها ، فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة ، ولنرجع إلى ما يليق بعلم التفسير ، فإن قيل كيف يصح أن يستغفروا لمن في الأرض وهم الكفار . " [1]

فتأمل كيف داخلت تلك المباحث نظم الآية وفصلت مجملها ونسبت بعضها إلى بعض، ونبهت على حسن تجاور الجملتين وتلاءم عناصرها وألفت بين ما اختلف ظاهره .

وإذا وقفت على تدرج الإمام في عرض المباحث في قوله " اعلم أن الموجودات.." وربطها بنظم الآية وردّ كل عنصر في الآية إلى نوعه في الأقسام الثلاثة في أصناف الموجودات. أكد بذلك أن الترتيب جار وفق سنن استوجبت تقديم يسبحون بحمد ربهم على "ويستغفرون لمن في الأرض " ووجدت الإمام في كل ذلك لا يخرج عن محيط النظم وإنما يستخرج ما فيه من معان مستودعة في خزائنه وقد ذكر ذلك بقوله : " فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة " .

وجرى الإمام في تفسيره على أصول التفسير ومصادره التي اعتاد العلماء إيرادها ، فتناول الكثير من المباحث اللغوية والنحوية في حدود ما يتعلق بالمعنى دون تجاوزها إلى الخوض والاستطراد في قضايا خلافية لا طائل تحتها فيبدأ بتحديد معنى اللفظة والاستشهاد على ذلك ببعض الشواهد الشعرية نحو قوله في كلمة الصيام : " اعلم أن الصيام مصدر صام كالقيام ، وأصله في اللغة الإمساك عن الشيء ، والترك له ومنه قيل للصمت صوم ؛ لأنه إمساك عن الكلام قال الله تعالى : " إني نذرت للرحمن صوماً " وصام النهار إذا اعتدل ، وقام قائم الظهيرة ، وقال امرؤ القيس :

فدعها وسل الهم عنك بجسرة ذمـــول إذا صـــــام النهار وهجرا

وصامت الريح إذا ركدت ، وصام الفرس إذا قام على غير اعتلاف .

وقال النابغة :

---

(١) " التفسير " ٥٧٨/٩.

خيل صيام وخيل غير صائمـــة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما "[1]

وكذلك كلمة الدابة في قوله تعالى : .[2]

قال منها : " قال الزجاج : الدابة اسم لكل حيوان ؛ لأن الدابة اسم مأخوذ من الدبيب ، وبنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث ، وأطلق على كل حيوان ذي روح ذكراً كان أو أنثى ، إلا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس ، والمراد بهذا اللفظ في هذه الآية الموضوع الأصلي اللغوي فيدخل فيه جميع الحيوانات ، وهذا متفق عليه بين المفسرين " [3] .

ويجعل الإمام الأصل في اللغة القرآن ، فمجيء الكلمة وجريانها في نظم القرآن كاف في إثبات صحتها دون حاجة إلى التكلف والتأويل ، وقد رد بعـض أقوال النحاة لذلك ، كما في قوله تعـــالى : 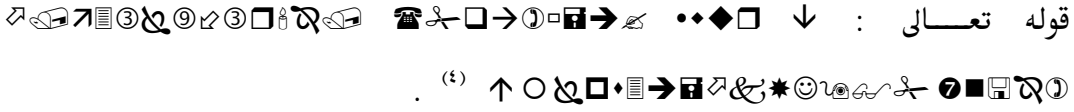 .[4]

" قال أبو عبيدة والزجاج (التهلكة) الهلاك ، يقال : هلك يهلك هلاكاً وهلكاً وتهلكة : قال الخارزنجي : لا أعلم في كلام العرب مصدراً على تفعله بضم العين إلا هذا ، قال أبو علي : قد حكى سيبويه : التنصرة والتسترة ، وقد جاء هذا المثال اسماً غير مصدر ، قال : ولا نعلمه جاء صفة قال صاحب " الكشاف " : ويجوز أن يقال أصله التهلكة كالتجربة والتبصرة على أنها مصدر هكذا فأبدلت الضمة بالكسرة ، كما جاء الجوار في الجوار.

---

(١) " التفسير " ٢٣٩/٢.

(٢) هود ، آية : ٦ .

(٣) " التفسير " ٣١٨/٦ .

(٤) البقرة ، ١٩٥ .

وأقول : إني لأتعجب كثيراً من تكلفات هؤلاء النحويين في أمثال هذه المواضع ، وذلك أنهم لو وجدوا شعراً مجهولاً يشهد لما أرادوه فرحوا به ، واتخذوه حجة قوية ، فورود هذا اللفظ في كلام الله تعالى المشهود له من الموافق والمخالف بالفصاحة ، أولى بأن يدل على صحة هذه اللفظة واستقامتها " [1] .

وفي هذا نقد لمناهج بعض المفسرين والنحاة واحتيالهم على ألفاظ القرآن من أجل أن تستقيم مع ما ثبت عندهم بالسماع ولو كان أصلهم في ذلك شعر مجهول ، وصرح بذلك في دفاعه عن قراءة حمزة بالجر لقوله تعالى : ↓ ❐◆✂❑□✍☎✂❑→◑□✍✂✂➴ [2] ↑ ❐◆✂✿☜❻■◆🕭◆🗐 ↑ [2]

يقول :" والعجيب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين ولا يستحسنوا إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد ، مع إنهما كانا من أكابر علماء السلف في علم القرآن " [3] .

فالإمام لا يأتم في تفسيره باتجاه فئة دون أخرى وإنما يفاتش كل رأي ويناقشه ولا يقرر إلا ما يتلاءم مع إعجاز القرآن ويحفظ له سمو نظمه كما في تفسيره لقوله تعالى : ↓ [4] ↑ ☎ : [4]

" النحويون يقولون كلمة (لو) وضعت للدلالة على انتفاء الشيء لأجل انتفاء غيره فإذا قلت : لو جئتني لأكرمتك ، أفاد أنه ما حصل المجيء وما حصل الإكرام . ومن / الفقهاء من قال : إنه لا يفيد إلا الاستلزام فأما الانتفاء لأجل انتفاء الغير ، فلا يفيد هذا اللفظ والدليل عليه الآية والخبر ، أما الآية فهي هذه الآية ، وتقريره : أن كلمة (لو) لو أفادت ما ذكروه لكان قوله : ↓

---

(١)" التفسير " ٢٩٤/٢ .

(٢) البقرة ، آية : ١٩٥ .

(٣) النساء ، آية : ١ .

(٤) " التفسير " ٤٨٠/٣ .

⌘🖂❷⬀❸☪✂ ❀☺⇦☙Ⅱ🖂➔🖂☺⇦☙Ⅱ❀ ✂☪❸⬀❷🖂⌘ ☎ ↑ يقتضي أنه تعالى ما علم فيهم خيراً وما أسمعهم ، ثم قال : (ولو أسمعهم لتولوا) فيكون ، معناه : أنه ما أسمعهم وأنهم ما تولوا لكن عدم التولي خير من الخيرات ، فأول الكلام يقتضي نفي الخير ، وآخره يقتضي حصول الخير ، وذلك متناقض ، فثبت أن القول بأن كلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره يوجب هذا التناقض ، فوجب أن لا يصار إليه . وأما الخبر فقوله عليه السلام : نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه " فلو كانت لفظة " لو " تفيد ما ذكروه لصار المعنى أنه خاف الله وعصاه ، وذلك متناقض . فثبت أن كلمة (لو) لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، وإنما تفيد مجرد الاستلزام .

واعلم أن هذا الدليل أحسن إلا أنه على خلاف قول جمهور الأدباء " [1] .

وكذلك رده لكل تأويل بغير ما جاء به لفظ القرآن ويرى أن الأولى حمل كلام الله على أصله كما في تأويل قوله تعالى : ↓ 🕮❒🖙⬀ ⬀☙←●❍▭ ☙←🖬✵⚐🖉 ④☐❍🖙☺➔🖙↖❑♌♦ ▫❍⑩🖙▫ ☎ ▫🖬❶◆▫🕯▫☙←ⵖ⇦○♦☺➔↖❑♌ ⬀☙←ⵖ⇦○↖✎ ↑ [2] فـ " السلم لا يستمع فيه وإنما يستمع عليه ، فما الجواب ؟ نقول من وجهين : أحدهما : ما ذكره الزمخشري أن المراد " يستمعون صاعدين فيه ، وثانيهما : ما ذكره الواحدي أن في معنى على ، كما في قوله تعالى: (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل . وكلاهما ضعيف لما فيه من الإضمار والتغيير " [3] .

فالرازي يرى أنه لا حاجة للتغيير أو الإضمار ليستقيم المعنى مع في وإنما تعليق الآية برأس الغرض الذي سيقت له يكشف عن المراد ، فهي تتميم لقوله " أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون " : " فإن من لا يكون خازناً ولا كاتباً قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن

---

(١) الأنفال ، آية : ٢٣ .

(٢) الطور ، آية : ٣٨ .

(٣) " التفسير " ، ٢١٨/١٠ .

أو الكاتب ، فقال أنتم لستم بخزنة ولا كتبه ، ولا اجتمعتم بهم ؛ لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم " [1] .

فاختيار الظرف محض لحمل النفي على الصعود وليس للاستماع وجعله قرينة مرجحة لذلك .

ويظهر ذلك بجلاء في رده كلام ابن جني في اعتبار العرب بالمعاني وتعويلهم عليها واستدلاله على ذلك بأحوال بعض القراءات يقول : " قال ابن جني ، وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتبرون المعاني ، فإذا وجدوهم لم يلتفتوا إلى الألفاظ ونظيره ما روى أن أبا سوار الغنوي كان يقرأ : (فحاسوا خلال الديار) بالحاء غير المعجمة ، فقيل له : إنما هو جاسوا ، فقال : حاسوا وجاسوا واحد . وأنا / أقول : يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك تفسيراً للفظ القرآن لا على أنه جعله نفس القرآن ، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جني لارتفع الاعتماد عن ألفاظ القرآن ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقاً لذلك المعنى ، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد وربما أخطأ وهذا يجر إلى الطعن في القرآن، فثبت أنه حمل ذلك على ما ذكرناه " [2] .

فالأصل في دراسة القرآن ألفاظه ونظمه لأنها مناط الإعجاز فتحت كل كلمة فوائد تقصر عنها همم البشر وتفوق مننهم ، فكان هاجس الإمام التدقيق فيما تكتنزه الألفاظ من خصوصيات يستحيل معها التبديل والتغيير ولو دل غيرها على ظاهر المراد ، يقول في قوله تعالى : ↓ ❐♦⬩◆⬧❑⍓✆⧫ ◻⬚♑⌨ ✌♓⚲☺●◎ ③♦✋♦②⌺❷☐❸🡐❐♍☙ 🕀⛕☞⬀ ❐◆▭○◆⬂⚐☞ ⬘❷⬀❸⦿⍉ ✌♓⚲☺●◎ ④☐⌖⇑☺♦⚲⬋❑♌♦ 🕀⛕⬀☞ ↑ [3] . ☐

" هل في تخصيص التخيير بالفاكهة والاشتهاء باللحم بلاغة؟ وفصاحة، وإن كان لا يحيط بها ذهني الكليل ، ولا يصل إليها علمي القليل ، والذي يظهر لي فيه أن اللحم

---

(١) السابق ، نفسه .

(٢) السابق ، ١٠/٦٨٦ .

(٣) الواقعة ، الآيات ٢٠–٢١ .

والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم ، وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة ، والجائع مشته والشبعان غير مشته ، وإنما هو مختار إن أراد أكل ، وإن لم يرد لا يأكل ، ولا يقال في الجائع إن اراد أكل لأن أن لا تدخل إلا على المشكوك ، إذا علم هذا ثبت أن في الدنيا اللحم عند المشتهي مختار والفاكهة عند غير المشتهي مختارة وحكاية الجنة على ما يفهم في الدنيا فحص اللحم بالاشتهاء والفاكهة بالاختيار ، والتحقيق فيه من حيث اللفظ أن الاختيار هو أخذ الخير من أمرين والأمران اللذان يقع فيهما الاختيار في الظاهر لا يكون للمختار أو لا ميل إلى أحدهما ، ثم يتفكر ويتروى ويأخذ ما يغلبه النظر على الآخر فالتفكه هو ما يكون عند عدم الحاجة ، وأما إن اشتهى واحد فاكهة بعينها فاستحضرها وأكلها فهو ليس بمتفكه وإنما هو دافع حاجة ، وأما فواكه الجنة تكون أولاً عند أصحاب الجنة من غير سبق ميل منهم إليها ثم يتفكهون بها على حسب اختيارهم ، وأما اللحم فتميل أنفسهم إليه أدنى ميل فيحضر عندهم ، وميل النفس إلى المأكول شهوة ، ويدل على هذا قوله تعالى : (قطوفها دانية) وقوله : (وجنى الجنتين دان) وقوله تعالى : (وفاكهة كثيرة . لامقطوعة ولا ممنوعة) فهو دليل على أنها دائمة الحضور وأما اللحم فالمروي أن الطائر يطير فتميل نفس المؤمن إلى لحمه فينزل مشوياً ومقلياً على حسب ما يشتهيه فالحاصل أن الفاكهة تحضر عندهم فيتخير المؤمن بعد الحضور واللحم يطلبه المؤمن وتميل نفسه إليه أدنى ميل ، وذلك لأن الفاكهة تلذ الأعين بحضورها ، واللحم لاتلذ الأعين بحضوره ،ثم إن في اللفظ لطيفة ، وهي أنه تعالى قال : (مما يتخيرون) ولم يقل : مما يختارون مع قرب أحدهما إلى الآخر في المعنى ، وهو أن التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال ، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ولا اضطرار " [1] .

فرد بلاغة الاختيار إلى مداخلة اللفظ للنفوس ونوازعها تجاه تلك الاحتياجات واستدل بها على حال المؤمن مع الطيبات في الآخرة فالحضور الذي لا ينقطع للفاكهة ناسبه المبالغة في الاختيار والتكلف فيه ، فكأنهم يأخذون ما بلغ نهاية الكمال واستلزم ذلك انتفاء الحاجة ، أما اللحم فالمؤمن يطلبه وتميل إليه نفسه فخصص بلفظ الاشتهاء ،و نبه ذلك التخصيص

---

(١) " التفسير " : ٣٩٦/٦ .

على كمال الجنة لأنه لما كانت الفاكهة مما يستلذ الإنسان بها ويأنس بمرأها ناسبها ديمومة الحضور ولما كان اللحم بخلاف ذلك ناسبه الطلب .

فالإمام كلف بتحليل كل لفظ في القرآن والوقوف على أسراره وأحواله في الإبانة، لذلك تفرد تفسيره بلمحات بلاغية ولطائف هي من الفرائد التي اختص بها كتابه ، فهناك ألفاظ لم يقف عندها المفسرون وتجاوزتها أنظارهم ظناً أنها من قبيل المفسر ، فتناولها الرازي وفتح أسرارها وبعث نكاتها ، ولو توافرت بعض أقلام الباحثين للعناية بتلك الألفاظ التي تركها المفسرون قبله وبين موقف الإمام منها وكيف استخرج ودائعها وفسر مضمرها لكان فيه خير كثير . ومن شواهد ذلك قوله : " فإن قيل : ما الفائدة في تقديم السماء على الفعل حيث قال : (والسماء رفعها) وتقديم الفعل على الميزان حيث قال : (ووضع الميزان) نقول : قد ذكرنا مراراً أن في كل كلمة من كلمات الله فوائد لا يحيط بها علم البشر إلا ما ظهر والظاهر ههنا أنه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا وكان بعضها أشد اختصاصاً بالإنسان من بعض فماكان شديد الاختصاص بالإنسان قدم فيه الفعل ، كما بينا أن الإنسان يقول : أعطيتك الألوف وحصلت لك العشرات ، فلا يصرح في القليل بإسناد الفعل إلى نفسه ،و كذلك يقول : في النعم المختصة ، أعطيتك كذا ، وفي التشريك وصل إليك مما اقتسمتم بينكم كذا ، فيصرح بالإعطاء عند الاختصاص ، ولا يستدل الفعل إلى نفسه عند التشريك ، فكذلك ههنا ذكر أموراً أربعة بتقديم الفعل ، قال تعالى : (علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان) ، و (وضع الميزان) ، وأمور أربعة بتقديم الاسم ، قال تعالى: (والشمس والقمر .... والنجم والشجر .. والسماء رفعها ... والأرض وضعها) لما أن تعليم القرآن نفعه إلى الإنسان أعود ، وخلق الإنسان مختص به ، وتعليمه البيان كذلك ووضع الميزان، كذلك لأنهم هم المنتفعون به الملائكة ، ولا غير الإنسان من الحيوانات وأما الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والأرض فينتفع به كل حيوان على وجه الأرض وتحت السماء " [1] .

---

(١) " التفسير " ٣٤٤/١٠ .

وكذلك دلالة التنكير في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [1] قال فيها :

" فإن قيل : لم نكر القتال في قوله تعالى (قتال فيه) ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول ، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول كما في قوله تعالى : (إن مع العسر يسراً) .

قلنا : نعم ما ذكرتم أن اللفظ إذا تكرر وكان نكرتين كان المراد بالثاني إذن غير الأول والقوم أرادوا بقولهم (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبد الله بن جحش فقال تعالى : (قل قتال فيه كبير) وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبيراً ليس هو هذا القتال الذي سألتم عنه ، بل هو قتال آخر لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة إلا أنه تعالى ما صرح بهذا الكلام لئلا تضيق قلوبهم بل أبهم الكلام بحيث يكون ظاهره كالموهم لما أرادوه وباطنه يكون موافقاً للحق ، وهذا إنما حصل بأن ذكر هذين اللفظين على سبيل التنكير ، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة ، فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب سر لطيف لا يهتدي إليه إلا أولوا الألباب " [2] .

وأيضاً ما ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [3] وأنها تتضمن إشارة إلى جميع الأشجار ؛ لأن " البليغ يذكر طرفي أمرين ، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما ، كما يقال : فلان ملك الشرق والغرب ، ويفهم منه أنه ملكهما وملك ما بينهما ... فقوله

---

(١) البقرة ، آية : ٢١٧ .

(٢) " التفسير " ٣٨٨/٢ .

(٣) الواقعة ، آية : ٢٨ ، ٢٩ .

تعالى (في سدر مخضود وطلح منضود) إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار ، وإلى ما يكون ورقة في غاية الكبر منها، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها .. فوقعت الإشارة إليهما جامعة لسائر الأشجار ، وهذا جواب فائق وفقنا الله تعالى له " [1] .

ووظف فروعاً معرفية أخرى تكشف بيانه وتطلع الناظر على غيبه فاقتفى بها الإمام أثار الإعجاز الكامن وراء لغة القرآن وكيف صهرت علوماً متنوعة ومعارف شتى في ألفاظ معدودة ويتأكد ذلك بما رواه " أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الأبهري ، فقال بعض الفقهاء يوماً : ما الذي تقرؤونه فقال : أفسر آية من القرآن ، وهي قوله : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) فأنا أفسر بها كيفية بنيانها ، ولقد صدق الأبهري فيما قال فإن كل من كان أكثر توغلاً في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علماً بجلال الله تعالى وعظمته " [2] .

فعلوم الطبيعة آلات تتيح للمفسر التأمل والوصول إلى الغرض من عرض آيات الأفاق وإدراك ما انطوى فيها من دلائل الألوهية وتفصيلها بتلك العلوم ، لذلك عنون لتفسيره بـ " مفتاح الغيب " ؛ " لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلال والأقفال، فالعالم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها في فتح تلك الأغلاق يمكنه أن يتوصل بتلك المفاتيح إلى ما في تلك الخزائن"[3]. فالقرآن خزائن تلك العلوم وفتحها لا يكون إلا بامتلاك تلك العلوم وتحصيلها ؛ لذلك أضاف الإمام إلى جهود السابقين صنفاً آخر من المعرفة ليكتمل فهم القرآن وتصور مقاصده .

ولم يقتصر على ما شاع عند المفسرين من حصر أدواته في علوم العربية والقراءات والناسخ والمنسوخ وعلم أسباب النزول والمكي والمدني والفقه وأصوله ، وقد نسب له الشاطبي

---

(١) " التفسير " ٤٠٤/١٠ .

(٢) السابق ، ١٥٤/٢ .

(٣) السابق : ١٠/٥ .

ذلك المنهج وجعله مبتدعاً له يقول : " وأما غير ذلك [1] فقد يعده بعض الناس وسيلة أيضاً ولا يكون كذلك ، كما تقدم في حكاية الرازي الذي جعل علم الهيئة وسيلة إلى فهم قوله (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) " [2] .

وعاب عليه ذلك لأنه فيما هو ظاهر في الموجودات وهذا مما تجنبه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وعدوه من التكلف لظهوره ولأنه لا ينبني عليه عمل ولا يترتب عليه تكليف [3] . وتبعه صاحب المنار وعد تلك الإضافة " صارفاً آخر عن القرآن " [4] .

ويرد ما ذهبوا إليه حاجة عصره الذي كثر فيه الجدل العقلي بين الملل والنحل المختلفة وأصحاب الفرق الضالة من الكرامية والجبرية والقدرية والمجسمة وغيرها فتصدى لمذاهبهم وقارعهم بآيات القرآن وبراهين العقل وفند شبهاتهم وزيف أقوالهم .

وقد ذكر ابن عاشور أن شيوع النزعة العقلية والجدلية في تفسير الرازي منشأوها حاجة علوم الدين لمعاضدة الفلسفة في عصر شاعت فيه الفلسفة العقلية وتقلدت زمام السيطرة كثير من الاتجاهات المعرفية المختلفة ، مما حدا بالإمام إلى الاستعانة بها لخدمة علوم الدين ، فهيأ ذلك لأن تصل الحكمة على يده شأواً بعيداً [5] .

وفتح هذا الباب كلام بعض الأئمة حيث نبهوا إلى أن كل علم أصله في القرآن ، ومنتزع من تحت نظمه قال عبد الله بن مسعود " من أراد العلم فليثور القرآن ، فإن فيه علم الأولين ، والآخرين . رواه البيهقي وأراد به أصول العلم " [6] .

فكلمة ابن مسعود – رضي الله عنه – منحت العلوم المتنوعة الشرعية لدخول حقل التفسير ، وردت زعم من جعل المنهج الحق فيه هو دراسته باعتباره نزل للوعظ والإرشاد وإن

---

(١) أي العلوم الآنفة الذكر .

(٢) " الموافقات " ، ١٩٨/٤ .

(٣) ينظر : السابق ٥٥/١ .

(٤) " المنار " محمد رشيد رضا، ٧/١ .

(٥) ينظر : " التفسير ورجاله " : ٦٦-٧١ .

(٦) " البرهان " الزركشي ٢٨/١ .

مقصده الهداية [1] . فالهداية وإن كانت مداره إلا أن الأصل في الإنزال التحدي وإثبات العجز للناس كافة عن الإتيان بمثله ، وذلك لا يأتي العلم به إلا بأمر زائد عن الظاهر لأن أمر الإعجاز مستكن في باطنه . ونبه على ذلك بقوله : " فليثور القرآن " فلف في بنائها معاناة المفسر في إستلال ما تحت بلاغته من علوم ومعارف .

فالتفسير الكبير محاولة للبرهنة على صحة ما ذهب إليه العلماء والرجوع بالعلوم إلى أصولها ومنابعها في البيان القرآني والتأصيل له بذلك مع تصحيح مسارها بعرض براهينها وقواعدها وضبطها على ما استقر في القرآن وهذا لا يتصادم مع الأصل الذي نزل له القرآن بل إن أعظم علومه العلم بأنه " نزل لدفع شبه الظالمين وإبطال عناد المعاندين ، وإثبات البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية . وهذا الفن لا يدركه إلا العلماء المستبصرون الذين منَّ الله عليهم بإدراك مغازي كتابه " [2] . وقد أكد ابن تيمية سلامة منهجه وأنه لم يستقر على ضلالة ، ويتمنى لو أن الرازي " قد جمع ما تبرهن له في العقل الصريح من كلام شتى الفرق لوجد أن كل صريح المعقول مطابقاً لصحيح المنقول " [3] .

وقد كان منه ذلك حيث ذكر في وصيته إن تآليفه كانت اختباراً للطرق الكلامية والخلوص منها إلى تأكيد مسلمة أثبتها بقوله : " ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن " [4] .

" وقد بنى ابن تيمية على تلك الفائدة كتابه "درء تعارض العقل مع النقل " فوضع علماً للمنطق يستمد أصوله وقوانينه من براهين القرآن وطرائقه في الاحتجاج فأدخل وهج القرآن ونوره على ظلمات الفلسفة فاهتدت قوانينها وأسلمت أصولها وفروعها ، ونال بفضل تأليفه

---

(١) ينظر " المنار " محمد رشيد رضا ، ١/٦-٧ .

(٢) من درس للشيخ صالح المغامسي بعنوان : " من أعظم علوم القرآن " . وينظر في ذلك أيضاً : " بلاغة القرآن " محمد الخضر حسين، ٢٥ .

(٣) " شرح حديث النزول " ، ١٧٥ .

(٤)" طبقات الشافعية " ابن كثير ٢/٧٢٠ .

خيرية رد علوم الدين إلى القرآن وجمعها عليه وتصفيتها من كل أثر للثقافات الدخيلة حتى قيل عنه " كان أول من أسلمت علوم الدين على يديه " .

ويرد ما ذكروه من ذكره لأشياء ظاهرة في الوجود ؛ فلأن التنبيه على الظواهر ولفت الأنظار إليها زيادة تذكير وتعليم فالأذهان قد تنصرف عنها ولا تجد فيها مستمسكاً لإلفها فإذا ما صيغت صياغة علمية واتخذت أداة لتقرير معان يكاد يكون أكثرها من المهمات كانت أفضل وسيلة ، لأن النفس إذا أورد عليها ما تنكره بما تألفه زالت تلك الوحشة وهيأت النفس لمكاشفتها وتأملها لأنها وجوده الذي يلابسه . فكان الإمام " يريد أن يفسر القرآن الكريم بالوجود كله بما فيه من علوم ومعارف وتأملات شخصية " [1] .

واستحسن كثير من المفسرين ذلك المنهج فكان إماماً لا تحيد عنه الأنظار في تفسير الآيات الكونية ، فهذا البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة ، قال عنه صاحب كشف الظنون :" وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن غني عن البيان ، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالأعراب والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام " [2] .

---

(١) الرازي مفسراً محسن عبد الحميد: ص٦٧ .

(٢) " كشف الظنون " : ١٢٧/١ .

المبحث الثاني : النظم والتناسب بين الجملة والنص .

اتخذ القرآن مكان الصدارة في الدراسات البيانية باعتباره النمط الأعلى الذي قهر الأطماع في الوصول إلى مثله وسره والاحاطة ببلاغته وامتلاك غوره ، وظلت الأقلام تجاذب نكاته وأسراره ، وتستثير خباياه ، وتستكشف مناطق الإعجاز فيه ، فتظفر بها حيناً فتجليها ، وتحار فيها أحياناً فتدل عليها وتومي إليها فحظي بدراسات متعددة لأسلوبه وطرائقه في تصريف المعاني ، وتنوع أفانينه مما كان عاملاً في نشأة الكثير من المباحث البلاغية والنقدية ومن أبين ما استوقف العلماء حسن النسق في ترتيب معانيه وانتظام عناصرها ، وتنوع رسوم التأليف بين مصادرها ومواردها ، واطراد هذا النسق في جميع القرآن على تصرفه في المعاني ، وانتقالاته في الفنون والأغراض ، فيخلص من الاحتجاج إلى الوعيد ، ومن الأعذار إلى الإنذار ، ومن القصص إلى أدلة التوحيد وبراهينه ، ثم تجد هذه المعاني المختلفة مؤتلفة ومتمكنة في موقعها أحسن تمكن حتى لا يصلح غيرها مما هو من جنسها موقعها .

وقد عول الباقلاني كثيراً على جانب الضم والترتيب في القرآن وجعله مناط الإعجاز ، فتأمل قوله : " أنظر في آية آية ، وكلمة كلمة : هل تجدها كما وصفنا : من عجيب النظم ، وبديع الرصف ، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها ،وضامتها ذواتها مما تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها ؟ ....

فأجل الرأي في سورة سورة ، وآية آية ، وفاصلة فاصلة ، وتدبر الخواتم والفواتح ، والبوادي والمقاطع ، ومواضع الفصل والواصل ، ومواضع التنقل والتحول " [1].

وكلام الباقلاني نظر في ترتيب المعاني ، وبناء بعضها على بعض ، وتدبر في الفواتح والمقاطع والمعاقد .

وتتزايد البلاغة وتبلغ شأواً تعجز الأنظار عن الإحاطة به حين يمتد هذاالتناسق العجيب ليحيط بأودية مترامية من المعاني المختلفة والمتباينة فيصيرها عجيب النظم بياناً متشابهاً متكاملاً متآلفاً لاختلاف فيه ، يقول في ذلك : " وأنظر بعين عقلك ، وراجع جلية بصيرتك ،

---

(١) " إعجاز القرآن ، ١٩٠ – ١٩٣ .

إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك ، وعرضناه عليك ، ثم فيما ينتظم من الكلمات ، ثم إلى أن يتكامل فصلاً وقصة أو يتم حديثاً وسورة .

لا ، بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب وتدبره على نحو هذا التنزيل ، فلم ندع ما أدعيناه لبعضه ، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله " [1].

وهذا يعني أن الباقلاني يرى أننا لا نهتدي إلى ما يشير إليه إلا بشحذ العقل واستنفاره ،لان إعمال العقل بأقصى طاقاته هو الأداة التي بها تقام البحوث ، وتمهد لها الطرق .

وقد دارت دراسات البلاغيين في نطاق الجملة وما تحدثه خصوصيات الإسناد والانتظام من أسرار ومعان من خلال نظرية النظم عند عبد القاهر التي هي ملاحظة مواقع الإسناد والعلاقات القائمة بين الألفاظ داخل النسق التركيبي ، وما بينهما من الاتساق العجيب [2]،ثم الانتقال من التناسب في موضع الكلمة إلى موقع الجملة من الجملة من خلال باب الفصل والوصل والنظر في كيف تهيء الجملة لما بعدها .

وبقى ضرب آخر من الإعجاز أبعد غوراً وألطف مسلكاً نبهت إليه أقلام العلماء ودلت عليه ، ولكن لصعوبة مداخله ظل غائباً في دراسات الإعجاز لم تقدحه أقلام البلاغيين حتى جاء الرازي فوقف على دراسة الإعجاز في الجملة ، وامتد بأصول العلاقات بين الجملة والجملة إلى دراسة علاقات الترتيب وأسرار الانتظام في السورة وبناء ثانيها على أولها وثالثها على ثانيها في محاولة لضبط معاقد المعاني في السورة وإن لها بدءاً ووسطاً ونهاية ، وملاحظة توزيع المعاني على هذه النسق فوضع بذلك أصول "علم المناسه " الذي أنتقل فيما بعد إلى حقل الدراسات القرآنية أعني من حقل التفسير إلى حقل علوم القرآن .

وقد نبه الرازي إلى أن " أكثر أسرار القرآن مودعه في الترتيب " [3]، فعمل على تجلية غموضه هذه الأسرار ، وبعث خباياها من خلال إجرائها في القرآن ، فتكاثرت أمامه الفوائد

---

(١) " إعجاز القرآن " ص٢٠٢.

(٢) " دلائل الإعجاز " ص ٩٥ .

(٣) التفسير ، ١ ص ١٨ .

وتنوعت حتى كونت بياناً مستقلاً جعله مناط الإعجاز ، يقول في ذلك : " ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه ، وشرف معانيه فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك " [1].وهذا نص نفيس جداً يفتح أمام الباحث بابا من أبواب العلم فهذا النص يشير ألى بابين من أبواب الإعجاز :

١- إعجاز القرآن بحسب ما في الجملة من خصوصيات راجعة للتصرف في عناصر اللغة وتركيبها وهو ما يسمى بالنظم .

٢- إعجاز بحسب ترتيب معاني الآيات وبيان مراتب الجمل باعتبار علاقتها بالمقاصد الكلية [2].

فالنظم ترتيب تعتبر فيها خصوصية محددة وهي التوخي لعلاقات النحو .

وأما التناسب فليس له حد يحصره ويحيط بأنواعه وإنما هو ملاحظة لمقتضيات ترتيب الكلام ، وعلل تنزيل كل كلمة أو جملة أو مقطع مكانه وموجبات أن قدم هذا وأخر غيره ، واعتبار معاني النحو إن كان مطلباً أساسياً لتصور المعاني إلا أن هناك مواقع اعتباره والأخذ به يختزل بعض تفريعات المعنى وجهاته ويضيق الدلالة نحو ما ذكرها الأمام في حكاية قول شعيب عليه السلام " لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد "[3] يقول : " فإن قيل : ما الوجه ههنا في عطف الفعل على الاسم ؟

قلنا : قال صاحب " الكشاف " : قرئ أو آوى بالنصب بإضمار أن ، كأنه قيل لو أن لي بكم قوة أو آويا .

وأعلم أن قوله : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ لابد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة ، وفيه وجوه : الأول : المراد بقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ

---

(١) " التفسير الكبير" ١٠٦/٣.

(٢) " دلالات التراكيب " ، ينظر ص ٨-٩ .

(٣) هود ٨٠ .

لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ كونه بنفسه قادراً على الدفع وكونه متمكناً إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم ، والمراد بقوله : ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن يحصن ليأمن من شرهم بواسطته . الثالث : أنه لما شهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ، ثم استدرك على نفسه وقال : بلى الأولى أن آوى إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى ، وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به ، وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم ، ولذلك قال النبي عليه السلام : " رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد "[1] .

وصرح في موضع آخر أن الروابط والعناصر اللفظية لا توجب ترتيباً في كل موضع ، وإنما هناك وجوه أخرى ومراتب معتبرة تتنزل وفقها المعاني فيحسن معها التوالي ووقوع بعضها في أثر بعض كما في قوله تعالى ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [2].

حيث ذكر " أن حرف الواو لا يوجب الترتيب ، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية فإن حرف الواو حاصل ههنا مع أنه لا يفيد الترتيب ألبتة ،لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان وأقول عندي فيه وجه من وجوه الترتيب ، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل .

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك والسلطان والقدرة ، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً .

والمرتبة الثانية : البلاء الشديد والمحنة العظيمة ، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية .

---

(١) " التفسير " ، ٦ / ٢٨

(٢) الأنعام آية ٨٤.

المرتبة الثالثة : من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين و وهو يوسف عليه السلام ، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر ، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر .

والمرتبة الرابعة : من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام ، وذلك كان في حق موسى وهرون .

والمرتبة الخامسة : الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ، وترك مخالطة الخلق ، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين .

والمرتبة السادسة : الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع ، وهم إسماعيل ، واليسع ، ويونس ولوط . فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذي شرحناه " [1].

ويتجاوز تصحيح العلاقة ببيان علل تنظيم الألفاظ ومنازل بعضها من بعض إلى ما وراء ذلك من حسن الدلالة وتمامها كما في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [2].

يقول : " ثلاثة أشياء ذكرهما على ترتيب في غاية الحسن ،وذلك لأن الكتاب السماوي ينزل أولاً ، ثم أنه حصل في عقل النبي فهم ذلك الكتاب وإليه الإشارة بالحكم ، فإن أهل اللغة والتفسير اتفقوا على أن هذا الحكم هو العلم ، قال تعالى : " واتيناه الحكم صبياً " يعني العلم والفهم ، ثم إذا حصل فهم الكتاب حينئذ يبلغ ذلك إلى الخلق وهو النبوة فما أحسن هذا الترتيب " [3].

---

(١) " التفسير " الرازي ٥٢/٥ – ٥٣ .

(٢) آل عمران ٧٩ .

(٣) " التفسير " ٢٧١/٣ .

وتنسيق الصفات وتواليها فإذا زحزحت صفة عن مكانها أختل المعنى وانحل المقصد والغرض خلف ذلك التنظيم كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

فالآيتان توزعت فيها الأوصاف " ثم إنه ذكر الأوصاف التي بها يستحق الإله أن يؤمن به ويعبد فأولها : العزيز وهو القادر الذي لا يغلب ،والقاهر الذي لا يدفع ، وبالجملة فهو إشارة إلى القدرة التامة وثانيها : الحميد وهو الذي يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين إن كان بعض الأشياء لا يحمده بلسانه فنفسه شاهدة على أن المحمود في الحقيقة هو هو ، كما قال ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (٤٤) سورة الإسراء وذلك إشارة إلى العلم لأن من لا يكون عالماً بعواقب الأشياء لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة ، فالحميد يدل على العلم التام من هذا الوجه وثالثها : الذي له ملك السموات والأرض وهو مالكها والقيم بهما ولو شاء لأفناهما ،وهو إشارة إلى الملك التام وإنما أخر هذه الصفة عن الأولين لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة والعلم ، فثبت أن من كان موصوفاً بهذه الصفات كان هو المستحق للإيمان به وغيره لا يستحق ذلك ألبتة ، فكيف حكم أولئك الكفار الجهال يكون مثل هذا الإيمان فيها [1]، فتمكن الوصف " الذي له ملك السموات والأرض " بعول فيه على الصفات السابقة له فثبوت القدرة والعلم يهيء لتقدير الملك التام ، فيتعين استحقاقه للإيمان به ونفي ذلك عن غيره .

وهذه العلل معتبرة أيضاً في تنسيق الجمل داخل الآيات كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) سورة يوسف [2].

---

(١) "التفسير" الرازي ١١/ ١١٢.

(٢) يوسف آية ٢٣ .

هذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة ، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد ، فالعقل يقتضي تركها والاحتزاز عنها فقوله﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ إشارة إليه ، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجه الترتيب [1].

وآية الكرسي يدير جملها على لفظيتين هما : "الحي " "والقيوم" ويفرع ما بعدها عليها ويجعلها داخل تحت لوازمها يقول : " فإن الحي هو الدراك الفعال ، فيقول له الحي " دل على كونه عالماً قادراً ، وبقوله القيوم " دل على كونه قائماً بذاته ومقوماً لكل ما عداه ،ومن هذين الأصلين تنشعب جميع المسائل المعتبرة في علم التوحيد .... ثم إنه تعالى لما بين إنه حي قيوم أكد ذلك بقوله ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ والمعنى : أنه لا يغفل عن تدبير الخلق ... كالتأكيد لبيان كونه تعالى قائماً ، ثم إنه تعالى لما بين كونه قيوماً بمعنى كونه قائماً بذاته مقوماً لغيره رتب عليه حكماً وهو قوله ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ لأنه لما كان كل ما سواه إنما تقومت ما هيته ، وإنما يحصل وجوده بتقويمه وتكوينه وتخليقه لزم أن يكون كل ما سواه ملكاً له ومالكاً له وهو المراد من قوله ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾، ثم لما ثبت أن حكمه في الكل جار وليس لغيره من شيء من الأشياء حكم إلا بإذنه وأمره ،وهو المراد بقول﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾بين أيضاً أنه يلزم من كونه عالماً بالكل وكون غيره غير عالم بالكل ، أن لا يكون لغيره في ملكه تصرف بوجه من الوجوه إلا بإذنه وهو قوله ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وهو إشارة إلى كونه سبحانه

---

(١) " التفسير " الرازي ٦ / ٤٣٩ .

عالماً بالكل ثم قال : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾وهو إشارة إلى كون غيره غير عالم بجميع المعلومات ، ثم أنه لما بين كمال ملكه وحكمه في السموات وفي الأرض بين أن ملكه فيما وراء السموات والأرض أعظم وأجل وأن ذلك مما لا تصل إليه أوهام المتوهمين ... فقال ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ ثم بين أن نفاذ حكمه وملكه في الكل على نعت واحد ، وصورة واحدة فقال ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ ثم لما بين كونه قيوماً بمعنى قائماً بنفسه وذاته ، منزها عن الاحتياج إلى غيره في أمر من الأمور .... فقال ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾فالمراد منه العلو والعظمة ، بمعنى أنه لا يحتاج إلى غيره في أمر من الأمور ... إشارة إلى ما بدأ به في الآية من كونه قيوماً بمعنى كونه قائماً بذاته مقوماً لغيره "[1] .

وكأني بالرازي يستدرك على الشيخ عبد القاهر تعليقه صحة انتظام الكلام وترتيبه بوجوه النحو حيث جعله خصوصية تحدث بسبب من علم النحو في قوله " وكذلك السبيل في كل شيء له مدخل في صحة تعلق الكلام بعضها ببعض ، لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من معانيه ،ثم إنا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب " [2].

فنبه على ضروب أخرى يقع بها التعليق بين الكلام وتوجب ترتيباً مما يؤكد أن وجوه الترتيب وصوره متكاثرة ليس مناطها علم النحو فحسب ، بل هناك اعتبارات عقلية تنتظم بها العبارة ويحسن بناؤها ولا مجرى فيها لعلم النحو .

وصنيع الرازي وإضافته هداه إليها استقصاء التأمل لما أودعه عبدالقاهر في كتابه فرأى أن من الديانة أن يوضح حقيقة أخرى غابت عن قلم شيخه فقرر علمه ثم أضاف إليه طريقاً أخر للوقوف على إعجاز القرآن وشق الحجب عن ضميره وهو الترتيب باعتبار التناسب ومواقع المعاني بعضها من بعض وبعضها في بعض ، وهذا نظير النظم الذي يعول فيه على علم النحو ، فكان تلميذا باراً بعلم شيخه حينما تتبع الحق في علم عبد القاهر وأخذ به ثم رأى

---

(١) " التفسير " الرازي ٣/ ٦ – ٧ – ٨ .

(٢)" دلائل الإعجاز " عبد القاهر " ص ٨ .

مهيعاً واضحاً فأومأ إليه ودل عليه ، فحفظ بذلك وصيته التي خطها في الدلائل : " فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه ، ويستقصى التأمل لما أودعناه ، فإن علم أنه الطريق إلى البيان ، والكشف عن الحجة والبرهان ، تبع الحق وأخذ به و وإن رأى له طريقاً غيره أو ما لنا إليه و ودلنا عليه ،وهيهات ذلك " [1].

فنظرية النظم لفت في ثناياها باب المناسبات وطوته في إحشائها فتداخل مع أصولها حتى ظن أنه منها فأختلط مع الضرب الذي يتحد في الوضع ويدق في الصنع الذي ذكره عبد القاهر في قوله " وأعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويغمض المسلك ، في توخي المعاني التي عرفت : أن تتحد إجزاء الكلام ويدخل بعضه في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحداً ،وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك " [2].

فالنص يبين إحساس الشيخ بقصور علم النحو عن استيعاب جميع ضروب التعليق وأبان عن هذا الهاجس قوله : " ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت " .

أي أن معاني النحو تتبعها ورعايتها في هذا النوع من النظم تغمض وتدق وتتداخل مع تصاريف في الكلام يصعب معها أن يناط حكم انتظام الكلام وتناسقه بها دون غيرها وذكر أنواعاً لذلك ، فلما جاء الرازي في تلخيصه للدلائل صنف شواهد عبد القاهر في ثلاثة أنواع وهي التشبيه والتقسيم والمزاوجه . وزاد عليها حتى عدها ثلاثاً وعشرين وجهاً . ثم ختمها بقوله : " وقد اقتصرنا على هذا القدر ، من الأمور التي تربط الجمل بعضها ببعض ، وإن كان ما بقي أكثر مما أوردناه " [3].

ولما أجرى الزمخشري نظرية النظم في التطبيق على سور القرآن صادف وجوها أخرى من التعليق وتصرفات متنوعة لا سبيل فيها للنحو ، ففتح بعضاً منها ونبه على أسراره ونمط

---

(١)" دلائل الإعجاز " عبد القاهر ، ص ٩

(٢) السابق ٩٣ .

(٣) " نهاية الإيجاز " الرازي ٢٨٥ .

انتظامه كما في قوله تعالى : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [1].

يقول الزمخشري : " فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع ثم أردفه قوله : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت : المراد بالتمتيع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته فقال : بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لا قتضائها التنبيه ، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : " ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها " [2].

فانسل من علمي الشيخ قبسات استضاء بها الإمام فمشى بخطى ثابتة في أدغال هذا العلم وشعابه المتفرقة وقارب حدوده وألف مختلفة فزالت نكرة النفوس ووحشتها تجاه هذا الفن الذي شكى أكثر الأئمة قبله من قلة حملته وتضارب الآراء في الأخذ به وقد وصف أبو بكر بن العربي " ٣٢٤هـ " قصة هذا العلم في قوله : " ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، منسقة المعاني ، منتظمة المباني ، علم عظيم ، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، تم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حمله ، وراينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله " [3].

فالمناسبات اتخذ صفته العلمية من تفسير الإمام فجعله علماً مستقلاً بذاته يشابه النظم ويلتقي معه في أن مدارهما على الترتيب والتنسيق لما ظاهره الاختلاف فـ " لا يكون الإتيان بالأشياء بعضها في أثر بعض على التوالي نسقاً وترتيباً حتى تكون الأشياء مختلفة في نفسها ، ثم يكون للذي يجيء بها مضموماً بعضها إلى بعض غرض فيها ومقصود ، لا يتم ذلك الغرض

---

(١) الزخرف ٢٩ – ٣٠ .

(٢) الكشاف ٤ / .

(٣) " البرهان " الزركشي ١ / ٦٢ .

والمقصود إلا بأن يتخير لها مواضع ، فيجعل هذا أولاً ، وذاك ثانياً "[1] فهذا أصل عام معتبر في كل نسق ثم يتخذ مساراً آخر وينفرد بخصوصية شمولية التعليق وتنوع صوره فيحيط بالنص كله على تباعد جمله واختلاف أغراضه لأنه تتبع للمعاني وجهات انتساب بعضها إلى بعض وأحوالها في بعض فتتقارب وتتعانق على تباعدها .

بينما النظم هو التعليق بتوخي معاني النحو وهو صفة محدودة تحفظ التماسك وتحكم النسج بين الجملة والجملتين أو ما تقارب دون ما اختلف وتباعد .

والتناسب ضرب من فصاحة الخطاب العربي تجاهله يخل بمقاصد المتكلمين ويحول دون الوصول إلى أغراضهم في الإبانة صرح بذلك الحرالي : " ونمط من فصاحة الخطاب العربي ، لأن العرب يردون الثالث إلى الأول لا إلى الثاني ليتعلق بالأول في المعنى وينتظم بالثاني في اللفظ فيكون محرز المحل المفهوم راجعاً إلى الأول بالمعنى " [2].

وقد أكد الرازي من قبل على أنه القسيم المكمل للنظم واحد مداخل الإعجاز التي لا غنى عنها يقول :"ولكنه روح من أمر الله تفرق معجزاً فلما اجتمع أجتمع له إعجاز آخر "[3].

وكأن أبواب البلاغة كلها كانت بحث في أحوال الإعجاز مفرقاً .

وقرر المتأخرون ذلك التصنيف وعدوه قسيماً مكملاً للنظم ذكره البقاعي : " بهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ،ويتمكن من اللقب ، وذلك أنه يكشف أن اللإعجاز طريقين : أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب ،والثاني : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب ، والأول أقرب تناولاً وأسهل ذوقاً ...

ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد " [4].

---

(١) " دلائل الإعجاز " عبد القاهر الجرجاني ، ٤٧٤ .

(٢) تراث الأمام أبي الحسن .

(٣) " التفسير " ٢٠٨/١ .

(٤) " نظم الدرر " ١٠ / ٧ .

فدراسة التناسب في الترتيب وحسن مواقع الجمل في القرآن فيه من العجائب والإعجاز ما يحتاج إلى زيادة في التأمل وطول نظر ، فهو عمل اجتهادي ضابطه الوعي بعناصر الكلام وطرائق الربط والاقتران ، لذلك كان علم المناسبة أعم من علم المعاني فلا يستطيع الخوض فيه إلا من كان له حظ وافر من علم المعاني [1]" لأن الأصل في علم المعاني دراسة الإسناد ، وهذا الأصل جار أيضاً على علم المناسبات مع اعتبار أمر أخر وهو ملاحظة الترتيب والربط الكلي وهو خصوصية زائدة على الإسناد لأن انتساب المعاني بعضها إلى بعض يكون وفق مواقع تتصل بالإسناد الداخلي للدلالات بأن تقع منها على جهات تزيد بها الفائدة كالمقابلة أو التضاد أو المشابهة أو التتميمات أو المبالغات ، وهذا يحتاج إلى صنعة حاذقة في توزيع وحدات الكلام ومقاطعه المختلفة من خلال توخي المعاني ، ويؤكد ما ذكرناه قول حازم : " إن المعاني منها ما يتطالب بحسب الإسناد خاصة ، ومنها ما يتطالب بحسب الإسناد وبحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض في أنفسها ،بكونها أمثالا أو أشباهاً أو أضداد أو متقاربات من الأمثال والأضداد " [2].

فالترتيب لا يعني التوالي على نسق مطرد يتعلق فيه الثاني بالأول ، وإنما هو تنظيم داخلي تنشعب الجمل فيه لتستقر في مواقعها بحسب مقاصد المتكلم ومقتضيات الأحوال ، فتصبح " كالجداول المتشعبه " ، أي أن كل جملة تلف في ثناياها قنوات خفية لمعان وأغراض مختلفة ، فتشق لها مجرى تنشعب فيه عن الجملة الأم ثم تؤسس لمعنى آخر ، فكأن علم المناسبة كشف منظم لحركة المعاني داخل النسق وكيفية تولدها ثم تحولاتها وانتقالاتها ، وملاحظة الوشائج الناظمة لهذه الانتقالات ثم المعاني المستقلة وبيان طريقة ائتلافها مع المقاصد الكلية للسورة .

فالسورة نجد فيه تنوعاً وتنقلاً في الأغراض والمعاني ، وأحياناً يكون التنوع في الزمن أيضاً ، فتجد الآية تجاور الآية في النظم وتمازجها في الدلالة على اختلاف أسباب النزول ، لأن

---

(١) دلالات التراكيب / ١٠ .

(٢) منهاج البلغاء صـ ٤٤ .

المناسبة لا يشترط فيها اتحاد الزمن وإنما المقصود منها وضع الآية في موضع ما يناسبها [1] .

فمصدر التناسب مصدر الهي وراء رقائق النظم تنسق فيه المقاصد وتأتلف فيه الدلالات بوشائج دقيقة تربط بها المعاني الجزئية بالمقاصد الكلية ، فيحدث الترتيب تمازجاً دلالياً رغم اختلاف الأحداث والأزمنة ، فالمناسبة سمة بلاغية تتفلت من قبضة الزمن لتتصل بدائرة الأعجاز البياني للقرآن .

ولدقة هذا الباب وغموض مسلكه أطلق عليه علماء الإعجاز الأسلوب فقالوا : إنه معجز بأسلوبه . وقد بين الرازي أن معنى الأسلوب هو الروابط ، والوشائج وما تحدثه من خصوصيات بلاغية ، ومعان ثانوية تتزايد بها فصاحة الكلام ويكتسب بها الكلام غزارة وامتداداً مع إيجاز العبارة حتى لتجد سورة في حجم سورة الكوثر مشحونة بأسرار ونكات ليست من ولائد اللغة فحسب وإنما تولد من حسن الاقتران والترتيب ، وهما أي الاقتران والترتيب من أهم عناصر الأسلوب عند الرازي .

فعلم المناسبه –إذن– هو المدخل الحقيقي للتحليل المتكامل للنص،فهو الجهة التي تكتمل عندها دراسة المعاني لأن " كمال المعنى في نفسه يكون باعتبار أجزائه البسيطة والمركبة "[2] .

فكأن كمال المعنى لا يكون بالوقوف عند جزء من بنائه كالوقوف عند الإسناد بين مكونات الجملة ، أو المناسبة بين الجملة والجملتين كما هو في علم المعاني ، وإنما باستيفاء جميع أجزائه وتنقلاته .

والنظر فيما تضيفه عناصر الاقتران من زيادات في أصول المعاني تثري بها الدلالة ، فتجد دلالات تتكاثر وتتنامى نتيجة موقع المعنى من المعنى والسورة من السورة ، وترتيب بعضها على بعض حتى تصير بعجيب التأليف منظومة متناغمة الأجزاء ، وقد بنى الإمام تفسيره على تتبع ما تضيفه الاقترانات من فوائد يقول : " فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق

---

(١) " الإبهاج " السبكي، جـ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) " منهاج البلغاء " حازم ، ١٣١ .

هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن العلوم "[1] نحو ما ذكره من المعاني المتولدة من تغيرات الترتيب في قوله : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[2] .

يقول الأمام : " فإن قيل : إنه تعالى بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للإنسان ، وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الإنسان ، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات فقال : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾فما الفائدة فيه؟

قلنا : أما الترتيب المذكور في هذه الآية فينبه على مكارم الأخلاق وهو أن يكون اهتمام الإنسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى ، فالمقصود منه ما هو المذكور في قوله عليه السلام : " ابدأ بنفسك ثم بمن تعول "[3]

هذا ، وتتمثل أهمية البحث في العودة إلى أصول علم المناسبات في أجواء الدرس البياني وكيف تعامل معه علماء البلاغة كأداة للكشف عن أسرار البيان القرآني من خلال إبراز جهد الرازي في تجلية مباحث هذا العلم ، وما أضافه من لمحات شق بها مجرى لأفانين بلاغية أشار إليها السلف إشارات غامضة فاستثارها وبعث مدافن كلامهم ، وعمل على الامتداد بها من خلال إجرائها ومتابعتها في جميع آيات القرآن وسوره ، فعلم المناسبات معروف قبل الإمام وقد عزا كثيراً من النقول إلى علماء معروفين نحو : القاضي [4]، وابن القفال [5]، وأبو مسلم [6]، وأحيانا يذكر ما شاع على وجه العموم ولا يخصه بأحد كما في قوله : ط علم أن

---

(١) التفسير ، ٩ / ٥٦٦ .

(٢) النحل آية ١٠ –١١ .

(٣) " التفسير " الرازي ، ٧ / ١٨٠ .

(٤) السابق ٣٦٣/٣ .

(٥) السابق ٣/ ٣٦٣ .

(٦) السابق ٣ / ٣٨٦ .

الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً ، ولا استحسن واحداً منها " [1].

وهذا يدل على أنه أطلع على جميع ما سبقه ومحصه فلم ينقله كله وإنما نقل ما استحسنه وراى له وجهاً وأعرض عن كثير ، فالأمام عنده منهج واضح يسير عليه في التحليل والاختيار وليس الغاية طلب المناسبة كيفما اتفق ويظهر ذلك في وجه الترتيب في قوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

قال :" أعلم أن من الناس من قال : إنه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها ، وقال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا ، فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الأقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك.

ورغم رسوخ قدمه في هذا الباب لم نجد دراسة تقف عند جهده وتستخلصه وتبرز منهجه ولفتاته البلاغية، لذلك يهدف البحث إلى استخلاص مادة التناسب في التفسير وتصنيفها وبيان منهجه فيها .

---

(١) "التفسير" ٦ / ٢٧١ .

(٢) آل عمران ، ١٣٠ .

الباب الأول : التناسب في بناء السورة

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التناسب في الفواتيح والخواتيم

الفصل الثاني : التناسب بين الآية والآية .

الفصل الثالث : التناسب بين الأغراض المختلفة

الفصل الأول

التناسب في الفواتيح والخواتيم

حظي الأول والأخر باهتمام الدرس البياني بلاغة ونقداً ، فهما من الأبواب التي تمحص بلاغة المتكلم ، وتكشف عن مدى اقتداره ، لأن تصريف معاني الأخر على معاني الأول يتطلب اعتبارات مختلفة ، تتصل بالدلالة في أغمض مستوياتها ، " لأن الطرفين حاصران للوسط ، ويدلان عليه لأجل ارتباط التناسب " [1] . أي أن الأول والأخر يشكلان الهيأة المكتملة للنص بجميع مقاصده ، فالبدء يكتنف الأغراض والمعاني التي يؤسس لها المتكلم ثم تنسل من لغته وتتنامى داخل الوسط ، والأخر تستقر عنده الدلالة على الأغراض المتنوعة في الداخل فيلاقي أطرافها ويجمع مختلفه .

وهذا يتطلب فطنة في ترديد المعاني دون تكرارها كي لا تملها النفس ، ويستثقلها الفهم ، بل يداخل ويمازج بينها بالتلاحظ والتآلف دون التواطؤ . وجعله بعضهم مقياس الشاعرية : " قال العلماء : ينبغي للمتكلم أن تزيد عنايته ويكثر اهتمامه بأربعة مواضع من كلامه – وإن ينبغي أن يتحرى الأجود في سائره – أول الكلام وأخره ومكان التخلص من فنٍ إلى فنٍ وموضع الطلب فقالوا : براعة المطلع ، وحسن التخلص ، وحسن الطلب ، وحسن الختام " [2] .

وروى المرصفي حكاية لطيفة تدل على دقة هذا المقياس في الحكم على بلاغة الكلام والحكم على قريحة صاحب البيان حكي أن شاعراً مغربياً كان قد سمع شعراً لصاحب بهاء الدين زهير المصري ، فقصد مصر ليتعلم رقة الشعر فلما لقيه وعرّفه مراده ألقى عليه صاحب البهاء صدراً ليعمل له عجزاً فأنشده :

يا بان وادي الأجرع

فأخذه المغربي وانصرف يكد فكره في تتميمه ثم جاء صبيحة ليلته إلى الصاحب فأنشده :

---

(١)" الروض المربع " ابن البناء، ٦٩ .

(٢) " الوسيلة الأدبية " المرصفي ٩٢/٢ .

يا بان وادي الأجرع سقيت غيث الأدمــع

فقال صاحب البهاء : الصدر يطلب غير هذا ، وأتمه بقوله :

هل ملتَ من طرب معي[1]

وذكر المرصفي وجه بلاغة العجز فقال : " فأنت ترى أن الميل مأخوذ ن البان ، وتعليل المساعدة للعاشق ومجانسته إياه في العشق فمثل هذا ينبغي أن تكون المطالع "[2] .

فالأول لم يصنع شيئاً ومطل الكلام إلى معنى لم يُبن عليه الصدر فأفسد البناء بقطع النداء بعد أن هيأ لمعنى يتعلق به ، وأسس عليه ما ليس من جنسه وهو الدعاء .

وأما الآخر فبنى على النداء الطلب فأشبع تحفز النفس لاستقبال المعنى المتوقع ، ثم شبك الآخر بالأول بوصف الميلان الذي هو من أخص صفات البان ، وزاد في الدلالة بأن جانس مجانسة خفية بين حالة الشاعر واهتزازه بعشقه وحالة البان وتمايله ، فكأن هواه انتقل إلى جميع أعضاء الوجود فحركها طرباً وأشاع فيها أنساً لتعين العاشق في وجده وحنينه.

ثم نمى أجواء الطرب التي أبرقت بها لفظة " البان " فتشابه الطرفان ، بينما أحدث اختيار لفظ الأدمع عند الآخر حزناً وعويلاً بعد أن تمايلت النفس أنساً وطرباً مع البان .

وقد تعددت أوجه العناية بهذا الباب فأتخذت صوراً مختلفة تتبع انعكاسات الأول في الآخر جرساً وأخر لفظاً وثالث معنى . فتكاثرت مباحثه وتنوعت ، ولكن يظل يجمعها أصل واحد وهو أن الكلام " يلتبس أوله بأخره ، ويأخذ أخره من أوله "[3] ، وتنوع مباحثه كان على اعتبار من تنوع صور الالتباس والأخذ .

فظهرت الكثير من المصطلحات التي تعني بملاحظة أوجه الالتقاء بين البدء والآخر كالتسهيم أو التوشيح ، والتصدير أو رد العجز على الصدر ، وتشابه الأطراف ، وأخرى

---

(١) "الوسيلة الأدبية " المرصفي " ٩٤/٢ بتصرف .

(٢) السابق نفسه .

(٣)" اختيار المنظومة والمنثور "، ابن طيفور ، ٨٣ .

تبحث في علاقة الأخر بالمقاصد كالتذييل وحسن المقطع والخاتمة، وثالثة تلاحظ المطلع وأنسجامه مع الأغراض كبراعة الاستهلال أو المبادئ والمطالع .

وقد عني البلاغيون بجميع ما من شأنه أن يحدث في الكلام تشابكاً لأن الكلام الجيد مبني على هذا فيأخذ بعضه برقاب بعض ويدل أوله على أخره . [1]

وأقدم صور ملاحظة الأواصر والنسب الحميمة بينهما كانت باعتبار المعنى والبناء عليه ، فهذا الشافعي "٢٠٤هـ " يجعل ضبط الدلالة لا يكتمل إلا عند الآخر ، لما يحدثه أحدى طرفي الكلام من تغير في الطرف الآخر بالتفصيل أو التخصيص أو التعميم ، فلا يتبين المعنى إلا برده على ما أنهى إليه الخطاب فالكلام " ينبي أوله على آخره ، وأخره عن أوله "[2] ففهم أحد الطرفين لا يغني عن الآخر ، وهنا التفاتة رائعة من الشافعي حينما جعل وظيفة الختام وظيفة إعلامية فقال " ينبي " فأخرجت دلالة الأخر عن التكرير لدلالة الأول ، وإنما لها بيان تأسيسي لمعان لا تؤديها جملة صدر الكلام ، فأخراس صوت الإبانة في الأخر والنظر إليه باعتبار التباسه بالأول وأخذه منه دون انطاق الجانب البياني له من خلال تأسيسه لمعان أخر لم تحملها دلالة الأول يحول دون اكتمال المقاصد ، ويعفي على كثير من محاسن البيان .

وفقه الدلالات المتشابهة عند البلاغيين لا يعني التطابق التام بحيث يصبح الآخر هو الأول بصريحة ومكنية ، وإنما التفتوا إلى المزايا والخصائص والصفات التي تندس في لغة الأخر فتشده إلى الأول ، وتعلقه بإعطافه ، ثم تجري فيه عناصر تطرح بدلالته إلى أفاق جديدة تزيد في محتواه ويستقل بها . فالخاتمة تروز مقاصد البدء فتفصل ما أجمل هناك وتفسره وتخصص ما عمم وتعمم ما خصص ، وتقابل صور البدء بنظائره الضدية لتكتمل المعاني وتتم المقاصد . ثم تتجاوز هذا التشابك فتفيض بدلالات تمنحها من الوسط ، فتستقي منه وتسقيه . وتؤسس لمعان يستقر عندها الكلام ، لأن الكلام عند منقطعه يكون قد بلغ الغاية في الإفهام ، فالناس في الفهم صنفان : صنف يكتفي باللمح الدال ، وصنف لا يشفي فهمه إلا التفصيل والتحليل .

---

(١)" سر الفصاحة " ابن سنان، ٥١ .

(٢) " الرسالة " ، الشافعي ، ٥٢ .

وقد هداني لهذا القول ما رواه الجاحظ عن رجل من طي يمدح كلام رجل فيقول : "هذا كلام يكتفي بأولاه ، ويشتفي بأخراه " [1] .

فقف بقوله : " يكتفى بأولاه " وما تحمله من تصوير لوظيفة البدء ، وأنه ذو دلالة مجملة تكتنف دلالات الكلام جملة ، حتى يداخلك ، أن كل معنى يتضمنه الكلام له أصداء في جملة البدء ، وأنَّ ما رواءه تفصيل وحلّ لما نفث في كلماتها وأجراسها ، وعقدت عليه لغتها ، ثم قوله : " ويشتفي بأخره " وتأمل موقع الشفاء في الخاتمة وكيف تمرض لغتها ومعانيها الإجمال في البدء ، فكأن الخواتيم هي طب الفواتيح ، فعندها تتجلى المقاصد وتستقر بعد أن توزعتها التراكيب وحركتها باتجاهات متنوعة بحسب الأغراض والأحوال فتأتي الخاتمة لتجمع أعناق المعاني في بيان ملتف يسكن فيه المعنى ويتجلى عياناً بعد أن كان يروغ في دلالات متزاحمة تجتمع أصداءها فلا يكاد ينماز رنينه ، فحضور الخاتمة يدل عليه ويعلي صوته ، وبهذا تشفى نفس المخاطب من التردي في أودية المعنى المترامية ، فترودبه بواطن الدلالات ، ويقف منها على مكان يشرف به على جميع المقاصد المتنوعة من خلال هذه الزاوية المحدودة .

ولا يهولنك هذا الحدْس ، فيقع في وهمك أني أتكلف قراءة النص وانطق رجل طي بما لم ينطق ، وتطالب بالدليل المنقول ، فعلم ذلك وكل إلى صفاء القرائح وحفاوتها بعبارة العلماء فتنظر فيها كما في عروق الذهب ، وواقع النقد العربي القديم يقرر هذا النمط من القراءة، ويجعل الوصول إلى أصوله بمعاناة لغة البيان ومعالجة أسرارها وأحوالها فمن رامه من غير مزاولة ومحاولة حاول عسيراً .

ولذلك قال الجاحظ : " طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته لا يحسن إلا غريبة فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ... فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب " [2] .

---

(١) " البيان والتبيين " ، ١٤٩/١ .

(٢) " العمدة " ابن رشيق ، ٨٤/٢ .

وبهذا يتضح الطريق إلى أصول النقد وأن لغة الأدباء في تذوق البيان ، هي التي تؤصل مناهجه وترسم حدوده . وتخط معالمه ، فالنقد نشأ في حنايا البيان وخالطه لغته ، ولن يفضي إليك بمكنونه حتى تشق طريق اللغة وتنظر في بلاغتها وتجلى دلالتها فتفيض لك بما في صدرها من أسرار وأصول أودعها أهل اللسان في كلماتها .

فالأدباء حينما أودعوا أصول فهم بيانهم ومقاصدهم في لغتهم ، يرومون من ذلك إلى أن من لم يكن قادراً على تذوق الكلام واستشفاف غوره هو بمعزل عن النقد ، لأن أعظم أصول النقد مزاولة كلام العرب والمدارسة له ، فمن كان عاجزاً عن ذلك فلن يؤصل أصوله ، ولن يرسم مناهجه . وهذه من فطنة النقد العربي حتى يخرج الأدعياء فلا يصح فيه ولا يثبت إلا من أشرب في قلبه البيان .

وإن كان النقد العربي يحمل كثيراً من التصريحات التي توجه إلى أماكن الحسن في أواخر الكلام وأوائله ، كما في حديث ابن طباطبا عن موقع القافية ، وتمكنها في مكانها باعتبار الدلالة ، فالشاعر متى " اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني ، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول ، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول نقلها إلى المعنى المختار " [1] .

وذكر صوراً كثيرة لذلك منها قول أبي عيينة المهلبي :

دنـــيا دعوتـــك مسمعا فأجيبي وبما أصطفيتك للهوى فأثيبي

دومي أدم لك بالوفاء على الصفا إني بعـــهدك واثق فثقي بي

وعلق عليه قائلاً : " فقوله (فثقي بي) لطيفة جداً ، فيستدل بها على حذق قائلها بنسج الشعر " [2] .

---

(١) " عيار الشعر " ص٨ .

(٢) السابق ، ١٨٣ .

فالقافية " فثقي بي " هي قرار المعنى ، حيث هيأت الطلب في صدر الأبيات : فأجيبي ، فأثيبي ، ودومي ، إلى التحقق والوقوع لأنه متى حصلت ثقة الدنيا بالشاعر سُمع صوته ، وأثابته لاصطفائها باصطفائه وألبسته حلل الوفاء والصفاء على وفائه .

فالقافية وإن مكنت دلالة الجملة التي وقعت فيها فهي لا تنقطع عما قبلها وإنما تجد لها مدخلاً في دلالة المطلع فقد سدت لحمة الأبيات ، وأحكمت نسجها ، فاستقرت عندها الدلالة .

ومثله قول عروة بن أذينه :

وكل هوى وإن عنـــي زماناً له من بـعد ميعـــته تجلـي
كأني لـم أكن من بعد ألـف عذلت النـفس على هوى لي
فإن أقصر فقد أجـريت عصراً وبلاّني الهوى فيمن يبـــلـي

فقوله " هوى لي " لطيفة الموقع " [1] ، وقد أحسن ابن طباطبا غاية الإحسان إذ أورد ما قبلها وما بعدها من الأبيات لأن فقه دلالة حسن الموقع لا تكون إلا بذلك الحضور الدلالي للسابق واللاحق ، فكيف أجهض كثير من نقاد اليوم أقوال علماء البلاغة في الوحدة لأنهم وقفوا باستدلالهم عند الأبيات المفردة ، فقطعوا الجمل عن متعلقاتها ، وهذا ابن طباطبا يدرس القافية ثم لا يعلق دراسته بالبيت المفرد ، وإنما ينص على أنها داخلة في نسيج الشعر وليس الجملة أو جملة الأبيات وإنما القصيدة كلها ، فتمكنها يناط بملاحظة عدة جمل تتوزع دلالتها . وأكثر شواهد هذا الفصل جملة أبيات يجعل فيه لطف الموقع لأحد قوافيه ، وكأنها هي الناظمة للمعنى .

فلطف موقع " هوى لي " جاء من كونها نظمت ما قبلها فيها ، وجسرت للمعنى الذي بعدها ، فالبيت الأول معنى عام قرر حقيقة شائعة بأن كل صاحب هوى وإن متع زمناً بعشقه ، وتنعم برشف لذيذ كأسه ، أو تنغص بغصص عنائه ، فإن تطاول فله من بعد أُنسه وصفوه إنجلاء ، حتى إذا أنست النفس بهذه الحقيقة بنى عليها تجربته وهو أنه تجاسر على

---

(١) " عيار الشعر " ابن طباطبا ، ١٨١ .

أهوال العشق ، وروض نفسه فارتاضت وأقصر باطلها فاقصرت ، ثم جسر هذا المعنى لما بعده وهو أن عزوفه عن الغي ما كان يكون لولا أعصر بلت وأبلت معها الشاعر ، ثم حارت الدلالة إلى العموم في مطلع الأبيات واستحضره فقال : " فيمن يبلي ، ليؤكد أن هذا ديدن (كل هوى)" .

وقد شاع مصطلح الفواتيح والخواتيم في الدراسات القرآنية [1] ، وعند أكثر المفسرين ، وجرى الرازي في تفسيره على هذه التسمية ، وأحياناً يذكر الأول والأخر ، ويندر عنده استخدام مصطلح المطالع والمقاطع بينما يكثر البقاعي من استخدامه في الحديث عن علاقة أخر السورة بأولها ، ولعل سبب ذلك منهجه الذي بنى عليه دراسته للتناسب تفسير القرآن كلَّه تفسير السورة الواحدة و وجعل السورة بمنزلة الجملة من الجملة، فمقطع السورة يلتقي بمطلعها ثم ينشق منه ما يهيء لما بعدها وهذه ركيزة جرى عليها البقاعي في جميع تفسيره .

أما الرازي فكان في بداية تحوير المصطلح وغرسه في سياق أبعد وأغزر ، فانتقاله كان محسوباً بخطوات تتقارب مع أصول منبته ومغرسه ، ولكن مع هذه المقاربة استطاع أن يخصب التفاتة عبد القاهر في تحليله لقوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [2] . وذكر أن من أوجه إعجازها : " مقابلة " قيل " في الخاتمة بـ " قيل " في الفاتحة " [3] فهدته هذه الطريقة من التحليل في مقابلته لمعاني الأخر وعطفها على أوائل الكلام وهواديه لاستثارة المعاني ، والكشف عن وجوه الملائمة بينهما ، هدته إلى دراسة حركة المعنى ما بين الفواتيح والمقاصد أو الوسط والخواتيم ثم المزاوجة بينها فترد المقاصد على الفواتيح والخواتيم ثم الخواتيم مع الفواتيح فيحدث توزيع الدراسة بين هذه العناصر الثلاثة إحكام لبنية السورة ،

---

(١)" البرهان " الزركشي، ٣٣/١ ، " معترك الأقران " السيوطي، ٥٨/١ ، " إعجاز القرآن " الباقلاني، ٢٠٨ .

(٢) هود ، آية : ٤٤ .

(٣) " دلالة الإعجاز " ، ٤٦ .

وتجليه لمقاصدها المستكنة في أعطاف لغتها وسياقاتها المتباعدة ، فيتبع المعنى الخفي صداه في مواقع متنوعة ، ويعلو صوته فينطق مفهومه منطوقه، وتجتمع أصداؤه المتفرقة في منظومة متنامية تتصاعد فيها المعاني وتتشكل من خلال ارتداد أطراف السياقات بعضها على بعض ، وبهذا تتكون الوحدة التي يترابط نسيج أعضائها بوشائج دقيقة يتصل فيها المعنى بالمعنى ليس بالتتابع والتدرج المنطقي وإنما بالتثني وردِّ السياق إلى السياق وعطفه عليه فتكتمل عندها الدلالة.

ومن أبرز ما تميز به الرازي عن غيره من المفسرين الأوائل والمتأخرين عنه ، وصفه لبنية السورة بالوقوف عند وحداتها أو العناصر المكونة لها ثم ما بين هذه العناصر من تشارب وتمازج وتلاحظ وإن تباعدت في أماكنها وترتيبها داخل نظم السورة لها . فلم تعدو العناية بهذه الوحدات الثلاث عند السابقين سوى إشارات وتلميحات تحث ذوي الأبصار على أن تروزها وتجس خباياها ، ويكاد الباقلاني ينفرد بين علماء البلاغة بالتصريح بتقسيم السورة إلى وحدات ونبه على مكانة العلم بها من الإعجاز وقد ذكر ذلك في صدد حديثه عن تميز النظم القرآني ، يقول : " وإذا عرف ما يجري إليه الكلام ، وينهى إليه الخطاب ، ويقف عليه الأسلوب ويختص به القبيل ، بأن عند أهل الصنعة تميز بابه ، وانفرد سبيله ، ولم يشك البليغ في انتمائه إلى الجهة التي ينتمي إليها ، ولم يرتب الأديب البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه " [1] .

فهذا النص يضم الوحدات الثلاث وهي : الفواتح " ما يجري إليه الكلام " والخواتيم وهي " ما ينتهي إليه الخطاب " ، والوسط وهو المقاصد التي " يقف عليها الأسلوب " . وصرح بهذه التسمية في قوله " وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة " [2] .

وهذا النص بارع يغري بفتح باب دراسة ذلك الفن وتتبع نبعه في القرآن الكريم، والكشف عن منابع إعجازه ،و كيف يتفاضل بيان عن بيان بمراعاته والأخذ بأسبابه . وأن الوصول إلى تمييز طرائق الكلام ، واختلاف مسالكه ومناهجه التي ينتهجها المتكلم في الإبانة

---

(١) إعجاز القرآن " ، ٢٠٩ .

(٢) السابق ، ص٢٠٨ .

عن مقاصد وأغراضه، لا يكون إلا بدرك هذا الباب ، وإتقان معرفته وسبر غوره . وبه يحكم بناء الكلام، ويضبط مجاري الخطاب وتحولاته وتنقلاته، حتى كأن المتصدي له يعد عن المتكلم " مجاري حركاته وأنفاسه " [1] . فيتتبع أصداء المعاني بعضها في بعض فيلحظ ائتلاف تجاورها وإن اختلفت في ظواهرها ، فهناك أنفاس تسري من قاعدة الكلام ومقاصده الكلية ، فتحفظ للغة عبق واحد يمازج بين مختلفاتها . ونقل هذا الشعر يثري درسه ، ويؤصل لوحدة بنائه ، فالكلام وإن تشعبت به الأغراض وتوزعته فرجوعه إلى قاعدة ومقصد كلي بحكم تماسكه ، ويعيد بناءه برد كل معنى إلى نظائره ، فتجتمع الأجزاء وتأتلف .

وهذا هو الجانب القريب لتفعيل هذا الباب وأبعد منه ما ذكره الباقلاني يقول : "وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه ، ويعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر" [2].

فجعله أداة تستبين بها حقائق الكلام ، وينفذ منها إلى جوهر بلاغته ، وإدراك جوهر الأدب من أعسر الأشياء وأغمضها ، تلتبس فيه المسالك وتحتار بسالكه الطرقات، لكن إحكام هذا الفن يقصر المسافات التي تباعدت لتعدد مداخلها ، ويسلك بها مسلكاً جامعاً لا يسد مسدّه فن من الفنون في تمييز صنعه للكلام . فبه يعرف سبيل كل شاعر في كلامه ، ونهجه في بيانه على ضروبه المختلفة ومقاصده المتنوعة فيدل على طبع كل شاعر من شعره ، ويقتفي به أثار سيما شاعرية الشاعر بالوقوف على مجاري كلامه ابتداء ، وأسلوب تنقلاته في معانيه وتحولاته وسطاً ، وما يستقر عنده انتهاء .

والرازي انتقل بتنبيهات الباقلاني إلى أرض مباركة وهي القرآن ، فتضاعف عطاؤها ، وامتد بها إلى مجالات متراحبة تريك أفانين في تناول المعاني الواحدة، فوضعها في مواقع مختلفة وجعلها مرة ابتداء وأخرى وسطاً وثالثة انتهاء في تنقلات مختلفة تعطيها خصوصيات في كل سورة غير التي كانت عليها في السورة الأخرى ، لذلك قسم السورة إلى جزئيات تطول وتقصر بحسب إتمام الجزء للفائدة ، ثم يذكر تعلق الجزء بالمقاصد السابقة ، ومكانه منها ، وكيف أنشق مجراه من جملة سابقة حتى استقر قراره . فعلاقات الجزئيات والفروع ليست

---

(١) " إعجاز القرآن " الباقلاني ، ص٢٠٩ .

(٢) السابق نفسه .

بالضرورة قائمة على التتابع والتوالي . وإنما قد تنعطف الآية على سياقات أبعد مع تمكنها مع ما قبلها ، وهكذا ترتب الآيات أحياناً بالتوالي وأحياناً بالتنادي . وهذا سنوفيه حقه — إن شاء الله — في موضعه أثناء الحديث عن التناسب بين الآيات داخل السورة .

والذي يعنينا في هذا الفصل هو عنايته بتقسيم السورة إلى ثلاث وحدات : الفاتحة ، والوسط ، والخاتمة، وحرصه على أن تنماز جملتي الفاتحة والخاتمة عن جملة الوسط بمحاولته تحديد منتهى الافتتاح وابتداء الاختتام . وهو بهذا التحديد لا يقطع ما بينهما من علائق وإنما يقف على الجزئيات ثم يلاحظ ما بينها من تفاعل وكيف يمد فيها المعنى المعنى ويساعد في تشكيله ، وإن استقل العنصر الأخر بدلالته فهو لا ينقطع عن أصوله ونظائره في السورة . فكل جملة تظل تصحب الجملة الأخرى في جميع تحولاتها، وتخلصاتها، فالبدء دوماً يستصحبه المفسر في تحليله وسطاً وأخذاً وكذلك الوسط والأخر في علاقات متبادلة لا تكاد تنقطع إلا عند الختام الذي ينعطف بالمفسر إلى الوسط ثم إلى البدء ، فتحكم بتلك الارتدادات بنية الكلام ، وتعطي غزارة للمعاني برد بعضها على بعض فيبين بعضها دلالة بعض ويشرح مجمله ، ويكشف ما استتر من غوامض معانيه ، وبشكل دلالته بما يتلاءم مع معاني الجوار فتمدها وتستمد منها .

وهذا من النمط العالي في تحليل الكلام ، واستخراج ما فيه من غزارة تكمن وراء تراكيبه ، وسياقاته المتنوعة والمتباعدة ، ودراستها كمنظومة واحدة وإن استقلت بعض عناصر بالفائدة من وجه فهي لا تنأى عن المقاصد والأغراض المجاورة .

وعنايته بالوقوف عند تحديد موقع جملتي الافتتاح والخاتمة ، والوقوف على رسوم تعلقها مع أجزاء السورة ومكوناتها ، لا نعلم أن أحداً فيما سبق من علماء التفسير والإعجاز وقف عندها وأنعم التأمل لمكانه من الإعجاز على أنه بالغ الأهمية لأن معرفة بناء السورة وتعالق أجزائها وعناصرها لا يكون إلا بعد معرفة موقع ومكان كل جزء بنفسه ثم موقعه في غيره ، ولم أختص كل جزء بمكانه ، فتنظيم الكلام بالترتيب والتقديم والتأخير يكون لاعتبارات توجب أن يكون هذا أولاً ، وذاك أخراً ؛ لأن " الكلم ترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس ، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداء حروف لما وقع في

ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم ، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل ، وأن يجب النطق بهذه قبل تلك " [1] .

فإذا كانت البلاغة توجب النظر إلى مواقع الألفاظ وترتيبها داخل الجملة فمن باب أولى اعتبار هذا النظر في دراسة بناء الكلام قراناً وشعراً حتى لا يصبح نضداً ورصفاً خالياً من اعتبارات ترجع إلى معانيه المترتبة في النفس ، فالنطق بالفاتحة ابتداء ليس خالياً من دلالة وكذلك الوسط والخاتمة كل منها له أمكنة ومنازل أوجبت تقديم بعضها على بعض .

وهذا مقدم على دراسة الاعتبارات التي ترجع إلى علاقات الأجزاء ، وكيف كان أحدها بسبب من الأخر ، فالتنبيه على علل وضع الأشياء في مواضعها ، وما مقتضى كون هذه الجملة فاتحة والأخرى خاتمة يضبط حركة المعاني داخل البناء وينسب كل معنى إلى أصله فالوصول إلى البنية المكتملة للكلام لا يكون إلا بعد إحكام النظر في مواقع عناصرها وأماكنها على حدة ، ثم النظر بعدها في علاقات الأجزاء ، وهذا ما فعله الرازي في تفسيره رغم صعوبة بابه ، وعسر ضبط الحد الفاصل بين العناصر المتداخلة حتى لا يدخل غيرها وإن كان من جنس معانيها فيها ، وهذا التحديد لا يعزل الدلالات ولا ينفي التداخل بين العناصر المكونة للسورة ، وإنما يوجه نحو خصوصية مواقع المعاني . وهو منهج يتجلى أيضاً في طريقة تقسيمه للآيات أثناء التفسير إلى مجموعات وفق تصوره للأغراض والمقاصد التي هي مضمون كل جزء ، ثم يذكر الروابط بين الأجزاء ومكان بعضها من بعض .

ومما يؤكد تتبعه واجتهاده في استبانة ابتداء الجزء وانتهائه ما صرح به في تفسيره لسورة يونس من أن بدء مقاصد السورة من الآية الثانية يقول في الآية الحادية عشر " إن الذي يغلب على ظني أن ابتداء هذه السورة في ذكر شبهات المنكرين للنبوة مع الجواب عنها "[2] .

أي أنه كان أمامه توقعات واحتمالات حتى ترجح عنده تحديد الجملة . وأولى شبهات المنكرين للنبوة ذكرتها الآية الثانية وهي تعجبهم وتعجيبهم من تخصيص واصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم بالرسالة والوحي ، ثم توالت أنواع متعددة من الشبهات

---

(١)" دلائل الإعجاز" عبد القاهر، ٥٦ .

(٢) " التفسير الكبير " ٢١٨/٦ .

تتعلق جميعها المقصد الكلي ، وهو نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – ودحض الأباطيل التي رددها المشركون حولها ، وسدّ جميع الطرق التي سلكوها لزعزعت الدعوة بالتشكيك أو بالمحاربة ومناصبتها العداء .

وعلى هذا يكون الافتتاح قوله تعالى: ، جملة واحدة هيأت لما بعدها ، ومكنت للدلائل والبراهين بوصف آيات السورة لحاكم الذي يميز الحق من الباطل في الاعتقادات " ولحاكم على أن محمد صادق في دعوة النبوة ، لأن المعجزة الكبرى لرسولنا عليه الصلاة والسلام ليست إلا القرآن " [1] .

ويلاحظ أن تحديد بدء الأغراض انعكس على تفسير جملة الافتتاح ووجه دلالتها نحو ما يتلاءم مع مقاصد السورة . فالتقسيم لا يوجه دلالة كل وحدة بمعزل عن سياقها بقدر ما يبحث عن الخصوصيات المتولدة من تآلف وتمازج كل قسم مع غيره من الأقسام الأخرى ، وبهذا تتشكل وحدة هي نتاج ما بين هذه العناصر ،وحاصلة من مجموعها .

وأما تحديد الخاتمة فالأمر فيها أظهر فهو غالباً ما يصرح على أن هذه الآيات خاتمة السورة ثم يذكر علاقتها بما قبلها وعلاقتها بالفاتحة ، وإذا لم يذكر ذلك أثناء تفسيره للسورة نبه إليه في مطلع تحليله للسورة التالية لها ، كما في السورة لقمان لما لم يصرح بخاتمتها جاء في سورة السجدة فنبه عليها بقوله : " لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية ، وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما " [2] .

وهذا المقصد جاء في قوله تعالى : 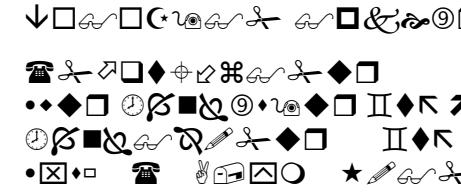

---

(١) التفسير الكبير ، ١٨٥/٦ .

(٢) السابق ، ١٣٥/٩ .

•⬥◆❒ ✂◆⓿⬀☼❻⑨✂ ↗□🗐❑◆⓿🖂⬧✂ ↖☠→⌛✵☼▪❷↗⇔⬧✍
③♦⇔↗❷▪☼✵⌛→☠ ★✂✂✂✂ ↓❻❒↖❷♦⇔✂✂ ↑ ⁽¹⁾ .

والرازي في تحديده لا يعول على نسبه عددية معينة ، فالفاتحة قد تكون آية واحدة أو آيتين وقد تطول إلى إحدى عشرة آية ، وكذلك الخاتمة قد تكون آية أو أكثر وقد تختصر إلى أن تصير فاصله الآية الأخيرة هي الخاتمة للسورة كلها ، فتكون منقطع الجملة التي جرت في سياقها ثم تحور دلالتها إلى جميع أغراض السورة لتجمع أطرافها وهذا وعي بالغ ويقظة شديدة من الإمام لوظيفة الخاتمة ، وأن ليس كل جملة صالحة لأن تكون منقطعاً للكلام والضابط لهذا التحديد يقظة المفسر لمراتب المعاني داخل السورة وملاحظة أصول الدلالات وما بنى عليه من تفاريع . فالفاتحة غالباً ما تأتي مجملة لأغراض السورة ، ومنبهة على مقاصدها ، والخاتمة صورتها أن تكون جامعة لما تفرق فهي دعامة تستقر عندها الجزئيات ، وتكتمل بجوامعها المقاصد .

وهذا الفهم جارٍ على ما استقر في الدرس النقدي من تفريق بين مصطلحين هما المطالع والمقاصد ، والمبادئ والانتهاء ، فالمصطلح الأول وإن تقارب مع الثاني في اعتبار الموقع في أول الكلام ، وأخره ، إلا أن هناك فروقاً دقيقة مناطها العموم والخصوص ، فكل أول مطلع وكل أخر مقطع ، وليس كل أول فاتحة ، ولا كل أخر خاتمة ، فهما مصطلحان لهما خصوصية يستقيانها من الدلالة ، فحدودهما لا تقف عند الكلمة أو الجملة الأولى أو الأخيرة ، وإنما تمتد إلى أكثر من جملة ، فضابطهما شيات وأحوال تنعكس من المقاصد والأغراض التي يرومها المتكلم ، فهذا ابن رشيق يؤكد على أن مصطلح المبادئ والانتهاء له خصوصية تضاف إلى كونهما أول الكلام وآخره ، يقول : " فإن الشعر قفل أوله مفتاحه .... به يستدل على ما عنده من أول وهله " ⁽²⁾ . وعن الانتهاء أنه " قاعدة القصيدة " ⁽³⁾ .

---

(١) لقمان ، آية : ٣٣ .

(٢) " العمدة " ٢١٨/١ .

(٣) السابق ، ٢٣٩/١ .

فكل منهما له وظيفة في فهم دلالة النص ، ومقاصده الكلية ، فالبدء إيحاء ومكاشفة بعناصر تهدي إلى ما استكن من الأغراض ، فيدل عليها . وأما الخاتمة فهي دعامة ترتكز عليها جميع المقاصد ويستقر عندها ما تفرق من المعاني لذلك جعلها قاعدة الكلام .

ومساحة جملة الفاتحة تطول وتقصر باعتبارات ترجع إلى حرصه على أن تستكمل الجملة جميع متعلقاتها اللغوية ومكوناتها البيانية ، فغالباً ما يتوقف في تفسيره أمام جملة البدء متتبعاً علاقاتها التركيبية واضعاً الترجيحات ومفترضاً الاحتمالات ، ولا يقطع باليقين على أن هذا منتهى الجملة حتى يفتح أمامك باباً من التأويل متسعاً يقلب فيه العلاقات اتصالاً وانفصالاً ، ظاهراً وباطناً ثم لا يضع يدك على الراجح إلا عند ختام السورة بعد أن تكتمل المقاصد فيرد الخاتمة على ما ترجح لديه أنه الفاتحة . وهذا منهج حسن في الضبط ؛ لأن القطع بالتحديد بدءاً مظنة للزلل : لتداخل بنى الكلام .

وإبراز ما يصور ما وصفناه تفسيره لفاتحة سورة البقرة في قوله : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

فالعلاقات بين الجملة تحتمل الوصل التام حتى تصبح جملة واحدة تُنصب لغرض معين لا تكتمل إلا بانه عنه إلا بالوقوف على مقطع الجملة الأخيرة وهي " أولئك هم المفلحون " . أو تكون مقطعان الأول الافتتاح والثاني بدء التفصيل لما تحمله من مضامين ، فخلص إلى "وجوه ثلاث : أحدها : أن ينوي الابتداء بـ " الذين يؤمنون بالغيب " وذلك لأنه لما قيل "هدى للمتقين " فخص المتقين بأن الكتاب هدى لهم كأن لسائل أن يسأل فيقول : ما السبب في اختصاص المتقين بذلك ؟ فوقع قوله : " الذين يؤمنون بالغيب " إلى قوله " وأولئك هم

(١) البقرة ، آية : ١-٥ .

المفلحون " جواباً عن هذا السؤال . كأنه قيل الذي يكون مشتغلاً بالإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والفوز بالفلاح والنجاة لابد وأن يكون على هدى من ربه وثانيها : أن لا ينوي الابتداء به بل يجعله تابعاً للمتقين ، ثم يقع الابتداء من قوله " أولئك على هدى من ربهم " كأنه قيل أي سبب في أن صار الموصوفون بهذه الصفات مختصين بالهدى ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفون غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً . وثالثها : أن يجعل الموصول الأول صفة المتقين ويرفع الثاني على الابتداء ، وأولئك " خبرة ويكون المراد جعل اختصاصهم بالفلاح والهدى وتعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله " [1] .

فقبل القطع بمنتهى جملة الفاتحة نجده يقف عند كل جزء وكل مقطع متتبعاً الخيوط الغائرة في غيب اللغة التي توجه دلالات الكلام وتصحح وضع كل جملة ، وتبين سب أن اختصت بذلك دون غيرها .

وهو تتبع على هدى من الدلالة فيبين ما اتصل بسابقة ، وما استقل فكون مقطعا جديداً فمتى أمكنه حمل الكلام على فائدة زائدة حمله عليه ، وصرف النظر عن اعتباره تابعاً لحكم سابقه ، وهذه وإن كانت منهجاً اختطه الرازي في جملة تفسيره إلا أنها في باب الفواتيح والخواتيم أظهر وأجلى .

ثم وقف عند قوله : " أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون " مسترجعاً أقاصي الجمل ، راداً عليها موقع هذه الآية ليستبين طريق العلاقات والعناصر التي أدرجتها في حكم ما قبلها ودمجتها في االسياق السابق لها ، فكانت هناك علاقات متعددة أعطت فسحة من التأويل فعلى الوجه الأول والثاني تكون من تمام ما قبلها لأنها من الاستئناف البياني مع فارق وهو أن الآية في الوجه الأول واقعة في سياق جملة " الذين يؤمنون بالغيب " التي هي جواب عن سؤال أثارته " هدى للمتقين " فجاءت " الذين يؤمنون بالغيب " إلى قوله " أولئك على هدى من ربهم " جواباً على هذا السؤال ، وبياناً لأوصاف المتقين .

---

(١) " التفسير الكبير " ، ١/ ٢٧٨ .

أما الوجه الثاني فتصير " أولئك على هدى " بدء الاستئناف البياني ، وعليه تكون بياناً للطريقة الحميدة والعاقبة الحسنة التي إليها أمرهم وهي الفوز بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً .

وفي كلا الوجهين نجد للكلام جذراً واحداً تتفرع منه الآيات وتدور في محيطه ولا تبتعد عن دلالته بزيادة سوى التفصيل والتفسير وهذا الجذر هو قوله : " ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين " وما بعده واقع في ساقته "[1] مدرج في حكمه ،" فلا تكون محوراً وأصلاً في الكلام أو جذراً من جذور معانيه ينبني عليه غيره ... فلم يصلح أن يكون جناح كلام في مقابلة خبر الذين كفروا " [2] .

أما الوجه الثالث فعليه يصير الكلام مكتنزاً متعدد المضامين ؛ لأن الواو جاءت لتغاير بين الكلامين وتنبه على الخبيء ليطلب ، وتدل على مكنون من المعاني جرى في سياق العموم لوصف المتقين ثم سلته الواو من ضمير اللغة فابدته وأفسحت له حيزاً دلالياً مستقلاً عن سابقه، وبهذا جعل الفاتحة تمهد لمقصدين وغرضين عليهما مدار السورة ، المقصد الأول : التحدي بهذا الكتاب ، وتقرير التحدي بكونه بلغ الغاية في الكمال لانتفاء الريب عنه ولكونه نبراس هداية للمتقين[3] . وينتهي هذا المقصد عند قوله " الذين يؤمنون بالغيب " . والمقصد الثاني إقامة الحجة على أهل الكتاب بهدايته لأحبارهم المنصفين لتصديقه لما بين يديهم من التوراة والإنجيل . وفي ذلك تأكيد لنفي الريب وهذه هي الوشيجة الواصلة بين المقصدين ثم تؤسس الآية لدلالة زائدة لم يحدث بها الكلام السابق فجاءت الواو لتجذر لهذا المعنى ، وتنبه على مفصل أخر من مفاصل الكلام التي تقوم به بعد ذلك المقاصد داخل السورة ، لذلك جعل الموصول الثاني " والذين يؤمنون بما أنزل " مبتدأ وخبره " أولئك على هدى من ربهم " فهو جملة تامة منقطعة على سابقتها . والموصول الأول " الذين يؤمنون بالغيب " عام في حق كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم سواء كان قبل ذلك مؤمناً بموسى وعيسى عليهما السلام أولم يكن مؤمناً بهما ، والثاني خاص بمن آمن به من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام

---

(١)" الكشاف " الزمخشري ٣٤/١ .

(٢)" دلالات التراكب " د . محمد أبو موسى، ٣١٦-٣١٧ .

(٣) " التفسير الكبير " ٢٦٩/١ .

وأمثاله[1] . وعطف الخاص على العام نبه على مزيد عناية بهذا الخاص ، لأن " دلالة اللفظ العام على بعض ما دخله التخصيص أضعف من دلالة اللفظ الخاص على ذلك البعض ، لأن العام يحتمل التخصيص والخاص لا يحتمله .. لأن في هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم ... ثم ترغيب لأمثاله في الدين " [2] .

أي أنه لما كانت دلالة اللفظ العام لا تقوم بهذا المعنى ، ولا توفيه حقه في الإبانة حيث يظل هامساً في محيط اللفظ العام ، عطف عليه الخاص لينتزع دلالته ويجعله أصلاً تتفرع عنه أغراض مختلفة ويبني عليه ما بعده من الكلام ، لأن الثناء على المؤمنين من أهل الكتاب هيأ لمعنى التعريض بأهل الكتاب الذين كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا نؤمن بما أنزل إلينا وهم يظنون أن ذلك هو الهدى . وعلى هذا يكون الكلام بياناً للمنهج القويم والصراط المستقيم الذين سأله الحامدون لله في سورة الفاتحة ، فطلبوا من الله المحمود قبل حمد الحامدين بصفاته المتفرد بها عن غيره أن يهديهم الصراط المستقيم ، فجاءت هذه السورة لتدل عليه وتبين صفته لهم .

وقد بني سؤالهم في سورة الفاتحة على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم مع مجانبة ما تفرق طرقاً وتشعب بين الضلال والغضب فبنيت سورة البقرة على هذين المعنيين ، وهذا وعي بالغ من الرازي حينما وجه دلالة " والذين يؤمنون بما أنزل إليك " نحو معنى التعريض بطريق أهل الضلال الذين تتبين لهم آيات الله فيعرضون عنها ويصدون من آمن بالله ويبغونها عوجاً ، وهو معنى معتبر في السورة لذلك اقتنص الرازي دلالته من غيب التخصيص في جملة " والذين يؤمنون بما أنزل إليك " .

والرازي في تفسيره كثير التنقيب عن التوجيهات التي تفجر ينابيع الكلام ،و تسمح بما تحت اللغة فتتدفق في غزارة وامتداد وهذا التوجيه مثال واضح لهذه الطريقة التي تدل على ما يستنبطه الأسلوب من معان تستكن تحت اللغة ، ولا يهيج بلابلها ويجهر صوتها إلا عطفها على ما جرت به السورة من مقاصد وأحوال فتبعث فيها خصوصيات تكشف عن إجمالها

---

(١) " السابق " ٢٧٧/١ .

(٢) " التفسير الكبير " ، الرازي ، ٢٧٧/١ .

فتبوح بخبيئها، فالسورة جرى فيها ذكر أهل الكتاب ومجادلتهم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ومجادلتهم وكثر فيها هذا المعنى وتنوعت عناصره حتى أصبح مقصداً وأصلاً من الأصول التي تروم السورة تقريره ، بل وأبلغ من ذلك إعادته واستحضاره في أسلوب صريح في قوله : ↓ ❑♌♐◑ ✁♐✎♎⅃♎⇦×♦ ➚◆✁♋♦✡⇖❑✁☎
❑◆✁♐✎♎⅃♎⇦▫♏ ♎♐⊠⑩←❑✁☎ ❑◆✁♐♐⊙☪☸⊙☀♦❷♦❽▤
❑◆✁♐♐⊙⊙○⊙♐⌨♐★♎✓▫♏ ♎♦♌Ⅱ⇳ ➚◆✁♌♦Ⅱ⌘ ♐♐♐♐✎★
❑◆✁♐♐☈❶◆❑⇗♐✈♎ ✁♐⊠☞⌘⇧❷⊠ ❑◆⇖♦☺♎♌• ⊕☸⊙⊟♐•⊙♐
▫•⊟■♑⇚♦⇗ ♒❑⊠⇧❷⇖♎➔♈⇗ ⇖♎✡⑨⊠ ❻◆♐■♑♐♐⚐⇔ ❑◆••
⌘⊠❑⇗✁♐➚ ⊻♦⊟■❸⇗♐♐⇗ ❑◆•• ♎➔♈⇗ ⑥♦♦⊻❽♦☼←❑♍♏ ⇫♐♎⇫
↑ [1] .

والعناصر اللغوية ليست وحدها سبيل اكتمال الدلالة وإنما وراء ذلك وشائج معنوية دقيقة تقصيها تكتمل عنده هيئة المعنى والغرض الذي تروم جملة الفاتحة بيانه والدلالة عليه ، لذلك نظر الإمام إلى هذه العناصر التي تشكل لبنات تجري مجرى التكميل .

وهذا يحتاج إلى فضل تأمل في ردَّ المعاني إلى أصولها وملاحظة المدى الذي تجري فيه منها .

فجملة الافتتاح في سورة إبراهيم تكتمل عند قوله : ↓ ❑◆♌♦♐♐✎
🕮❑❻⇗♒⊠⊟▫☪◆♐ ♌♎Ⅱ ❻■♒←❑✌♌ ◑♎•· ♐♎⊟♎☸○♌♐⇫
♎•❑⇗♌♎○♎⊕ ♐♎⑩⇖⌨♦✓♎▫♏ ⊟○●←♎⇗ ☎ ▫•⑩⇖♉⇫♌❻ ✁♐♐✎✦
♌♦Ⅱ ④❑⌖♦♐✎➚↓ ❑◆③♦♑⇧⑨♎❽ ♌♦Ⅱ ④❑⌖♦♐✎➚↓ 🗐
❑◆♎➔❑◆ ✁♐♐⊙⊻➔⊠❽♉③❽↓ ✁♐♐⊙⊻•⊠▤⇫⓿⚐⓿ ⇫♉⇫ ↑ [2] لأنه

" تعالى لما ذكر في أول السورة ↓ 🗎⇫✍♦⊙▣⇖ 🕮❑☼❽♦⊙⊻✡❑⊙○←
◑♎⊙•⓿⊻⌨⊟ ⊙♎✍←②⇗❷⊠●⊟ ✁♐♐⊙☪❑♐❑" ♌♎Ⅱ⌘
✁♐♐⊙➔♒▣➔☺⊟⊙☼♎ ◑♎🖫■❼ ✁♐♐⊙✡♋❑❻♉ ↑ كان هذا إنعاماً على الرسول من حيث أنه فوض إليهم هذا المنصب العظيم إنعاماً عليهم ، وايضاً على الخلق من حيث أنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الإيمان، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين. أما بالنسبة إلى الرسول عليه

(١) البقرة ، آية : ٦٢ .

(٢) إبراهيم ، آية : ٤

الصلاة والسلام ، فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق ، فكان هذا الإنعام في حقك أفضل وأكمل ، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم ، فإنه متى كان الأمر كذلك كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل وعن الغلط والخطأ أبعد فهذا هو وجه النظم " [1] .

فقوله " كتاب أنزلنا إليك " أفاد عموم بعثته صلى الله عليه وأنه مرسل إلى الناس كافة ، وأن هذا الكتاب المنزل عليه هو الإمام الهادي والداعي إلى الحق ، والنور الكاشف لحالك الظلمات التي تخبط في سراديبها الذين يستحبون الحياة الدنيا ويتناسون الآخرة فتصدهم الأهواء عن الصراط المستقيم ، ويتردون في هاوية الطرق الملتبسة المعوجة فتتخطفهم هذه المفترقات لتقذف بهم في أودية الويل والعذاب الأليم.

فالآية تزاحمت فيها دلالات ضمنية نبذت في كلمات معدودة وهي : ذكر النعمة والمنعم عليهم والمنعم ، وكل منها غرض في ذاته ، لذلك مطل ذكر المنعم بعد ذكر النعمة لبيان أن عظم منزلتها كونها من الله ، فكان وصف المنعم زيادة في قدرها ومكانتها ، ثم جاء ما بعدها ليبعث دفائن قوله " أنزلناه إليك لتخرج الناس " فبنى عليه ذكر المنعم عليهم وهم الخلق حيث أرسل إليهم الرسل ليرشدوهم إلى الحق ويخلصوهم من غمرات الضلال والعماية ، فتضمن هذا معنى الإنعام – أيضاً – على الرسول باصطفائه واختياره ليبلغ عن ربه وانتهاء أمر الرسالة إليه وذلك من قوله " أنزلناه إليك " فاختيار إلى " أفاد الغاية التي انتهى إليها المعنى وهو الإنزال ثم طوى تحت الغاية قصة تأريخ الرسالات و أحوال الرسل مع أقوامهم .

وبعد أن فرق هذه المعاني في زاوية مختلفة جمع بين أطرافها بقوله: ↓ ❐◆✍♦✍

---

(١) " التفسير الكبير " ٦٢/٧ .

فاستحضرت مدخل الافتتاح وهو " كتاب أنزلنا إليك " فبينت أن من كمال هذا الكتاب كونه أنزل بلسان قومه ليسهل عليهم الشرائع والحقائق ، لذلك جاء التنكير في كتاب أي أنه كتاب أي كتاب . فهو عظيم الشأن قوي البلاغ تام الحجة لمن طلب الهداية وتفكر في بيانه .

فأنزله بلسانهم يسر لهم طريق الهداية لمن ألقى له السمع .

ثم ارتدت دلالتها إلى المنعم عليهم وقررت الأنعام السابق وزادت عليه ما يجري مجرى التكميل لهذا الأنعام ، فعموم إرساله عليه الصلاة والسلام للناس كافة بعد أن كان الرسل دعوتهم خاصة بأقوامهم فالاصطفاء والاختيار وإن كان نعمة في حد ذاته إلا أن إرسالك يا محمد إلى عامة الخلق وعمومية دعوتك أتم النعم وأكملها .

والانتقال من خصوصية النعم إلى ذكر عامة الرسل يماس المعاني التي قبلها ويقررها ثم يهيئ لذكر أحوال الرسل مع أقوامهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك اعتنى بالتدقيق في تحديد الخاتمة وخالف غيره في بعض المواضع كما في خاتمة سورة مريم حيث جعل الزمخشري قوله تعالى : ↓ ▫♦✉☼✵☺⛶✍ ④❷○○□ ←❍🕓♦☼⬀❷○○□④ ✍①🙰☼✍❁○🖬🙰✍ ♦❷🙰♏⌖♦⌛←☜🙰❧ ✍①🙰☼✍❁○🙰🖬🙰✍ 🕘🙰❍🙰✍ ◆❻🗲❼☪➔✍◆❒ ✍▫✓🗲◑✸☝←☺↘❧✍✂ 🙰❍🙰✍ ◆❻🗲❼☪➔✍◆❒ ✍▫✓🗲◑✸☝←☺↘❧✍✂ 🕘🙰❍🙰✍ ↑ مقطعاً تنتهي عنده الأغراض فذكر أن " هذه 🔔♦❑⬀✍✡✵✍❧⑨♦✂ 🗲🗷🗷🗲↑ خاتمة السورة ومقطعها، فكأنه قال : بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه " بلسانك " أي بلغتك وهو اللسان العربي المبين وسهلناه وفصلناه لتبشر به ... وقوله" وكم أهلكنا " تخويف لهم وإنذار"[1] .

بينما يعدها الرازي كلاماً مستأنفاً لغرض " بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق الضالين المبطلين ، فبين تعالى أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر " [2] .

---

(١) الكشاف ، ٤٨/٣ .

(٢) " التفسير " ٥٦٧/٧ .

ويجعل من قوله تعالى : " وكم أهلكنا قبلهم من قرن " خاتمة للسورة ، يقول فيها : "ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال : " وكم أهلكنا قبلهم من قرن " لإنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضاً سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب " [1] .

وتحديدها لموقع الخاتمة عول فيه على المقصد الكلي ، فقوله " كم أهلكنا " يتلاءم مع غرض السور وهو الرد على أصناف الكفرة وشرح أحوالهم في الدنيا والآخرة "[2] ، فناسب ذلك الاعتبار بمن سبق ليعلموا زوال ما هم فيه وما آلهم حتى يحذروا الدنيا ويخافوا سوء المآل في الآخرة .

وإذا كانت جملة الختام شديدة التعلق بما قبلها وجزء في بنائها وصلها بها دون عدها خاتمة للسورة مثل قوله تعالى : " ولا يخاف عقباها " فالكناية جاءت عقيب ثلاثة مذكورات فكان لها ثلاثة وجوه " أولها : أنه كناية عن الرب تعالى ! إذ هو أقر ب المذكورات المراد منه التنبيه على أنه بالغ في التعذيب ، فإن كل ملك يخشى عاقبة ، فإنه يتقي بعض الأتقاء ، والله تعالى ما لم يخف شيئاً من العواقب ، لا جرم ما اتقى شيئاً ؟[3] وثانيها : أنه كناية عن صالح الذي هو الرسول أي لا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه .. وثالثها : المراد أن ذلك الأشقى الذي هو أحيمر ثمود فيما أقدم من عقر الناقة " ولا يخاف عقباها " وهذه الآية وأن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير في حكم المتقدم .. والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف البته فنسب في ذلك إلى الجهل والحمق " [4].

فالجملة الأخيرة تجري في محيط ما قبلها على هذه التأويلات دون تدخلها في نسيج السورة كلها ؛ لذلك حصر دلالتها في بيان ما قبلها . بينما نجد الإمام البقاعي يلحظ موقعها

---

(١) السابق نفسه .

(٢) السابق .

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٧٦١ لأنه تعريض بما ذكره .

(٤) " التفسير " ١٨٠/١١ .

في بناء جملة الافتتاح وجعلها تكملة للقسم الذي بدأت به السورة و زادت في تقريره لأن "من له هذه الأفعال الهائلة التي سوى بين خلقه فيها وهذا التدبير المحكم هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشى عاقبة " [1].

ويمكن تصنيف العلاقة بين هذه الوحدات الثلاث كما يتناولها الرازي في ثلاث محاور:

١- علاقة الفواتح بالمقاصد .

٢- علاقة الخواتيم بالمقاصد .

٣- علاقة الخواتيم بالفواتح .

---

(١) " نظم الدرر " ٤٤/٨ .

المبحث الأول : التناسب بين الفواتيح والمقاصد :

تعد العناية بمبادئ الكلام إحدى الأصول البلاغية التي تجذرت في الدرس البياني ، فقدمها قدم البيان ، فهذا الحاتمي يعلل استحسان الأصمعي لمطلع قصيدة أوس بن حجر في الرثاء :

أيتها النفس أجملي جزعاً إن الذي تحذرين قد وقعا

لتناسب الافتتاح مع المقاصد ، والمذهب الذي بنى عليه كلامه ، يقول : " لأنه افتتح المرثية بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب إليه منها في القصيدة ، فأشعرك بمراده في أول بيت " [1] .

وقد أدرك حذاق الشعر والعارفون بصناعته مكانة هذا الباب من البلاغة ، لأنه يزدان به الكلام حسناً ، ويكسوه رونقاً ، ويجعل عليه أبهة ، فنحتوا مقاصدهم في الألفاظ ابتداء ، ودلوا عليها لينشط السامع معه لاستقبال الكلام ومتابعة الخطاب . فقد روي ابن رشيق عن بعض " الحذاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر . فقال : لأنني قللت الحز وطبقت المفصل ، وأصبت مقاتل الكلام ، وقرطست الأغراض بحسن الفواتيح والخواتم " [2] .

فقوله " حسن الفواتح والخواتم " تدل على أن الدلالة على الأغراض متلبس باللغة و فليس قرطست المقاصد بأدائها وإفهامها بمعزل عن اختيار الألفاظ ودقة انتظامها وترتيبها ، مما يجعل رأس الكلام مستوعباً لمراد المتكلم كله ، فلا يجري وسط الكلام غرض ما إلا رأيت له صدى في الافتتاح ، فمتى تتبعت منابعه ابتداء لم تخطئه.

وهذه الأقوال نبهت الرازي إلى علاقة تصل أطراف الكلام في سياقاته المتباعدة وأغراضه المختلفة وتردها إلى نسب واحد وأصل فرد ينتظم به البيان، فلما أدار عليها تحليل السور ظهر بها مكان الإعجاز ، وربا قدره ، لأن فاتحة الكلام تشكل وشيجة تتعطف عليها عروق الكلام وأصوله وفروعه فهي مغرس جميع أغراض السورة .

---

(١) " حلية المحاضرة " ٩٤/١ .

(٢) " العمدة " ٢١٧/١ .

ولا أعلم فيمن قبل الرازي من كشف القناع عن وجه الإبانة عن المقاصد في فاتحة القول ، ولا من استكشف وجلى حقائقها في التفسير والتحليل على الوجه الذي ذكره الرازي وإنما استقر ذلك فيما بعد ، فجعل معيار حسن المطالع بمدى استيعابها لمقاصد الكلام ودلالتها على أغراض المتكلمين ، يقول حازم " هي الطليعة الدالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة ، تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقي ما بعدها أن كان بنسبة من ذلك"[1] .

وقد حظيت الفواتح عند الإمام بكثير من العناية والتأمل ، فكشف عن وجوه بلاغتها وبديع أسرارها ولطيف ترتيبها وانتظامها وما وراء مواقع الترتيب من إيحاءات بمعان تستوعب السورة بجميع أغراضها المختلفة ، وبهذا يلتقي مع عبد القاهر في أن الإعجاز في النظم والترتيب ليس باعتبار وضع كل لفظة موضعها الأخص بها ، وإنما باعتبار الغزارة المستكنة خلف الألفاظ ، فموقع اللفظة وعلاقتها المتشابكة مع ما قبلها وما بعدها يفتح أحوالاً متكاثرة ومعان متنوعة ، وهذا هو أصل المزية في النظم وبه يفضل كلام كلاماً . [2]

ويؤكد ذلك ملاحظته توزيع الأساليب بين الافتتاح والوسط وأثره في إحكام العلاقة والمقاربة بين المقاصد والزيادة فيها كما في بدء سورة الفاتحة " الحمد لله " ثم جاء في الوسط " أهدنا " فقارب بين الطرفين وأبعد المنتهى فـ " كأنه يقول : أيها العبد ، ألست قلت في أول السورة الحمد لله وما قلت أحمد الله فذكرت أولاً حمد جميع الحامدين فكذلك في وقت الدعاء أشركهم فقل " أهدنا " [3] .

فهذه المقاصد استثارها تكرار الأسلوب ونبه على ما انطوى تحت اللغة من معان وأحوال ، فقوله " أهدنا " أز معنى الاجتماع والتكافل الذي لفتة الحمد لله ، في بيانها ، فكان لسان العبد يقول : أحمدك كما يحمدك جميع العالمين فأنت المحمود بلسان جميع العالمين ، فأثبت له ولغيره فعل الحمد ، فكأن اللسان يلهج بحمد متتابع فلا ينقطع لسان عبد عن

---

(١) " منهاج البلغاء " ٥٠٩ .

(٢)" مرجعات في أصول الدرس البلاغي " محمد أبو موسى، ١٩٦ .

(٣)" التفسير " الرازي ٢١٩/١ .

الحمد حتى يتحرك لسان آخر . وهذا المعنى كان صامتاً حتى جاء قوله " أهدنا " فنبهت على خصوصية اختيار التحدث بالجمع وكونها مقصداً رئيسياً في بناء هذه السورة ، فأثبتت اللغة بلمحة دالة : أن المؤمن يتحرك في إطار الجميع في أقواله وأفعاله وظنونه فكما هو يثني علىأخيه المؤمن ويثبت له الخير فكذلك في وقت الدعاء يسأل له الخير كما يسأله لنفسه .

فالرازي في دراسته لنظم الافتتاح لم يكن يبحث في أبلغية اللفظة أو الأسلوب بقدر ما كان يتتبع منابع الغزارة في الجمل ويروز ما تحت بلاغتها من معان نبذت بها اللغة نبذاً مختصراً ثم نمت هذه العناصر وشكلت أغراضاً أصلية في بناء السورة .

وأبسط تصور لجملة الافتتاح يكون بتتبع عناصرها في الجملة الموالية لها ، وكيف تناسلت في بيانها وانحلت في نظمها فنبه على مداخل تلك الجمل في الافتتاح وموقعها منها فتارة تأتي شرحاً وتفصيلاً كما في سورة الأنفال في قوله تعالى : [1] ثم والها بقوله : 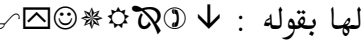 [2] لأنه " لما قال :" وأطيعوا الله والرسول إن كنتم مؤمنين " واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزماً للطاعة ، شرح ذلك في هذه الآية مزيد شرح وتفصيل وبين أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات " [3] .

---

(١) الأنفال ، آية : ١ .

(٢) الأنفال ، آية : ٢ .

(٣) " التفسير " ، ٤٥/٦ .

وفسر الزمخشري قوله : " إنما المؤمنون " بأنها " إشارة إليهم أي أنهم الكاملون الإيمان من صفتهم كيت وكيت " [1] .

وهذا ظاهر أنه في حدود الجملة المفردة ، أما الرازي فقد لاحظ ترتيب الطاعة على الإيمان وما وراء ذلك من مقتضيات أبهمت تحت ذلك الترتيب فجاءت الجملة التالية إشباعاً لدلالتها ومزيد تفصيل لها .

وكذلك جملة الافتتاح في الحج في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] ولم يجعل الآية التالية تفصيل وبيان لزلزلة الساعة لأن مقصد السورة وغرضها الإنذار بالساعة وبيان أحوالها ، وجعل بدء التفاصيل في قوله : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [3] ، يقول في وجه تعلقها بالمطلع : " أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس إلى تقوى الله . ثم بين في هذه الآية قوماً من الناس الذين ذكروا في الأولى وأخبر عن مجادلتهم " [4] .

وأما في سورة فاطر فيأتي قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [5] ؛ لأنه " لما بين

---

(١) " الكشاف " ، ١٩٥/٢ .

(٢) الحج ، آية : ١-٢ .

(٣) الحج ، آية ٣ .

(٤) " التفسير " ، ٢٠٢/٨ .

(٥) فاطر ، آية : ٣

أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي استوجبت الحمد على سبيل التفصيل بين نعمة على سبيل الإجمال " [1] .

وفي مواقع أخرى تجاذب الآية والموالية أطراف المطلع فتفصلها ثم ترتد إلى رأس الكلام مثل سورة الأنبياء حيث جاء قوله : 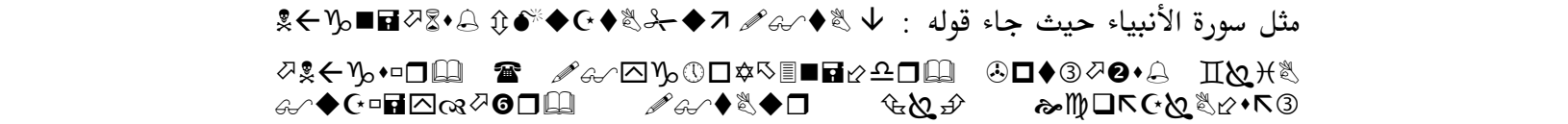 [2] ، فلما طلبوا آية جلية في قوله : [3] " بدأ بالجواب عن هذا السؤال الأخير بقوله : " ما أمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون " .

و ... أجاب عن سؤالهم الأول وهو قولهم " ما هذا إلا بشر مثلكم " بقوله : " وما أرسلنا قبلهم إلا رجالاً نوحي إليهم " فبين أن هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد صلى الله عليه و سلم ولم يمنع ذلك من كونهم رسلاً للآيات التي ظهرت عليهم فإذا صح ذلك فيهم ظهر على محمد مثل أياتهم " [4] .

وأحياناً نأتي الجملة مؤكدة لمقاصد المطلع وبناء عليها كما في سورة المؤمنون حيث جاء قوله [5] فـ " لما أمر بالعبادة في الآية

---

(١) " التفسير " ، ٢٢٢/٩ .

(٢) الأنبياء آية : ٦-٧

(٣) الأنبياء ، آية : ٥

(٤) " التفسير " ١٢٢/٨ .

(٥) المؤمنون ، آية : ١٢ .

المتقدمة ، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعاً " [1] .

ويمتد تتبعه ليستوعب جميع مكونات السورة ومعانيها وما نمي منها وكون غرضاً بذاته وأوضح ما يصور ذلك وقوفه عند جملة المطلع في سورة النساء وتحليله لعناصرها وما يندرج تحتها من صفات مقاصد أنجرت وسط السورة . فجملة المطلع هي قوله : ↓

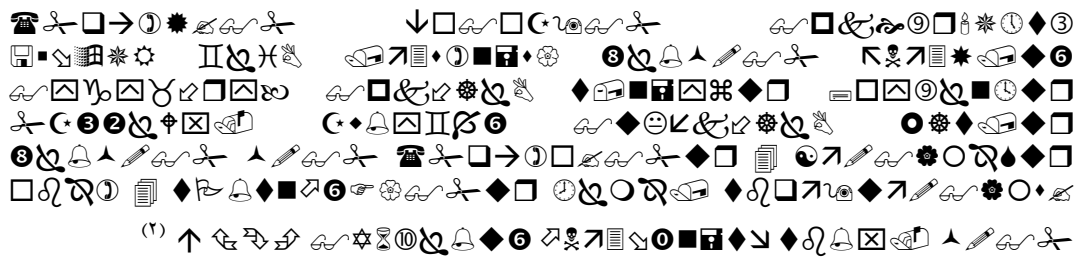

[2] ↑

فقوله : " اتقوا ربكم " لها موقعان : أحدهما باعتبار ما قبلها ، يقول : " اعلم أنه تعالى أمرنا بالتقوى وذكر عقبيه أنه تعالى خلقنا من نفس واحدة ، وهذا مشعر بأن الأمر بالتقوى معلل بأنه خلقنا من نفس واحدة " [3] .

فتصير هنا ابتداء أمر رتبت عليه علته ، والثاني يردها إلى مقاصد السورة ويجريها بين أعطاف أغراضها فتتهيأ بهيأة أخرى ؛ حيث تصبح علة لجميع الأغراض داخل السورة وقدمت العلة على معلولها لموجب بياني ، لما كثرت فيها التكاليف والفرائض مما قد يحصل منها مشقة على النفوس ، فابتدرها بذكر الامتنان والأنعام الذي اسبغه العزيز الحكيم على العباد ، ولا أعظم ولا أبلغ في قود النفوس من التذكير بالنشأة الأولى وخلقهم من العدم ، والانعام عليهم بعد الإيجاد والتخليق بأن جعلهم أمة واحدة وجعل بينهم المودة والرحمة ، مما يوجب الامتثال للتكاليف والفرائض . يقول في ذلك : " ولما كانت هذه التكاليف شاقة

---

(١) السابق ، ٢٦٤/٨ .

(٢) النساء ، آية : ١

(٣) " التفسير " ٤٧٩/٣ .

على النفوس لثقلها على الطبع لا جرم افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة وهي تقوى الرب الذي خلقنا والإله الذي أوجدنا " [1] .

وتكررت أيضاً وسط السورة في قوله تعالى : 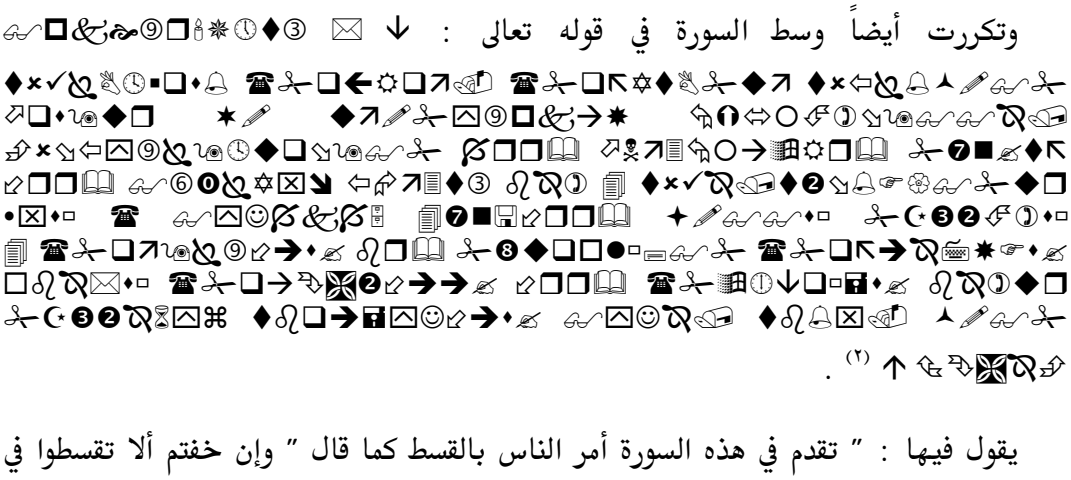 [2] .

يقول فيها : " تقدم في هذه السورة أمر الناس بالقسط كما قال " وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى " وأمرهم بالإشهاد عن دفع أموال اليتامى إليهم ، وأمرهم بعد ذلك ببذل النفس والمال في سبيل الله ، وأجرى في هذه السورة قصة طعمة بن أبيرق واجتماع قومه على الذب عنه بالكذب والشهادة على اليهودي بالباطل ، ثم إنه تعالى أمر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزوجة ومعلوم أن ذلك أمر من الله لعباده بأن يكونوا قائمين بالقسط ، شاهدين لله على كل أحد ، بل وعلى أنفسهم ، فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ما جرى في هذه السورة من أنواع التكاليف " [3] .

وأيضاً ملاحظته لموقع القيدين في جملة " اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " ومراجعة صداها المتردد في سياقات السورة ، وسلطته على الأغراض الأصلية والفرعية يقول :" إن الأمر بالتقوى معلل بأنه تعالى خلقنا من نفس واحدة ولكل من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى .. فمعرفة أنه خلقنا علة لوجوب الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأمره والأحتراز عن نواهيه .

---

(١) " التفسير " ، ٤٧٥/٣ .

(٢) النساء ، آية : ١٣٥ .

(٣) " التفسير " ، ٢٤٠/٤ –٢٤١

ومعرفة كيفية التخليق يدل على كمال قدرته وله فائدتان : الأولى أنه لما دلت هذه الدقيقة على أن مدبر العالم فاعل مختار قادر على كل المكنات عالم بكل المعلومات فحينئذ يجب الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه ، فكان ارتباط قوله " اتقوا ربكم " بقوله " خلقكم من نفس واحدة " في غاية الحسن والانتظام . [1]

فالالتزام بالتقوى معلل بذكر نعمة الخلق التي هي كفيلة في ذاتها بالانقياد والخضوع لأوامره لكن حينما أضيف لها قيد آخر وهو " من نفس واحدة " المبينة لكيفية التخليق زادت في معنى الأنعام معنى كمال القدرة ، فإذا لم تكن نعمة الإيجاد والخلق ملزمة على التقوى فإن المعرفة بالمنعم وقدرته وعظيم صفاته وحدها موجبة للانقياد له وإقامة تكاليفه وأداء فرائضه.

والقائدة الثانية تشربتها الدلالة من السياقات المتنوعة في السورة ، فاتصالها بقوله : ↓

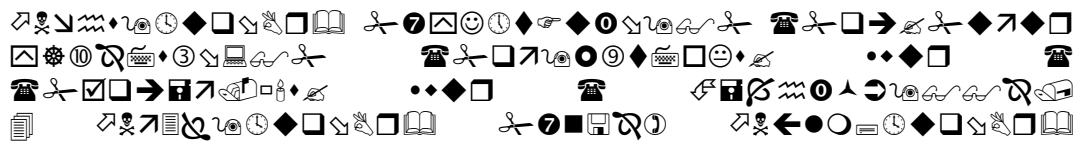

فتفصيل الخلق بكونهم خلقوا من نفس واحدة له أثر في تقرير المعاني الخاصة بإيجاب الحقوق بينهم ،و هو من المعاني الأصيلة التي دارت عليها السورة ، فكون الناس من أرومة واحدة يزيد في إيجاب الشفقة بينهم وتعطف بعضهم على بعض وأيضاً ترك المفاخرة ، مما يشيع بينهم حسن الخلق والتواضع ، لذلك قرن عبادته بأداء الحقوق بين الناس في قوله : ↓

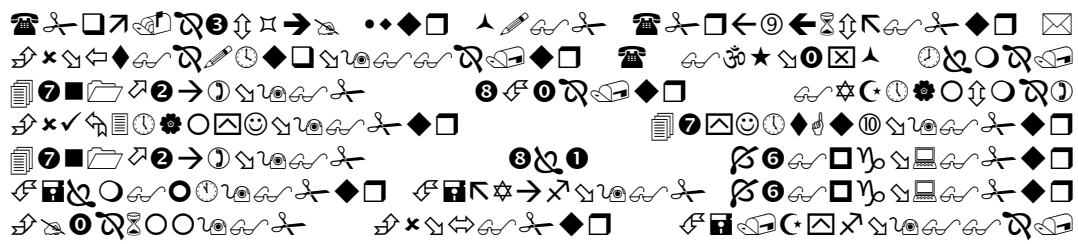

---

(١) " التفسير " الرازي " ٤٧٧/٣ ، ببعض التصرف .

(٢) النساء ، آية : ٢ .

فالحديث عن المعاد راجع إليها " لأن من كان قادراً على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصاً مختلفين فكيف يستبعد عليه أحياء الموتى وبعثهم " .

وقد جاء ذكره صريحاً كما قال تعالى : ↓ ✦🖉🖒✂ ✋🔸 ◔🕓🔸☜◔ ♦❍🕓🔸☜◔🔸

وأخرى مكنياً في سياق الحديث عن الجهاد تارة كما في قوله:↓ ◔◌◔□

وثالثة في سياق الحديث عن النبوة في قوله : ↓ ◔❶◔ ⊠✂↘⓿🔸▯🔸▫

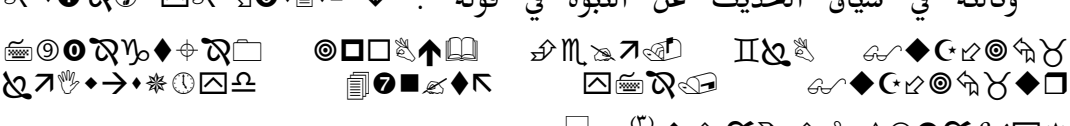

وأيضاً في قوله بيان جزاء من صدق وآمن بآيات الله وما أنزل على النبيين ومن كفر بها وصدّ عنها بقوله تعالى : ↓ ◔◌◔□ ✂❐↖❷⊠▦⊠🖒 ♦×⇦🙍🕭➢🖉🖒✂

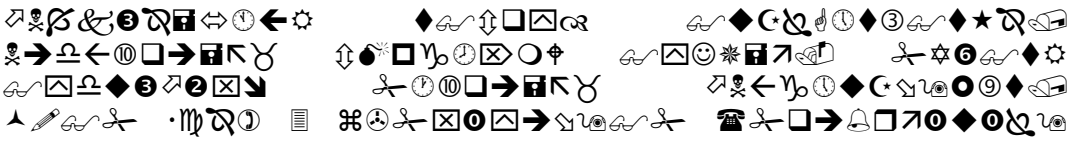

---

(١) النساء ، آية : ٨٧ .

(٢) النساء ، آية : ٩٧ .

(٣) النساء ، آية : ٤١ .

وأما النبوة فأمرها ظاهر لأن تقوى الله لا تقوم إلا بإقرار ما جاء به الأنبياء وتصديقهم لذلك اقترنت بطاعة الله كما في قوله تعالى : 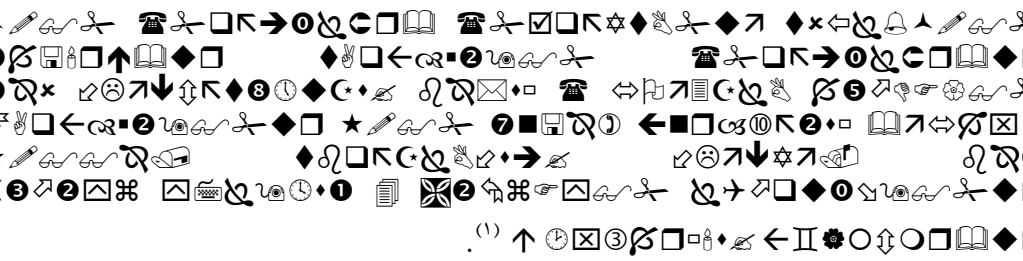 [1].

ويقف عند جملة " واتقوا الله الذي تسألون به والأرحام " فيستحضر الأمر في مدخل الآية وهو " اتقوا ربكم " فيرد التكرار في العجز على دلالة الصدر ، وكأن هذا التكرار يبرز عنصراً مجملاً في بناء مدخل جملة الافتتاح فينصه ويخصه بالذكر والتفصيل لمكانه من مقصد المتكلم ، يقول في الوجوه المستفادة من التكرار : " وذلك لوجوه : الأول : تأكيد الأمر والحث عليه .. والثاني أنه أمر بالتقوى في الأول لمكان الإنعام بالخلق وغيره ، وفي الثاني أمر بالتقوى لمكان وقوع التساؤل به فيما يلتمس البعض من البعض . والثالث : الرب لفظ يدل على التربية والإحسان ، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة ، فأمرهم بالتقوى بناء على الترغيب ، ثم أعاد الأمر به بناء على الترهيب " [2] .

فالقيام بالحقوق بين الناس بعد أن كان همساً خفياً في دلالات متكاثرة ومتنوعة للتقوى سل من بينها وأبرز سياقا له خصوصية وعناية زائدة وكأنه جنس مستقل ، فاستقلاله بالبيان يقابله استقلال في مكانه في باب التقوى .

ثم إن المكاشفة بها خصوصاً بعد أن كانت تجري في عموم حقوق مختلفة فيه إنباء بمضمون السورة ، فالعناية بهذه التقوى في وسط السورة وسيطرته على الأغراض المتنوعة داخلها امتداد لهذا المطل في جملة " واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام " .

ويرد الرازي سبب غزارة المعاني المتولدة من عطف جملة " اتقوا الله " على قوله " واتقوا ربكم " برده إلى الخصوصيات التي روعيت في اختيار كل لفظة . ووضعها في الموقع الأنسب

---

(١) النساء ، آية : ٥٩ .

(٢) " التفسير " ، ٤٨٠/٣ .

والأصلح لها فتكرار الفعل " اتقوا " واستحضاره مرة أخرى أكد المعنى الأول وزاد فائدة في الحث على المسارعة في أدائه، ثم جاءت الفروق بينهما من خلال القيدين لتفتح قناة لسياقين متغايرين فالأولى تجري في سياق الإنعام لأن القيد تذكير بالخلق الأول ونعمة التآلف والتكاثر التي تمت بها النعمة الأولى ، فناسب ذلك لفظ الرب . أما الجملة الثانية فقد جاءت في سياق الإنعام فيما يلتمس بعضهم من البعض من حقوق وواجبات يصلح بها معاشهم ، فناسب هذا الموقع التذكير بالألوهية المتضمنة لمعنى القهر والاستعلاء .

وتعدى الفعل الواحد إلى صفتين متقابلتين نزع بالسياق نحو بنائين كل منهما له خصوصية ، فالجملة الأولى بنيت على الترغيب لما فيها من التلطف بذكر صفة الربوبية وماتستلزمه من الإحسان والرحمة بهم كما هو حال المربي وشفقته على من تحت يده .

والثانية بنيت على الترهيب بذكر الألوهية و ما تنطوي عليه من أحوال العلو وكمال القدرة وجميع ما من شأنه أن يوقع في النفس الهيبة فتقف عند أوامر الله ونواهيه مطأطأة الرأس لما يوجبه الله تاركة كل هوى. وهذه المراوحة بين الترغيب والترهيب وبناء صدر الافتتاح على الترغيب ثم تصعيد الإلزام بالترهيب في العجز هو صدى للمذهب والبناء الذي بنيت عليه الأغراض في ثنايا السورة حيث سيطرت على حركة معانيها المراوحة بين الوعد والوعيد فتجد الأوامر والنواهي تنمو وتتصاعد في أجواء الترهيب والترغيب يقول في ذلك : "وقد كثر الوعيد في هذه الآيات مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك " ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً " ، " وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً " ثم ذكر بعدها هذه الآية مفردة في وعيد من يأكل أموالهم ، وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة ، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عقوبته وفضله ، لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى" [1] .

وأيضاً في سياق المواريث فـ " بعد بيان سهام المواريث ذكر الوعد والوعيد ترغيباً في الطاعة وترهيباً عن المعصية " .

---

(١) " التفسير " ، ٥٠٦/٣ .

فمداخل الكلام لها خصوصية في الإبانة والتأني للأغراض لذلك يكتنفها كثير من الغموض لدقة الدلالة واكتنازها فتجمل اللفظة حمولة دلالية تكاد أن تحتوي جميع مقاصد السورة وهذه الخصوصية هيأت لتمكن جملة الافتتاح في موقع الصدارة من الكلام .

وقد نبهت دراسته للمكونات البلاغية المشكلة لجملة الافتتاح على أن هذه الجملة لها هيئة تصير بها لائقة أن تكون بدء الكلام ومفتتحه، ويرد خصوصياتها غالباً إلى مداخلة المقاصد والأغراض لألفاظها وتعطفها بين كلماتها وهذا ظاهر في مراجعته لما تحت ألفاظها من معان ، وما في ترتيبها من لطف ، ودقة وتناسب ، وما وراء التناسب في الانتظام من معان وإيحاءات تطبق مفصل السورة ، وقد قرر حازم ذلك فيما بعد وجعله أصلاً في دراسة المبادئ يقول : " وفي الكلام ماله صورة يصير بها لائقاً أن يكون رأس كلام ومفتتح قول ، ومنه ما لا يليق بالمبادئ ، ولا يكون له هيأة تصلح لها " [1] .

وهذه الهيئة يسرت لجملة الافتتاح أن تصحب الكلام في جميع تحولاته وتنقلاتها ، فقد تتبع في تفسيره للآيات ترتيبها على المعاني ابتداء ، وكيف تنسل الأغراض والمقاصد داخل السورة من أصولها في الافتتاح ، فكشف بذلك عن العمق الدلالي لبناء جملة الافتتاح واتساعه ليشمل جميع المقاصد والأغراض وسط السورة ، وقد هيأ لهذا العمق خصوصيات بلاغية من الإيجاز ودقة للاختيار وحسن الترتيب .

وغالباً ما يعول في استثارته للمعاني على حسن الترتيب ويجعله المنظم لبناء المعاني وتفريع بعضها على بعض نحو ما ذكره في افتتاح آل عمران : ↓ ✂🖋✦ ✂🖐• ◆❑➔♎ ·•🌜☽ ☽🕓•🌜🌜☽ ❺❻🖂☪↘🌜🌜✂ ✂①↘⓿■🖬♦↖ ♦✌☐❽♦☼ ✂🦋🖈 ↖🏳❑❿⓿•☽↘🌜🌜✂ ✂❁🔔🔍♎⑨❁🕓↖✍ 🖈♎🖃🖂•↘🌜🌜✂🌜🖃 ❁🖬🕓♦☝↖▤↘🌜🌜✂ ♦✌♦❽☼❒🕮◆❒ 🔍❍⇙③🖂⑨♦③ ♦✖⇙✓♦🖃 ✂🖂☺🔍e🌜 ✂❶❑✱☝🌜🌜✂ ↑ ✂🇬🇧🖈 •✍⓿↖♈☥💣"✂◆❒ •◘🗁◆❻⇗❑✱☝🌜🌜✂ [2] .

فالسورة تتضمن الرد على النصارى الذين نازعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في دينه لتقرير صحة ما أتى به وصدقه ، وبالغت في كشف جميع الشبهات ليثبت " أن الدين عند

---

(١) " منهاج البلغاء " ٣١٠ .

(٢) آل عمران ، آية : ١-٣ .

الله الإسلام " يقول الرازي في بيان ذلك: " اعلم أن مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل لهم: إما أن تنازعوه في معرفة الإله ، أو في النبوة ، فإن كان النزاع في معرفة الإله وهو أنكم تثبتون له ولداً وأن محمد لا يثبت له ولداً فالحق معه بالدلائل العقلية القطعية ، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم ، والحي القيوم يستحيل عقلاً أن يكون له ولد وإن كان النزاع في النبوة ، فهذا أيضاً باطل لأن بالطريق الذي عرفتم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل على موسى وعيسى فهو بعينه قائم في محمد صلى الله عليه وسلم ، وما ذاك إلا بالمعجزة وهو حاصل ههنا ، فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة، فهذا هو وجه النظم وهو مضبوط حسن جداً .... ثم إنه تعالى لما ذكر ما هو العمدة في معرفة الإله على ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، وما هو العمدة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لم يبق بعد ذلك عذر لمن ينازعه في دينه فلا جرم أردفه بالتهديد والوعيد . فقال: ↓ ⅄ ✎ ⏢ ↖ ✍ ⬀ 📠 ♦ 🕭 ➔ ⑨ ✥ ❽ ☐ ♌ ◔ 🖹 ♦ ♌ ✍ ♦ 🔔 ⬀ ❷ ➔ 🖪 ✍ ❀ ✍ ✂ ♦ ✌ ♦ ❽ ☼ ❒ 🕮 ◆ ❒ ↳ ☐ ✍ ☐ ✡ 🖬 ℯ ✍ ★ 🖉 ✍ ✂ ✹ 💣 🕔 ♦ ③ ✍ ♦ ★ ✍ 🖅 ☎ ✂ ❒ ↖ ❷ ☒ 🖪 ☒ 🖅 ♦ ✖ ⇦ 🔔 ➹ 🖉 ✍ ✂ ☒ ❽ ③ ⓾ ♦ ↖ ✦ 🖉 ✍ ✂ ◆ ❒ 🖹 ⑨ ③ ⑨ ☒ ➹ ✇ ✂ ☒ ❶ ♦ ↖ ⇔ ⚐ ← ♍ ❀ ✍ ❶ ➔ ❒ ✂ ☼ ☞ ✹ ✍ ✈ ✍ ❀ ✌ ↑ [1] فقد ظهر أنه لا يمكن أن يكون كلام أقرب إلى الضبط ، وإلى حسن الترتيب وجودة التأليف من هذا الكلام"[2].

فبناء الجملة على الإجمال أحال على لوازم متكاثرة كونت فيما بعد أغراضاً ومقاصد دارت عليها السورة، فقوله "الله لا إله إلا هو" أثبتت أن العبادة لا يستحقها إلا الله، وأقامت دعوى على النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام، ثم بنى عليها الأدلة و رتبها باختيار وصف الحي القيوم دون غيرهما من صفات الألوهية، فجمع وجوه الدلائل المبطلة لشبهات النصارى في تآليه عسى عليه السلام لأن صفة الحي ترتب عليها نفي الولد، فمتى امتنع أن يتخذ الإله ولداً امتنع كون عيسى عليه السلام ولداً، والقيوم أنه لما كان عيسى عليه السلام

---

(١) آل عمران ، آية : ٤ .

(٢)" التفسير " ، الرازي ، ١٢٩/٣ .

يأكل ويشرب ويحدث امتنع كون إلهاً،[1] لأن هذا مناف للقيمومية، فمن لم يكن قائماً بذاته فلن يستطيع أن يكون مقوما لغيره.

ثم بنى الدعوة الثانية على حذو بناء جملة " الله لا إله إلا هو " فأجرى دعوى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير صدق المعجزة التي تثبت بها نبوته عليه الصلاة والسلام ورتب عليه الحجة المصدقة لها ، وهي أن العلم بأن التوراة والإنجيل كتابان إلهيان حاصل من قيام المعجزة وهي العلامة الفارقة بين القول الحق والباطل ، وهذه الدلالة بين المعجز وغيره كما هي هادية إلى كونهما نازلين من عند الله ، قائمة في القرآن فترتب عليه تصديق كونه منزل من عند الله ومتى كان الطريق مشتركاً فالواجب تكذيب الكل أو تصديق الكل أما الانتقاء المحتكم إلى الأهواء والتشهي جهل وتقليد .

وتلتقي جميع الأغراض والمعاني عند هاتين الجملتين ، فالسورة تصور شبهات الفرق الضالة من اليهود والنصارى والمنافقين ومحاولاتهم الدائبة للتشكيك في الدين والتلبيس على المؤمنين وزعزعة استقرار حسن العقيدة في نفوسهم ، لذلك عمدت في الافتتاح إلى معنيين هما عمدة في تقرير أمر هذا الدين ، واصلين يحفظانه من المشبهات وتثبت بهما أركانه وهما : معرفة الإله ومعرفة النبوة .

وقد جاء تقرير الدين والتنبيه على مكانته ، وأنه المنهج الأقوم الذي اصطفاه الله وجعله ختاماً لرسالته صالحاً للناس كافة ، جاء في سياقات الحديث عن الألوهية كما في قوله تعالى : " إن الدين عند الله الإسلام " .

وأيضاً بعد ذكر شهادة الله والملائكة والنبيين بوحدانية الله يقول عز جل : ↓

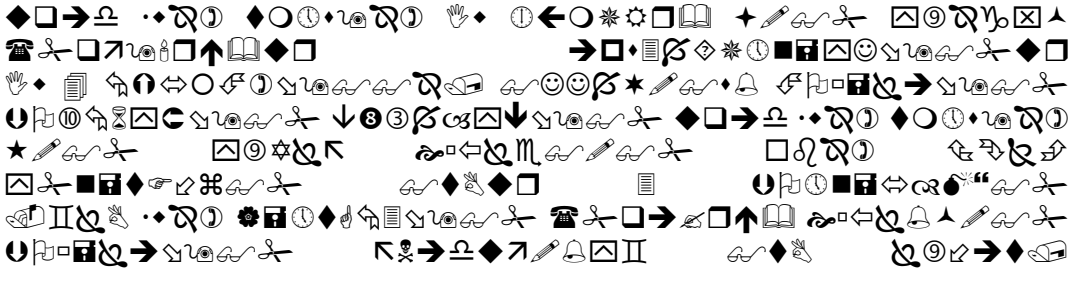

(١)السابق نفسه بتصرف .

وفي سياق الإلزام بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الإيمان به شرع شرعه الله على

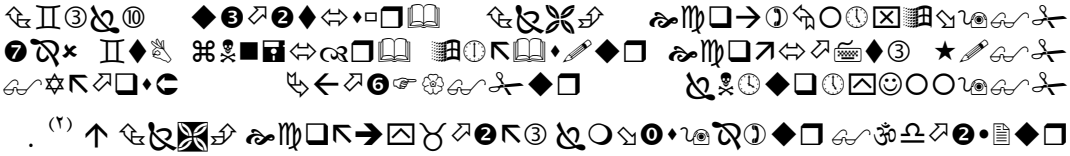

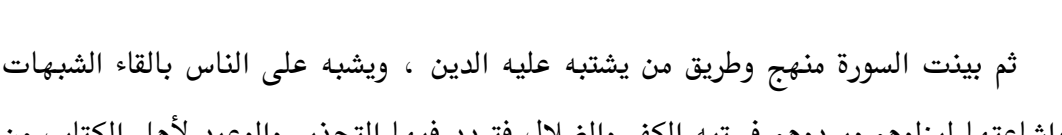

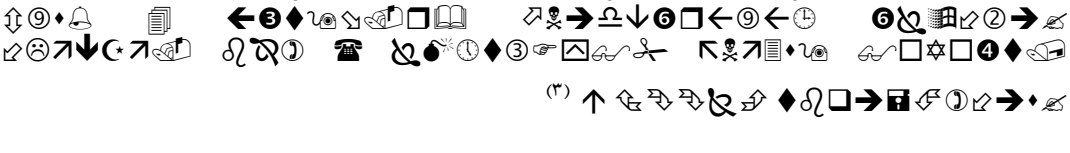

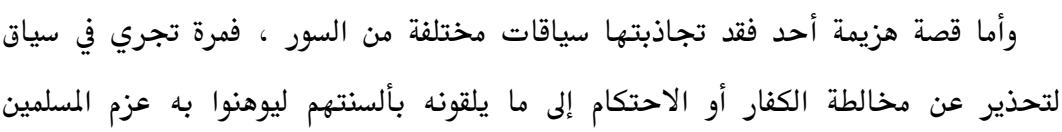

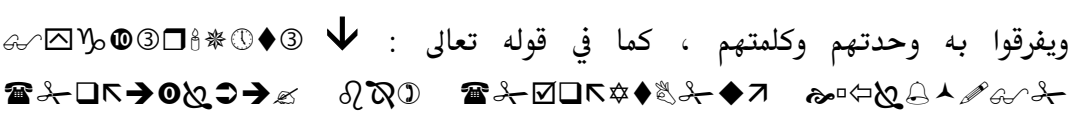

ثم بينت السورة منهج وطريق من يشتبه عليه الدين ، ويشبه على الناس بالقاء الشبهات وإشاعتها ليزلوهم ويردوهم في تيه الكفر والضلال فتردد فيها التحذير والوعيد لأهل الكتاب من

وأما قصة هزيمة أحد فقد تجاذبتها سياقات مختلفة من السور ، فمرة تجري في سياق التحذير عن مخالطة الكفار أو الاحتكام إلى ما يلقونه بألسنتهم ليوهنوا به عزم المسلمين ويفرقوا به وحدتهم وكلمتهم ، كما في قوله تعالى : ↓

---

(١) آل عمران ، آية : ١٨–١٩ .

(٢) آل عمران ، آية : ٨١–٨٣ .

(٣) آل عمران ، آية : ١١٨ .

مقاصده في سورة الزمر عنه في آل عمران يرجع إلى اختلاف الأصول التي أصل لها الافتتاح وبنى عليها .

وليتبين ذلك فتأمل قوله تعالى : 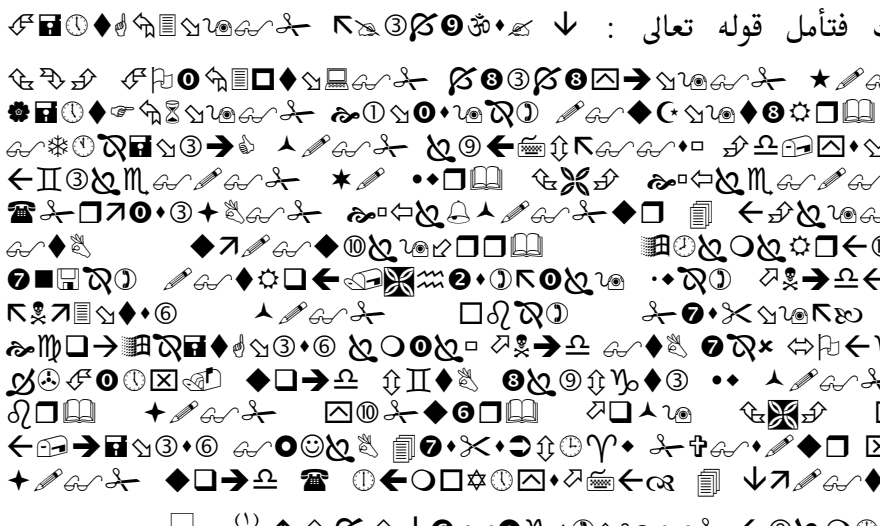

فالسورة خطاب لمشركي مكة ومحاجة لهم وتسفيه لمعتقداتهم من اتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله وصرفهم العبادة لها مع علمهم بنقصها وكمال الله وعجزها واستغناء الله ، فبنيت الجملة على تقرير الألوهية لله ، ونفيها عما عداه وتنزيهه عن الشريك والولد وإخلاص الدين لله بصرف العبادة له دون غيره ، وقررت هذا المقصد الكلي بأصلين هما : كمال القدرة ، وكمال الاستغناء ، يقول في ذلك : " فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقبيها ما يدل على كمال القدرة ، وعلى كمال الاستغناء .... ، وأيضاً فإنه تعالى طعن في آلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التي باعتبارها تحصل الآلوهية " [٢] .

وسبقت هذه الأدلة أسلوب غاضب للألوهية التي أبيحت لغيره ونازعه فيها — تعالى عما يشركون — من لا يستحقها ولا يقوم بوصفها ، وهذا المعنى هو قلب السورة الذي يتحكم في توزيع المعاني داخلها فنجده يتردد صريحاً وضمنياً بصورة ذلك قوله : "

---

(١) الزمر ، آية : ١-٤ .

(٢) " التفسير " ، ٤٢٣/٩ .

وقوله تعالى : [1] .

فمدار آياتها على الإثبات والنفي وقد سار هذان المعنيان جنباً إلى جنب في غالب آياتها كما في قوله تعالى : [2] .

لذلك جعل الإمام معنى الحصر معنى معتبراً في السورة ، فعندما يفسر قوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) يجعلها " جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله لا من غير ، وهذا الحصر معنى معتبر أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة " . [5]

وابتدأ السورة بإثبات أن الكتاب منزل من الله ثم إردافه بأوصاف الألوهية وهي " العلم بجميع المعلومات ، والقدرة على كل الممكنات ، والاستغناء عن كل الحاجات "[6] ؛ لأنه متى تمكن هذا المعنى استمالها للاستماع ومن ثم انتفعت بما يرد عليها من خطاب.[7]

وأما في آل عمران فقد ابتدأت بإثبات الألوهية ثم بني على تقريرها إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ماأتى به صدق لأنه تنزيل من الله المتفرد بألوهيته وصفاته .

---

(١) الزمر ، آية : ٦٧ .

(٢) الزمر ، آية : ٢٩ .

(٣) الزمر ، آية : ١٤ .

(٤) الزمر ، آية : ٦٤

(٥) " التفسير الكبير " ، ٤١٨/٩ .

(٦) السابق ، ٤١٩/٩ .

(٧) السابق نفسه .

وهذا توجيه حسن من الرازي راعي فيه مقاصد السور فمعنى إنزال الكتاب من الله يتكرر كثيراً في القرآن في صياغات متقاربة ، لكن وضعه في بيان السورة وسياقها يعكس عليه خصوصيات يمتاحها من مقاصد الكلام ومجريات الخطاب .

وبعد أن أثبتت الآيات أن الكتاب تنزيل من الله لا من غيره أردفه ببيان أعظم مقاصد الإنزال وهو " أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله بالكلية " [1] .

فتغير المعاني وتزايد الخصوصيات في المعنى الواحد يكون باعتبار جريانها وتعطفها في ثنايا المعاني المتلبسة بسياقها فتأخذ من أحوال ما تجاور معها ، فالقرآن مدار معانيه على تقرير مطالب اربعة معان كلية وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر تارة يكون التوحيد هو الأصل ويبني عليه النبوة والمعاد ، وتارة يتحول ما هو فرع على أصل في صورة أخرى وتبنى عليه المعاني الأخرى لذلك يلزم معرفة ما يجري إليه الكلام بملاحظة ما يؤسس عليه رأس الكلام من أصول المعاني ثم تتبع ما بني عليها من معان آخر ، ويتضح هذا الفهم أيضاً في تحليله لسورة الصافات حيث يقول : " أعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهي : الإلهيات ، والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر، فنقول أنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته ، وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب ، فلما أحكم هذا الباب فرع عليه إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة " [2] .

لذلك كان الرازي يعول على جملة الافتتاح في دراسة مقاصد السورة فيتتبع المعاني التي احكمتها وأجملتها ثم يتتبع ما بني عليها من تفريعات كانت أصولاً في سورة أخرى ثم تحولت فروعاً تسقي دلالة الأصل وتجري في مداراة .

وفي علاقة الأغراض الفرعية في داخل سورة الزمر برأس الكلام نجده يستحضر الأصول التي بني عليها الافتتاح ويحرك دلالتها من هذه الأصول ، فوصف أحوال القيامة في سياق

---

(١) " التفسير " ، الرازي ، ٤١٩/٩ .

(٢) السابق ، ٣٢١/٩ .

كمال القدرة الدالة على تفرده بالألوهية يخرج بالمعنى من غرض إثبات البعث ليصور كمال الهيمنة الموجبة لعبادته ، دون سواه ، يقول في قوله تعالى : [illegible] (1) يقول فيها : " واعلم أنه تعالى لما قدر كمال عظمته بما سبق أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضاً على كمال قدرته وعظمته ، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة " (2) .

ونبه أيضاً على سيطرة أصول الافتتاح على ترتيب الأساليب داخل السورة كما جاء في قوله تعالى : [illegible] (3).

فتقديم صفات القيامة على صفات الدنيا لصلته بالأصل الذي دارت عليه السورة وهو عبودية الله وحده دون سواه لأن " شرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا ، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا ، لأن الترغيب في الأخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض " (4) .

وكذلك توجيه اختيار بعض الصفات باعتبار ما يشع عليها من أحوال المقصد الكلي يقول في اختيار وصف المتقين في قوله تعالى : [illegible] .

---

(1) الزمر ، آية : ٦٨ .

(2) الزمر آية : ٢١ .

(3) " التفسير الكبير " ، ٤٧٩/٩ .

(4) السابق ، ٤٤٠/٩ .

[1] : " وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الصدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء ، والأتى بأحد الضدين يكون تاركاً للضد الثاني ، فالآتي بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركاً للشرك الذي هو أخس الأشياء ، وارذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين " [2] .

وهذا أصل بنيت عليه السورة ابتداء فهي قائمة على الإثبات والنفي وحصر الألوهية في الله دون سواه ، فتقرير التوحيد وحده ليس هو المطلب وإنما تعدى الإقرار بالتوحيد إلى ترك الشرك فالاتقاء هو اجتناب الشرك .

وتتنوع دراسته للفواتح تبعاً للتنوع في الجملة القرآنية ، فبعد أن أشار إلى النوع الذي ينبذ في كلماتها أصول الأغراض التي جرت في وسط السورة ودارت عليها مقاصدها يشير إلى نوع آخر ثان فيه الفاتحة مهيئة ومجملة للأغراض كما في سورة النور في قوله تعالى : ↓

[3] ↑

.

ويصف الرازي القيمة البيانية للإجمال وكيف طوي تحت لغته جميع الأغراض ودل عليها فأقام طنبها ثم فصل كل جهة حسب ترتيبها وموقعها ابتداء بقوله في ذلك : " إنه سبحانه ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود وفي آخرها دلائل التوحيد ، فقوله "وفرضناها " إشارة إلى الأحكام التي بينها أولاً ثم قوله " وأنزلنا فيها آيات بينات " إشارة إلى ما بين من دلائل التوحيد ، والذي يؤكد هذا التأويل قوله " لعلكم تذكرون " فإن الأحكام والشرائع ما كان معلوم لهم ليؤمروا بتذكيرها ، أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكرها ... قال القاضي : إن السورة كما اشتملت على عمل الواجبات فقد

---

(١) الزمر ، آية : ٣٣ .

(٢) " التفسير " ، ٩/٤٥٢-٤٥٣ .

(٣) النور ، آية : ١ .

اشتملت على كثير من المباحثات بأن بينها الله تعالى ، ولما كان بيانه سبحانه لها مفصلاً وصف الآيات بأنها بينات " [1] .

ونوع آخر تجد فيه جملة البدء حاملة للمقصد الكلي الذي ترتكز عليه الأغراض المختلفة داخلها كما في سورة المائدة ، في قوله تعالى : ↓ [2] .

يقول الرازي : " اعلم أنه تعالى لما قرر بالآية الأولى على جميع المكلفين أنه يلزمهم الانقياد لجميع تكاليف الله تعالى وذلك كالأصل الكلي والقاعدة الجملية ، شرع بعد ذلك في ذكر التكاليف المفصلة فبدأ بذكر ما يحل وما يحرم من المطعومات فقال : " أحلت لكم بهيمة الأنعام " [3] .

فالجملة الأولى من الآية هي أصل السورة ومبناها . والفارق بين هذا النوع وسابقه أن الإجمال هو تضمن جملة الافتتاح للمعاني والأغراض التي نفصلها السورة فيما بعد : أما الكلي فهو قاعدة ومعنى ركيزة تلتف حوله الأغراض ، فتستقر به دون أن يسيطر على نموها وتفصيلها ، ويصور ذلك صدى الافتتاح في قوله تعالى : ↓ 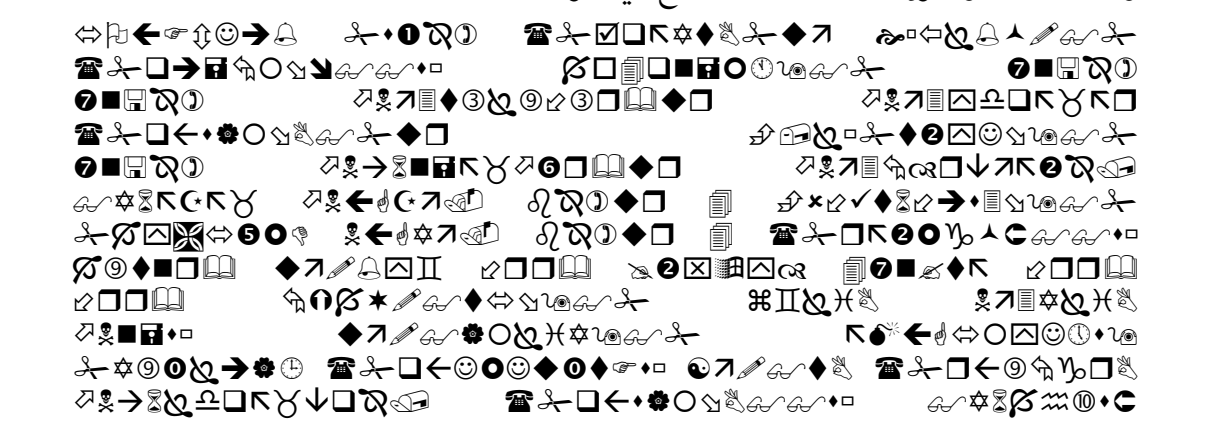

---

(١) " التفسير الكبير " ٨/٣٠١-٣٠٢ .

(٢) المائدة ، آية : ١ .

(٣) " التفسير " ، ٤/٢٧٧ .

فالافتتاح وطد لميثاق بين الرب والعبد واثقهم به ابتداء فبين عهد العبودية وهو الوفاء بما أمر الله به والتزام فرائضه وعهد الربوبية من الله بإحسانه وعظيم إنعامه على العبد فيما يصلح دنياه من الطيبات والرزق ، وما يصلح أخرته من بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، فجاء الأمر بإقامة الصلاة بعدما استقصى سبحانه " وما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح .. وعند تماما هذا البيان كأنه يقول " وقد وفيت بعهد الربوبية في الدنيا من المنافع واللذات ، فاشتغل أنت في الدنيا بعهد العبودية ، ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء " [٢] .

ويقول أيضاُ في قوله : (ويتم نعمته عليكم) : " ففيه أن الكلام يتعلق بما ذكر في أول السور ة إلى هنا ، وذلك لأنه تعالى أنعم في أول السورة بإباحة الطيبات والمناكح ، ثم إنه تعالى ذكر بعده كيفية فرض الوضوء ، فكأنه قال : إنما ذكرت ذلك لتتم النعمة المذكورة أولاً وهي نعمة الدنيا ، والنعمة المذكورة ثانياً وهي نعمة الدين " [٣] .

وأيضاً في ذكر أهل الكتاب أختير منه ما يناسب الافتتاح فجاء الحديث عن تمردهم وعتوهم على ما عهد إليهم يقول في ذلك : " إعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله ، هو متعلق بما افتتح الله به السورة ، وهو قوله : " أوفوا بالعقود" . [٤]

والرازي في تتبعه لنبع المعاني في وسط السورة وعلاقتها بالأصول التي بنى عليها الافتتاح يلحظ حركة المعنى باتجاه الزيادة والنمو من عناصر المطلع ، وطريقة توزيعه في أغراض السورة

---

(١) المائدة ، آية : ٦ .

(٢) " التفسير " ، ٢٩٦/٤ .

(٣) " التفسير " ، ٣١٨/٤ .

(٤) السابق ، ٤٠٤/٤ .

، لأن التفصيل يكمل تلك العناصر ، وينميها بالبناء على معانيها وتفريع مضامينها المكنونة في زوايا لغتها ، فالتفريع يفتح جميع الخصوصيات البيانية للمبادئ فتأخذ مكوناته باطراف الدلالة وتوزعها بين مقاطعها المتعددة كما في سورة الأحقاف ، إذ جعل رأس الكلام فيها قوله تعالى : 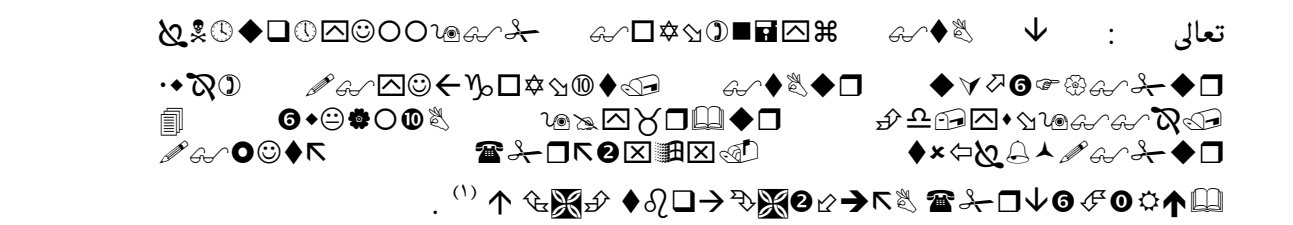 (١) .

فالافتتاح " يدل على إثبات الإله لهذا العالم ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلاً رحيماً بعبادة ، ناظراً لهم محسناً إليهم ، ويدل على أن القيامة حق ... وأعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه عادلاً رحيماً ، وعلى إثبات البعث والقيامة بني عليه التفاريع " (٢) .

فجميع ما في السورة من معان تفريع وتوزيع للمعاني التي تضمنها نسق هذه الآية ، فرد جميع المقاطع والأغراض عليها . فبدأ أولاً بأدلة التوحيد واختصاصه بالألوهية وفرع عليه ، إبطال مسلك المشركين في عبادتهم للأصنام ، وهذا تضمنه قوله ابتداء " ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق " وراجع اختيار " الحق " وموقعها في سياق إثبات الإلوهية وكيف بني عليها رد مذهب كفار مكة في عبادتهم للأصنام وتكذيبهم لهم في معتقداتهم . ثم بنى عليها الألوهية إثبات النبوة في قوله : " والذين كفروا عما أنذروا معرضون " : " والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب ، ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار " (٣) .

وبنى عليها أيضاً إثبات اليوم الآخر وذكر أحوال المعاد بقوله : " وأجل مسمى " فهي تنبيه على صحة القول بالبعث والقيامة " (٤) .

---

(١) الأحقاف ، آية : ٣٣ .

(٢) السابق ، ١٠/٥-٦ .

(٣) " التفسير " ١٠/٦ .

(٤) السابق نفسه .

ولخص الرازي ذلك البناء بقوله : " اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود دالالة القادر الحكيم المختار ، ثم فرع عليه فرعين : الأول : إبطال قول عبدة الأصنام ، والثاني : إثبات النبوة وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة ، وأجاب عنها ، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طيباتها وشهواتها ، وبسبب أنهم كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد صلى الله عليه وسلم فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم ، فكان ذلك تخويف لأهل مكة بإصرارهم على إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته في الجن وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد والنبوة ، ثم ذكر عقيبها تقرير مسألة المعاد " [1] .

وهذا التلخيص جمع فيه أعناق المعاني المتفرقة داخل السورة وسلك بها مسلكاً مؤتلفاً ثم رد دلالتها على صدر الكلام وأوله ، وهذا نمط جيد في التحليل يراجع جميع الجزئيات والتفاريع في نهاية السورة ويرتد بها إلى أصولها في جملة البدء ، فيحكم بذلك تصور بنية السورة وتنظيم مقاصدها .

ونبه أيضاً على التشابه في توزع معاني المطلع مع توزيعها في بناء القصص داخل السورة كما في سورة هود عليه السلام حيث جاء في مطلعها : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [2] .

فالجملة " مشتملة على التكليف من وجوه الأول : أنه تعالى أمر بأن لا يعبد إلا الله ..

---

(١) " التفسير " ٢٩١/١٠ – ٣٠ .

(٢) هود ، آية : ١–٣

والمرتبة الثانية من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله : " وإن استغفروا ربكم " . والمرتبة الثالثة : " ثم توبوا إليه " "[1] .

ثم جرت هذه التكاليف الثلاثة بنفس النسق الذي جاءت عليه ابتداء في ثنايا القصص الواردة وسط السورة ، وجاءت على مسارها وتنظيمها فأمروا أولاً بتبليغ التوحيد ثم دعوهم إلى الاستغفار ثم التوبة كما في قصة هود في قوله : [2] .

علق عليها الرازي بقوله : " واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام أنه دعا قومه إلى أنواع من التكاليف . النوع الأول : أنه دعاهم إلى التوحيد ... النوع الثاني من التكاليف ... دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة ، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة " [3] .

وجرت قصة صالح مع ثمود على ذلك الترتيب فـ " نظمها مثل النظم المذكور في قصة هود"[4] .

---

(١)" التفسير " ٦/٣١٤-٣١٥ .

(٢) هود آية : ٥٠-٥١-٥٢ .

(٣) " التفسير " ٦/٣٦٢ -٣٦٣ .

(٤) " السابق " ٦/٣٦٧

المبحث الثاني : التناسب ين الخواتم والمقاصد

وجملة الختام ينتهي إليها مراد المتكلم من كلامه ، فتكتمل عندها المقاصد وتستقر الدلالة ؛ لذلك كان التعويل عليها لتنظيم ما تشعث في الكلام من أغراض وما تفرق وسطها من سياقات أمر بالغ الأهمية اشتدت لأجله عناية الرازي بهذه الجملة فتتبع علائقها بجميع عناصر السورة وأصدائها في بواطن الكلام ، وقد استند في تفسيرها على أصلين هما :

١- جملة الأغراض والمقاصد الكلية .

٢- جملة الافتتاح وتناسبها مع مكوناتها المعنوية واللفظية .

وفي هذا المبحث أفصل القول في طرائق الرازي في ردَّ جملة الختام إلى المقاصد الكلية ، وقدمت الحديث عنها على ردها إلى جملة البدء لأن التقاء الجملتين مداره على الأغراض والمعاني التي جرت وسط السورة ، وأيضاً وضع الخاتمة في موقعها من المقاصد أولاً ثم ردَّها إلى جملة البدء يحرر نقاط الالتقاء ويجلوها ، مما ييسر الكشف عن الوجه الجامع بين الجملتين والتنبيه على الزيادة في معاني الخاتمة وأصول هذه الزيادات وهذا النوع من المناسبة وإن جاءت فيه التنبيهات بكلمات معدودة إلا أن وراءها جهداً جاهداً وتأملا شريفاً وقف به طويلاً عند تتبع ما أندس فيها من آثار الأغراض ليدل عليها وينبه على خبيئها وجذر باب علاقة الخواتم بالمقاصد دراسة مناسبة الفاصلة القرآنية لسياقها وما قبلها من معان ، ولا يكاد يخلو مؤلف في الإعجاز من الإشارة إلى ثراء هذا الباب ، وقد عني الإمام بالوقوف عنده وتحليل الفواصل باعتبار المعاني ، وأفاد في بعضها من بعض أئمة التفسير نحو ما ذكره في قوله تعالى: "إن اللّه لعفو غفور " وتعلقها بما قبلها وهو قوله : ⇳♊♦👌◆❒ ☙①♎✆⌚♦❶ ✉ ↓
▪☠➔⚐ ⌚♎❍♐📬 ✿💾♎🔔❑⇖⇖ 👓♦👌 ⇯✍⬃✞♎☺♐📬 ✿💾♦🔔👓♦⇖
·♍♐✆ 📄 ✦✏👓✂ 🡐❍✵☼◆❸⇑⬁✡◆⑩♦✆ ♎❍⬂⓿■💾♦⇖ ⌘♏⇯⇗🡐📬
✂👓✏⍋ ✆♦➔⍓⊠⍓➔❑⌨ ➘⊠⍓➔❑❻⌧ ⇯⇮♎⬁ ↑ [1] .

فـ " فيه وجوه : أحدها : أن اللّه تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجاني ، فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة ، فكأنه سبحانه قال : إني قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها ، فإني أنا الذي أذنت لك فيه ، وثانيها : أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على

---

(١) الحج ، آية : ٦٠ .

الباغي لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين . وثالثها أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة ، لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده " [1] .

وكذلك في فاصلة قوله تعالى : 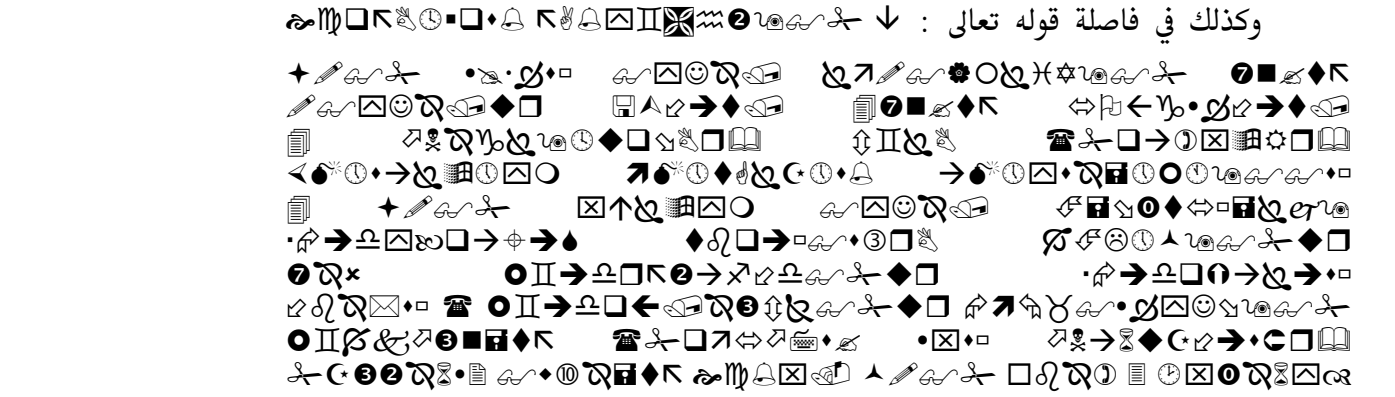 [2] فـ "ذكر هاتين الصفتين في هذا الموضع في غاية الحسن ، وبيانه من وجوه : الأول : أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النسوان ، والمعنى أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم ، فالله سبحانه علي قاهر كبير قادر ينتصف لهن منكم ويستوفي حقهن منكم ، فلا ينبغي أن تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن ، وأكبر درجة منهن .

الثاني : لا تبغو عليهن إذا أطعنكم لعلو أيديكم . فإن الله أعلى منكم وأكبر من كل شيء وهو متعال عن أن يكلف إلا بالحق .

الثالث : أنه تعالى مع علوه وكبريائه لا يكلفكم إلا ما تطيقون فكذلك لا تكلفوهن محبتكم فإنهن لا يقدرن على ذلك .

الرابع : أنه مع علوه وكبريائه لا يؤاخذ العاصي إذا تاب ، بل يغفر له ، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فأنتم أولى بأن تقبلوا توبتها وتتركوا معاقبتها .

الخامس : أنه تعالى مع علوه وكبريائه اكتفى من العبد بالظواهر ولم يهتك السرائر ، فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة ، وأن لا تقعوا في التفتيش عما في قلبها وضميرها من

---

(١)" التفسير " الرازي ٨/٢٤٥ ، وينظر " الكشاف " الزمخشري ٣/١٦٧ .

(٢) النساء ، آية : ٣٤ .

الحب والبغض "[1] .

فهو يلحظ ما أشار إليه ابن عطية من كونها تهديداً للأزواج فـ " قدرة الله فوق كل قدرة ويده بالقدرة فوق كل يد ، فلا يستعمل أحد على امرأته فالله بالمرصاد "[2] .

ويعم الفائدة فيجعلها متضمنة معنى التحذير والإعلام بعظم قدرة الله لينتهي كل مقتدر على من تحت يده حين يعلم أن الله مع علوه وكبريائه تعصونه ثم يتوب و يعفو فأنتم أحق بالعفو عمن يجني عليكم إذا رجع ، وساق عليها ما روى عن أن أبي مسعود الأنصاري لما رفع سوطه ليضرب غلامه ، فبصر به عليه الصلاة والسلام فصاح به : لله أقدر عليك منك عليه "[3] بينما ذكر ابن عطية الرواية وجعل موقع الفاصلة نظير موقعها في بيان الرسول عليه السلام والسلام حيث قال : " وينظر هذا إلى حديث أبي مسعود .... " [4] .

وفي مواضع كثيرة نبه على أسرار لم يذكرها من كان قبله كما في فاصلة فصلت في قوله تعالى : ❼🚫× ⌨☠✂◆❑🕓🖂☺🖂♌ 🖂🡕🡕📠🖂♌ ⓿Ⅱ←♈☜•🖋♦☽♦▫ ↓

☮↗🖉🖋🖂☺🖂♌ 🖈♏✍↗📠 ❼🚫× 🗐❻🖂❍🡔❐❐🕮◆❐ 🖈×🡔✓♦✍🡕❑♦③
◆↗🖉🖋🖂☺○○☜🖋✂ 🖋□☪✸③🖂ᘐ◆❐ 🗐 🖋🖂♎♦❷↘✍❐🕮
🗐 🖋☪→↘📠🖄❍◆❐ 🖂☒⑩🚫⌛🕓❁🕓🖂☺🚫📠 🖋◆⓿🡔☼❻⑨☜🖋✂
🖄❽③🖄❽🖂➔↘☜🖋✂ ↖❷③🖄⑨↘☽♦✍ ❶♦🕓☜🖋🖂

✂🖋☜↘➔🖂🖬🚫⑩🏳🖈🖋🚫↑ [5]

يقول فيها : " واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل ، قال : " ذلك تقدير العزيز العليم " والعزيز إشارة إلى كمال القدرة ، والعليم إشارة إلى كمال العلم ، وما أحسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط " [6] .

فالفاصلة متعلقة بالمقصد الكلي مقررة له ، وأحياناً تتفرع على عناصر السورة وتتعلق

---

(١) " التفسير " ٧٣/٤ .

(٢) " المحرر " ، ٤٨/٢ .

(٣) " الكشاف " ٥٠٧/١ .

(٤) " المحرر " ٤٨/٢ .

(٥) فصلت ، آية : ١٢

(٦) " التفسير " ٥٥٠/٩ .

بأكثر من جملة فتستوعب بهذا التوزيع جميع معاني السورة مثل قوله تعالى : [1]

فـ " قال (إن الله كان سميعاً بصيراً) أي اعلموا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات بجازيكم على ما يصدر منكم ، وفيه دقيقة أخرى ، وهي أنه تعالى لما أمر في هذه الآيات بالحكم على سبيل العدل وبأداء الأمانة قال : (إن الله كان سميعاً بصيراً) أي إذا حكمت بالعدل فهو سميع لكل المسموعات يسمع ذلك الحكم وإن أديت الأمانة فهو بصير لكل المبصرات ، يبصر ذلك ، ولا شك أن هذا أعظم أسباب الوعد للمطيع ، وأعظم أسباب الوعيد للعاصي ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : " اعبد الله كأنك تراه فن لم تكن تراه فإنه يراك " وفيه دقيقة أخرى وهي أن كلما كان احتياج العبد أشد كانت عناية الله أكمل ، والقضاة والولاة قد فوض الله إلى أحكامهم مصالح العباد ، فكان الاهتمام بحكمهم وقضائهم أشد ، فلما كان هذا الموضوع مخصوص بمزيد العناية لا جرم قال في الآية (إن الله كان سميعاً بصيراً) فما أحسن هذه المقاطع الموافقة لهذه المطالع " [2] .

فدرك وجه المناسبة بين الفاصلة والمعنى في حدود الجملة يشوبها غموض يتطلب معه تلطف للكشف عن ما أجملته من مضامين تحور إلى سياقها وتغذي بيانه ، ويزداد الخفاء في جملة الختام ؛ لأنها تأتي في سياق معان ومقاصد متنوعة يكون معه من العسير تعليقها بمعنى واحد دون غيره من المعاني .

ولم يخلُ تراث التفسير قبل الرازي من إشارات تغري بفتح هذا الباب واستقصاته في كل سورة ، وقد أفاد الإمام من بعضها حيث ذكر كلاماً للقاضي في مناسبة خاتمة سورة الأنبياء لما جرى فيها من أغراض ومقاصد يقول : " قال القاضي : إنما ختم الله هذه السورة

---

(١) النساء ، آية : ٥٨ .

(٢) " التفسير " ١١١/٤-١١٢ .

بقوله " قل رب أحكم بالحق " لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه ، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم ، فإذا أبو إلا التمادي في كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق ، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره .. "[1] .

وكذلك في خاتمة سورة إبراهيم في قوله تعالى : ↓ ⍾⍓⏲■🖬♦🖃 ✂☒❶⏲⍓⍾ ↓
⏲⍁❍⍁🖃 ☎✂❒↓❻☒❶☪↖⑩⍁๑◆❒ ↳□🖋□☪🖬⍁er๑
◅❍⏲⬧๑⍁❶ ◆❑➔⍾ 🖋⍓☺✵☼❒🕮 ☎✂☑❑←☺■🖬⍐➔◆❶⍁๑◆❒
☎✂❑↗๑🕯❒↑🕮 ♦❷➘🖃⊙❶◆⑩⍁๑◆❒ ⍉⑨⍁■⏲◆❒
➘✂☺๑☞❀🖋✂ ↑ ⍄⍁🦋🖋 🖋🖬⏲♦⌛↘๑☞❀🖋✂ [2] .

يقول فيها : " أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس ، أي كفاية في الموعظة ، ثم اختلفوا فقيل : إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن ، وقيل : بل إشارة إلى كل هذه السورة ، وقيل : بل إشارة إلى المذكور من قوله " ولا تحسبن " إلى قوله " سريع الحساب " ... هذه الآيات مستعرة بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة " [3] .

فالإمام يقلب آراء العلماء في وجوه تعلق الخاتمة بسياقات مختلفة سواء في محيط السورة أو في النظم القرآني عامة ، ثم كشف عن وجه ربط أغراض السورة بالموعظة وما فيه من إشعار بأن التذكير بهذه المواعظ هاد إلى التوحيد ، فاسم الإشارة خصوصية أسلوبية حوت كل ما مضى من أغراض ومعان ووجهتها تجاه المقصد الكلي للسورة فجعل منها وحدة متماسكة حتى أصبحت السورة مبتدأ وخبر ، فكان الذي فتح الباب في علاقة الخواتم بالمقاصد هو القرآن نفسه ؛ لأن استخدام الربط اللفظي لفت ظاهر إلى هذه العلاقة وإلحاح على اقتصاص موضع الإشارة وأثارها على المعاني السابقة .

---

(١) " التفسير " ١٩٦/٨ .

(٢) إبراهيم ، آية : ٥٢ .

(٣) " التفسير " ١١٤/٧-١١٥ .

وتوقف بعض العلماء عند دراسة موضوعات الخواتم وتنوعها ما بين وعظ ونصيحة ووعيد وأمثال وغير ذلك دون بيان لمناسبة كل نوع للمقاصد والسياقات المكتنفة له ، أو ترتيب موقعها باعتبار من الأغراض . فجميع من جاء بعده لم يتجاوز إطار الموضوع إلى موقعه فهذا الزركشي يقول فيها : " وهي مثل الفواتح في الحسن ، لأنها آخر ما يقرع الأسماع ، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوق النفس إلى ما يذكر بعد .

... ولأنها بين أدعية ووصايا وفرائض ومواعظ وتحميد وتهليل ، ووعد ووعيد إلى غير ذلك " [1] .

وكذلك الطيبي عول في وجه حسنها وبلاغتها على ذلك يقول : " وجميع خواتيم السور في نهاية من الكمال ؛ لأنها بين أدعية ووصايا ومواعظ وتحميد ووعد ووعيد وتعظيم وتبجيل والله أعلم " [2] .

بينما لم أجد للإمام عناية بتصنيف موضوعاتها ومعانيها ، وإنما جملة الخواتيم عنده جملة تذليل وليست تأسيساً فوظيفتها أشبه بجملة التذييل في عدم استقلالها بل هي تجري في محيط المعاني السابقة لها من ابتداء السورة إلى ما قبل هذه الجملة ، وتمكنها في موقعها باعتبارات ترجع إلى ردها إلى معاني الوسط سواء كان معنى كلي أو معان هي صفوة ما تسعى السورة إلى تقريره وبيانه لذلك نجاوز الوقوف على موضوعاتها إلى فتح وجه المناسبة بين معانيها ومقاصد السورة والبحث فيما بينها من وشائج ونسب ، فيعزوها إلى ما يناسبها ويناسب دلالتها وفق ما سبقها من أغراض ، فأراك به ما تحت لغة الخاتمة من علائق تروغ بالمعنى وتتعطف به عن ما قبله من جمل لتصلها بعموم المقاصد ، مما يكسب عناصرها فاعلية ما كانت لتكون في الجملة بمفردها ، ولكن تضافرها مع السياقات وترابطها المنسجم داخل هذا الكل أضاف إليها معان ، وأضافات إلى المقاصد والأغراض معان أخرى .

وشاهد ذلك موضوع النصيحة والوعظ وتنوعها باعتبار من الأغراض كما في سورة لقمان

---

(١) " البرهان " ، ٢٣٣/١ ، وينظر " معترك الأقران " السيوطي ٥٨/١ .

(٢) " التبيان " ٤٦٦ .

في قوله تعالى : 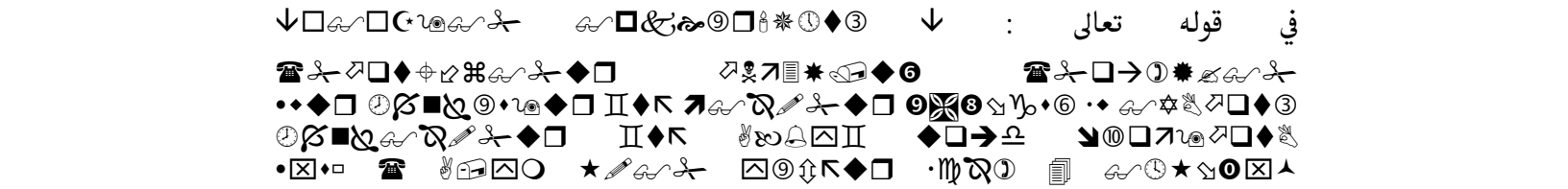 .[1]

فـ " لما ذكر من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة ، فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد ، وذلك لأن الملك إذا كان واحد أو يعهد منه أنه لا يعلم شيئا ولا يستعرض عباده ، ولا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ثم أكده بقوله " لا يجزي والد عن ولده " ... " إن الله عنده علم الساعة .... " يقول بعض المفسرين إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك ، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة ، ويعلم أنه اين هو ولا يعلمه غيره ، ولأن يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة في برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره ، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر إنما الحق فيه أن نقول لما قال الله "اخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده " وذكر أنه كائن بقوله " إن وعد الله حق " كأن قائلاً قال : فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مالم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ، ثم ذكر الدليلين الذين ذكرناهما مراراً على البعث : أحدهما إحياء الأرض بعد موتها ... وثانيهما : الخلق ابتداء ... فقال ههنا : " ويعلم ما في الأرحام " إشارة إلى أن الساعة وإن كانت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها ، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك

---

(١) لقمان ، الآيات : ٣٣-٣٤ .

يقدر على الخلق من الرخام ... " [1] .

وفي سورة " ص " يتخذ النصح والإرشاد مسلكاً مختلفاً وذلك في قوله تعالى : [2] .

ووجه تمكنها مع مقاصد السورة ما ذكره الإمام : " اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقاً كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين ، ثم قال عند الختم : هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظروا في حال الداعي ، وفي حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل ، أما الداعي وهو أنا ، فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالاً ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال ألبته ، وكان من الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها ، وأما كيفية الدعوة فقال : وما أنا من المتكلفين والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله " إن هو إلا ذكر للعالمين" ولما بين هذه المقدمات قال : " ولتعلمن نبأه بعد حين" والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد وأبيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض أو مخطئين وذكر هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب " [3] .

وإذا وقف عند معاني الخاتمة أطلعك على ما تكتنزه من بيان وأسرار دون تعرض للمعاني العامة وإنما يثير إيجازها وإجمالها ويحرك لغتها التفصيل كما في سورة الصافات في

---

(١) " التفسير " ١٣٢/٩ .

(٢) ص ، الآيات : ٨٦-٨٨ .

(٣) " التفسير " ٤١٦/٩-٤١٧ .

قوله تعالى : ↓ ⌘♊🕓🖂⬧⬀⌛←ෆ 🖂🖮🔀■🖃◆❻ 🖂🖮🔀■🖃◆❻
🖝🖝🔀🖝🖝 🖝♍❑→▦🖝🕓◆③ 🖝✶🖝⊠◣ 🖝□□❽🔀→🖝🖝🖝
🖝🖝🔀🖝🖝 🖝▫✓🔀■🖃🖂ෆ⬀❷←☺🖝🖝🖝 ◣🕴🕓■🖃🖂ෆ◆❒
🖝▫✓🔀☺■🖃🕓🖂→🖝🖝🖝 🖝♌🕈◆❻ ✶🖉 ←⑨⇳☺◘◆🖝💻🖝🖝◆❒
🖝🖝🔀🖝🖝↑ [1] .

قال فيها : " إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة : فأولها معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع : أحدها : تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية وهو لفظه سبحانه ، وثانيها : وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله " رب العزة " فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهي دالة على كمال الحكمة ، والرحمة والعزة إشارة على كمال القدرة ، وثالثها : كونه منزهاً في الإلهية عن الشرك والنظير وقوله " رب العزة " يدل على أنه القادر على جميع الحوادث لأن الألف واللام في قولة "العزة " تفيد الاستغراق ، وإذا كان الكل ملكاً له لم يبق لغيره شيء ، فثبت أن قوله " سبحانه ربك رب العزة عما يصفون " كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم .

والمهم الثاني : من مهمات العاقل يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية ، وأعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولابد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم ، وهاد يهديهم ، ومازال إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل فنبه على هذا الحرف بقوله : " وسلام على المرسلين " لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ولا جرم يجب على من سواهم الاقتداء بهم . والمهم الثالث : من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت ، فنبه على هذا الحرف بقوله " والحمد لله رب العالمين " وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعماً وظاهر كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد

---

(١) الصافات ، الآيات : ١٨٠-١٨٢ .

الموت، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب" [1].

بينما ذكر شيخه الواحدي أن : " "عما يصفون " من اتخاذ البنات والنساء ، و " سلام على المرسلين " الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع " والحمد لله رب العالمين " على هلاك المشركين ونصرة الأنبياء والأولياء " [2] .

وأجراها على ذلك الزمخشري وردها إلى المقصد الكلي للسورة لأنها " اشتملت على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم ، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم فختمها بجوا مع ذلك من تنزيه ذاته عما و صفه به المشركون والتسليم على المرسلين " والحمد لله رب العالمين " على ما قيض من حسن العاقبة"[3]؟ فلما قرر من قبله موقعها في سياقات السورة وتناسبها مع مقاطعها وإحالة كل جملة إلى ما يلائمها من أغراض اكتفى الرازي بما ذكروه في مجراها داخل الأغراض ، وبنى عليه ما وراء تلك الجمل المعدودة من مطالب عالية وأصول شاملة لجميع ما يتطلبه الإنسان من معارف تصلح له معاشه ومعاده وكل منشأ الخلل عند المشركين جاء من الخطأ في فهم هذه الأصول الثلاثة.

والرازي في دراسته للخاتمة يتفقد الجمل التي تشكل مقطعاً ينقطع عنده الكلام وتستقر عنده الدلالة ، فليست كل جملة تصلح أن تكون خاتمة للسورة ، بل هناك خصوصيات وشيات لجملة المنقطع تميزها عن غيرها من المقاطع ، فتجده أحياناً يقتصر من الآية ذات الجمل المتعددة على فاصلتها ويتجاوز بالفاصلة حدود موقعها والمسار السابق لها إلى سياقات أشمل وأعم من سياقها فيجريها على المعنى الكلي للسورة ، مثل نهاية سورة الأنفال وهي قوله عز وجل : ↓ ❐◆✂❑☎ ◆↗✂❑↖❷ ←⑨ ☎✂❑↖❷ ☎✂❑←⑨ ⇔ ❐◆❐ ❐◆❐ ❐◆❐

---

(١) " التفسير " ٣٦٣/٩ –٣٦٤ .

(٢) " الوسيط " ٥٣٥/٣ .

(٣) " الكشاف " ٦٩/٤ .

[illegible] [1] .

فيجري صدر الجملة على ما قبلها ثم ينعطف بـ " إن الله بكل شيء عليم " أي عجزها وفاصلتها إلى مقاصد السورة ويجعلها خاتمة للسورة كلها ، يقول في ذلك :" ثم قال في ختام السورة إن الله بكل شيء عليم " والمراد أن هذه الأحكام التي ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح ، وليس فيها شيء من العبث والباطل ، لأن العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلا بالصواب ونظيره أن الملائكة لما قالوا : " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " قال مجيباً لهم : " إني أعلم ما لا تعلمون " يعني لما علمتم كوني عالماً بكل المعلومات فأعلموا أن حكمي بكوني منزهاً عن الغلط كذا ههنا والله أعلم " [2] .

وراجع استدلاله بموقع " إني أعلم مالا تعلمون " من الآية التي وردت في سياقها وكيف هداه انتظام الفاصلة مع ما قبلها من الاعتراضات الواردة من الملائكة على اتخاذه سبحانه خلفاء في الأرض من دونهم وهم يسبحون بحمده ويقدسونه، مع ما تتضمنه الآيات من تخوفهم من مغبة ذلك الاصطفاء أن لا يليق به من يستخلفهم ، فيتخذون من الأرض ساحة فساد وسفك للدماء . فشابه سياق سورة الأنفال سياق الآية ، لما في السورة من كراهية المؤمنين وترددهم عند الأمر بقتال المشركين لكونهم قلة مستضعفون خوفاً على مستقبل هذا الدين لعدم تكافؤ القوى وقد بينت السورة تلك المواقف كما في : [illegible] [3] .

وموقف آخر في قوله : [illegible]

---

(١) الإنفال ، آية : ٧٥ .

(٢) " التفسير " ، ٥/٢٠ .

(٣) الأنفال ، آية : ٥-٦ .

⧄➚⬩➲⬂◑⧫③⧫❒ ◷⧋❍⧋☝◷⧄☺⧅⬛⬩▤⧅⬄ ❑⬄⧄⬩⬂◑◉⬄⬚
⑩⧄⬚⧅⬄⬚⧫❷⧋⬚⧫×⇦⧄❷⧋▦◷⬩▤⬂◑◉⬄⬚⧫×⇦⬄⬄ ⇧ [1] .

فناسب هذه المعاني تقرير صفة العلم والحكمة مما يزيل عن النفس التردد وأسباب الكراهية فتنقاد النفوس للأحكام والفرائض وتنصرف عن التوقع وقراءة المستقبل فتفوض الأمر لله وعلمه .

والنص السابق نشر لما انطوى وأجمل تحت عبارة ابن عطية في بلاغة اختيار وصف العليم وأنها " مناسبة لنفوذ هذه الأحكام " [2] .

وأيضاً خاتمة سورة الشعراء " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " فالخاتمة عنده فأصله الآية يقول فيها : " فأما قوله تعالى " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " فالذي عندي والله أعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ، ومن أخبار الأنبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمداً – صلى الله عليه وسلم – تارة بالكاهن وتارة بالشاعر ، ثم إنه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولاً ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانياً ختم السورة بهذا التهديد العظيم ، يعني إن الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات ، والتأمل في هذه البينات فإنهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون . وقال الجمهور : المراد منه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء ، والأول أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها والله أعلم " [3] .

فالرازي لا يفسرها في حيز ما قبلها وإنما يعديها إلى مجالات أوسع ، وقد هيأ لذلك العموم في قوله " الذين ظلموا " التي أحالت على جميع أنواع التعدي وتجاوز الحد في ا لطغيان بالانصراف عن التدبر في الدلائل والبراهين الصادقة القاطعة بنبوته – عليه السلام –

---

(١) الأنفال آية : ٧ .

(٢) " المحرر " ٢ / ٥٥٧ .

(٣) " التفسير الكبير " ، ٥٣٨/٨ .

وتلبيس منهج الحق وتفريقه في مفترقات مختلفة بين الكهانة والشعر ، فجاء التهديد متمكناً في سياق الإنكار حيث أتى به في صورة مقابلة لما هم عليه من التعالي والأعراض ، فقابل إنكارهم لما ورد عليهم من الحق في الدنيا بعلمهم القاطع يما سيؤول إليه ، مصيرهم يوم القيامة.

ويلاحظ أنه أعرض عن قول الجمهور وإن عرض له لكونه يحتجز الدلالة ويضرب عليها أسواراً تمنعها من الانطلاق في الأفق الممتد للسورة ، بينما دلالة العموم تزيد في معنى التهديد لذلك وصفه بالعظيم لمكانه وموقعه من مقاصد السورة ومعانيها المتعددة ، وهذا ما جرى عليه الزمخشري قبله حيث فسر " الذين ظلموا " على إطلاقه[1] ولم يقيده بما قبله .

وقد لفت أيضاً إلى دقائق اختيار نوع الخاتمة باعتبار المقاصد و كيفية انتظامها مع غيرها من الفصول وأن هذا الترتيب وفق اعتبارات تبني عليها مقاصد السورة ، وتكتمل حلقاتها فيحكم موقعها بناء الكلام ، وذلك ما نبه إليه في تفسيره لخاتمة سورة غافر وتنزيله آخر الكلام باعتبار ما جرى عليه بناء السورة وترتب عليه نظمها ، يقول فيها : " اعلم أنه تعالى راعى ترتيباً لطيفاً في آخر هذه السورة وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ثم أردفه بفصل التهديد والوعيد وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه فمن ترك الأنقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة لأن الدنيا فانية ذاهبة وأحتج عليه بقوله تعالى: "أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم "يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين والمتمردين ليست إلا الهلاك والبوار"[2].

وتأمل كيف عاد بالخاتمة إلى فصول السورة وخرج بدلالة التهديد في قوله تعالى:

(١) " الكشاف " ٣٤٥/٢ .

(٢) " التفسير الكبير " ٥٣٤/٩-٥٣٥ .

إلى موقعها في بناء الكلام وكشف بها عن الغموض في موقف هؤلاء العصاه من الحق لما جاءهم ، وأن السبب في جدالهم وعزوفهم هو تصادم الحق مع ما في نفوسهم من الطلب للرياسة والتقدم في أمور الدنيا، وأن إقرارهم بالإلوهية لله يسلب السلطة التي مكنتهم من استعباد الناس واسترقاقهم فكان ذلك ما نعالهم من الإذعان والتسليم ، فالسبب ليس في الدلائل واشتباهها عليهم وإنما دواخلهم الموبوءة .

وخاتمة سورة مريم وإن تقاربت مع غافر إلا أنه يجعلها من قبيل الموعظة والإنذار يقول في ذلك : " ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال :

إلى موقعها في بناء الكلام وكشف بها عن الغموض في موقف هؤلاء العصاه من الحق لما جاءهم ، وأن السبب في جدالهم وعزوفهم هو تصادم الحق مع ما في نفوسهم من الطلب للرياسة والتقدم في أمور الدنيا، وأن إقرارهم بالإلوهية لله يسلب السلطة التي مكنتهم من استعباد الناس واسترقاقهم فكان ذلك ما نعالهم من الإذعان والتسليم ، فالسبب ليس في الدلائل واشتباهها عليهم وإنما دواخلهم الموبوءة .

وخاتمة سورة مريم وإن تقاربت مع غافر إلا أنه يجعلها من قبيل الموعظة والإنذار يقول في ذلك : " ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال :

[1] لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضاً سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب ثم أكد تعالى في ذلك فقال : " هل تحس منهم من أحد " لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا لم يحس منهم أحداً برؤية وإدراك وجدان " لا يسمع لهم ركزاً " ... دل ذلك على انقراضهم بالكلية ، الأقرب في قوله " أهلكنا " أن المراد به الانقراض بالموت وإن كان من المفسرين من حمله على العذاب المعجل في الدنيا والله أعلم بالصواب "[3].

ومرد ذلك إلى المقاصد لأن سورة مريم جرى فيها التذكير بالنعم ، فنزع به السياق إلى ملاحظة عناصر التخفيف في الخطاب ، وهي إشراك الرسول صلى الله عليه وسلم – معهم في الخطاب بعد أن كان الكلام ابتداء مع كفار قريش فقال " وكم أهلكنا قبلهم " ثم انتقل إلى الرسول " هل تحس منهم " فالتذكير ليس مختصاً بالكفار وإنما لكلا الفريقين ، ثم اختيار لتفسير قوله " أهلكنا " أنه ليس المراد به العقاب والعذاب وإنما الانقراض بالموت وهذه سنة

---

(١) غافر ٨٢ .

(٢) مريم آية ٩٨ .

(٣) التفسير ، ٥٦٨/٧ .

جارية على المتقين وأهل اللدد .

وكثير من الخواتيم تتقارب في موضوعاتها أو تراكيبها ، لكن مع هذا التقارب نجد تنوعاً في تفسيره إياه تبعاً لاعتبارات سياقية تغير مدلولاتها كما في انتهاء بعض السور بالحمد وهي الصافات والزمر والجاثية .

وقد ذكر الرازي أن حرف الحمد يدل على سلامة الحال بعد الموت وجاء على هذا التأويل في سورتي الصافات والزمر ، يقول في الصافات : " فنبه على هذا الحرف بقوله "والحمد لله رب العالمين " وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعماً وظاهراً كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه بأن الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت " [1] .

وخاتمة سورة الزمر مساقها حكاية أحوال القيامة وموقف العرض وما يحفل به من خوف ورجاء واستشراف لرحمته – سبحانه – ثم تصير كل بحسب عمله : من كذب بالرسل أرداه عمله جهنم ، والصادقون وفاهم وعدهم ربهم فحمدوا وصرح بذلك بقوله : "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده " ثم أبهم الحمد في ختام السورة لخصوصية بيانية زائدة على سلامة الحال بعد الموت ، فقال تعالى : " وقيل الحمد لله رب العالمين " .

يقول الإمام في هذا : " وقوله " وقيل الحمد لله رب العالمين " عبارة عن الإقرار بكونه موصوفاً بصفات الإلهية وهي صفات الإكرام ، ... وفي قوله " وقيل الحمد لله رب العالمين " دقيقة أخرى وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو ، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا : " الحمد لله رب العالمين " وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة : " وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " [2] .

وأما سورة الجاثية وإن جاءت في سياق مشابه حيث سيقت في موقف العرض وتفصيل

---

(١) " التفسير الكبير " ، ٤٦٤/٩ .

(٢) " التفسير " ، ٤٨١/٩ .

أحوال القيامة، فمساقها قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٧] ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٨] (١) .

إلا أن الرازي ردّ دلالتها إلى المعنى الكلي للسورة فجعلها مترتبة على اكتمال الأدلة والبراهين المؤكدة على كونه متفرداً بالإلوهية والتي تصدقها مظاهر الخلق وآياته في الآفاق أرضاً وسماء ثم الوعيد الشديد لمن صدف عن آياته " ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بالتحميد لله تعالى ، فقال : " فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين " أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرض ، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح ، والذوات والصفات ، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين " (٢) .

فحمل ظاهر الخبر في قوله " فلله الحمد " على معنى الإلزام وجعل الأصل فيه الأمر باعتبار موقعه في سياق البراهين السابقة ، فكأنه أمام قوة هذه الحجة لا يتسنى للعقل إلا أن يسلم بها وينزع عنه رداء الكبر والمعاندة فيوجب لهذه الكينونة الحمد والثناء دون سواه .

وأظن أن الذي حمله على ردّه إلى المقصد الكلي هو إشباع الوصف في قوله " رب السموات ورب الأرض رب العالمين " بينما بنى الوصف على الإيجاز في السورتين السابقتين ، فكان لذلك شأن في توجيه الدلالة وتغيير مجراها إلى ما يوجب المناسبة بين النظم والمعنى .

وأيضاً نجد التنوع في تفسير دلالة ختام بعض السور بتعظيم أمر القرآن فلا يرده إلى معنى واحد وإنما يستنفر معانيها بالأحوال السياقية المكتنفة لدلالتها أو يفرع عنها معان تثري المقاصد الكلية وتقويها ، يقول في ختام سورة الكهف : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

---

(١) الجاثية ، ٢٧-٢٨ .

(٢) " التفسير " ٩/٦٨٢-٦٨٣ .

[1] .

" اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواع الدلائل والبيانات وشرح أقاصيص الأولين نبه على كمال حال القرآن " [2]

وكذلك خاتمة الحاقة جاءت بتعظيم القرآن في قوله : .

[3] .

ولكنه مرتب على معنى آخر غير ما جاءت به الكهف بـ " أنه تعالى لما أقام الدلالة على إمكان القيامة ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ختم الكلام بتعظيم القرآن ، فقال : " فلا أقسم بما تصبرون " [4] .

فالسورتان وإن جمع خاتمتهما غرض كلي جامع وهو التعظيم لشأن القرآن إلا أن الإمام تعداه إلى التنبيه على الخصوصيات التي تشربتها كل جملة من المقاصد التي ترتبت عليها فوجهت دلالتها وجهة مباينة ، فالكهف لما كانت رداً لما أثاره المبطلون من تساؤلات دافعها التشكيك في نبوته عليه السلام خرج ذلك بالتعظيم إلى التنبيه على إعجاز بيانه وشرف برهانه وأن هذه البراعة في إيراد البيانات وكشف الشبهات وتفصيل الدلائل بالقصص ليست في منه بشر ، وإنما هي تنزيل من لدن حكيم عليم .

بينما نجدها في سورة الحاقة تأتي بعد سياق إقامة الدلائل على وقوع القيامة وذكر ما وراءها من وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء وهو أمر غيبي تنزع النفس عن التصديق به فجاء تعظيم أمر القرآن بزيادة تأكيد وتقوية ، وأن ما يبصرونه من صدق إعجازه برهان وشاهد يستدل به على حقيقة ذلك اليوم .

وقد حاولت أن اتبين الفروق في رده للخواتيم على المقاصد وهل كان يوردها مورداً

---

(١) الكهف ، آية : ١٠٩ .

(٢) " التفسير " ٥٣/٧ .

(٣) الحاقة ، الآيات : ٣٨-٤٠ .

(٤) " التفسير " ، ٦٣٢/١٠ .

واحداً ، أما أن هناك تنوعاً واختلافاً بحسب ما تكتنزه جملة الخاتمة من هيآت لمعان جرت وسط السورة فتارة تجده يردها إلى جميع المقاصد الأصلية وأحياناً تتضمن فروع المعاني وتحتمل الرد إليها وتارة ينعطف بها إلى بعض العناصر دون بعض فهو في بحث دؤوب عن الزوايا التي تستكن فيها عناصر الوسط في لغة الخواتيم ويمكن تصنيف طريقته في ثلاثة أضرب .

الضرب الأول :

وهذا النوع يغرسه الرازي في قلب السورة ويعلقه بجميع عناصرها وأغراضها فيسدي به لحمة النظم ، وعنده تبلغ المعاني غاية الظهور مع اكتمال النسق ،و قد عول – غالباً – في دراسته لأثار المقاصد في جملة الخاتمة على اللغة وما ينطبع عليها من سمات وهيآت للمعاني التي قررتها السورة ، فتنبه عليها بكلمات معدودة تجمل بها ما سبق مع تثبيته وتقويته ، وقد أثار بهذا المسلك دفائن كانت وادعة بين الكلمات فكان ردها إلى مكونات السورة ينمي مدلولاتها أو يبتعد بها بمسافات عن مجراها إلى محيط أوسع وأعم ، ويصور ذلك تفسيره لنهاية سورة آل عمران عند قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [1] .

قال فيها : " واعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواعاً كثيرة من علوم الأصول والفروع أما الأصول ففيما يتعلق بتقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد ،وأما الفروع ففيما يتعلق بالتكاليف والأحكام نحو الحج والجهاد وغيرها ختم هذه السورة بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان : منها ما يتعلق به وحده ، ومنها ما يكون مشتركاً بينه وبين غيره ، أما القسم الأول فلابد فيه من الصبر وأما القسم الثاني فلابد فيه من المصابرة.

... " واتقوا الله لعلكم تفلحون " وتمام التحقيق فيه أن الأفعال مصدرها هو القوي ، فهو تعالى أمر بالصبر والمصابرة ، وذلك عبارة عن الإتيان بالأفعال الحسنة ، والاحتراز عن

---

(١) آل عمران ، آية : ٢٠٠ .

الأفعال الذميمة وذلك هو المراد بالمرابطة ، ثم ذكر ما به يحصل دفع هذه القوى الداعية إلى القبائح والمنكرات وذلك هو تقوى الله ، ثم ذكر ما لأجله وجب ترجيح تقوى الله على سائر القوى والأخلاق وهو الفلاح فظهر أن هذه الآية التي هي خاتمة لهذه السورة مشتملة على كنوز الحكم والأسرار الروحانية ، وأنها على اختصارها كالمتمم لكل ما تقدم ذكره في هذه السورة من علوم الأصول والفروع ، فهذا ما عندي فيه .

ولنذكر ما قاله المفسرون : قال الحسن : أصبروا على دينكم ولا تتركوه بسبب الفقر والجوع ، وصابروا على عدوكم ولا تفشلوا بسبب وقوع الهزيمة يوم أحد ، وقال الفراء : اصبروا مع نبيكم وصابروا عدوكم فلا ينبغي أن يكون أصبر منكم وقال الأصم : لما كثرت تكاليف الله في هذه السورة أمرهم بالصبر عليها ولما كثر ترغيب الله تعالى في الجهاد في هذه السورة أمرهم بمصابرة الأعداء " [1] .

فالجملة تركيز موجز لأصول المعاني وفروعها ، فكل كلمة من كلماتها تحيل إلى جملة أغراض امتدت في مساحات مختلفة في وسط السورة ، فهي خمس كلمات رتبت ترتيباً بديعاً نظمت به معاقد وأخذت بكل منها بطرف فأصبروا ونبهت على الأصول والفروع التي يختص الفرد بالقيام بها وهي حقوق بينه وبين الله بندرج تحته أنواع : أولها : أن يصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد ، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين .

وثانيهما : أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات ، وثالثها : أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات ، ورابعاً : الصبر على شدائد الدنيا وآفاتها " [2] .

وصابروا تنبه على الحقوق الواقعة بينه وبين الغير " ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،.. ويدخل فيه الجهاد ، فإنه تعريض النفس للهلاك ، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين وحل شكوكهم والجواب عن شبههم " [3] .

وقوله " ورابطوا " هي التي يتحقق بها الأمران السابقان ، فمن " لم يكن مشتغلاً طول

---

(١) " التفسير " ٤٧٤/٣ .

(٢) السابق ٤٧٣/٣ .

(٣) السابق نفسه .

عمره بمجاهدتها وقهرها لا يمكنه الإتيان بالصبر والمصابرة " [1] .

ثم رتب عليها باعثها وداعيه " وهو تقوى الله لنيل الفلاح والنجاح "[2] .

وإذا راجعت السورة فلن تجد معنى يندعن موقعه في هذه الكلمات وقد أحسن الإمام حينما جعلها مستوعبة لجميع المقاصد ولم يخص بها معنى دون آخر لذلك عرض أقوال المفسرين بعد أن فتح الباب لمعرفة الكيفية التي تستوعب بها الجملة مقاصد السورة بأكملها وأقوال المفسرين نبهت على جانب من العلائق بينها وبين بعض المقاصد وخاصة ردها إلى غزوة أحد وهذا داخل في جملة الأغراض التي ذكرها الرازي .

وأحياناً يستحضر سياقات السورة وأغراضها ثم يضع الخاتمة في قلب هذه الأغراض ويصلها بها لتضيف إليها بعداً آخر كما في خاتمة سورة الأنعام في قوله تعالى : ↓
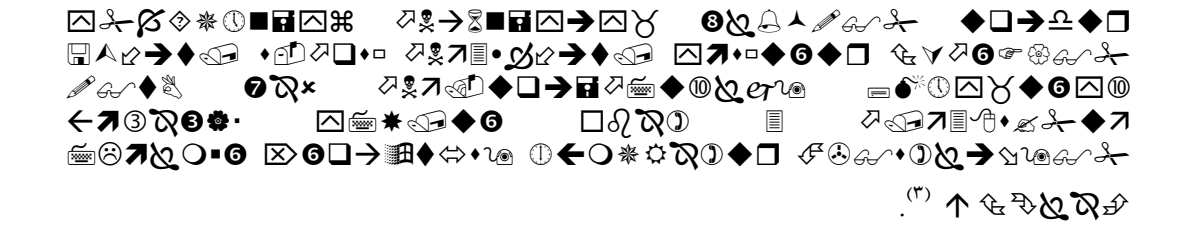
.[3] ↑

يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما علم رسوله أنواع دلائل التوحيد ، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد وبالغ في تقرير إثبات التوحيد ، والنافين للقضاء والقدر ، ورد على أهل الجاهلية في أباطيلهم ، أمره أن يختم الكلام بقوله " إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم " وذلك يدل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله " [4] .

فكأنه لما بالغ في إظهار الدلائل وتقرير أدلة التوحيد والقضاء والقدر ورد الأباطيل بالبراهين الكاشفة ، جاءت هذه الآية لتدفع توهم من ظن أن الأدلة وحدها تكفي في حصول الهداية وآخر السورة يبين المنهج القويم المقابل لطرق أهل الضلال والزيغ التي وصفتها الآيات

---

(١) " التفسير " ، ٤٧٣/٣ .

(٢) السابق ، ٣ /٣٧٤ .

(٣) الأنعام ، ١٦٥ .

(٤) التفسير، ١٩٠/٥ .

وسط السورة واستحضرت منهج إبراهيم في قوله " ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين " ، قال فيها الرازي " المقصود منه الرد على المشركين " . [1]

ثم أكدت تقرير التوحيد بنفي الإشراك والأمر بالإخلاص التام في صرف سائر العبادات لله في قوله : " قل إن صلاتي ونسكي ... "

وقرر القضاء والقدر بقوله : " وأنا أول المسلمين " [2] .

وكذلك سورة يونس وخاتمتها قوله تعالى :

قال فيها : " واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبداً بالخلق والإبداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية ، ... ثم إنه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة " واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين " .

والمعنى أنه تعالى أمره باتباع الوحي والتنزيل فإن وصل إليه بسبب ذلك الإتباع المكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين " [4] .

ورحم الله الإمام فقد حرمنا ضيق صدره بمصابه في ولده من تفصيل علو وشرف هذه الخاتمة ، فقد ذكر ذلك في نهاية تفسيره للسورة بقوله : " ختمت تفسير هذه السورة ...

---

(١) " التفسير " ١٩١/٥ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) يونس ١٠٨-١٠٩ .

(٤) " التفسير " ٣١٠/٦-٣١١ .

وكنت ضيق الصدر كثير الحزن[1]بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواء المغفرة والرحمة " [2] .

وإن كان ما نبه عليه فيه الكثير ، فالسورة مقصدها الكلي ومدار آياتها على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على شبهات المنكرين لها وهذا ما ذكره في تفسيره للآية التاسعة والتسعين حيث قال : " اعلم أن هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها " [3] .

فهناك معان متفرقة ودلائل متعددة جرت في وسط السورة منها ما هو أصل وبعضها فروع تتشعب وتبنى على المقصد الكلي ، فالتوحيد والحشر معان فرعية انشقت وانشبعت ولم تستقل بدلالتها وإنما يحكم السياق الأكبر قبضته على مسارها فيوجه دلالتها بمقدار تجليه أو التدليل على معنى دون أن تكون هي مدار المعنى وإنما تدور هي في فلك أشمل ، وحينما يرد الرازي ختام السورة إلى جميع المعاني الأصلية والفرعية ولا يقصر دلالتها على السياق الكلي المسيطر على حركة هذه الفروع . هنا ينبغي التوقف عند لغة الخاتمة لمعرفة القناة التي شقت مجرى لجميع المعاني السابقة لتصب فيها ، وكيف أحتوت بلفظة واحدة ماتفرق وتفرع داخل الوسط ، فكلمة " الحق " بعمومها استحضرت جميع الدلائل المذكورة من القول الفصل في أمر النبوة ودلائل التوحيد والمعاد وما ذيل به أخرها من أمره صلى الله عليه وسلم بإظهار دينه ومباينه طريق المشركين بعد أن بلغت الدلائل منتهى غاياتها [4].

فالخاتمة لم يردها على ما قبلها وإنما أجراها على جميع الدلائل التي قررتها الآيات ثم عاد بخاتمة الخاتمة على المقصد الأصلي وهو تقرير دلائل النبوة والرد على شبهات القوم فيها فقال : " واتبع ما يوحى إليك " وذلك بتخصيصه بالذكر بعد أن جرى في سياق عموم

---

(١) علق عليه المشرف : لقد ذكر الرازي هذا ليدلنا على معنى جليل وهو أن كتابة العلم للأجيال القادمة لا يقطعها حدث وإن جلّ فليس أشق على الوالد من موت الولد – اللهم أغفر له وارحمه – .

(٢) " التفسير " ، ٣١١/٦ .

(٣) " التفسير " ، ٣٠٤/٦ .

(٤) ينظر " السابق " ٣٠٨/٦ .

الحق فختمت الخاتمة بتقرير المعنى الذي بدأت به السورة وأكدت اختصاصه بالنبوة بعد أن شكك فيها المشركون وظنوه أمراً عجباً .

ومما يبرز عنايته بأواصر النسب بين جملة الختام والمقاصد مخالفته للزمخشري في تفسير آخر النمل . وإلحاحه على أن الكلمات داخل سياج هذه الجملة ليس وليد دلالة مفردة وإنما تحكمه أصول وأغراض كبرى يرتد إليها ، ولا تتشكل دلالته بصورة مكتملة إلا بمعانقته لأصوله ويتبين ذلك الغرض في تفسيرها لقوله تعالى : (١) .

قال فيها الزمخشري : " أمر رسوله بأن يقول " أمرت " أن أخص الله وحده بالعبادة ، ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش ، وأن أكون من الحنفاء والثابتين على ملة الإسلام .. والبلدة : مكة حرسها الله تعالى : اختصها من بين سائر البلاد ، بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه ... وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب ، والأعلى أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ووصف ذاته الذي هو خاص وصفها ، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ، ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ... وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما ، وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن وقد ملكها وملك إليها كل شيء " (٢) .

وقال فيها الرازي : " اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم

---

(١) النمل ، الآيات : ٩١-٩٢-٩٣ .

(٢) الكشاف ، ٣٨٩/٣-٣٩٠ .

الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال : قل يا محمد أني أمرت بأشياء : الأولى : أني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكاً ، وأن الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمداً بأن يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم إن لم تفد كلم بالتوحيد ، فقد أفادت لي ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها ، فإني مصر عليها غير مرتاب فيها ، ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين الأول : أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سار البلاد ... وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ...

وثانيها : وصف الله تعالى بقوله : " وله كل شيء " وهذا إشارة إلى ما تقدم من الدلائل المذكورة في هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقاً لجميع النعم فأجمل ههنا تلك المفصلات .

الثاني : أمرنا بأن نكون من المسلمين . الثالث : أمر بأن يتلو القرآن عليهم ، .. فمن اهتدى في هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهي : التوحيد والحشر والنبوة ... " ومن ضل " فلا على وما أنا إلا رسول منذر ثم إنه سبحانه ختم هذه السورة بخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله " وقل الحمد لله " على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة وبالإنذار " سيريكم آياته " القاهرة " فتعرفونها " لكن حين لا ينفعكم الإيمان " وما ربكم بغافل عما تعملون " لأنه من وراء جزاء العاملين " [1] .

فالزمخشري يحلل العناصر باعتبار موقعها في حدود الجملة ، بينما يتجاوز الرازي تبعية الألفاظ السابقة لها ويمتد بها إلى الأصول والأغراض ويجعل منها إشارات وإيماءات تحيل على سباقات لتأكيدها وتقويتها ، فقوله " وله كل شيء " حللها الزمخشري باعتبار جريان العام بعد الخاص لمزيد فضل البلد الحرام وكأن دخول العموم في ربوبيته وملكوته لكل شيء تابع لدخول مكة تحتهما .

أما الرازي فلا يلتفت إلى دلالة العموم بعد الخصوص بل أحال دلالة " وله كل شيء " إلى سياقات التوحيد وأدلته فيجمع أطرافها في جملة واحدة " فأجمل ههنا تلك المفصلات " .

---

(١) " التفسير " ٨/٥٧٥-٥٧٦ .

وأيضاً أشار إلى ما داخل قوله " رب هذه البلدة " وقوله " أمرت أن أتلو القرآن " من براهين النبوة فاختصاصها بالفضل لكونها مهبط وحيه وأشرف رسالته ، و " أمرت أن أتلو القرآن " هو التبليغ والإنذار الذي هو مناط النبوة وبرهان صدق دعواه ، وأيضاً استحضرت هذه الجملة جميع ما يقرره القرآن من أصول .

الضرب الثاني :

وفي هذا النوع تنتخب الخاتمة معنى من المعاني التي جرت في ثنايا السورة ، وغالباً ما يكون أبرز ما تضمنته وحشدت بيانها لتأكيده وتقريره فتأتي جملة الخاتمة لتميزه بعد أن كان مختلطاً بغيره من الأغراض كما في سورة " يس " حيث جاء قوله ↓ ←❑↗▤♦♦✍ ◴■⑨◆⓿ ❸ ⌘♊◴♦❷➔✍ ♦♌❑↖➔♉❷➔✍ ♦❑ ↗⇔☒★ ♏↗ ↑ [1] ختاماً لآياتها التي توزعتها أصول ثلاثة هي : تقرير الرسالة والحشر والتوحيد وما يتخللها من الاستدلال على ثوابه وعقابه . وبعد أن قررت الأصول استرجعت الخاتمة معنى الحشر وقرنته بالتوحيد لتنبيه على مزيد العناية به وكأنه قطب السورة والعمود الذي عليه استقرار آياتها .

يقول الإمام في ذلك : " لما تقررت الوحدانية والإعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة ، قال تعالى وتنزه عن الشريك " الذي بيده ملكوت كل شيء " وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكاً ، وقالوا بأن الإعادة لا تكون ، فقال : " وإليه ترجعون " ورداً عليهم في الأمرين ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين ، فابتداؤها بيان الرسالة بقوله : " إنك لمن المرسلين " ودليلها ما قدمه عليها بقوله : " والقرآن الحكيم " وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله " فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء " إشارة إلى التوحيد ، وقوله " وإليه ترجعون " إشارة إلى الحشر وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه " [2] .

وعلل اقتران التوحيد فيها بالحشر بما ذكره الغزالي ، ولأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه " [3] .

وكذلك سورة الرعد جاءت خاتمتها تتميماً لما تضمنته السورة من ذكر النبوة والاستدلال عليها فقررت ذلك المعنى بقوله : ↓ ❑◆③♦◑→❑✌↖ ✂✍♙⇦▫

---

(١) يس ، آية : ٨٣ .

(٢) " التفسير " : ٩/٣١١-٣١٢ .

(٣) السابق ، ٩/٣١١ .

[illegible] [1] .

فاحتج عليهم تعالى بأمرين : الأول شهادة الله على نبوته ، والثاني : المعجزة فإنه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولاً من عند الله تعالى ، فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة . [2]

وخاتمة الحج تأتي مؤكدة للغرض الأخير فالسورة موزعة بين ثلاثة فصول فصل في الإلهيات وثان في النبوات ، وثالث في التشريع ، ذكر ذلك في قوله : " اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع ... " [3] .

وختمها بقوله : " واعتصموا بحبل الله " وهي : " شرح يجري مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله : " فأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة " ويجب صرفها إلى المفروضات لأنها هي المعهودة " [4] .

□

---

(١) الرعد ، آية : ٤٣ .

(٢) " التفسير " ٥٤/٧ .

(٣) السابق ، ٢٥٣/٨ .

(٤) السابق ٢٥٧/٨ .

الضرب الثالث :

وفي هذا النوع تأتي الخاتمة لتضيف بعداً آخر للمقاصد والأغراض وتزيد في الفائدة كما في سورة التوبة ختمها بقوله : 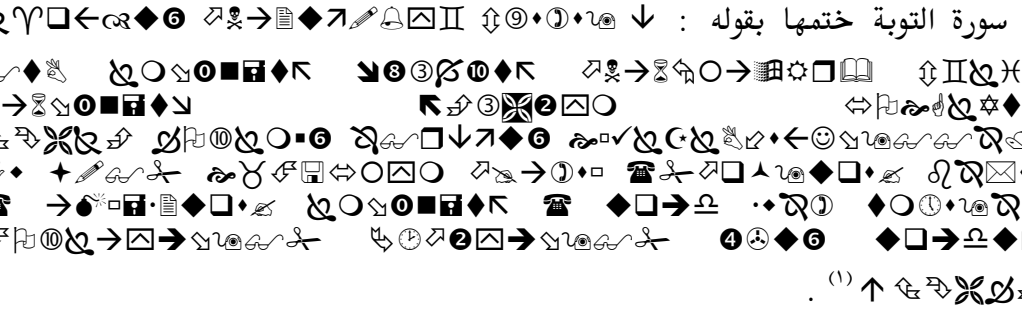 [1] .

وبيانها ما ذكره الإمام : " إنه تعالى لما أمر رسوله عليه السلام أن يبلغ في هذه إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها ، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة ، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف وهو أن هذا الرسول منكم ، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم ، وأيضاً فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم ، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم ، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها ، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة ، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق ، وأن الأب مشفق صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة ، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان ، فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة بكل خير ، ثم قال للرسول عليه السلام : فإن لم يقبلوها بل أعرضوا عنها وتولوا فاتركهم ولا تلتف إليهم وعول على الله وأرجع في جميع أمورك إلى الله " فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم " وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت في غاية الحسن والكمال .

... ثم ذكر تساؤلاً حول موقع الفاصلة ، قال فيه : " لما قال " عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم " فهذا النسق يوجب أن يقال : رؤوف رحيم بالمؤمنين ، فلم ترك هذا النسق وقال : " بالمؤمنين رؤوف رحيم " ؟ الجواب : أن قوله " بالمؤمنين رؤوف رحيم " يفيد الحصر بمعنى أنه لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين ، فأما الكافرون فليس له عليهم رأفة ورحمة

---

(١) التوبة ، الآيات : ١٢٨-١٢٩ .

، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد في هذه السورة من التغليظ كأنه يقول : إني وإن بالغت في هذه السورة في التغليظ إلا أن ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين ، وأما رحمتي ورأفتي فمخصوصة بالمؤمنين فقط ، فلهذه الدقيقة عدل على ذلك النسق " [1] .

فالسورة لما كثر فيها الإلزام بتكاليف شاقة عسيرة على النفس جاءت الخاتمة ببيان عظيم ما أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، فكأن هذا الاصطفاء ليس لشخصه عليه الصلاة والسلام فحسب وإنما هو اصطفاء لكم وتشريف لكم أنتم فتقرير صدق نبوته عليه السلام في سياق التكاليف السابقة يهيئ النفوس لتحمل مشقة تلك التكاليف ، لأن معرفتهم بكونه رسولاً حقاً من عند الله موجب للقبول .

ثم عادت الفاصلة إلى مقاصد السورة لتستحضر أجواء التغليظ والترهيب وجاء ذلك بمسلك بياني هو التقديم المفيد للحصر في قوله : " وبالمؤمنين رؤوف رحيم " فاكتملت بها معاني الوعيد في داخل السورة ، ثم أفادت فائدة أخرى وهي دفع توهم أن يكون المنهج الرباني منهج قهر وعنت على أوليائه ، وأن ما فيه من تأديبات وإلزامات ، وإن كانت شاقة إلا أن فرضها رأفة بهم ورحمة لهم ، فـ " صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان " .

(١) " التفسير " ، ٦/١٧٧-١٧٩ .

المبحث الثالث : التناسب بين الفواتح والخواتم :

وهذا النوع من المناسبة العناية به أظهر في التراث النقدي والبلاغي ، فقد صرحوا كثيراً بضرورة الملاءمة والمؤامة بين أطراف الكلام صدراً وعجزاً ، وتحقيق التوازن في تفقد بناء جملتي الأول والأخر فلا ينظر في اتقان جملة البدء وحسن انتظامها بمعزل عن حسن الانتظام في جملة الختام ، بل مناط البلاغة هو التلاؤم بين الأول والأخر واشتباههما في الحسن والمزية لفظاً ومعنى ونسجاً ، وأشار إلى ذلك الجاحظ في قوله : " ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده " [1] . ثم جاء نص ابن طباطبا ليبين نمط التصفح والتفقد فوجهه إلى " أن تكون ا لقصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ودقة معان وصواب تأليف " [2] .

أي الاستواء التام فلا تنبو عبارة في ألفاظها أو جرسها عن عبارة أخرى اقترنت بها أو ضمت إليها فالكلمة النابية أو الجرس الأجش لا يعفي على حسن الجملة التي جرى فيها وإنما يتداعى أثرهما على ما تجاور معها من جمل فيطفي إشعاعه الفصاحة المتوقدة في قلب الكلام ، وإذا كان هذا على مستوى الكلمة فرعاية ذمام المعنى ومنعة جانبه بتحقيق التناسب والاشتباه مطلب بياني ملح يمنع من التناقض والاختلال في حركة العقل وينساب به في مسار واحد وإن تشعبت جوانبه ، لذلك جعله الجاحظ من حقوق المعنى بل هو عنده من الأصول التي لا تغني الإصابة في غيرها من أبواب الصناعة عن الإصابة فيها ، يقول : " ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً وتلك الحال له ، وفقاً ، ويكون الاسم لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصوراً ، ومشتركاً ، ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه " [3] .

وتأمل عبارته " من علم حق المعنى " في أن جعل كل ما من شأنه أن يكسب الكلام صفة البلاغة راجع إلى رعاية حق المعنى ، وقوله " ويكون مع ذلك " يدل على أن ضبط هذا

---

(١) " البيان والتبيين " ٩٣/١ .

(٢) " عيار الشعر " ، ٢٢٣ .

(٣) " البيان " ، ٩٣/١ .

الباب فيه مشقة وعسر ، لأن النفس قد تنشغل عنه وتعني بغيره ظناً أنه الأولى في الإبانة، فجاءت " مع ذلك " للتنبيه على أن الإحسان في كل ما سبق من مطابقة اللفظ للمعنى ، وموافقته للحال وجميع الحقوق لا تغني عن رعايته ، وكأنه باب بذاته ، وبلاغة خاصة تداخل بلاغة الكلام لها أصول وضوابط ودرجات ومنازل يتفاوت بها حظ كلام عن كلام .

فتذكر أول الكلام واستحضاره لا لذات التذكر وإنما للبناء عليه وتعليق المعاني التالية به ، وهو في صميم قضية النظم ، وأصل من أصوله التي فجر عبد القاهر نبعها الأول ،وجعلها شريعة واضحة تسقي الدرس البلاغي ففصاحة الكلام " إنما تكون إذا ضم بعضها إلى بعض وكان يكون المراد بضم بعضها إلى بعض تعليق معانيها بعضها ببعض " [1] .

وأيضاً " إن لانظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك " [2] .

أي أن التشابه والتناسب أصل معتبر في فصاحة الكلام لأن التعليق هو ملاحظة الوشائج والروابط المعنوية التي يحسن بها اقتران الكلمة بالكلمة وضمها إليها وجعل آخرها بسبب من أولها .

والتعليق بين الكلمات وما يتولد عنه من ألفة بين مفردات اللغة يتأدى بها مراد المتكلم مسلك تسهل رعايته في الجملة والجملتين ، ولكن الصعوبة في أن يظل المتكلم ممسكاً بأزمة المعاني رغم تنقلاتها وتوزع عناصرها وتفرق شعبها ثم يحكم سيطرته على المقاصد بتعليق جملة الختام برأس الكلام فيحكم بذلك معاقد المعاني ، وبمقدار ذلك التعليق يتفاضل كلام على كلام وتعلو مكانته فيصل إلى حد الإعجاز مما ليس في منَّة بشر ولا يحيط به لسان ولا يضبطه تدبير.

فالإجمال في عبارة الجاحظ وخصوصية التعليق في نظرية النظم عند عبد القاهر كان حائلاً دون تشكيل وبلورة لنمط تعلق الآخر بالأول ، لكن الإمام استطاع تفصيل مجملها

---

(١) " دلائل الإعجاز " ، ٤٦٧ .

(٢) السابق ، ٥٥ .

بقدحها بنظرية النظم ، وتجاوز الخصوصية بالعودة إلى جذر النظم وهو التعليق وضم الكلام بعضه إلى بعض دون أن ينظر إليه باعتبار ما يتوخاه المتكلم من قواعد النحو لضم كلمة إلى كلمة أو جملة إلى جملة ، وإنما نقلها إلى ما يتوخاه من أحوال ترجع إلى المعاني وما بينها من نسب توجب ردّ بعضها على بعض وعطف آخرها على أولها رغم بعد ما بينها من مسافة وكأن تضاريس الكلام وشعبه المتفرقة لا تحول دون حنين الشبيه إلى شبيهه ولا بين النسيب وما ينتسب إليه ، فكشف عن باب من الإعجاز حجبه تناول العلاقة بين الجمل المعدودة في محيط الفصل والوصل أو اعتبار روابط محددة يجري عليها الترتيب ويتشكل وفقها التعليق ، فالزمخشري حينما تنبه للضدية في ختام سورة المؤمنون في قوله تعالى ↓ ◑☜☼❋❍➔Ⓛ •• ③⌐⊞⊡◪☜⊠← ✁☜☜☜☜☜☐⊡◷⊞☜❷⌐☐♌♦ ☜☜☜☜☜ ↑ [1] اكتفى بقوله : " جعل فاتحة السورة " قد أفلح المؤمنون " وأورد في خاتمتها " إنه لا يفلح الكافرون " فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة " [2] .

فقد استحضر معنى التضاد جملة الافتتاح في الذهن وأحال عليها دون أن يتتبعه في كل سورة وإنما كان لفتة عرضت هداه إليها حسه البياني ودله عليها طول ملازمة لما بين الجمل من وجوه انتساب . ونقلها عنه الرازي دون أن يضيف إليها[3] . ولكنه أحسن حينما مدَّ هذه اللفتة وجعلها من الوجوه التي يعول عليها في حسن البيان .

والدارس لمنهج الرازي في ردّ الخواتيم على الفواتيح يجد فيه عمقاً في إدراك العناصر الغائبة بين الجملتين مع الوضوح في رؤيته حتى كأنه ممسك بجميع مكونات السورة وأغراضها يحركها تجاه غاية واحدة ويستقر بها عند ركيزة تجمع أعناق المعاني ، وغالباً ما يستشف إيمضات من لغة الختام يستضيء بها للكشف عن جوانب قد غشاها الغموض في تنظيم وحدات السورة ، فالإيماءات المتولدة من العلاقة بين الخاتمة والفاتحة تبرز إلى النور عمق المعنى وتلتقي عندها المعاني الجزئية فترأب ما تشعث وتعقد ما تفرق مما يكسب المعاني مزيداً

---

(١) المؤمنون ، آية : ١١٧ .

(٢) " الكشاف " ، ٢٠٧/٣ .

(٣) " التفسير " ، ٣٠٠/٨ .

من الثراء والتنظيم ، لذلك كان تأخيرها ووضعها في نهاية السورة مع جريانها في محيط البدء لا يكون إلا لفائدة لا تحصل إلا بهذا الوضع وهي ما يندس في لغتها من مقاصد الوسط مما يجعلها بمثابة المرقبة التي يشرف منها المفسر على جميع مقاصد السورة ، وهذا ما أكده حازم بعده فجعل الخاتمة أجود ما في القصيدة وأدخل في المعنى الذي قصد له الشاعر في نظمها. [1]

ويصدقه أيضاً ما ذكره أحد المبدعين المحدثين في رؤيته لنهاية القصيدة يقول رضا صافي أنه لم " يكن يرى نهاية القصيدة إلا بعد الفراغ من مطلعها ، فإذا تم له المطلع وضع هيكل القصيدة كلها فيشرف على خاتمتها من مكانه ذاك " [2] .

وجميع ذلك يؤكد أن جملة الختام هي مخاض سياق الابتداء والوسط وأن فهم المقاصد بمعزل عنها فهم تنقصه الوحدة والتكامل لأن المقصد الكلي يتشكل من خلال النسب المنعقدة بين الخاتمة والفاتحة ، مع تنظيمها لعناصر السورة وما اختلف فيها من أغراض ، فتأتي الخاتمة لتصهر جميع المقاصد مما يحتاج إلى نظرة شمولية تتسع لتتقصى جميع أجزاء الكلام وتحيط بأفاقه فتصبح على صغر مساحتها متشعبة توزع مساحات السورة في كلماتها المعدودة ، لذلك غالباً ما يعيد الرازي هيكلة السورة ويصف بناءها من خلال الخاتمة .

كما في ختام سورة البقرة قوله تعالى :

---

(١) " منهاج البلغاء " ، ١٧٨ .

(٢)" الأسس النفسية للإبداع " مصطفى سويف ، ٢٢٢ .

[1].

قال فيها : " إنه بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، وبيَّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — فقال : " والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله " وهذا هو المراد بقوله في أول السورة " الذين يؤمنون بالغيب " ثم قال ههنا : " وقالوا سمعنا وأطعنا " وهو المراد بقوله في أول السورة " ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" ثم قال ههنا " غفرانك ربنا وإليك المصير " وهو المراد بقوله في أول السورة " وبالآخرة هم يوقنون " . ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قوله " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطئنا " إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة " أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون " فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها "[2] .

فآخر بيان الموصوف بعد أن صدّر الحديث بصفات مبهمة ثم بين أصناف الناس ومواقفهم من هذا الدين وفرع عليه التذكير بالميثاق وحال الأمم مع ما أنزل الله فمنهم من زادة هدى ومنهم من أعرض وكفر ، ومنهم من نافق وأبطن ، وقرر ذلك بقوله تعالى : ↓

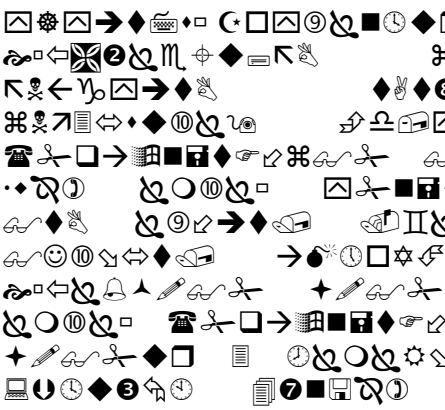 [3].

وفرع عليه القصص في قصة آدم واستخلافه ثم خروجه من الجنة بعد الزلة وتوثيق

---

(١) البقرة ، آية : ٢٨٥–٢٨٩

(٢) " التفسير " ، ١٠٦/٣ .

(٣) البقرة ، آية ٢١٣ .

العهد بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [1] . ثم اتبعها بقصة بني إسرائيل مع ما عهد إليهم ونقضهم لما واثقهم به ، ثم بيان خيرية أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – التي هي واسطة عقد الأمم وجاء التصريح به في قوله عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [2] بعد أن قال قبلها بآيات : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [3] .

وآيات السورة تلح على هذا المعنى وجاءت الخاتمة لتؤكده وتبرزه بعد أن كان مبثوثاً في طيات معاني متنوعة يختفي تارة و يلوح وميضه من بين معان هي منه بسبب ، فلما صرح بالموصوف ألقى بينها وصوبها تجاه غاية واحدة ثم أن الأوصاف التي ذكرت ابتداء استرجعتها جملة الختام في صياغة أخرى تحمل عبق من معاني الوسط فانتشت عبارتها بمعنى الخيرية التي أقرها عز وجل لهذه الأمة ففضلها بالقرآن سبيل الهداية والمحجة الواضحة النائية عن الريب والشبهات .

وتارة تجده ينظم أغراض السورة بجمع عناصر من الخاتمة وعناصر من الفاتحة يكون التقاؤهما تعزيزاً لمعاني الوسط وتقوية لها . كما في خاتمـــة سورة النـــساء في قوله تـــعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

---

(١) البقرة ، آية : ٣٨ .

(٢) البقرة ، آية : ١٤٣ .

(٣) البقرة ، آية : ١٤١ .

فالسورة تسودها الدلالة على أحكام الأموال والوسط تعرض للرد على شبهات الطاعنين ومناظرة الفرق المخالفة للدين ، فجاءت الخاتمة والفاتحة بوصفين نظما ما تفرق فيها من أغراض وذلك بإثبات القدرة ابتداء في قوله : " خلقكم من نفس واحدة " ثم إثبات كمال علمه جل سلطانه بقوله ختاماً " والله بكل شيء عليم " وهذان الوصفان دعامتان ارتكزت عليهما مقاصد السورة وألفا بين مختلف المعاني ووحدا أجواء السورة فبهما تدفع شبهات الطاعنين والمخالفين بتقرير ربوبيته وألوهيته وبهما أيضاً ينقاد المكلف لما جاء فيها من أحكام وتكاليف فالوصفان يغذيان جميع معاني السورة ويصبان في أغراضها .

وهذه الطريقة من التفسير تبرز للناظر السورة جملة واحدة وتريه الأغراض المختلفة والأفانين المتنوعة على تباعد أمكنتها قد التقت حلقاتها وجمعت له أطرافها حتى يراها في مكان واحد وصل فيه آخرها بأولها .

ونقل عنه البقاعي ما انتظم بين الوصفين من معان وزاد عليه رعاية موقع الآية وتأخيرها عن نظائرها في السورة ووضعها ختاماً للسورة ليناسب أولها في شأن الفرائض ؛ لأن " تفريق القول فيما تأباه النفوس وإلقاءه شيئاً فشيئاً باللطف والتدريج أدعى لقبوله ، وللإشارة إلى شدة الاهتمام بأمر الفرائض يجعل الكلام فيها في جميع السورة ، أولها أو اثنائها وأخرها والتخويف من أن يكون حالهم كحال المنافقين .... ومن هنا ظهرت مناسبة أخر هذه السورة لأولها ؛ لأن أولها مثيراً إلى أن الناس كلهم كشيء واحد ، ... وأخرها مشير إلى ذلك بالتسوية بين النساء والرجال في مطلق التوريث بقرب الأرحام وإن اختلفت الأنحاء " [1] .

واستصحاب الخاتمة لمعاني الافتتاح قد يكون جلياً وذلك بتكرار عناصر جرت ابتداء فتحيل إلى مظانها وتعيد سياقها إلى الذهن ، وكثيراً ما تكون تلك العناصر المسترجعة هي صفوة معانيها وقطب مدارها وفائدة ذلك أن تراكم السياقات عند معنى محدد ينمي دلالته ويضيف إليه . كما جاء في ختام سورة الزخرف في قوله : " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " استصحبته من جملة الافتتاح حيث ذكره ابتداء بقوله تعالى " ولين سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم " .

---

(١) " نظم الدرر " ؛ ٣٨٢/٢ .

قال فيها : " اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وآخرها والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع بل هي جمادات محضة " [1] .

والأولى جاءت في سياق مشركي قريش والأخيرة في سياق الردِّ على النصارى ولو انفرد واحد منهم بالتعبير لكان مؤدياً للغرض ، ولكن اجتماعهما أضاف إلى الأول التعجيب من حالهم ، وأيضاً التقاء حلقتي الكلام مع اختلاف سياقهما دل على أن منهج الضلالة وإن تنوع في طرائقه إلا أنه يتخذ مساراً واحداً هو الإسراف والصدّ عن الدلائل رغم استنارتها في عقولهم وقرارها في أعماق فطرتهم فالنصارى مقرون بكمال قدرته وعلمه " ومن كان كاملاً في الذات والعلم والقدرة ... امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذي وصفه النصارى " [2] .

فلما ردّ آخر الكلام على أوله أفاد تسلية قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – وأن هذا سنن من كان قبلهم .

وكذلك ختام سورة القلم استرجع المعنى لزيادة بيان ما ذكره ابتداء فـ " قال تعالى : "ويقولون إنه لمجنون " وهو على ما افتتح به السورة " وما هو " أي وما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه " إلا ذكر للعالمين " فإنه تذكير لهم ، وبيان لهم وأدلة لهم ، وتنبيه لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد ، وفيه من الآداب والحكم وسائر العلوم ما لا حد له ولا حصر ، فكيف يدعي من يتلوه مجنوناً ونظيره مما يذكرون ، مع أنه من أدل الأمور على كمال الفضل والعقل " [3] .

بينما عدها البقاعي استحضارا لمعاني الافتتاح في إزالة ما وصف به عليه الصلاة والسلام من أن ما يقوله من تخاليط من يصرع بالجن وتأكيد ما جرى في أولها من القسم على

---

(١) " التفسير " ٦٤٩/٩ .

(٢) " السابق " ٦٤٩/٩ .

(٣) " التفسير " ، ٦١٩/١٠ ، وينظر أيضاً : ١٩٧/١٠ .

كونه على خلق وذكر عظيم بقصر القلب " وما هو إلا ذكر للعالمين " [1] .

وهذا النوع تدلك فيه المعاني على نفسها ولا تحتاج إلى طول تأمل وإنعام فكرة بينما نجد نوعاً آخر نبه فيه الرازي على أن المكونات أو العناصر الدلالية لا ترد بصيغتها الأولى التي كانت عليها في الافتتاح وإنما يداخلها تغيرات تعتري الدلالة من بعد جريانها وامتدادها في السياق فحينما تستقر في الخاتمة تتغير صورتها نسبياً وتتخذ ملامح وشيات سياقها الذي احتواها ونمى أصلها وفطرتها الأولى وذلك في تحليله لختام سورة الواقعة ما طرأ على الصفات التي جاءت ابتداء من تغيرات حينما جيء بها ختاماً فـ " ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة وأعادهم بعبارة أخرى فقال : " فأصحاب الميمنة " ثم قال " وأصحاب اليمين " وقال " وأصحاب المشأمة " ثم قال " وأصحاب الشمال " وأعادها ها هنا ، وفي المواضع الثلاثة ذكر اصحاب اليمين بلفظ واحد وبلفظين مرتين ، أحدهما غير الآخر ، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين ، وفي آخر السورة بلفظ المقربين ، وذكر أصحاب النار في الأول بلفظ "أصحاب المشأمة " ثم بلفظ " أصحاب الشمال " ثم بلفظ " المكذبين " فما الحكمة فيه ؟ نقول : أما السابق فله حالتان : إحداهما في الأولى ، والأخرى في الآخرة فذكره في المرة الأولى بما له في الحالة الأولى ، وفي الثانية بما له في الحالة الآخرة ، وليس له حالة هي واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب ، بل هو ينقل من الدنيا إلى أعلى عليين ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظين متقاربين ، لأن حالهم قريبة من حالة السابقين ، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم ، بأنهم أصحاب موضع شؤم ، فوصفوهم بموضع الشؤم ، فإن المشأمة مفعلة وهي الموضع، ثم قال : " أصحاب الشمال " فإنهم في الآخرة يؤتون كتابهم بشمالهم ، ويقفون في موضع هو شمال ، لأجل كونهم من أهل النار ، ثم أنه تعالى لما ذكر حالهم في أول الحشر بكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم ثم لم يقتصر عليه ، ثم ذكر السبب فيه ، فقال : " إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم " فذكر سبب العقاب لما بينا مراراً أن العادل يذكر للعقاب سبباً ، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سبباً ، فذكرهم في الآخرة ما عملوه في الدنيا ، فقال " وأما إن كان من

---

(١) " نظم الدرر " ١١٨/٨ .

المكذبين " ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب فظهر العدل وغير ذلك ظاهر " [1] .

فاستدل على أطوار حال الأصناف الثلاثة بتنقلات الصيغة فذكر الكفار تنقل في ثلاث صيغ فنبه ذلك على درجاتهم وأحوالهم في الدنيا ثم أول الحشر ثم منزلتهم في الدار الآخرة ولما التزم في صفة السابقين وأصحاب اليمين بحالتين دل على ما ينالونه من كرامة وقرب منزلة فينقلون من الدنيا إلى أعلى عليين فليس لهم حال واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب .

ونوع آخر لا تستصحب فيه عناصر لغوية لربط آخر الكلام بأوله وإنما بالبناء والترتيب عليه فيستثير خباياها ويبرز مكوناتها لأن الجملة " يصير معناها بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان ، وأنه يتغير في ذاته " .

فبناء الخاتمة على جملة الافتتاح لا تقتصر وظيفتها على ترجيع المعاني وإنما يحدث تغيرات وتحويرات في الفاتحة توجه معانيها وتنبه على أسرار ومزايا زائدة على الأصول المتفرعة عنها، فثمة تفاعل بين عناصر السورة ووحداتها المختلفة مناطة إحكام النسب فيما بين المعاني لأن العلاقة إذا كانت صحيحة وقوية تيسر معه استعادة الذهن للنظائر والماثلات داخل السورة وتمييز وجه انتساب بعضها إلى بعض.

وهذا النوع تدق فيه العلاقة وتلطف ويلزمك معرفتها ألا تقصر النظر على ما ظهر من المعاني ودعا إلى نفسه دون ما كمن وأن ترود بوارق شامت خلف لغتها فتتبع ما شابه من معانيها وتناسج في خاتمتها من فاتحتها وحتى تتأمل أطراف هذه الآيات فتعرف انتساب بعضها إلى بعض ، واتصال آخرها بأولها مع افتنان مذهبهما وتباعد موقعهما.

والعلاقات بين معاني الجمل مما لا يمكن حصره ولكن نعتمد في تصنيفها على ما ذكره الرازي من توجيهات للنسب ين المعاني وطرائق رده آخرها على أولها . وتتلخص في الأوجه التالية :

أولاً : ما كانت فيه الخاتمة مقابلة لمعاني الافتتاح وجاء ذلك في سورة الفاتحة فقد كان " أول السورة مشتمل على الحمد والثناء عليه والمدح له ، وآخرها مشتمل على الذم

---

(١) " التفسير " ، ٤٣٩/١٠ .

للمعرضين عن الإيمان به والإقرار بطاعته ، وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله تعالى ، ومطلع الآفات ورأس المخافات هو الإعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته " [1] .

فدلالة إن مطلع الخيرات هو الإقبال على الله تعالى كانت غائبة في صدر الفاتحة لم يجليها إلا رد ما آل إليه أهل الضلالة من مصير نتيجة الإعراض عن الله تعالى ومجانبة الطاعة على الابتداء الذي تعلوه الطمأنينة والرضى التام المتولد من الحمد لله ثم ترتيب الإقرار بربوبيته وألوهيته على صفات الله في قوله " إياك نعبد وإياك نستعين " . وقد هيأت جميع هذه الخصوصيات لإجراء المقابلة بين عجز الكلام وصدره، وكانت بمثابة قرينة محققة للتناسب بين الجملتين .

ويلاحظ في تحليل الإمام تصوره الكلي لمعاني السورة ، فلم يفسر الخاتمة باعتبارها قفلاً للمعاني ، وإنما جعلها جزءاً من بناء معاني الافتتاح ، وكأن معنى الضدية معنى معتبراً في دلالة الصدر لا يكتمل بيانه إلا بتعليقه به وردها إليه .

ثانياً : التأكيد : وهو أن تكون معاني الخاتمة مطابقة في مغزاها لمعاني الفاتحة فتواطئ الدلالة الدالة فتقويها وعليه أكثر سور القرآن ، ومن ذلك ما ذكره في تفسيره لخاتمة سورة الدخان " اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة ذكر الوعيد في هذه الآيات فقال "إن المتقين " ... ثم قال تعالى : " ذلك هو الفوز العظيم " .. ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال : " إنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون " والمعنى أنه تعالى وصف القرآن في أول السورة بكونه كتاباً مبيناً أي كثير البيان والفائدة وذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال : إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك " أي إنما أنزلناه عربياً بلغتك لعلهم يتذكرون " [2] .

وفي سورة القيامة تسترجع الخاتمة مقاصد البدء وتؤكدها بالبناء عليها وتقويتها بالاستدلال يقول في قوله تعالى : ↓ 🕮❐⑥♦⬧○⬊❁❒➲✂🖋❝✹☼○❁Ⅱ←🕮❐♌

---

(١) " التفسير " ، ٢٣/١ .

(٢) " التفسير " ، ٦٦٥/٩ –٦٦٧ .

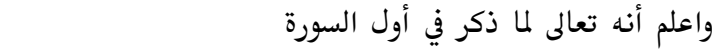
[1] : " واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة قوله " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه " أعاد في آخر السورة ذلك ، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين . الأول : قوله " أيحسب الإنسان أن يترك سدى " ... الدليل الثاني : الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة ، وهو المراد من قوله : " ألم يك نطفة من مني يمنى " [2] .

وأحياناً نجده ينص على أن جملة الخاتمة لا تكفي وحدها في التعليق بالافتتاح وإنما إحكام المناسبة بينهما تكون بملاحظة بعض عناصر الأغراض السابقة لها فيتولد من بينها وشائج تحقق النسبة وتؤكدها كما في ختام سورة الحجرات في قوله تعالى :
[3] .

ففيه" إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم ، وأعمال قلوبكم الخفية ، وقال " بصير بما تعملون " يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة ، وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما في أول السورة وهو قوله تعالى : " لا تقدموا بين يدي الله و رسوله واتقوا الله " فإنه لا يخفى عليه سر فلا تتركوا خوفه في السر ، ولا يخفى عليه فلا تأمنوه في العلانية " [4] .

فقوله تعالى :
[5] وانتظامها مع قوله : " إن الله يعلم غيب السموات والأرض " غذيا جملة المطلع وأكد الأمر بالتقوى والتخويف من إضمار النفاق لأنه بصير بما تعملون .

ثالثاً : التفصيل : وهذا النوع تكون فيه الفاتحة مكتنزة لمعان مجملة فتأتي الخاتمة لتستل منها ودائع فتبينها وتستقصيها كما في سورة الكهف في قوله :

---

(١) القيامة ، آية : ٣٦ .

(٢) " التفسير " ٧٣٧/١٠ .

(٣) الحجرات ، آية : ١٨ .

(٤) " التفسير " ، ١١٨/١٠ .

(٥) الحجرات ، آية : ١٦ .

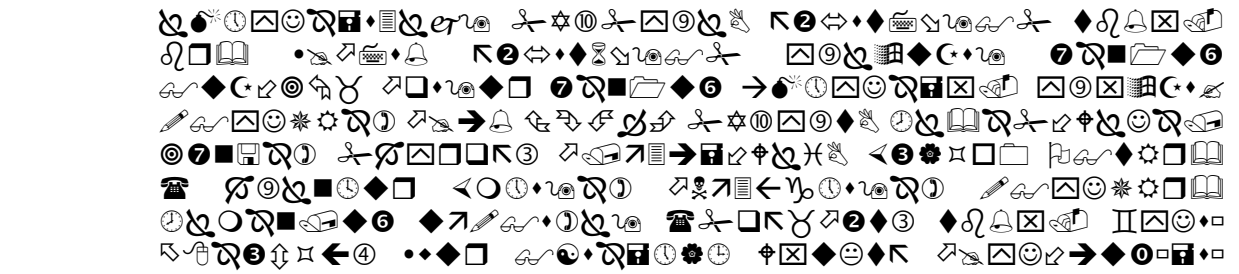

.

يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما بين كمال كلام الله أمر محمداً – صلى الله عليه وسلم – بأن يسلك طريقة التواضع فقال : " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي " أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا أن الله تعالى أوحى إليّ أنه لا إله إلا الله الواحد الصمد"[٢] .

فالخاتمة حركت المعاني المجملة في الافتتاح ووجهتها نحو التفصيل فنبهت على كمال حال القرآن وعلو مكانته وحققت معنى العبودية الذي كان هامساً في قوله " أنزل على عبده " فمطلت دلالته وبينت أنه يجب عليه أن يسلك طريق التواضع لأن اختصاصه من بين الناس بالنبوة واصطفاءه بتلقي كلام الله لا بموجب امتيازه في شيء من الصفات البشرية .

وكذلك سورة الإسراء ختمت ببيان الكيفية في التكليف المجمل في بدء السورة في قوله "سبحان الذي أسرى بعبده " ثم جاءت الخاتمة لتفصيله " فقال : " وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً " فذكر ها هنا من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع من الصفات : النوع الأول : من الصفات أنه لم يتخذ ولداً ... والنوع الثاني : من الصفات السلبية قوله " ولم يكن له شريك في الملك " ، والسبب في اعتبار هذه الصفات أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر ، والنوع الثالث : قوله " ولم يكن له ولي من الذل " والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله على ذلك الإنعام ، أو

---

(١) الكهف ، الآيات : ١٠٩–١١٠ .

(٢) " التفسير " ، ٥٠٣/٧ .

منعه منه ، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وكان منزهاً عن أن يكون له ولي يلي أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأجل أقسام الشكر " [1] .

وفي سورة ق ينبه على أن آخرها تفصيل وبيان للغرض الرئيسي الذي عليه مدارها وهو الحشر في قوله : " أءذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد " فكان قوله " يوم تشقق الأرض " بياناً لإمكان وقوعه ويسر ذلك لكمال قدرته ونفوذ مشيئته وألمح إلى هذا بقوله : " ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر قال في آخرها " يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً " [2] .

وأيضاً هناك خصوصيات بيانية أحكمت الربط ويسرت إحالة الذهن إلى المطلع فمخالفة التعبير ونقض تساؤلهم المستنكر لإمكان الرجعة بعد الموت وتحلل الجسد وتفرقه أجزاء بالتقرير الهادئ دون عناصر مؤكدة نبه على ضلالتهم وعمايتهم عن حقيقة أطبق الكون على التصديق بها لظهور دلائلها ، ثم دفع قولهم " ذلك رجع بعيد " بأسلوب مقابل في " ذلك حشر علينا يسير " فهم استبعدوا الرجعة والإعادة فأثبت عزّ وجل ما هو أبعد من ذلك وهو الحشر لأنه يشمل الرجعة وغيرها من مواقف العرض .

وهناك تفصيل باعتبار السببية كما في سورة يوسف – عليه السلام – في قوله: ↓
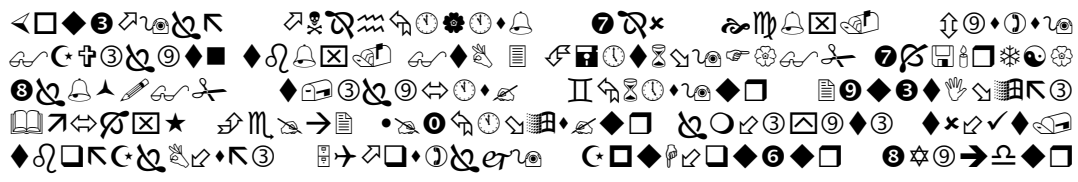
. [3] ↑

يقول : " إنه ذكر في أول السورة " نحن نقص عليك أحسن القصص " ثم ذكر في آخرها " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب " تنبيهاً على أن حُسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة " [4] .

---

(١) " التفسير " ، ٤١٠٩/٧–٤٢٠ .

(٢) " السابق " ، ١١٩/١٠ .

(٣) يوسف ، آية : ١١١ .

(٤) " التفسير " ، ٥٢٢/٦ .

رابعاً : تكميل المعاني : وفي هذا النوع نجد الخاتمة تربو بمعاني المطلع وتنميها ، فيتدرج المعنى بسيطاً ويترقى إلى أعلى مدارجة كما في سورة المائدة في قوله : ↓ ✐✶
ᏑᏒ♦✌◆❒ ⬅⬆⬀❻☞❀ᏑᏒ✃◆❒ ⌧☠⏲◆❑⏲⌺☺○○⌦⏺ᏑᏒ✃ →⌨▫◘⬉✌
🕮⬈⬄⌀☒★ ⇮♏✍⬈✍ 🗐❼■✍♦⬉ ◆❑➔♎◆❒ 🗐 ⭘♊⌀⅋❸⌧▫
⍓♦⑨⌧③❷⌨ ⇮⬀⇴✂⬅ ↑ [1] .

فـ " مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية فقال : " يأيها الذين أوفوا بالعقود " وكمال حال المؤمن في أن يشرع في العبودية وينتهي إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلية فالأول هو الشريعة وهو البداية والآخر هو الحقيقة وهو النهاية ، فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه ، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح وهذا المختتم " [2] .

فالخاتمة تصوير لقصة ذلك العهد المنعقد بين الإنسان وربه وتصور مجاهدته وصراعه من أجل البقاء على ما عاهد الله عليه ثم ترقيه في منازل التكليف ومراتبه إلى أن يصل إلى ذروة سنامه وهو اليقين والحقيقة .

فيبدأ أمره بالانقياد والوفاء بحق العبودية وينتهي إلى المعرفة بالله واجد في قوله "إلا ما يتلى عليك " وشيجه ناظمة لطرفي الكلام فالخاتمة تقرير لها ، لأن الوقوف عندما أحل الله وحرمه يؤول إلى أن كل ما في السموات والأرض لله تعالى في قبضته ومسير بأمره واقتداره .

وأحياناً لا يصرح بالمناسبة بين الخاتمة والفاتحة وإنما يتبين ذلك من تشابه العرض واستحضار السياق ذاته في تدوير معاني الخاتمة وأغراضها ففاتحة الأعراف يجعل مدارها على تقرير أمر الرسالة وذلك " يتم بالمرسل وهو الله سبحانه وتعالى والمرسل هو الرسول والمرسل إليه وهو الأمة ، فلما أمر في الآية الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي وعزم صحيح أمر المرسل إليه وهم الأمة بمتابعة الرسول فقال " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم " [3] .

فجاءت الخاتمة لتقرير ذلك وتفصيله فقال : ↓ ◑⌧♌☐ ❒◆⏺⌦⌧🕘♎⌧❻"

---

(١) المائدة ، آية : ١٢٠ .

(٢) " التفسير " ، ٤٦٩/٤ .

(٣) " التفسير " ١٩٦/٥ .

فـ " بين بهذه الآية [1] أن الواجب على كل عاقل عبادة الله ؛ لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين والدنيا ، أما تحصيل منافع الدين فبسبب إنزال الكتاب ، وتحصيل منافع الدنيا فهو المراد بقوله " وهو يتولى الصالحين " "[2] . وهذا في المرسل .

وقوله

[3] ، بيان للمنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة

. وهذا في أمر المرسَل وهو الرسول عليه الصلاة والسلام . ثم جاء قوله :

[5] في أمر المرسل إليهم يقول فيها : " لما بين في الآية الأولى أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون في الإغواء والإضلال بين في هذه الآية نوعاً من أنواع الإغواء وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة ومعجزات مخصوصة على سبيل التعنت " [6] .

---

(١) الأعراف ، آية ١٩٦ .

(٢) " التفسير " ٥/٤٣٣ .

(٣) آية ١٩٩–٢٠٠ .

(٤) " التفسير " ٥/٤٣٤ .

(٥) آية ٢٠١/٢٠٤ .

(٦) " التفسير " ٥/٤٣٨ .

ثم عاد الخطاب للرسول بالمبالغة في إلزامه بأمر الدعوة فجاء قوله : ↓

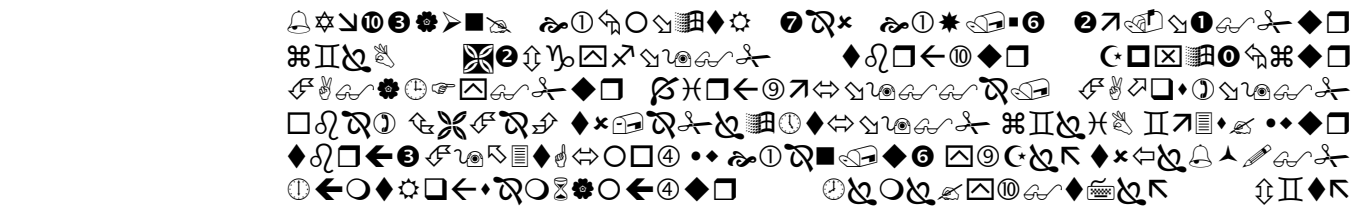

فكانت هذه الآية [1] : " ↑ جارية مجرى أمر الله محمداً بأن يقرأ القرآن على القوم بصوت عال رفيع ، وإنما أمره بذلك ليحصل المقصود من تبليغ الوحي والرسالة ، ثم ... ذكر عقيبة ما يقوي دواعيه في ذلك فقال : " إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته " "[2] .

ويحكم البقاعي رد آخر السورة على أولها بتتبع عناصر الخاتمة وجزئياتها في جملة المطلع وذلك برجوع الآخر ومعاضدته للأول في الأمر باتباع القرآن ومقابلة وصف المقربين بالخضوع وعدم الاستكبار لما جاء في بدئها من عصيان إبليس ونفوره عن السجود . [3]

(١) آية ٢٠٥-٢٠٦ .

(٢)" التفسير " ٤٣٨/٥ .

(٣) " نظم الدرر " ١٨٠/٣ .

الفصل الثاني

التناسب بين الآيات

ويعد هذا الباب من أوسع الأبواب وأدقها : أما سعته فجاءت من تتبع الإمام لوجه المناسبة بين الآية والآية سواء كانت واضحة جلية أم دقيقة خفية فينص على موقع كل آية من سابقتها ، أما دقته فأتت من أن الموقع يتشرب دلالات متعددة تجعل رده إلى أكثر من آية ممكناً ولا يكون اختصاصه بما قبله أولى من غيره ، وهو بهذا يصور ما تحت اللغة من غزارة معان لا يكشف عنها إلا تتبع نبع العلاقات بين مواقع الآيات ، والكشف عن الروابط المعنوية المنظمة لمنازل الآيات ووجه انتساب بعضها إلى بعض .

وهذا لا يعني تجاهله للروابط اللفظية ، وإنما يشير إليها كثيراً من خلال اعتبار الضمائر والتكرار والعطف وغيرها ، لكنه لا يبحث فيما وراء نظم الآيتين من تناسب وتآلف لأن مجيء الروابط اللفظية إيذان باتصال المعنى ، وأما المناسبات بحث فيما بين ما تجاور واقتران معنى وإن تصور في اللفظ صورة المنقطع ؛ لذلك لم يشر إلى أحوال الائتلاف بين ما كان ارتباطه باعتبار من الألفاظ كما في قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [1] .

يقول : " فالفاء لاتصال المعنى ، وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان ، وذلك لأنه لما قال : "إن عذاب ربك لواقع " لم يبين بأن موقعه بمن ، فلما قال : " فويل يومئذ للمكذبين " علم المخصوص به وهو المكذب " [2] .

وكذلك قوله : وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً " فـ " كلمة ذلك للإشارة إلى شيء سبق ذكره .. يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء ... وليس هاهنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله : " والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليم ولست وكيلاً عليهم فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتكون نذيراً لهم " [3] .

وتدخله في تحليل ما وراء الروابط اللفظية من مناسبة لا يظهر إلا فيما خفيت مجانسته لما قبله في بيانه لوجه المناسبة بين قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

---

(١) الطور ، آية : ١١ .

(٢) " التفسير " ٢٠٣/١٠ .

(٣) السابق ، ٥٨٠/٩ .

ما قبلها من المعاني فـ " حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى وذلك يطرق الطعن إليه وهو في غاية البعد ، بل الأصوب عندي أن يقال : المراد أنه تعالى أمر محمد صلى الله عليه وسلم — أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة : وهي الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالطريق الأحسن ، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم وبالإعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور ، ويحمله أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة ، وبالضرب ثانياً ، وبالشتم ثالثاً ، ثم إن ذلك المحق إذا شاهد تلك السفاهات ، وسمع تلك المشاغبات لابد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل ، وتارة بالضرب ، فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك الزيادة ، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه .

فإن قيل : فهل تقدحون فيما روي أنه عليه السلام ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية ؟ قلنا : لا حاجة إلى القدح في تلك الرواية ، لأنا نقول : تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية ، فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية ، إنما الذي ينازع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة ، لأن ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله "[1] .

فالسبب قيد الدلالة وحال دون انتظام المعنى ، فحملها على ما قبلها وما بعدها لتتأخى عناصر النظم وتلتئم أجزاء الكلام .

وردّ الآية على ما قبلها له ضوابط تصحح العطف وتحسنه ، وليس الردَّ كيفما اتفق بل على بصيرة وهدى من المعنى ، ويصور ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ↓ ✍✵☼ⓓ
⌖☒🕓■🖬↘↘❒🕮 ⬀☠ⓓ♈🖋◑🕓□✡⇳↖❒🕮 ☑❼ⓓ× ✍◆☪▫🖬🖂➔🖂♉
♦♌❑←⬧🖂☺↘◑❿✍ ☠←♈⬧▫ 🖋♌✍⬧🕭↘❶☞❀✍✂ ⑥■🖫ⓓ◑ “❻ⓓ♈⬧▫
🖋↑ ⁽²⁾ □ ﴾

يقول فيها : " لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال : (إنا جعلنا) وفيه وجوه أحدها : أن المراد أنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى : (ولا

---

(١) " التفسير الكبير " ، ٢٨٨/٧–٢٨٩ .

(٢) يس ، آية : ٨ .

تجعل يدكم مغلولة إلى عنقك) ، والثاني : أن الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ، فرآه ساجداً فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه .

والثالث : وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الأهتداء ، وفيه مسائل : المسألة الأولى : هل للوجهين الأوليين مناسبة مع ما تقدم من الكلام؟ نقول الوجه الأول : له مناسبة وهي أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) يدخل فيه أنه لا يصلون كما قال تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون . وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي أنه لما قال :(لقد حق القول على أكثرهم) ذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث ألتزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلاً . والتفسير هو الوجه الثالث"[1].

فالآية يصح عطفها على جملتين من مقاطع الآية السابقة لها على قوله : " فهم لا يؤمنون " يقوي دلالة عدم الإنفاق في سبيل الله ، وقوله " لقد حق القول على أكثرهم " يقوي دلالة سبب النزول وهو البرهان المؤيد لصحة نبوته عليه السلام . والأقوى عنده أنها تفصيل وبيان لمضمون الآية السابقة أي القول الذي حق عليهم وهو منع الله إياهم عن الاهتداء .

وتارة يقتفي أثر السياقات السابقة ويحكم العلاقة بينهما من خلال اللغة واختيار التراكيب ، كما في قوله تعالى : ↓ ❐◆❶⓴◑✂♦ ⑩⓪•✍• ♋♦←☠↖ ☎✂❑→◑✹✍✍✂ ♦×✓♦ ✍♦✍ 🕮❐③⑨✓③▤↗☠ ↑ ♋♓⓴✍♦ ♦♌❑←✋☒❑✍❷➔✍ ✓✍↗▤✦🖬🖂➔♦♋ ✓✍↗▤☒▦▫🖬🖂⌘ [2]

ذكر في وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله : " وآية لهم الأرض .... وآية لهم الليل ... وآية لهم أنا حملنا ذريتهم " وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فإن من أخبر

---

(١) " التفسير الكبير " ٢٥٤/٩ .

(٢) يس ، آية : ٤٥ .

بوقوع عذاب بتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم في غاية الجهل ونهاية لغفلة إلا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، لا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط ، وبدل على ما ذكرنا قوله تعالى : (لعلكم ترحمون) بحرف التمني أي في ظنكم فإن من يخفى عليه وجه البرهان لا يترك الاحتراز والاحتياط " [1] .

فجاءت بالظن بعد سياق مفعم باليقين حيث تتابعت الآيات في عرض الدلالة التي توجب القطع بنزول العذاب بمن كذب وتولى ففي إهلاك ما قبلهم شاهد يوجب اليقين ، فلما جاء الظن في هذا السياق أفاد معنى بلادة حسهم وقصور فهمهم ونهاية غفلتهم لأن العاقل إذا عرضت عليه الدلائل فإنه إذا لم يصدقها فلا أقل من أن يحترز عن العذاب ويتقيه.

ودراسة الترتيب بين الآيات عند الإمام أشبه بباب التقديم والتأخير ، فكلاهما يعول فيهما على ما وراء أحوال الترتيب ، وعلاقات الانتظام من معان وأسرار أوجبها اختيار مواقع الكلام ، إلا أن دراسة بلاغة منازل الكلام ومواقعه في الآيات أصعب مراساً منها في المفردات فالمفردات ضابطها العناية أما ترتيب المعاني فليس له حد يحصره بل هو باب متسع تفتح فيه الدلالة الدلالة وتتنزل فيه المعاني باعتبار من سوابقها ، فتمكن لها المحل مع لطائف تنتج من مداخلتها وإسنادها لتلك الآيات تزيد فيها خصوصيات ومعان تتمم بها ما قبلها وتحدد شياتها نحو ما ذكره في تقديم الاستعاذة على البسملة يقول : " ومن اللطائف أن قوله (أعوذ بالله) إشارة إلى نفي مالا ينبغي من العقائد والأعمال ، وقوله (بسم الله) إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات ، فقوله " بسم الله " لا يصير معلوماً إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقة ، والأعمال الصافية ، وهذا هو الترتيب الذي يشهد بصحته العقل الصحيح ، والحق الصريح " [2] .

فملاحظة الآيات وحسن تجاورها وائتلاف بعضها مع بعض ينظم عناصر السورة مع تشكيل هيأت لمعان خفية لا ينبه عليها إلا اعتبار سياقات سابقة ، كما في تنظيم أسماء الله

---

(١) " التفسير " ٢٨٦/٩ .

(٢) السابق ، ٢٣/١ .

الحسنى في سورة الفاتحة حيث ائتلفت من مجموعها مراحل الإنسان خلقه ومسيرته بين الهدى والضلال وعين الله رقيبة عليه ترحم وتستر وتجازي المحسن بإحسانه والكفور بكفرانه وقد أحسن الإمام في تصوير ذلك بقوله : " إنه تعالى ذكر في هذه السورة من أسماء نفسه خمسة : الله ، والرب ، والرحمن ، والرحيم ، والمالك والسبب فيه كأنه يقول : خلقتك أولاً فأنا إله ثم ربيتك بوجوه النعم فأنا رب ، ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن ، ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم ، ثم لابد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين " [1] .

ويتجاوز هذا الباب البلاغة ليصل إلى حدِّ الإعجاز حين تنتبه " إلى أن السورة لم تنزل على هذا الترتيب ، فكان الأحرى ألا تلتئم ، وأن لا يناسب بعضها بعضاً ، وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب ، ولكنها روح من أمر الله تفرق معجزاً فلما اجتمع أجتمع له إعجاز آخر " [2] .

فكل آية تتخذ موقعاً من عناصر الكلام السابق وتداخلها في بيانها وتنتسب إليها لذلك كان تفسيرها بمعزل عن جاراتها تفسير لظاهرها وقطع الأواصر ما بين الآيات ، مما يحول دون تجلية عمق الدلالة ؛ فباطن الآيات موكل بمنطق ما قبلها .

لذلك نجد الرازي يلوح بالظاهر ولا يعلق تمام الدلالة به وإنما ينفذ منه إلى تتبع أصداء الكلام السابق فيها ومواقع دلالته من دلالتها . وبهذا تبنى السورة بناء تدريجياً وتتشكل من أحوال دلالية متعددة تترتب وتنتقل دلالته فيها من الإجمال إلى التفصيل ومن الخفاء إلى التفسير ، وينسل المعنى من مقابلة أو ما هو سبب عنه .

فالترتيب داخل السورة يتخذ أشكالاً متعددة من العلاقات وقد حاولت ضبط ما يتسنى لي ضبطه من وجوه وتصنيفها من خلال نصوص الرازي فوجدتها سبعة أنواع هي كالتالي :

١- المقابلة :

---

(١) " التفسير " ٢٠٨/١ .

(٢) الرافعي " إعجاز القرآن " ، ص٢٤٤ .

وهي وإن كانت نوعاً مألوفاً في الإبانة إلا أنها في باب المناسبات تخفى وتدق فتجد الآية تطوي في بنائها معنى مخالفاً لما قبلها ، لذلك حسنت مجاورتها له وسيقت في سياقه ، فاللفظ يأتي ظاهره مستقلاً بحكم فإذا عطف على سابقة كان في حكم المقابل لدلالته كما في قوله تعالى : [illegible] [1] . وموقعها من قوله : [illegible] [2] فالثانية ظاهرها الأمر بالإيمان ولكن لما نهاهم في الآية المتقدمة عن الفساد في الأرض دل على أن كمال حال الإنسان لا يحصل إلا بمجموع الأمرين أولهما : ترك ما لا ينبغي " لا تفسدوا " وفعل ما ينبغي " آمنوا " [3] .

وقد صرح بأن الترتيب باعتبار الضد يفيد تنبيهات وتتميمات للمعاني ، وذلك حينما فسر قوله تعالى : " ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً " ، يقول : " اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء ولذلك قال الشاعر : وبضدها تتبين الأشياء ، .... فلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية " [4] .

فمعنى التقبيح تولد من ترتيبها على إثبات صحة العقول لمن تفكر في الدلائل فاهتدى للوحدانية ، فكأن من اتخذ أنداداً من دون الله هو خارج دائرة أصحاب العقول .

والإمام يجعل جذر دلالة الآية متفرعاً عن آيات التوحيد في قوله : [illegible]

---

(١) البقرة ، آية : ١٣

(٢) البقرة ، آية : ١١ .

(٣) " التفسير " ٣٠٧/١ بتصرف .

(٤) السابق ، ١٧٢/٢ .

ولم يردها إلى آية مماثلة [1] ↓ لها أي سياق تقبيح مسلك الذين كفروا في قوله تعالى :

وإنما رتبها على الضدية لسياق آيات التوحيد [2] ↑ ، لأن " إن في خلق السموات " قررت التوحيد وأكدته بالدلائل القاهرة ، فلما جاء قوله " بما ينفع الناس " شقت مجرى للتقبيح من مسلك فئة تصر على العدول والإغضاء عن الحق وتسلك سبل العماية في اتخاذ غير الله إلهاً ، فجاء قوله " ومن الناس " ليريك المناقضة بين إحسان المنعم المتفضل عليهم بأن سخر لهم ما في السموات والأرض وفعل الإنسان تجاه هذا التسخير بأن اتخذ من دون الله أنداداً .

ونبه إلى نوع من المقابلة لطيف المسلك دقيق المأخذ تخطئه أبصار العارفين من الذين راضوا الكلام ورازوا أسراره ، وما ذاك إلا من دقة مدخلها واختلاف نمطها ، ولكن هذا الاختلاف يؤول بك إلى ائتلاف إذا افتشت لغته وجدت تحته تناسباً حسناً ، نحو قوله : ↓

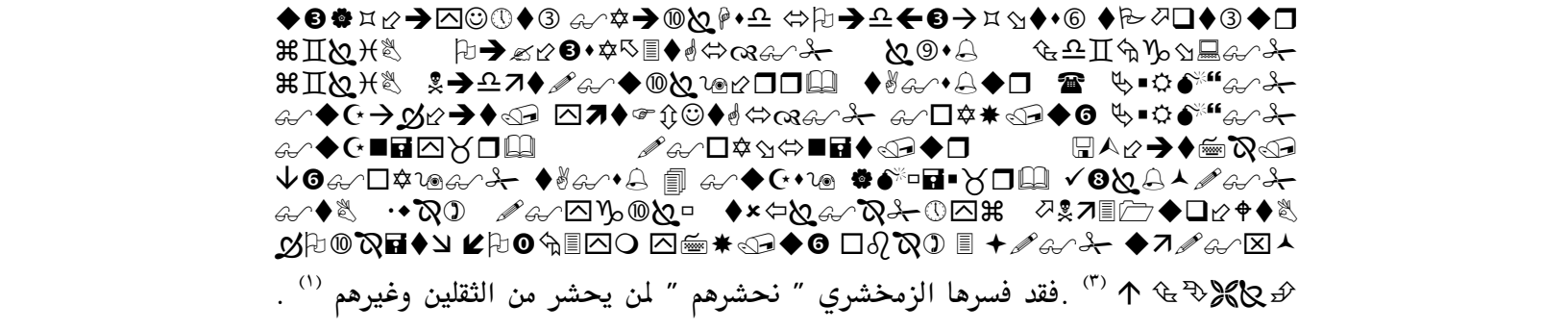

فقد فسرها الزمخشري " نحشرهم " لمن يحشر من الثقلين وغيرهم [1] . [3] ↑

---

(١) البقرة ، آية : ١٦٤ .

(٢) البقرة ، آية : ١٦١ .

(٣) الأنعام ، آية : ١٢٨ .

وغاب عنه مدخل المقابلة في بناء الآية بينما وجه الإمام دلالة الآية باعتبار ما قبلها ولم يجعلها منقطعة عنها فقوله لهم " دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون" بيان لحال من يتمسك بالصراط المستقيم وإتمام النعمة عليهم يوم القيامة بأن يدخلوا في ولاية الله ، ثم أردف هذا المعنى بـ " حال من يكون بالضد من ذلك لتكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار ، وليكون الوعيد مذكوراً بعد الوعد " [٢] . وقال فيها أيضاً : " أنه تعالى لما بين في أهل الجنة أن لهم دار السلام ، بين أنه تعالى وليهم بمعنى الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة ، فكذلك لما بين حال أهل النار ذكر أن مقرهم ومثواهم النار ، ثم بين أن أوليائهم من يشبههم في الظلم والخزي والنكال وهذه مناسبة حسنة لطيفة " [٣] . فالزمخشري جعل الآية من قبيل تعميم الحكم السابق بعد أن كان للإنس جاء عاماً للثقلين ، أما الرازي فيمطل دلالتها بإجرائها على معنى المقابلة ويندس في زواياها ليكشف عن أصداء المعنى السابق ونظائره الضدية في أبنية لغتها.

وهو يتتبع هذا المسلك في بناء المعاني المتقابلة ليدل على تشابه معانيها ويضع المعنى حذو المعنى فيرجع أصداءه ويعيده إلى الذهن فينعطف الكلام بعضه على بعض وينسقه نسق الجملة من الجملة ، فتأمل قوله في قوله تعالى : ﴿ ☎✂❑➔🖬🙾☺♦↖◆❒ ☎✂❑↖☪♦✍✂◆↗ ♦✖⇦🙾🔔➹✎✍✂ Ⅱ🙾✍ ❸🇬🇧❷↘♑❒✍ ▬💣🕓☐☪🖂♉ 🙾💣🕓🖂♦🖬🕓❿🕓❿✍✂ ➹✎✍✂ ☐♌♑❶ 🗐 ↖❷🕓🖂♑↙☼☞❀✍✂ ✍❑🙾🖋☺↘♦❒✍ ﴾ ③♦🖽↘➔🖂↖✍ ③❷🇬🇧❷↖③ ✍♦✍ ↖✍🖂➔↘🖽♦③ ←⑨③🇬🇧❷↖③ ↑ ⇦⇨🖋🖋 ﴿ [٤] : " اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عباده المنافقين وحال معبودهم ، بين في هذه الآية صفة عباده المؤمنين وصفة معبودهم " [٥] .

---

(١) " الكشاف " ٦٤/٢ .

(٢) " التفسير " ١٤٧/٥ .

(٣) السابق ، ١٥٠/٥ .

(٤) الحج ، آية : ١٤

(٥) " التفسير " ، ٢١٠/٨ .

فتجد الآية في سياقها البعيد استحضرها الترتيب وأعادها الاختلاف ، فبيان صفة عباده المؤمنين واقترانها بوصف معبودهم بعد ذكر المنافقين ووصف معبودهم أحال تشابه البناء وتطابق حذو الكلام إلى إجرائها في نسق ما قبلها وإسنادها إليها ونبه على افتقارها إلى بيانها.

وفي قوله تعالى : ﴿ ۞ ﴾ [1] يقول : " اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن ، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكاً بالعمل الصالح ، ثم بين أنه في الآخرة فائز بالنعيم المقيم والثواب العظيم ، اتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران ، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات " [2] .

وهنا نظّم عناصرها باعتبار ما قبلها من آيات فجعل قوله " والذين كفروا " بياناً مقابلاً لذكر حال المؤمنين في الآخرة وفوزهم بالنعيم المقيم ، ولما ذكر في الآيات السابقة وصف حالهم في الدنيا رتب قوله " أو كظلمات في بحر " وجعلها معنى منجر عنه ، وعليه تكون بياناً لحال الكافر في الدنيا ، وبذلك تكتمل صورة المعنى المقابل ويستوفي أجزاءه بملاحظة عناصر الآيات المتقدمة وحمل اللاحقة عليها .

ثانياً : تكميل المعاني :

هو باب من أبواب تفريع الكلام ومطل المعاني يتطلب رهافة حس لإدراك صلات المعاني فيه لردّ الآية إلى جذرها ومناطها ، لأن الآية تتأخر وتسبقها آيات ثم ترتد دلالتها إلى معنى متقدم تتمه وتضيف إليه مثل قوله تعالى : ﴿ ۞ ﴾

---

(١) النور ، آية : ٢٤ .

(٢) السابق ، ٣٩٩/٨ .

[1] ↑ جاءت في سياق ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، ولم يرد الرازي دلالتها إلى ذلك وإنما عداها إلى قوله تعالى : ↓

[2] ↑ ، يقول في ذلك : " وقد ذكر من قبل أن الكفار صدوهم أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصدّ ويؤمن معه التمكن من الحج فقال : " إن الله يدافع عن الذين آمنوا " "[3] .

وتأمل كيف نبذ الإمام بوجه انتظام النظم والتئامه بجملة واحدة علق الآية بأصلها في قوله : " أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد " ونبه فيها إلى فائدة تنزيل الآية وتأخيرها بعد آيات الأذان بالحج في قوله : " ويؤمن معه التمكن من الحج " وكان تأخيرها لموجب وهو جمع السياقات السابقة في سلك واحد وهو تعظيم المسجد الحرام ، وعظيم منزلة السالكين إليه حتى جعلهم في معية الله وحفظه يدافع عنهم ويغلب من غالبهم .

وأيضاً قوله تعالى : ↓

[4] ↑ جاءت في سياق الوعد والوعيد وترتبت عليه لأن تمام الوعد والوعيد يحصل ويكمل بإثبات الألوهية فـ " لا يمكن الوفاء بهما إلا عند حصول أمرين : أحدهما : القدرة التامة المتعلقة بجميع الكائنات والممكنات . والثاني : العلم التام المتعلق بجميع الجزئيات والكليات حتى لا يشتبه عليه المطيع والعاصي

---

(١) الحج ، آية : ٣٨ .

(٢) الحج ، آية : ٢٥ .

(٣) " التفسير " ، ٢٢٨/٨ .

(٤) النساء ، آية : ١٢٦ .

والمحسن والمسيء . فدل على كمال قدرته بقوله : " ولله ما في السموات وما في الأرض " وعلى كمال علمه بقوله : " وكان الله بكل شيء محيطاً " "[1] .

وتارة يكون المعنى قسيماً لما قبله كما في قوله تعالى : ↓ ❐◆✍☠↙&⌀❁✍◆❐ ☐✍☠↙&⌀❁✍◆❐ ↑ [2] فهو داخل في حيز قوله : ↓ ❐◆✍☠↙&⌀❁✍◆❐ ☐✍☠↙&⌀❁✍◆❐ ←☐✍◆⌀↖③ ⬩⬩ ☐✍☠↙&⌀❁✍◆❐ ←☐✍◆⌀↖③ ⬩⬩ ❐◆❻◆❐ ↑ [3] فهذه ذكرت مواقف الناس من أمر القرآن فهما صنفان : طائفة مؤمنة به وطائفة كافرة به ، ثم جاءت الآيات بعدها لبيان القسم الثاني وتفريعه فـ " قسم من لا يؤمن به إلى قسمين : منهم من يكون في غاية البغض له والعداوة له ، ونهاية النفرة عن قبول دينه ، ومنهم من لا يكون كذلك " [4] .

فعناية الرازي بما وراء تجاور الآيات هدته إلى القسمة الخفية بين المعاني ، بينما أجراها من قبله على ظاهرها دون ردها إلى معنى " ومنهم من يكفر به " [5] .

وكذلك حملة الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى : ↓ ↗❶⌀③✦✍❐◆↗ ☐✍☠↙&⌀❁✍◆❐ ↑ [6] يس على معنى الآية السابقة لها والخروج به من دائرية التأكيد إلى التكميل يقول فيه : " ثم قال أتخذ من دونه آلهة ، ليتم التوحيد ، فإن التوحيد بين التعطيل

---

(١) " التفسير " ، ٢٣٢/٤ .

(٢) يونس ، آية : ٤٢ .

(٣) يونس ، آية : ٤٠ .

(٤) " التفسير " ، ٢٥٧/٦ .

(٥) " الكشاف " ٣٤٩/٢ .

(٦) يس ، آية : ٢٣ .

والإشراك ، فقال : ومالي لا أعبد إشارة إلى وجود الإله ، وقال " أأتخذ من دونه " إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله " [1] .

وهذا فقه محكم للمعنى يتجاوز روابط اللغة إلى عمق الدلالة فتستبين عندها صلات المعاني ومنازل بعضها من بعض ، ومسار كل آية في محيط ما قبلها ، وبهذا الفهم تحصل الكلام هيئة واحدة ، وبنية متفقة تتعانق فيها أجزاء الكلام ، فلا تفسر فيه كلمة بمعزل عن سابقتها ، بل كل جملة تؤسس لمعنى في بيان ما بعدها .

وأحياناً تتابع الآيات لمعنى واحد في الظاهر لكن الإمام يجعل كل آية طريقاً أخر في بيان المعنى يستقصى كل منهاجهة من جهاته يتمم دلالته مثل قوله تعالى : ↓ ◑⃠•

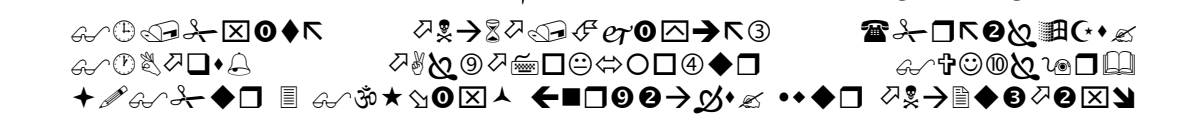

اكتمل عندها [2] ↑

معنى الترغيب في الجهاد بناء على ما أعدلهم من ثواب الآخرة ، وابتغاء منافع الدنيا، ثم جاء قوله : ↓ ◑⃠•

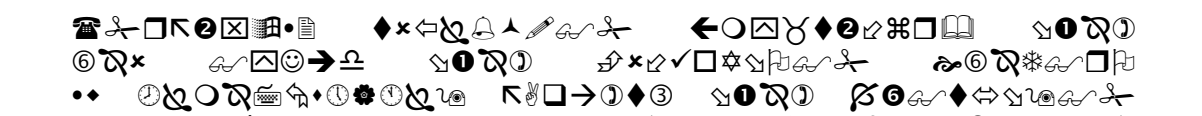

وهي " طريق آخر في [3] ↑

ترغيبهم في الجهاد ، وذلك لأنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم إن لم ينفروا باستنفاره ، ولم يشتغلوا بنصرته فإن الله ينصره بدليل أن الله نصره وقواه حال لم يكن معه إلا رجل واحد ، فههنا أولى " [4] . فهي من باب ضرب الأمثال وإثبات المعنى بدليله ، ثم ذكر طريقاً آخر

---

(١) " التفسير " ٩/٢٦٥ .

(٢) التوبة ، آية : ٣٩ .

(٣) التوبة ، آية : ٤٠ .

(٤) " التفسير " ٦/٤٩ .

فقال : ↓ ☎✂❐↖❷🙾🀫☼🖍✂ 🖍❁▫🖍☒🀫🡸⌘ ☪♦🖍♦◑🙾⚐◆❐

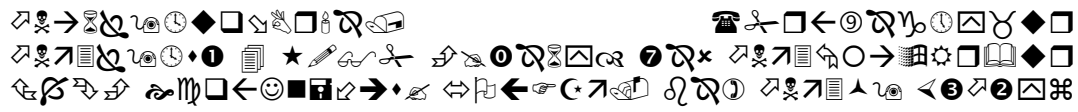

↑ [1] يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما توعد من لا ينفر مع الرسول وضرب له الأمثال ما وصفنا ، اتبعه بهذا الأمر الجزم " [2] .

وقوله تعالى : ↓ 🖍◆☪↘⑩🅞🕒◆❐◆❐ 🖍✡☪⇔○↖○ 🙾○🡿③🖂⑨🙾🕒◆❑🖎

↑ [3] حدد قسمات ما بعدها وأحدث في قوله : ↓ ♦🙾❑➔🖬🖂☺🡿➔♦🖋 ☎✂❑➔🖬🙾☺♦↖◆❐ ☎✂❑↖☪♦🖑✂◆↗ ♦✖⇦🙾🕭➹🖍🖍✂◆❐

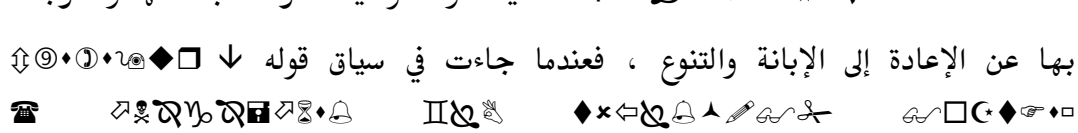

↑ [4] شيات وخصوصيات نزعت بألفاظها و خرجت بها عن الإعادة إلى الإبانة والتنوع ، فعندما جاءت في سياق قوله ↓ ❐◆♦⑨⇳

↑ [5] كانت بياناً لأقسام المكلفين المهتدي والضال ، فلما تم الكلام استأنف قسمين آخرين وطأ لهما بمقدمة وهي قوله " ووصينا الإنسان بوالديه " وهذا يقتضي أن يهتدي بهما ، وقوله " وإن جاهداك لتشرك " بيان إضلالهما . وقوله : " إلي مرجعكم فأنبئكم " بطريق الإجمال تهديد المضل ، وقوله " والذين آمنوا " وعد الهادي فـ " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " مرة لبيان حال المهتدي ومرة لبيان حال الهادي " [6] . □

---

(١) التوبة ، آية : ٤١ .

(٢) السابق ، ٥٥/٦ .

(٣) العنكبوت آية : ٨ .

(٤) العنكبوت آية : ٩

(٥) العنكبوت آية ٣ .

(٦) الرازي " التفسير الكبير " ٣٢/٩ بتصرف .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [1] فظاهرها الإخبار بشهادة الرسل ، ولكن تعليقها بما قبلها يحيل على معان تتمم جميع جهات المعنى السابق فـ " وجه النظم هو أنه تعالى بين أن في الآخرة لا يجري على أحد ظلم، وأنه تعالى يجازي المحسن بإحسانه ، ويزيده على قدر حقه ، فبين تعالى في هذه الآية أن ذلك يجزي بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق ، لتكون الحجة على المسيء أبلغ ، والتبكيت له أعظم وحسرته أشد ، ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول .... ويكون هذا وعيداً للكفار الذين قال فيهم : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ووعداً للمطيعين الذين قال فيهم (وإن تك حسنة يضاعفها) " [2] .

وكذلك حمل قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [3] على معنى التقرير لقطع حجة الذين كفروا حين يرون العذاب " ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل " فرد دعواهم بتذكير ما كان عليه حالهم مع الدلائل والبراهين التي صادفوها فاعرضوا عنها وعموا وصموا فقال تعالى : " أولم نعمركم ما يذكر " إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله " وجاءكم النذير " أي آتيناكم عقولاً ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على هذا بقوله تعالى : " هو الذي جعلكم خلائف في الأرض " أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى ... أمهلتم وعمرتم وأمرتم على

---

(١) النساء ، آية : ٤١ .

(٢) " التفسير " ٨٣/٤ .

(٣) فاطر ، آية : ٣٩ .

لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض ، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين " [1] .

فمجيء التقرير بعد الاستفهام في قوله " أولم نعمركم " فيه تصعيد للحجة وتقوية لها بما لا نهاية بعده ، فكان قطعاً والجاماً لكل محتج .

ثالثاً : زيادة بيان :

ويعول في هذا الباب على ما يثار في نفس المخاطب حول المعنى فتارة تعرض له شبهة وتارة تساؤلاً وأخرى غموضاً ينكشف بالتصريح ، وإبانة المعنى عن المعنى لا تفهم من ظاهر اللفظ وإنما يؤسس لها حسن تجاور الكلام ، ويتأتى إليها بحسن البيان فيداخل المعاني بعضها في بعض فيفتح بذلك الدلالة ويزيل إبهامها ، نحو موقع قوله تعالى : ↓ ·◆

من قوله : ↓ [2] ↑

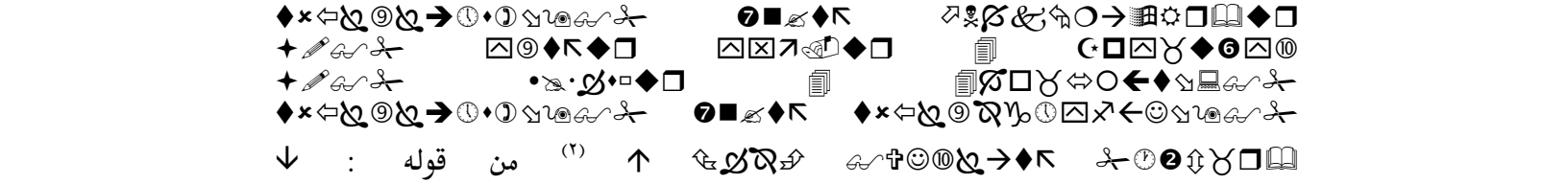

فـ "لما عاتبهم الله تعالى على ما صدر منهم من قتل من تكلم بكلمة الشهادة ، فلعله يقع في قلبهم أن الأولى الاحتراز عن

---

(١) " التفسير " ٩/٢٤٤ .

(٢) النساء ، آية : ٩٥ .

(٣) النساء ، آية : ٩٤ .

الجهاد لئلا يقع بسببه في مثل هذا المحذور ، فلا جرم ذكر الله تعالى في عقيبه هذه الآية وبين فيها فضل المجاهد على غيره إزالة لهذه الشبهة " [1] .

وقد نبه الإمام إلى أن هذا النوع من التحليل هو مسلك السلف في فهم بيان معاني القرآن ، وأن الآية لا تفسر بمعزل عن ما جاورها من عناصر ومكونات ، فالإمام علي حينما سأله المشركون عن قوله تعالى : " فإذا انسلخ الأشهر الحرم " فقالوا : " إن أردنا أن نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقتل . فقال علي : لا إن الله تعالى قال : " وإن أحد من المشركين أستجارك فأجره " أي فأمنه " حتى يسمع كلام الله "[2] فالأولى يقتضي أنه وإن جاء أحد من المشركين وطلب الدليل لا يلتفت إليه فلما كان هذا الكلام واقعاً ي القلب لا جرم ذكر هذه الآية إزالة لهذه الشبهة " [3] .

أو يكون تساؤلاً هامساً لا يصل إلى الوهم والشك كما في النوع الأول فتتولد عنه آيات تشبع حاجة في نفس المخاطب وتزيل ما يعتري البيان كما في قوله تعالى : ↓ ⧼□🗐❑◆⑩🖂❍ ❼🚫× ⬀☠↗📑♦🐚◆❒ ⧼□🗐❑◆⑩🖂❍ ❼🚫🖫🕯❒🡅🕯❍♦⌛🖂🡒♦🐚 ⬀☠→⌛❋🖬🖂🡒♦🐚 ③♦🕓❋🕯❒🡅🖫🚫❼ ♦🕓⌛🖬🖂❍❋♦ ✍♦✋❋🕒→❑♦ℒ ↑ ⬁⬂ℒℒ🖉 [4] جاءت في سياق إيجاب القصاص و " لما كان القصاص من باب الإيلام توجه فيه سؤال وهو أن يقال كيف يليق بكمال رحمته إيلام العبد الضعيف ؟ فلأجل دفع هذا السؤال ذكر عقيبه القصاص فقال : " ولكم في القصاص حياة " "[5] .

وتارة تجيء الآية للتصريح بمعنى جرى فيما قبلها ، وغالباً ما يكون موضع عناية فتتوافر الآيات عليه لإبرازه وتمكينه كما في قوله تعالى : ↓ 🕮❒🐚♦⚐⇔ ↖✍♦🖮⍁🕒♦③ ◆❑→♎ ⅄🖉 ☐ℒ❒🕮 ☎✂☑❑↖☹■🖬⬃→♦③ ↗⓿→❁▫🕯♦③◆❒ ♦❑♦🧀⬀❑✸✋🐚 ↖⇳Ⅱ♦↖ 🕗ℒ■ℒ⑩♦🖮ℒ↖ ⬁♦❑♦🧀⬀❑✸✋🐚 ◆❑→♎ ⅄🖉 ♍❒🕮◆❒ ℒ💣🕓♦🔔🖂⑨❍🕓🐚 ◆❑→♎ ⅄🖉 ·♍❒🕮◆❒ ℒ💣🕓♦🔔🖂⑨❍🕓🐚

---

(١) " التفسير " ١٩٢/٤ .

(٢) السابق ٥٢٩/٥ .

(٣) السابق نفسه وينظر هذا النوع في : ٢٩٣/٢ – ٨٢/٣ ، ٢١٦/٩ ، ١٢١/٨ .

(٤) البقرة ، آية : ١٧٩ .

(٥) السابق ٢٢٨/٢–٢٢٩ .

[1] قال فيها: " واعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم الذين تقدم ذكرهم أنهم تابوا عن ذنوبهم وأنهم تصدقوا وهناك لم يذكر إلا قوله " عسى الله أن يتوب عليهم " وما كان ذلك صريحاً في قبول التوبة ذكر في هذه الآية أنه يقبل التوبة وأنه يأخذ الصدقات والمقصود ترغيب من لم يتب في التوبة وترغيب كل العصاة في الطاعة " [2] .

فقوله : " عسى الله أن يتوب عليهم " في سياق مفعم بالغضب والنقمة عليهم لتخلفهم عن نصرة رسوله شاب الدلالة بالظن في قبول توبتهم فجاء التصريح لتجلية الدلالة وزيادة بيان.

وأحـــياناً تقع الآيات تصـــريحاً لمعان كلية كما في قوله تعـــالى : ↓ ﴿

↑ [3] لأنه " لما قال : " وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذالهم مكر في آياتنا " كان هذا الكلام كلياً لا ينكشف معناه إلا بذكر مثال كامل ، فذكر الله تعالى لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثالاً ، ولمكر الإنسان مثالاً ، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التي قبلها ، وذلك

---

(١) التوبة ، آية : ١٠٤ .

(٢) " التفسير " ، ١٣٩/٦ .

(٣) يونس ، الآيات : ٢٢-٢٣ .

لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي "[1].

رابعاً : التفصيل :

وهو منهج بياني في بناء معاني القرآن ، يكاد يكون نمطاً مطرداً في بناء بلاغته ، وخصوصية من خصوصيات بيانه ، فقد بين تعالى أنه يفصل الآيات ، ومعنى تفصيلها أي تتابعها واحد عقيب الآخر فصلاً بعد فصل لشرح معانيها ، وجميع ما ذكرناه من العلاقات داخل في معنى التفصيل ، لأن إيرادها لأجل الإبانة والشرح لما قبلها ، ولكن ما نقصده بالتفصيل هنا هو ما كانت فيه الآية شرحاً لزاوية مجملة في الآية السابقة ، فتأتي التالية لتمطل دلالتها وتمتد ببيانها كما في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [2] فـ " لما ذكر الوعد في الآية الأولى على سبيل الإجمال ذكره في هذه الآية على سبيل التفصيل وذلك لأنه تعالى وعد بالرحمة ، ثم بين في هذه الآية أن تلك الرحمة هي هذه الأشياء " [3] .

أي أن قوله : " أولئك سيرحمهم الله" هو الزاوية المجملة في بيان هذه الآية فتتابع ما بعدها لإشباع دلالتها وتفصيل مجملها .

وكذلك موقع قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

---

(١) التفسير ، ٢٣٢/٦ .

(٢) التوبة ، آية : ٧١ .

(٣) " التفسير " ، ١٠١/٦ .

من قوله ↓ [1] ↑

هو [4] ↑

يقول فيها : " اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية تفصيل ما ذكره على سبيل الإجمال بقوله " وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، فبين أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى كلموهم بل لو زاد في ذلك مالا يبلغه اقتراحهم بأن يحشر كل شيء عليهم قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله " [3] .

وأيضاً مقطع الوعيد في قوله تعالى : ↓

تقريع وامتداد للإيحاء به في قوله : ↓

يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم في إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الإجمالي وهو قوله : " إنه كان خبيراً بصيراً " ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل " [6] .

---

(١) الأنعام ، آية : ١١١ .

(٢) الأنعام ، آية : ١٠٩ .

(٣) " التفسير " الرازي، ١١٧/٥ .

(٤) الإسراء ، آية : ٩٧–٩٨ .

(٥) الإسراء ، آية : ٩٦ .

(٦) السابق ، ٤١١/٧ .

ومسلك أخر تأتي المعاني المفصلة ثم تردف بمعنى إجمالي يستوعب ما سبق كما في قوله تعالى : يقول : " لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تتوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمة على سبيل الإجمال فقال : " اذكروا نعمة الله " وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء " [٢] .

خامساً : العموم والخصوص :

نوع آخر من التناسب تمتزج فيه الآية مع ما قبلها بأن تكون تعميماً لحكمها أو تخصيصاً وهو مسلك أيضاً في تفريع المعاني وتوسيع دلالتها والإحاطة بجهاتها لا غنى للمفسر من تتبعه في بيان المتكلم ، وحمل تلك الفروع وردها إلى محل الحكم وتأليفها باعتبار منه ، كما في قوله تعالى : 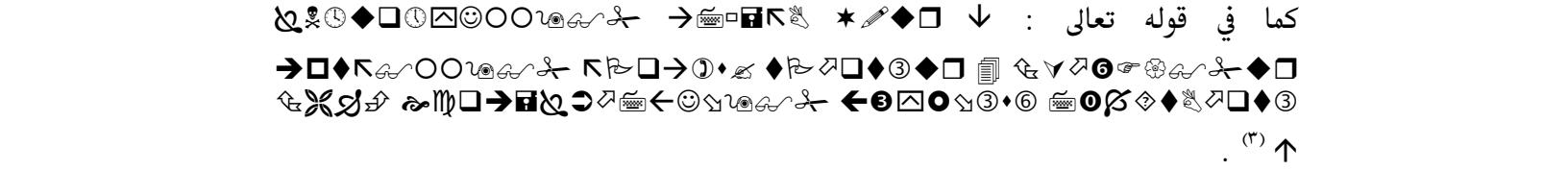 .

فـ " لما احتج بكونه قادراً على الإحياء في المرة الأولى ، وعلى كونه قادراً على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة ، عمم الدليل . فقال : " ولله ملك السموات والأرض " أي لله القدرة على جميع المكنات سواء كانت من السموات أو من الأرض " [٤] .

فالآيات المتقدمة استدلت على قدرة الله بجزء من المكنات وهي القدرة على الخلق والقدرة على البعث فجاء قوله " ولله ملك السموات والأرض " تعميماً لمحل الاستدلال ليحيط بجميع المكنات ولتصور القدرة المهيمنة المالكة للأمر كله .

---

(١) فاطر ، آية : ٣ .

(٢) " التفسير " ، ٢٢٢/٩ – وينظر ١٨٥/٥ .

(٣) الجاثية ، آية : ٢٧ .

(٤) الرازي " التفسير " ٦٨/٩ ، وينظر ١٠٥/٤ .

وفي سورة لقمان جاء قوله : [illegible] [1] منعطفاً على

قوله : [illegible] [2] وتفريعاً عليها

بالتخصيص ، قال فيها : " إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال : " ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات والأرض " على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله " يولج الليل ... " إشارة إلى ما في السموات وقوله بعد هذا [illegible] [3]

إشارة إلى ما في الأرض " [4] .

سادساً : التأكيد :

وهو من الأنواع الخفية في بسط المعاني وإبرازها ، فالمعنى لا يعود بهيئته وإنما تجد له إيماضة تحت لغة الآية التالية تنعطف بأعنة العقل إلى الأصل الذي تفرعت عنه ، مثل قوله تعالى : [illegible]

---

(١) لقمان ، آية : ٢٩ .

(٢) لقمان ، آية : ٢٠ .

(٣) لقمان ، آية : ٣١ .

(٤) " التفسير " ١٢٩/٩ وينظر أيضاً ١٥٧/٦ ، و٢٤٣/٨ .

جاءت تأكيداً لما قبلها : [1] " لـ يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم ، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور " [2] .

وكذلك قوله تعالى : [3] " لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول"[4] .

ويستدل في آيات أخرى على مواقع التوكيد بوجود عناصر ترجّع وتردد نظائرها فتوجه إلى سياقات سابقة كما في قوله تعالى : " ليقضي الله أمراً كان مفعولاً " جاءت في قوله تعالى : [5]

بعد أن داخلت قوله : [6]

---

(١) الحج ، آية : ٧٠ .

(٢) الحج ، آية : ٦٩ .

(٣) " التفسير " ، ٢١٥/٩ .

(٤) سبأ ، آية : ٤٧

(٥) " التفسير " ، ٢٤٩/٨ — ٢٥ .

(٦) الأنفال ، آية : ٤٤ .

وليس في ذلك تكراراً لاختلاف المقصد فالمتقدمة جرت في [1] سياق المؤمنين فكان الغرض منها أنه فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفي هذه الآية المعنى أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين ليصير ذلك سبباً للتخلي عن الحذر والاستعداد فيكون سبباً لإنكسارهم . [2]

فلما اختلف السياق وتباعد أعاد الجملة لتجاذب ما اختلف وترده إلى المغزى من تفريعه ، فرجعت معنى الوعد بإظهار المؤمنين واستيلائهم على المشركين وأكدته بتتميم جهاته وكشفت عن تدابيره لتمكينه لهم في أنفسهم ومع أعدائهم .

وأحياناً ترد إلى آيات أبعد لتستحضرها وتؤكدها كما في قوله تعالى :
فلم يرد دلالتها إلى ما قبلها [3] وهو
فلما كانت هذه الآية داخلة في حيز معنى أصل [4] وهو قوله " إن العزة لله جميعاً " عطفها على جذر الكلام وجعلها فرعاً عنه وتابعاً له بقوله : " اعلم أنه تعالى لما ذكر قوله : " إن العزة لله جميعاً " احتج عليه بهذه الآية " [5] .

سابعاً : السببية :

---

(١) الأنفال ، آية : ٤٢ .

(٢)" التفسير" الرازي ٤٨٨/٥ .

(٣) يونس ، آية : ٦٧ .

(٤) يونس ، آية : ٦٦ .

(٥) " التفسير " ٢٨٠/٦ .

وهي من العلاقات التي تحكم ربط الجملة بالجملة ويصير بها الكلام شيئاً واحداً ، وأحياناً تكون ظاهرة كما في قوله تعالى : [1] فهي بمنزلة السبب لقوله : " لا يؤمنون" لأن ما قبلها بيان أن المشركين لا يؤمنون سواء عليهم أأنذرت أم لم تنذر " أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا ، وهو الختم " [2] .

ومنها ما يكون خفياً يتطلب لطفاً في رده سبباً لما قبله كما في قوله تعالى : [3] ومكانها من قوله : [4] يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل حال من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته وهم الكفار الذين كذبوا بالدلالة والأنبياء وعدلوا عنها اتبعه الله تعالى بذكر السبب الذي لأجله كانت هذه طريقتهم ، فقال " زين للذين كفروا الحياة الدنيا " ومحصول هذا الكلام تعريف المؤمنين ضعف عقول الكفار والمشركين في ترجيح الفاني من زينة الدنيا على الباقي من درجات الآخرة" [5] .

---

(١) البقرة ، آية : ٧ .

(٢) " التفسير " ، ٢٩١/١ .

(٣) البقرة ، آية : ٢١٢ .

(٤) البقرة ، آية : ٢١١ .

(٥) " التفسير " ٣٦٧/٢ .

وقد جعلها الزمخشري مقطعاً جديداً فيه إخبار عن تزيين الشيطان بوساوسه وكيف حببها إليهم حتى لا يريدون غيرها[1] بينما رتبها الرازي على تبديل الآيات وانتهاجهم نهج الضلالة وإنكار البينات، لاستحواذ الدنيا عليهم فاطمأنوا بها. فكانت تنبيهاً على السبب الذي تولدت منه وزادت هي تحذير المؤمنين من طريقتهم وأنه سينالهم من العذاب ما حل بالمشركين أن بدلوا الآيات بعد أن ظهرت براهينها .

وأحسبه بهذا التوجيه جعل الآية تحقيقاً لترك الإضمار الذي قال به عبد القاهر في فاصلة الآية السابقة " فإن الله شديد العقاب " حيث ذكر أن عبد القاهر قال : إن ترك الإضمار فيها أولى فلا يقال شديد العقاب له . " وذلك لأن المقصود من الآية التخويف بكونه في ذاته موصوفاً بأنه شديد العقاب ، من غير التفات إلى كونه شديد العقاب لهذا أو ذاك"[2] .

وأيضاً قوله تعالى: ⌘♊♌♓✍ ♌❒⑩♘🕐♦☼ ⬀☠🡐●❍▭ ⬀🏳❒🕮 ↓ ❝□🖘□☪❧◉🖘✂ ♦♌❑➔🖘⬀♦↖③ ·♦ ✂❁❶♍✉♦▫ ♘📻▫❒←☺↘❧◉🖘✂ ☼♦◑🖘❷❸🕐✂ ↑[3] فهذه الآية في وصف اليهود بالبخل والحسد ، بعد وصفهم بالجهل والعلاقة بين الوصفين " أن السبب الأصلي للبخل والحسد هو الجهل ، فلما ذكر تعالى الجهل أردفه بذكر البخل والحسد ليكون المسبب مذكوراً عقيب السبب " [4] .

فالرازي يتغلغل في ترتيب المعاني بعضها على بعض والسبب في أن قدمت الآية على الآية وهداه ذلك إلى بيان المناسبة بين الصفتين وأن ثانيتهما مسبب عن الأولى وهذا زائد على ما ذكره علماء التفسير قبله على أنه وصف لليهود بشر خصلتين " [5] .

والرازي لم يتخذ من دراسة الترتيب بين الآيات أداة للكشف عن ما أشكل تعلقه فحسب وإنما اختطه منهجاً سار عليه في دراسته لجميع الآيات ، فكان وقوفه عندما كان تعلقه بغيره ظاهراً كوقوفه لما خفيت فيه وجه المناسبة ، فكأن علم المناسبة بين الآيات كشف

---

(١) " الكشاف " ٢٥٤/١ .

(٢) " التفسير " ٣٦٧/٢ .

(٣) النساء ، آية : ٥٣ .

(٤) " التفسير " ١٠٢/٤ . وينظر في هذا النوع : ٣٧٢/٢ ، ٦/ ٢٧ .

(٥) " الكشاف " الزمخشري ٥٢١/١ .

عن نسق الكلام وإحكام لمعاقد معانية ، وتجاهل هذا اللون من التحليل إهدار لثراء الدلالة وتغييب لوجه من و جوه حسن الكلام ، فهو أحد علوم الإبانة التي بإصابتها يحسن الكلام ، ويتبين مراد المتكلم ومقاصده .

والترتيب داخل السورة يراعى فيه خصوصيات وأحوال كما هو الحال في الجملة توضع فيها الكلمة لاعتبارات من الكلمات المحيطة بها وتكون بلاغتها بمدى التعايش بين الكلمات والتمازج والتفاعل فيما بينها ، وكذلك السورة نموها واكتمالها بملاحظة واعتبار التواصل والتشارب بين آياتها ، فرد الآية على الآية ينمي المعاني ويزيد فيها ويثير تنبيهات ولطائف تتم معها الدلالة ، ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى : ↓ ❐◆✍ⷪ⇳Ⅱⷪ
↓❻🖃♍□✡❁🖃✂◆❐ ↖✍↘⑩➹❁🖃✂ ⷪ❍ⷪ☝🕓♦③✂◆↗
☎✂❐←⑨→↗⇔○■✍ •• 🗐 ↖❷🖃☺⬩◑↘❁🖃✂◆❐ ←▪⇳☺⊙✧❁🖃✂◆❐
☎✂❐←⑨←⮟⇔ᘓ🖃✂◆❐ 🇬🇧❷🖃☺⬩◑▫🖬ⷪ❁ ❐◆•• ↳▪⇳☺⊙✧🖬ⷪ❁
←■🖃✸③ᘐ◑ ⬀☠←☞☪→🖹 ♌ᘐ◑ ·🡕←♍⬩◑■🖬🖂⌘ ❽ⷪ🕭➹🖉🖃✂ ★🖉
↑ [1] يقول : " اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته وهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطيفة أحسن العلوم "[2].

فظاهر الآية عرض لدلائل وحدانية الله الذي هو أصل من الأصول التي عليها مدار معاني القرآن ، وهذا ما ذهب إليه المفسرون ذكر ذلك ابن عطية حيث قال فيها " وندب الله تعالى في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالتي هي أحسن ، .... ثم عد الله تعالى آياته ليعتبر من صدف عن التوحيد " [3] .

فجعل عرض الدلائل مقطع مستقل يتضمن تنبيه من صدف أو أعرض عن التوحيد أما الرازي فيعلقها بقوله تعالى : ↓ ❐◆✍♦Ⅱ⇳Ⅱ🕮❐❍⇳○❁Ⅱ←♦❑❐✍ⷪ☺⬩✪Ⅱ
♦✌🖃⬩🕭◆❐ 🖃☯⬩ᘐ🖬🕓❁🕒 •✍ⷪ☺♦↖◆❐ ★🖉🖃✂ ❼■🖫ᘐ◑ 🖉🕭♦⑩🖂ᒪ

---

(١) فصلت ، آية : ٣٧ .

(٢) " التفسير " ٥٦٥/٩ – ٥٦٦ .

(٣) " المحرر الوجيز " ١١٦/١٣ .

وهذا [1] الترتيب خرج بالكلام من كونه براهين دالة على التوحيد إلى بيان لأحسن الأقوال في الدعوة إلى الله وهو تقرير الدلائل الدالة على ذات الله . فتسربت أحوال سياق ما قبلها وتولد عن ذلك معان وفوائد زائدة على أصل الكلام .

ويصرح الإمام بأن وضع الآية بجوار الآية يكون لأجل هذه التنبيهات كما في تفسيره لقوله تعالى : [2] .

يقول : " إنما ذكر تعالى هذه عقيب الزجر عن إتباع خطوات الشيطان ، تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة الشيطان وبين متابعة التقليد ، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال ، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل " [3] .

وقد عدل الإمام عن توجيه الزمخشري حيث فسر الآية في مجال ما قبلها فجعل الضمير في لهم عائداً على الناس ، وأنها من قبيل التنبيه على ضلالتهم[4] ، وجعلها الإمام مستأنفة والضمير عائد على غير مذكور ليهيء للمعنى الإضافي المتولد من الترتيب ، فكأنها نبهت على خطأ من يظن أن التقليد منهج ، وأن المنهجين وإن اختلفت مسمياتهما لا فرق بينهما ؛ لأن كل فكرة أو رأي لا يقترن ببرهان ولا يؤكده دليل خطوة من خطوات الشيطان، وهذا الرأي منسوب لابن عباس حيث قال أنها : " نزلت في اليهود ، وذلك حين دعاهم رسول الله إلى الإسلام ، فقالوا : نتبع ما وجدنا عليه آبائنا ، فهم كانوا خير منا ، واعلم منا

---

(١) فصلت ، آية : ٣٣ .

(٢) البقرة ، آية : ١٧٠ .

(٣) التفسير ، ١٨٩/٢ .

(٤) " الكشاف " ٢١٣/١ .

فعلى هذا الآية مستأنفة ، والكناية في " لهم " تعود إلى غير مذكور ، إلا أن الضمير قد يعود على المعلوم كما يعود على المذكور " [1] .

وأيضاً ترتيب قوله تعالى : 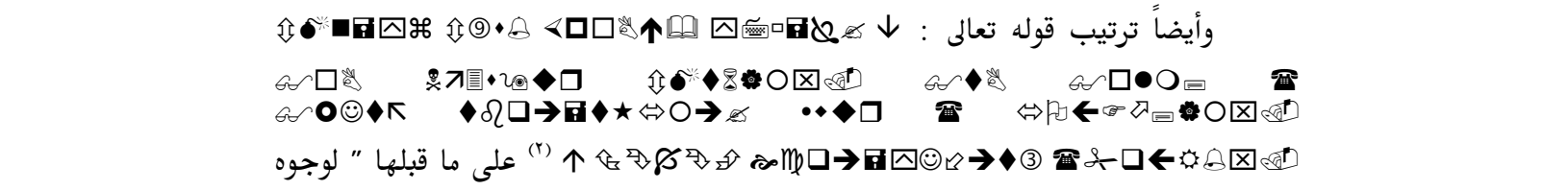 على ما قبلها " لوجوه [2] : أحدها : ليكون وعظاً لهم وزجراً حتى لا يتكلوا على فضل الآباء فكل واحد يؤخذ بعمله . وثانيها : أنه تعالى بين أنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم لاختلاف المصالح لم يستنكر أن تختلف المصالح فينقلكم محمد – صلى الله عليه وسلم – من ملة إلى ملة أخرى ، وثالثها : أنه تعالى لما ذكر حسن طريقة الأنبياء الذين ذكرهم في هذه الآية بين أن الدلائل لا يتم بذلك بل كل إنسان مسؤول عن عمله ، ولا عذر له في ترك الحق بأن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم ، لأنهم أصابوا أم أخطأوا لا ينفع هؤلاء ولا يضرهم لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد " [3] .

والوجه الأول ذكره الطبري[4] ، وزاد عليه ابن عطية بالتنبيه على ما تحمله الآية من مضامين مختلفة عن نظيرتها في نفس السورة أحدثها وضع الآية وتأخيرها يقول : " كررها عن قرب لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف : أي : إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، فوجب التأكيد فلذلك كررها ، ولإيراد ذكرهم أيضاً في معنى غير الأول " [5] .

فقوله : " في معنى غير الأول " كلمة نافذة فتحت للرازي وجوهاً مختلفة من التأويل حيث تتبع الآيات السابقة وما تحمله من مضامين نزعت بالآية إلى منازع مختلفة من الدلالة .

---

(١) " التفسير " ١٨٨/٢ .

(٢) البقرة ، آية : ١٤٤ .

(٣) " التفسير " ٧٨/٢ .

(٤) " جامع البيان " ٥٧٦/١٢ .

(٥) " المحرر الوجيز " ٥٠٩/١ .

وهذه الوجوه ليس لها رابط لفظي تؤول إليه وإنما سبيلها لطائف مستقاها العقل ، وفوائد يحصلها النظر . فالرازي مكن لكل وجه بحسن استيعابه للسابق ، وما تحته من أغراض هيأت للإيحاء بهذه المعاني .

وبهذا يتقرر أن العلاقة بين الآيات علاقة تفاعل وتداخل وكما أن رد الآية على ما قبلها يثري الدلالة السابقة وينميها فكذلك الآية اللاحقة يفتح مدلولها ويسد ثغرات وفجوات في بيانها كما في تحليله لقوله تعالى : ↓ ❒◆❻◆✎➾①➾ ⑥⬧③⬂🖬➔🖃← ✍♦❖⬀ ④☐⌖♦⬀✍⬈↓ ❒◆⑥⬧③⬂☞♦⬀❻↓ 🗏 ✍♦⬀ 🗎⬧♎♍➾ ⑩⬧♑←☠⬉ ✂⬀⌘❷⬂③⌘❸◆❒⬈ 🗐 ⬃←⌛⬀♦⬀⑦♊⌘ ✂⬀✎★ ❒◆✍♦➔⬀⑦⍰✍■❼🗐 ⬉♦☺⬤⬀ ④←⌑⇧❸⬁🗎➔❑♌♦ ⬀⬂⬂⬃ ↑ [1] " المقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ، ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم : هلا أختير غيره في النبوة"[2] . فتأويل مكنون صدورهم بعداوتهم للرسول وما يعلنون من مطاعن وشبهات حول نبوته معنى انتزعه من سياق الآيات .

بل أن تحديد منطوق الآية لا يكون إلا بالنظر فيما جاورها لذلك رد ما عليه أكثر المفسرين من أن قوله تعالى : ↓ ❒◆🕮❒♌☐ ⬉♦🖬■⓿⬂❍⬂ ✂⬀⑩✡☐⌖⇧🕯☐☐■ ✂⬀❀⌖⌘⬀❷♦❽🗏 ⬀⬀⬀ ↑ [3] إشارة إلى الحشر ، وفسرها بمعنى نفخ الروح ؛ لأن الإعادة سبق ذكرها في قوله تعالى : ↓ ❒◆🕮❒♌☐ ⬀⬂■🖫❼🗐 ❻◆✎■⬂🖮⍓ ✂⬀⑩⬂☺←✡☺♦⬀☐❻🗐 ⬀⬀⬀ ↑ [4] فهي عند الأكثرين لبيان الإعادة ، وقوله : ↓ ⚐➔☠▪ ⑥⬈♑⬂❽♦🗁❍← ✂⬀⑩⬂⬈⍓❽♦✂✎⬈◆ ✂⬀❀☞❒⬀×■❼🗐 ⬀⬀⬀ ↑ [5] كذلك ، فيكون ذكر النشأة الأخرى تكرار ، فلما جرى ذكرها كانت " النشأة الأخرى " أمراً أخر بين دلالته قوله بعدها " وأنه هو أغنى وأقنى

---

(١) القصص ، آية : ٦٨ .

(٢) " التفسير " ، ١١/٩ .

(٣) النجم ، آية : ٤٧ .

(٤) النجم ، آية : ٤٢ .

(٥) النجم ، آية : ٤١

" وهو حال من أحوال الدنيا فرشح دلالتها على معنى نفخ الروح وقواها ، واتسق الكلام وعليه يكون الترتيب في غاية الحسن ، فإنه تعالى يقول : خلق الذكر والأنثى ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة ثم أغناها بلبن الأم ونفقة الأب في صغره ، ثم أقناه بالكسب بعد كبره.[1]. □

وهذا ظاهر في تفسيره لجميع الآيات لكنه أشد ظهوراً في الآيات التي تأتي بألفاظ واحدة وبيان متفق ثم تراه يفسرها تفسيراً مختلفاً عن سابقتها ، وذلك كما في قوله تعالى : ↓

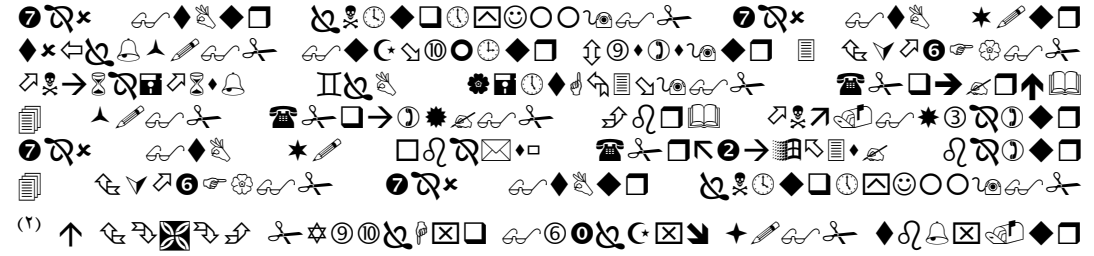

تكررت في ثلاثة مقاطع وفي كل لها دلالة ويفرع عليها معنى يقول فيها : " إنه تعالى ذكر هذه الآية ثلاث مرات لتقرير ثلاث أمور ، فأولها أنه تعالى قال : ↓

[3] والمراد منه كونه تعالى جواداً متفضلاً ، فذكر عقيبه قوله " ولله ما في السموات وما في الأرض " والغرض تقرير كونه واسع الجود والكرم ، وثانيها : قال: "وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض " والمراد منه أنه تعالى منزه عن طاعات المطيعين وعن ذنوب المذنبين ، فلا يزداد جلاله بالطاعات ، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات فذكر عقيبه قوله : " فإن لله ما في السموات وما في الأرض " والغرض منه تقرير كونه غنياً لذاته عن الكل ، وثالثها : قال " ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأتي بأخرين وكان الله على ذلك قديراً " والمراد منه أنه تعالى قادر على الإفناء والإيجاد فإن عصيتموه فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية ، ... فالغرض ههنا تقدير كونه سبحانه قادراً على جميع المقدورات وإذا كان الدليل الواحد دليلاً

---

(١)" التفسير" الرازي ٢٨١/١٠ –٢٨٢ بتصرف .

(٢) النساء ، آية : ١٣١ .

(٣) النساء ، آية : ١٣٠

على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل .... فإذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله تنبه الذهن حينئذ لكون تخليق السموات والأرض دالاً على أسرار شريفة ومطالب جليلة " [1] .

وهنا نجد تصويراً لغزارة معاني القرآن واتساع أسلوبه وأنه حمال لوجوه ، ففي أي وجهة صرفته أنصرف وانشق عن دلالة فتخليق السموات والأرض مستوعب لصفات الله وكافي في الاستدلال على الوهيته ، ثم خلص الرازي من هذا التكرار الحي النامي إلى ربطه بالمنهج العام للقرآن والغرض الكلي من آياته وهو صرف الأفهام والعقول إلى الاستغراق في معرفة الله.[2]

.

والترتيب فيما بين الآيات ليس له علاقة محددة ولا يتخذ مساراً واحداً وإنما يراعى فيه فقه الدلالة ووجود مناسبة يصح معها عطف الآية على الآية قبلها أو في سياق آخر يستلزم ردها إليه ، وقد انتهج الإمام مسالك مختلفة في العطف مما يؤكد أن هناك ضوابط تضبط مجال كل آية وحركتها داخل ما قبلها من آيات ، فكل آية تستبطن إيماضات توحي إلى معان ضمنية لسياقات سابقة تتصل بها .

وبهذا تتنوع علاقات الآيات ويختلف تفريعها ، فتارة تجده يرتب الآية على ما قبلها كما في قوله تعالى :

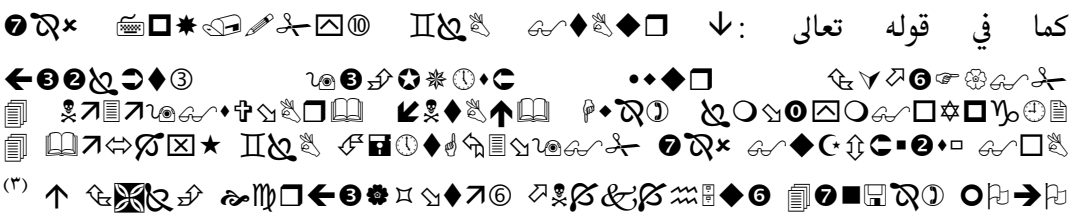

[3]

يرتبها على قوله تعالى :

---

(١) " التفسير " ٤/٢٣٩-٢٤٠ .

(٢) ينظر السابق ، ٤/٢٤٠ .

(٣) الأنعام ، آية : ٣٨ .

[1] لـ " أنه تعالى بين في الآية الأولى أنه لو كان إنزال المعجزات مصلحة لهم لفعلها ولأظهرها إلا أنه لما لم يكن إظهارها مصلحة للمكلفين لاجرم ما أظهرها وهذا الجواب إنما يتم إذا أثبت أنه تعالى يراعي مصالح المكلفين ويتفضل عليهم بذلك فبين أن الأمر كذلك ، وقرره بأن قال : " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم " ، فإذا كانت آثار عنايته واصلة إلى جميع الحيوانات ، فلو كان في إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها ولامتنع أن يبخل بها مع ما ظهر أنه لم يبخل على شيء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها ، وذلك يدل على أنه تعالى إنما لم يظهر تلك المعجزات ، لأن إظهارها يخل بمصالح المكلفين " [2] .

وأحياناً يعلق الآية على جملتين من جمل الآية السابقة لها وفي كل فائدة كما في قوله تعالى : ↓ ورتبها على قوله : ↑ [3] ↑ [4] يقول في ذلك : " في النظم وجهان : الأول : أنه تعالى قال في الآية السالفة " والله

---

(١) الأنعام ، آية : ٣٧ .

(٢) " التفسير " ٥٢٣/٤ .

(٣) البقرة ، آية : ٢١٤ .

(٤) البقرة ، آية : ٢١٣ .

يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " والمراد أنه يهدي من يشاء إلى الحق وطلب الجنة فبين في هذه الآية أن ذلك الطلب لا يتم ولا يكمل إلا باحتمال الشدائد في التكليف ، فقال : " أم حسبتم... " . الثاني : أنه في الآية السالفة بين أنه هداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه بين في هذه الآية أنهم بعد ذلك الهداية احتملوا الشدائد في إقامة الحق والصبر على البلوى ، فكذا أنتم يا أصحاب محمد لا تستحقون الفضيلة في الدين إلا بتحمل هذه المحن "[1] .

فتنوع المعنى بتنوع ترتيبها على جزئيات الآية السابقة فردها في الوجه الأول إلى فاصلة الآية وهو قوله " والله يهدي من يشاء .... " وفي الثاني إلى الخبر المبهم في قوله "فهدى الله ... " فجاءت بياناً وتفصيلاً له .

وفي آيات أخرى يستحضر سياقات بعيدة ويرتب عليها الدلالة ، وهذا يتطلب وعي بالغ بمنازل المعاني ومكان بعضها من بعض ، ورهافة حس وشرف تأمل مع إحاطة بالأغراض ليمكن للآية في قلب الأخرى نحو قوله تعالى : ↓ ✉ ③♦⌚⌛♦♉✗✗× ↗◆✂⑩⊠⚐♦
⌨⑨✎↗⬄○♦✌ ✍♏✍↗✍ ⊠⑨☪♋↖ ✍✍↗▤♦✌♦♈③♋♒ ☎✂❐↗⓿➔❀
••◆❐ ☎✂❐←✍◆❸⬁⌗✍✂◆❐ ☎✂❐➔🖬➔🗎◆❐
❹🖬♋♦↗⑥ •• ⌚←❍❋☼♋◑ 🗐 ☎✂☑❐➔▫♋❸⇧⭘➔✍
✍✍➔🕭 ↓ : قوله إلى آيتين فردها [2] ↑ ✍⌘✍✍ ♦×✓♋▫♋❸⇧⭘←☺⍂⍝✍✂
☎ ✍⓿⬄○✎◑⍂⍝✍✍♋✍ ❼♋■🗀◆❻ ⌘❺•✍❐🕮
✍♏✍➔🗎 ⊠⑨☪♋↖ ✍☠↗▤⊠♎❐↖♉↖❐ ☎✂❐←☺⑩♋🕭❐🕮◆❐
↖🕮•✐ ✍▫✓✍⌚♋🖬⍂③➔✍ ←■❐↖↖✍⑩✍✂◆❐ ⌨⑨✎↗⬄○♦✌
♦♌❐←⑩❐↖➔•✍ ✍☠↗✍❐🕮⊠⑨♦✍ ✍⊠☺⊠✍ 🗐 ♦×⇦♋♏✍✐✍✂
⇧⑨•🕭 ♦⚐⊠⑩✂◆↗ ×✗✗♉♦⌛⌚♦③ ↓ : وقوله [3] ↑ ✍✂✍✍
❽✗❻⌚◆❐↖③ ✍✝✍✍♦⌨♋⍝ ✍✍↗▤⍂⓿■🖬♦⍗ ✍◆☪⍂⍝♦❽☼❐🕮
↓□✍♦⌨♋⍝◆❐ ☎ ✍✦⌖④✗❻◆❐ ✍☠↗▤♋✍⌚◆↗✍❐⊠✍
⇧♊♋✌ ✍①♋⍝⌚•❶ 🗐 ✍❸✍❷⊠⌘ ⊠⌨♋⍝⌚•❶ ▤❽◆❐⍂◑✸✍⍝✍✂
♦♌❐↖❷✍✍⊙⓿♦③ ⬄✍←♑❋🖬⊠➔•⍝ ★✐✍✂ ♋✍⌚♦③✂◆↗
✍♋✂✍ ↑ [4] فـ " لما أمر بالقسط في الآية الأولى ، وكان من جملة القسط أمر اللباس وأمر المأكول والمشروب ، لا جرم اتبعه بذكرهما ،و أيضاً لما أمر بإقامة الصلاة في قوله : " واقيموا

(١) " التفسير " ، ٣٧٧/٢ — ٣٧٨ .

(٢) الأعراف ، آية : ٣١ .

(٣) الأعراف ، آية : ٢٩ .

(٤) الأعراف ، آية : ٢٦ .

وجوهكم عند كل مسجد " ، وكان ستر العورة شرطاً لصحة الصلاة لا جرم اتبعه بذكر اللباس " [1] .

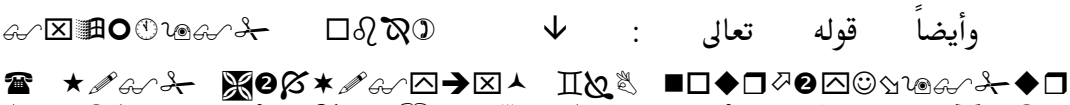
وأيضاً قوله تعالى : ﴿ ۞ ﴾

[2] علقها بثلاث سياقات " أحدها : أن الله تعالى بين أنه إنما حول القبلة إلى الكعبة ليتم إنعامه على محمد – صلى الله عليه وسلم – وأمته بإحياء شرائع إبراهيم ودينه على ما قال "ولأتم نعمتي عليكم " وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذكر في قصة بناء الكعبة وسعي هاجر بين الجبلين فلما كان الأمر كذلك ذكر الله تعالى هذا الحكم عقيب تلك الآية . وثانيها : أنه تعالى لما قال : ﴿

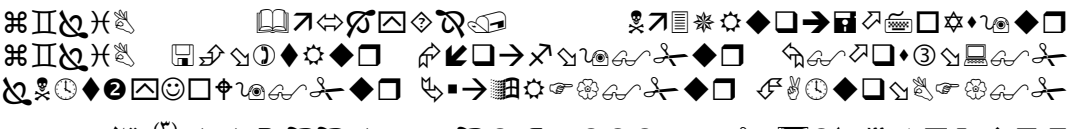
﴾ قال : " إن الصفا والمروة من شعائر الله " وإنما جعلها كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لابد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات ، وثالثها : أن أقسام تكليف الله تعالى ثلاثة ، أحدها : ما يحكم العقل بحسنه في أول الأمر فذكر هذا القسم أولاً وهو قوله : ﴿

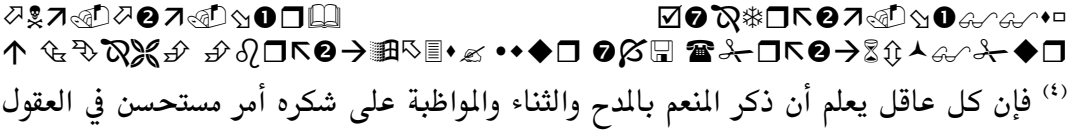
﴾ [4] فإن كل عاقل يعلم أن ذكر المنعم بالمدح والثناء والمواظبة على شكره أمر مستحسن في العقول .

وثانيها : ما يحكم العقل بقبحه في أول الأمر إلا أنه بسبب ورود الشرع به يسلم

---

(١) " التفسير " ، ٢٢٨/٥ .

(٢) البقرة ، آية : ١٥٨ .

(٣) البقرة ، آية : ١٥٥ .

(٤) البقرة ، آية : ١٥٢

حسنه ، .... إلا أن الشرع لما ورد به وبين الحكمة فيه ، وهي الابتلاء والامتحان على ما قال: " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع " فحينئذ يعتقد المسلم حسنه ... وثالثها : الأمر الذي لا يهتدي لا إلى حسنه ولا إلى قبحه ، بل يراه كالعبث الخالي عن المنفعة وهو مثل أفعال الحج من السعي بين الصفا والمروة ، فذكر الله تعالى هذا القسم عقيب القسمين الأولين ليكون قد نبه على جميع أقسام تكاليفه وذاكرا لكلها على سبيل الاستيفاء والاستقصاء " [1].

فتأمل كيف كيف مكن للآية وجعلها صلة لجميع ما سبق ،وكأن المعاني السابقة تصب في دلالتها ، فإذا وضعتها في الأنعام السابق كانت من تمامه ، وإذا استبصرت بها دلائل بشرى الصابرين بصرتك واستدللت بها على منزلتهم ووصولهم إلى أعلى الدرجات وخلود ذكرهم على مر الأزمان وتعاقب العصور فكانت كشاهد عيان للكلام السابق ، وإذا أجريتها في سياق التكاليف كانت قسيماً مكملاً للنوعين السابقين .

وذكر الألوسي وجهاً واحداً من كلام الإمام وهو أن الصبر اقتضى بيان معالم الحج للحاجة إليه في قضاء مناسكه ، واستقل برأي وهو أنه : " لما أشار سبحانه فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج فكأنه جمع بين الحج والغزو ، وفيهما شق الأنفس وتلف المال " [2] .

أي أنه يردها إلى قوله تعالى : ↓ ❐◆••❐→➁➀✍ ☎✂❑↗➿❑→➁➀✍ ••◆❐ ↓ ♊♋☺♌➿ ➿
⬀✍♦🖙 🗐 🖷✀🕓◆❑↘✎❐🕮 ★🖉✍✂ ✍✍➊♌♋♋ ❼♌× ↖✍♦☞↘➁➀↖③
↑ ↬↩♌♌✍ ✍ ✍ⅷ❐↖❷↖➔⇳⌖■✍ •• ♊↰▤🕓➀➿◆❐ ⊠↗🖉✍◆➊⇳❍❐🕮
[3] ولكن يعرض له إشكال وهو أن الآية ليست في باب الحث على الجهاد وذكر فضيلته وإنما جاءت تفصيلاً لقوله " استعينوا بالصبر " وبياناً له . وقد تجاوز الإمام الرازي هذا بجعلها في حيز الصبر وهو رأس المعنى الذي تولد عنه ذكر فضيلة الجهاد والحج .

وأحياناً يعلق الآية بآية هي جذر لما بعدها من الآيات كما في قوله تعالى : ↓
♦✌❑←♋▪❷➿✍✂◆❐ ✍ ♊♦✍◆❐ ✍↗♌➲↖③
⌘🖙➔⬀☼❐🕮 ♦×⇦♌🕭✍✍✂ 🖂↗♦✍ 🖂🖷✀◈❋🕓➀➿🕯❐➚➀♦▫

(١) " التفسير " ١٣٤/٢-١٣٥ .

(٢) " روح المعاني " ، ٢٤/٢-٢٥ .

(٣) البقرة ، آية : ١٥٤ .

الترغيب ويؤكد الأمر بالطاعة .

وأيضاً قوله تعالى : ↓ ☝☐☜ ☝☐☜ ◆♌🔔☒✍ ✈✍☝✦ ⌂⑩♑◆⓿☒❻◆
✈☝☜✁☺☟♒◆→⬅⌂☝♑⚝♑✓×◆ ⬉◆✍■❼🗐 ☝◆☜✍ 🕮❐☼☞⬅☠⬀
⬉◆🖪■⓿☟❍♑ ❍☐☹☀☐🗐 ③◆☺♑❷❾◆ ✁☝💻☟③✦⌨♐⑩☸☐ ☝♑♊⌘
✁☝♒☟➲⅄⓿♒✍☞ 🗐 ❐◆☝◆☝ ✍☒🔔♌◆ ✁☝✍✦
♒♑⑩⬉➲⇧🖬♐➔⌂🗐☠⬀ ⬉◆✍■❼ ✁☝♒☟⬄◆⓿☟🖬✍ ❐◆♒✦🕚🗐⬁♊⓿
✁☝✍⅄ ⑥✦♍☟☝◆☐⌂ ✁⬅♐🕮♑🕗 ☝◆♊ ④☐⌖◆☝✍⬈↓
☎ ▫✦★◆☝✁♑✩⬉❐✁☎ ✍♐☝☝✍★ ❐◆❻↓⬅✁♐🕮♑🕗 🗐
❐◆🕗♐♌ ✍→✦☝✁♑✩⬉❐✁☎ ❐◆✍✦☝✹🕗➔❐✁☎ ▫✦🖬■🗐⬈☠⬀
🕮❐♉⇧❷⬋ ⬉◆➔♑⑩🏱⊘ ✍⊘⊘ ☝☜ ↑ [1] يقول فيها : "اعلم أن هذه الآية من بقية الكلام في قصة أحد ، فأخبر تعالى أن الأحوال التي وقعت في تلك الحادثة من القتل والهزيمة ، ثم دعاء النبي– صلى الله عليه وسلم — إياهم مع ما كان بهم من الجراحات إلى الخروج لطلب العدو ، ثم دعاؤه إياهم مرة أخرى إلى بدر الصغرى لموعد أبي سفيان ، فأخبر تعالى أن كل هذه الأحوال صار دليلاً على امتياز المؤمن من المنافق ، لأن المنافقين خافوا ورجعوا وشمتوا بكثرة القتلى منكم ، ثم ثبطوا وزهدوا المؤمنين عن العود إلى الجهاد ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يجوز في حكمته أن يذركم على ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بكم وإظهارهم أنهم منكم ومن أهل الإيمان بل كان يجب في حكمته إلقاء هذه الحوادث والوقائع حتى يحصل هذا الامتياز ، فهذا وجه النظم " [2] .

فالآية وإن كانت متصلة بالكلام في قصة أحد إلا أن تأخيرها ووضعها بعد سياق ذكر المنافقين وتثبيطهم للمؤمنين عن الجهاد لتبين أن هذا النوع من الابتلاء لتمحيص المؤمنين من المنافقين .

وأيضاً قوله تعالى : ↓ ③◆🕔❊🕯❐③⑩♑☝ ✁☝✍⅄🔔♑⇦▫☙
⬈◆✁☝✩⬉❐☑✁☎ ♊♐♌ ✍➔➲♑⓿➔⬉❐✁☎ ✁☝✍⅄🔔♑⇦▫☙
✍☒▦☒❷⬉❐✁☎ ③◆❷⬉⑩♉❐🗏➔💣⇧ ⬉◆✍■❼✁
🕮❐⬉⇧☽▫🕔⌨♐⬈☠⬀ ▫☞◆☪☽▫🖬♐⌛⬅❐✁☎ ⌘☐🕔⓿♒❸♐⇦×◆
↓ ③◆🕔❊🕯❐❾☙🙵❐☝ ✁☝✍⅄🔔♑⇦×◆ ↑ ☝☜⊘♐✍ يردها إلى قوله : ↓ [3]
⬈◆✁☝✩⬉❐✁☎ •• ✍◆🖖✹②♑⓿⬈❐✁☎ ☝♐➲◆☐☪ ☝♓♑♊

---

(١) آل عمران ، آية : ١٧٩ .

(٢) " التفسير " ، ٣/٤٤١ .

(٣) آل عمران ، آية : ١٤٩ .

☎✂❐♋⑩◆❐ ☪⬥✍◆⌛⊠⌘ ⬀☠↗▤◆☼❑↗☜▫🕯◆③ ⬥⬥ ⬀☠↗▤🔍☼❐←⑩
↓↗🖉✍•🖋↘⇔◆📠↘☜✍✂ 🔍☠⊠⑨◆✍ ⇳⑨⬥🔔 ⬋☹♋🡻🔍✡◆↖ ✍◆✌
❻🔍▦⬋②➔✍ ✍◆✌◆❐ ⬀☠🕅🖔🔍♎🕓◆❑↘▫❐🕮 ⇳Ⅱ🔍✌
↖☠↗▤⬥☜ ✍☐✡☐❹◆✍ ⇳⑨⬥🔔 🗐 ←❸◆☜↘✍❐🕮 ⬀☠➔♎↓❻❐←⑨←🕒
◆♌❑➔🖬✍☽⬋➔⬥✍ ⬋☹↗🡻☪↗✍ ♌🕅☽ ☎ 🔍💣🕓◆③☞⊠✍✂

↑ ⬁🡅🡅🔍🖋 (١) يقول : " واعلم أن هذا من تمام الكلام الأول وذلك لأن الكفار لما أرجفوا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد قتل ودعا المنافقون بعض ضعفه المسلمين إلى الكفر ،منع الله المسلمين بهذه الآية عن الالتفات إلى كلام أولئك المنافقين " (٢) .

وقد أفاد هذا من ابن عطية حيث جعل " الإشارة بقوله " الذين كفروا " إلى المنافقين الذين جبنوا المسلمين وقالوا في أمر أحد : لو كان محمد نبياً لم يهزم ، والذين قالوا : قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول " (٣) .

وأيضاً قوله تعالى : ↓ ❐◆✂✍🖊⬅🔍♙✖◆ ☎✂❐↖❷☒▦☒📠

⌘⚐☐✡⊠♎⊠♉ ↓❻✍◆☼ ⇔⚐←♎⬥☜ •• 🗐⊘❁⊘↘☽↖③
←✂⊙▦⬥③↗⑥ ⬥⬥◆❐ ☎✂❑➔✍❑←☺◆⑩⬥▫ ⬀☠🕅♎↘⑩■🖬◆↘
↖⚐←♎⬋✡◆↖ ⇳Ⅱ🔍✌ ↖❶☒❶◆↖ ✍⊠♎🕅📠✂ 🗐 📠☒❶☒🕓☜🔍📠
♱⬥♎❽🇬🇧❽↘♎⬥♱ ↑ ⬁🇬🇧🔍🖋 ☜❻❑➔▦⬥🖹☐✍↗📠 (٤) يقول فيها : " ثم قال "والذين كفروا لهم نار جهنم " عطف على قوله ↓ ☽♌🕅☐ ✂🖊✍🖊🔔🡅⬥◆ ◆③✌🖬➔❑♍🖬⬋✌◆🕓☽🖬❁ ✂🖊✍★ ↑ (٥) وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا " (٦)

وهذا قريب من الفن الخاص الذي ذكره عبد القاهر في العطف ووصفه بدقة المسلك لأن الجملة فيه " لا تعطف على ما يليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان " (٧) فلا يجري العطف على التوالي والتعاقب ويمنع من ذلك التحدر أمر من

---

(١) آل عمران ، آية : ١١٨ .

(٢) " التفسير " ٣٨٣/٣ .

(٣) " التفسير " الرازي ، ٣٦٥/٣ .

(٤) فاطر ، آية : ٣٦

(٥) فاطر ، آية : ٢٩

(٦) " التفسير " ٢٤٢/٩

(٧) " دلائل الإعجاز " ص٢٤٤ .

من المعنى [١] .

فقوله : [illegible]

[illegible] [٢] كل ذلك ممسك ومتولد بعضه من بعض ، ثم يستقل قوله تعالى : " والذين كفروا " ويتصل به ذكر أحوالهم وهم يصطرخون في النار ، ثم يعطف هذا الفصل من المعنى على جذر الكلام السابق وهو جملة " إن الذين يتلون كتاب الله " ويعلقها بها فـ " والذين كفروا" ليس داخلاً فيما سبقه لأن ما قبله تفصيل للفضل الكبير الذي أعد للسابق في الخيرات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا متفرع من قوله " والذي أوحينا إليك " ثم أرتد الكلام إلى ذكر الفئة الأخرى من الذين يتلون الكتاب فيضعها بهذا العطف وضع المعنى المقابل لتلك الصورة . □

وهناك آيات يجعلها نهاية للمقطع كله كما في قوله تعالى : [illegible]

[illegible] [٣] فالآيات السابقة لها حكت شبهاً لليهود الذين طعنوا بها في نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – ثم امتدت الآيات وتتابعت للإجابة عنه ثم " اتبعه بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أوجب عليهم في التوراة والإنجيل ... أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته والمراد منه التعجب من حالهم كأنه قيل : كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه " [٤] .

وقوله : [illegible]

---

(١) السابق ٢٤٧ .

(٢) فاطر ، آية : ٣٥ .

(٣) آل عمران ، آية : ١٨٧ .

(٤) السابق ، ٣/٤٥٥ .

[1] فهي في الظاهر لا صلة بينها وبين ما قبلها قوله : ↓ ❐◆❐↖↷↬↗▭ ✂🖋☺↘↓▤🖋↗⏲🖋✂ ❸◆❸♦✋•▫ ➲🖬⏲♦☝↬▤↘↓◉🖋✂ ♦✍✓🔍✒🇽❷⇳↗←☺↘↓◉🖋✂ ♦✍✓🖋◑🔍▦⇳⌖↖✒ ♦ℓ❑↗↓◉❑→◑♦③◆❐ 🔍❍⑩🔍▫ 🖋❶☺🔍✒ ••🖋🖬⏲♦☝↬⏳↘↓◉🖋✂ ✂☒❶⏲▭♎🖋✌♦☝■🖬↙③◆❑⏲♦③ ☞•🔊◑ ⏲☐◆❸❷🔊📻☒📠 ••◆❐ ☪☐◆❸❷🖋⇔❁🕒 ↓❻🔍⑩🖋♦⇔↖③ ☎✂❑➔🖬🔍☺♦↖ 🖋♦✒ ☎✂❐←⑨▭Ⅱ◆❐◆❐ 🗐 🖋▭♌☞❁⏲⇳❍❐🕮 ✂✡⑨♦■❐🕮 ▭📻⑩📠◆❻ ❶⚐🔊🖬⇳→♦③ ••◆❐ ▤ ✂☪❸↬🔍🔔♦■
﴿ ↑ [2] ولكن لما كان " المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين ، وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى ، ذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه .... وهؤلاء المشركون عاملوا المسلمين بعين هذه المعاملة ... فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيهاً على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة إبليس ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها ، فهذا وجه النظم وهو حسن معتبر " [3] .

وكذلك قوله تعالى : ↓ ❐♦🔔◆☑❑↗⏲🖋♦🔔◆❐☎✂ ◑🔊⏍ ⇙ℓ🔊◑ ⏍❻🔍"•🔊◑ ❍▭⑩◆🔔♦✍🖋✒ ◆❸⓿⇙☼❻⑨⏲🖋✂ ✒◆❐✍♦✍◆ ✂✡➔🖋✒□✒ ←Ⅱ↘◆♦✞ ✒◆❐✍♦✍◆ ✒◆⓿⇙☼❻⑨⏲🖋✂ ✒□✡➔🖋✒◆⑩▭❍ ﴿ ↑ [4] فلا يردها " احتجاجاً على صحة القول ♦✍✓🔍⚐❑↖➔↗📻▭☺🔊📠 بالحشر والنشر لأن ذلك الدليل قد تقدم ذكره في أول السورة في قوله : ↓ ◆❑➔⍏
✂🖋❁🖋♦🔔 ❍⚐➔⚐ 🕮✍✓🔍➲ Ⅱ🔍ℋ✌ ☠↗▤♦◑■🖬▭⌘ ❽🔍🔔➹🖋✒ ❍⚐➔⚐ ☎ ◑←■▭⑨✡🔍↖ ❻⑦😑❁❍⑩✌ ➴✍▭♉❐🕮◆❐ ☎ ⌖⊠▭♉❐🕮 ﴿ ↑ [5] .. بل المقصود من هذه الآية الردع والزجر عن هذا المذهب والقول " [6] □

وينبه الرازي على سلطة الغرض على تنزيل الآيات وترتيبها في مواقعها فتقديم قوله تعالى : ↓ ✂🖋❁➹♦↬ •✍▭➔▭♉ ❽🔍🔔➹🖋✒ •↬▤♦↗📠 ⌘Ⅱ🔍ℋ✌ ✒✂♦❶🔊✉♦▫ ✂✡❻✒♦☼ 🔊❸❁➢↙⌘☞❁✒✂ ✂♦↗⊙⌖↬🖋✒✂

---

(١) الكهف ، آية : ٥٠ .

(٢) الكهف ، آية : ٤٩ .

(٣) " التفسير " ٤٧١/٧ – ٤٧٢ .

(٤) الأنعام ، آية : ٢٩

(٥) الأنعام ، آية : ٢

(٦) " التفسير " ٥١٢/٤

على ذكر خلق [1] ↑ ♦❐🕮←☞☼❐🕮 ←❍⟀☪⌘✍ ←➔❑⌧⑨←❐♦ ⌘⌧🖈⌧ ↑ ⌧⌧

السموات والأرض في قوله : ↓ 🕮❐❐◆❐▪" ✂🖉🖈⌧⌧❽ ❁⌧🖃■🖬⌧♦

✂🖉☺○○⏲⌧❑◆🕓⌧⑨❻✌ ✂◆❐ ◆⟀⬀❻☞❁🖉✂◆❐ ⌧☠🕓◆❑🕓⌧☺○○⏲⌧🖉✂

🖃♦✍■❼✂ 🖃🖬⌧✍ ⑥•③⏲➔🖬■ℳ←⚐ 🖃♦✍■❼✂

[2] ↑ ⌧⌧ ✂🖉⏲❁🖬⌧②⏲➔🖬⌧⓪❐⟀◆ ←🖃🕓❁🖬⌧②⏲➔🖬⌧⓪❐⟀◆

حيث " قدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الأكبر ؛ لأن استبعادهم كان بالصريح واقعاً على الإحياء حيث قالوا : "من يحيي العظام " ولم يقولوا : من يجمعها ويؤلفها والنار في الشجر تناسب الحياة " [3]

أي أن الله سبحانه خلق النار في الشجر والشجر ليس معدناً لها لأنه خضرة وماء كما خلق الحياة في الرميم وليس الرميم معدنا لها فإذا كان سبحانه جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً وأنتم تأخذون هذه النار ولا تلتفتون إلى أنه سبحانه أودع لكم بقدرته الشيء في غير ما يتوقع وأوجده فيه فلا تستبعدوا حياة الرميم لأنه قادر على إيجاد الحياة في العظام النخرة .

وتقديم وعد المؤمنين وتوسطها في سياق ذكر المستنكفين قبل بيان وعيدهم وما يفعل بهم لأنه لما كان الغرض من بيان عظم عقابهم وشدة حسرتهم زحزح جملة وعد المؤمنين وداخلها في ثنايا الوعيد تصعيداً للغرض ومبالغة في الإيعاد يقول : " واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه يحشر هؤلاء المستنكفين لم يذكر ما يفعل بهم ذكراً ولا ثواب المؤمنين المطيعين . فقال " فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله " ثم ذكر آخراً عقاب المستنكفين المستكبرين فقال : " وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم ... " وإنما قدم ثواب المؤمنين على عقاب المستنكفين لأنهم إذا رأوا أولاً ثواب المطيعين ثم شاهدوا بعده عقاب أنفسهم كان ذلك أعظم في الحسرة " [4] .

وآيات أخرى يعلقها مرة بما سبقها من آيات وأخرى بالغرض الكلي كما في قوله

---

(١) يس ، آية : ٨٠

(٢) يس ، آية : ٨١

(٣) التفسير ، ٣٠٩/٩ .

(٤) " السابق " ٢٧٤/٤ .

تعالى : [illegible] [1] ذكر في "اتصال هذه الآية بما قبلها وجوهاً ؛

الأول : أنه تعالى خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال : [illegible] [2] ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكنهم نقضوه وتركوا الوفاء به ، فلا تكونوا أيها المؤمنون مثل أولئك اليهود في هذا الخلق الذميم لئلا تصيروا مثلهم فبما نزل بهم من اللعن والذلة والمسكنة . والثاني : أنه لما ذكر قوله [illegible] [3] وقد ذكرنا في بعض الروايات أن هذه الآية نزلت في اليهود ، وأنهم أرادوا إيقاع الشر برسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ذكر الله تعالى ذلك اتبعه بذكر فضائحهم وبيان أنهم كانوا مواظبين على نقض العهود والمواثيق .

والثالث : أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكليف وترك التمرد والعصيان ، فذكر تعالى أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا أن عادة الله

---

(١) المائدة ، آية : ١٢ .

(٢) يس ، آية : ٨١

(٣) المائدة ، آية : ١١ .

في التكليف والإلزام غير مخصوصة بل هي عادة جارية مع جميع عباده " [1] .

فالوجه الأول يجعلها تفصيلاً للميثاق الذي ذكرهم به في آيات متقدمة عنها ، وفي الثاني متفرعة عن ما قبلها ، أما الثالث فيردها إلى الغرض الكلي من السياق وهو ترغيب الناس في قبول التكاليف والانقياد لها .

وكذلك قوله تعالى : ↓ ❐◆✍♦︎☞ ⌘◰■◘☽♉✡□☞ ✁☞◎☞○○☺◰☞✐↗◆ ❐◆✁☞✿☞❻◫⋎◆ ❐◆✍♦︎☞ ◪◆❹✵♦︎☜☞✗☞◰☞ ◉♦︎◑➔☜⌨☒✓×♦︎ ⇗⇨☜⇦ ↑ [2] يقول : " في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان : الأول : أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم اتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً منه ومجازاة على ما فعلوا فقال : " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين " أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب ، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية .. والثاني : أن الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه ، فإن كان كاذباً كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه ، وإن كان صادقاً فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن " [3] .

وردها إلى الغرض الكلي تفرد به الرازي لأن من سبقوه حملوها على ما قبلها فجاءت وعظا واحتجاجاً عليهم[4] ، فهي تعقيب على معنى التهديد في قوله : ↓ ❐◆✍☒☠◫ ♤♦︎◉✿☺⇳✡□☞ ✍♊ ♤♦︎❷◫③◆□⌨ ✍☒♤☼◆✺⇳ ←♦︎☞◎☞✌☺◰□☾ ❐◆📖❐♦︎⊕♦︎ ☼♦︎☞ ◪➔◆⑨◰♎◰☞ ♤♦︎□◫✍◑☞ ↗◆✁⌘◰❷☒⇦▫☙ ⇗⇨⇨⇦ ↑ [5] وتفريع عليها .

وبعض الآيات لا يردها إلى الغرض مباشرة ، وإنما يقتص الجذر الذي تفرعت عنه الآيات السابقة لها وما أحدث فيها من خصوصيات وبما غذاها من أحوال ولا يعلق الآية

---

(١) " التفسير " ٣٢٢/٤–٣٢٣ .

(٢) الأنبياء ، آية : ١٦ .

(٣) " التفسير ، ١٢٤/٨–١٢٥ .

(٤)" جامع البيان " ينظر الطبري ٩/١٧ ، و " المحرر " ابن عطية ١٣٢/١ .

(٥) الأنبياء ، آية : ١١ .

بالآية قبلها إلا بعد تمحيص بيان فيمكن لمعناها ويفرعها عليها .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [1] ليس الأمر فيها للطلب لكونه عليه السلام عُلِّمَ أحوالهم بإعلام من الله تعالى ، وإنما المقصود منها المبالغة في الزجر والتهديد " وبيان هذا الكلام أنه تعالى قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [2] فأمر بالإسلام و نهى عن الكفر ، ثم قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [3] ثم بين ذلك التهديد بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [4]

ثم ثلث ذلك التهديد بقوله " سل بني إسرائيل " يعني سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها ، لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى ، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه ، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم ، كما قال تعالى : " فاعتبروا يا أولي الأبصار " وقال : " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب " فهذا بيان وجه النظم " [5].

وتأمل دقة الإمام فلم يعلقها مباشرة بالآية الجذر وإنما رتبها على المعنى الذي تكون

---

(١) البقرة ، آية : ٢١١ .

(٢) البقرة ، آية : ٢٠٨ .

(٣) البقرة ، ٢٠٨ .

(٤) البقرة ، آية : ٢١٠

(٥)" التفسير "، الرازي ، ٣٦٥/٢ .

مجموع تلك الآيات وهو التهديد فكانت تصعيداً له .

وهناك آيات يجعلها مرة متصلة وأخرى غرضاً مستقلاً كما في قوله تعالى : ﴿ 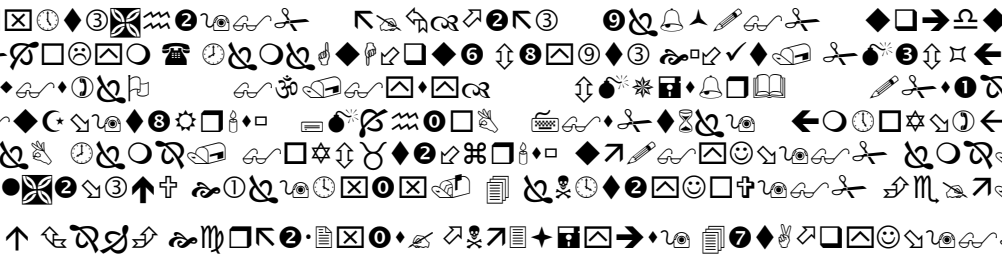 [1] ﴾

فلها وجهان : " الأول أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي وهو السموات والشمس والقمر والنجوم ، اتبعه بذكر الدلائل بعض الأحوال العالم السفلي ... الثاني ... أنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم ، أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد"[2] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ [3] ﴾ فـ " يمكن أن يقال : هذه الآية من بقية أحكام الجهاد ، ويمكن أن يقال : إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد ... وتقريره أن يقال إنه تعالى لما بين في هذه أمر الهجرة ثم أمر الجهاد ، وهما عبادتان بالسفر ، بين أيضاً عبادة التفقه من جهة الرسول عليه السلام وله تعلق بالسفر ، فقال : وما كان المؤمنون لينفروا كافة إلى حضرة الرسول ليتفقهوا في الدين بل ذلك غير واجب وغير جائز ، وليس حال كحال الجهاد معه الذي يجب أن يخرج فيه كل من لا عذر له "[4].

---

(١) الأعراف ، آية : ٥٧ .

(٢) " التفسير " ٥/٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) التوبة ، آية : ١٢٢ .

(٤) " التفسير " ، ٦/١٧٠-١٧١ .

ونبه أيضاً إلى أن هناك آيات تقع في البين ولها غرض كما في قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [1] ذكر في " اتصال هذه الآية بما قبلها وجهين ، الأول : أن قوله " فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم " كلام وقع في البين ، وما قبل هذه الآية متصل بما بعدها ... يعني أنهم في أول الأمر يصدون عنك أشد الصد ثم بعد ذلك يجيئونك ويحلفون بالله كذباً على أنهم ما أرادوا بذلك الصد إلا الإحسان والتوفيق ، وعلى هذا التقدير يكون النظم متصلاً ، وتلك الآية وقعت في البين كالكلام الأجنبي ... إلا أن هذا الكلام الأجنبي شرطه أن يكون له من بعض الوجوه تعلق بذلك المقصود ... والآية كذلك لأن أول الآية وآخرها في شرح قبائح المنافقين وفضائحهم وأنواع كيدهم ومكرهم فإن الآية أخبرت بأنه تعالى حكى عنهم في أول الآية أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفر به ، ويصدون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته ، فذكر هذا ما يدل على شدة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة في الدنيا والآخرة فقال : " فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم " أي فكيف تلك الشدة وحال تلك المصيبة ، فهذا تقرير هذا القول ، وهذا القول الحسن البصري واختيار الواحدي من المتأخرين .

الوجه الثاني : أنه كلام متصل بما قبله وتقريره أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ويفرون من الرسول عليه الصلاة والسلام أشد الفرار دل ذلك على شدة نفرتهم من الحضور عند الرسول والقرب منه فلما ذكر ذلك ، قال : فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، يعني إذا كانت نفرتهم من الحضور عند الرسول أوقات السلامة هكذا ، فكيف يكون حالهم في شدة الغم والحسرة إذا أتوا بجناية خافوا بسببها منك ثم جاؤك شاؤوا أم أبوا يحلفون بالله على سبيل الكذب : أنا ما أردنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة والغرض من هذا الكلام بيان أن ما في قلوبهم من النفرة عن الرسول لا غاية له ، سواء غابوا أم حضروا ، وسواء بعدوا أم قربوا ، ثم أنه تعالى أكد هذا المعنى بقوله : " أولئك

---

(١) النساء ، آية : ٦٢ .

الذين يعلم الله ما في قلوبهم .... " يعني أنه لكثرته وقوته لا يقدر أحد على معرفته إلا الله ، ثم لما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم شدة بغضهم ونهاية عداوتهم ونفرتهم أعلمه أنه كيف يعاملهم فقال : " فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً " وهذا الكلام على ما قررناه منتظم حسن الاتساق لا حاجة فيه إلى شيء من الحذف والإضمار ، ومن طالع كتب التفسير علم أن المتقدمين والمتأخرين كيف اضطربوا فيه والله أعلم " [1] .

وكأني بالرازي يستحسن كونها متصلة بما قبلها ويؤكد على ذلك باتساق النظم وجريانه بعدها على هذا الوجه .

وأيضاً توسط آية الخلع بين الطلقة الأولى والطلقة الثالثة وهي " كالشي الأجنبي ، ونظم الآية : الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ، فإن قيل : فإذا كان النظم الصحيح هو هذا فما السبب في إيقاع آية الخلع فيما بين هاتين الاثنين ؟

قلنا : السبب إن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة ، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك ، فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة ، ثم اتبعه بحكم الخلع ، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة ، لأنها كالخاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب والله أعلم " [2] .

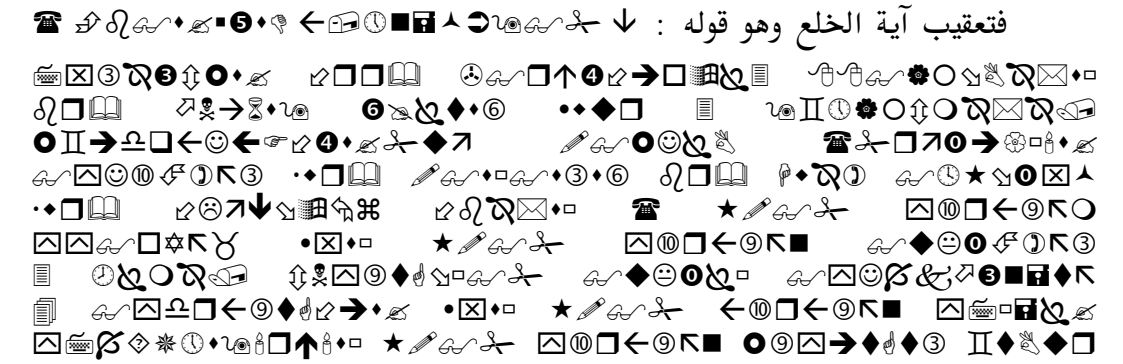

---

(١) التفسير ، ١٢٢/٤-١٢٣ .

(٢) السابق ، ٤٤٨/٢ ، وينظر : ١٣٩/٤ و ٥٩/٨ .

♎➔☠⇖ ✂ ✈☏☞ ➔⅄🕔🖬⚟☺⇖❑♌♦ ⇗⚢⌘⌘⇦ ↑ [1] بالفاء بعد المفاداة بالطلاق يوهم بأن الخلع من الطلاق وعلى هذا احتج بعض الأحناف[2] ، فنبه الإمام على سبب اقترانها بالرجعة وتقديمها على حكم الطلقة الثالثة لمناسبتها للأولى في أنهما لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة فأخرت لأنها كالمتممة لأحكام هذا الباب .

ويكاد يكون ما ذكره حازم في التصرف في مقاصد الكلام وجهاته تلخيصاً وتنظيراً محكماً لتحليل الرازي لأنواع التعالق وجهاتها ونسب المعاني داخل الغرض الواحد . فصنف جهات التصرف في صنفين : " وضرب يقع في الكلام مقصوداً لنفسه . وهو ما كان له بالغرض المقول فيه علقه وله إليه انتساب ... والصنف الثاني : ما لم يكن له بالغرض علقة ولكن له عقلة ببعض الجهات المتعلقة بالغرض ، فيذكر تابعاً لما ذكر ... ، وقد يكون له بالغرض علقه إلا أنه لم يذكر إلا من حيث ما هو تابع لغيره ومتعلق به " [3] .

والعلاقات السابقة لا تخرج في جميع صورها عن هذين الصنفين فهو إما أن يعلقها بما قبلها أو يردها إلى جهات مختلفة من المعاني المتفرعة عن الغرض الأصل ، أو ينعطف بها إلى الجملة الأم وجذر المعنى ، وتارة يعلقها بالغرض الكلي المتحصل من مجموع الآيات .

فالبحث في تناسب الآيات يحيط بتنامي المعاني داخل الغرض الواحد وتكاملها وتماسكها ، فأجزاء الكلام وعناصره المختلفة تتقاذف في مواقع مختلفة وتتوزع فروعها بنسب محكمة ، ومن خلال هذا التقاذف والتوزيع يتشكل للمعنى هيئة متفقة وسمتاً متشابهاً .

فالتراث العربي — وإن تباعد سياق النظرية عن التطبيق — استوعب أحوال التماسك وتتبع وجوه أنتساب الأجزاء بعضها إلى بعض وخصوصيات اختيار مواقع الأجزاء ، وأن ذلك وفق اعتبارات من الأغراض فـ " الجهة الواحدة من الأول يمكن أن يناط بها جهات ثوان

---

(١) البقرة ، آية : ٢٢٩ .

(٢)" أحكام القرآن " ابن العربي، ٢٦٥/١ .

(٣) " منهاج البلغاء ، ٢١٦ .

كثيرة على أنحاء من الاستدراج والاستطراد وما جرى مجرى ذلك من الانتقالات المتنوعة بتنوع المقاصد " [1] .

ووظيفة المفسر والناقد هو إدراك هذه النسب ورد جهات القول وتعليقها بالأصل المتفرعة عنه ثم رد الفروع إلى أصل جامع ، وهذا المسلك يصحح وحدة الكلام ويستدل به على وجودها أو انعدامها . وليس الوحدة الساذجة التي تبرز للناقد وغيره سبيلها سبيل المنطق لا تذكر في محاسن الكلام ، ولا يقف عندها المفسرون لأنها من علم الظاهر الذي تستوي عنده الأقدام .

وكان التماسك بين الآيات موضع عناية المتأخرين فلفتوا إلى ما فيه من إحكام وما وراءه من أسرار يجوز بها الكلام البلاغة ليدخل في نطاق المعجز ؛ لأن ذلك التماسك لا يتأتى إليه إلا بغزارة الجملة القرآنية وما طوته تحت بيانها من وشائج تحكم التعالق بين أجزاء الكلام فتجمع أعناق المعنى قبلها ، وتومي بمعنى تهيئ به للمعنى بعدها . وقد نبه الحرالي إليه في نص كريم يقول : " في كل آية معنى تنتظم به ما قبلها ومعنى تتهيأ به للانتظام بما بعدها ، وبذلك كان انتظام الآي داخلاً في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً " [2] .

فالجملة القرآنية تؤسس معنى في ذاتها وتطوي معان في بنائها تنسب بعضها إلى آيات سابقة وبعضها معنى يهيئ لآية لاحقة ، وهذا نوع آخر من غزارة البيان القرآني غير الذي نبه عليه الشيخ عبد القاهر فتلك غزارة من مكونات التراكيب والإصابة في وضعها واستعمال بعضها مع بعض وتلاحقها حتى تكثر في العين [3] . أما الغزارة التي في التناسب فجاءت من تداخل المعاني و تشابكها حتى تصبح كل آية أشبه بقناة تصب فيها المقاصد السابقة ثم تشق مجرى لمعنى تالٍ ويزيدك بياناً قوله : " فإن الإجمال في القرآن بمنزلة نطق الأكوان والآلوان

---

(١) " منهاج البلغاء " القرطاجني ٢١٧ .

(٢)" تراث أبي الحسن الحرالي " الحرالي ص١٨٨ .

(٣) " دلائل الإعجاز " ٨٨ .

والبيان فيه بمنزلة تخطيط الصور " [1] . فتأتي الآية " إظهاراً لإفصاح ما أفهمه مضمون الخطاب الأول لتنسق الآيات وتجمع الآية ما في تفصيل لاحقتها " [2] .

ويفصل ذلك ما ذكره البقاعي في تفسيره لقوله تعالى :
يقول : " ولما كان الصبر واقعاً على أمور أشقها الجهاد ثم الحج ثم الصوم وكان بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قد سألوا عمن مات منهم على قبلة بيت المقدس فبين لهم ما صاروا إليه بقوله تعالى : 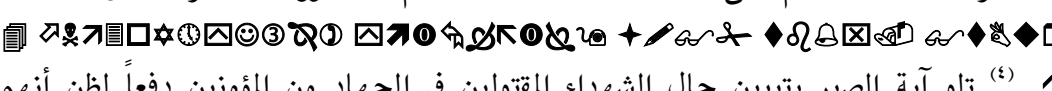
[3] تلو آية الصبر بتبيين حال الشهداء المقتولين في الجهاد من المؤمنين دفعاً لظن أنهم أموات والتفاتاً إلى ما أشار به إلى صيرورة الأمر إلى الحرب حيث عاب المانعين للمسجد وأخبر بأنه سيحصل لهم خزي في الدنيا بالقتل والأسر وعذاب عظيم في الآخرة بالنار والسخط وإيماء إلى أنه سيأذن لهم في مقارعة من أمرهم بالصبر على أذاهم من أهل الكتاب حتى يمحقهم السيف ويسكتهم الذل والخوف " [4] .

فأجملت ما نبأت به الآيات السابقة من أمر الصدّ عن المسجد وما سيحصل لهم من خزي فهيأت لمعنى تال في معناه وهو الأذن بقتال المشركين بعد أن أمر سابقاً بالصبر على أذاهم .

فالآية لفت في بنائها معان نشرها ووزعها تعليقها ونسبتها إلى سياقات سابقة ولاحقة. وقد يبتعد سياق التصريح عن الإجمال الذي هيأ له فيكون ذلك جمعاً لأطراف الكلام وثني بعضها على بعض ليحكم تماسك الكلام كما في قوله تعالى : 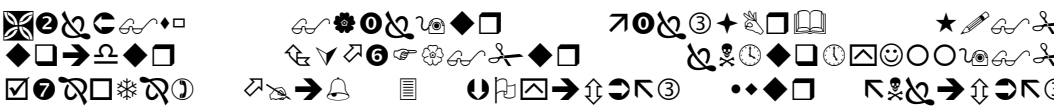

---

(١)" تراث أبي الحسن " الحرالي ٣٥٧ –٣٥٨ .

(٢) السابق ٣٠٧ .

(٣) البقرة ، آية : ١٥٤ .

(٤) البقرة ، آية : ١٤٣ .

(٥) " نظم الدرر " ٢٧٨/١ .

[1] قال فيها : " وفيه أيضاً إيماء إلى أنه كما خلقكم كلكم من طين على اختلافكم في المقادير والألوان والأخلاق وهو غني عنكم ، فكذلك خلق المطعومات على اختلاف أشكالها وطعومها ومنافعها وألوانها من طين ، وجعلها منافع لكم وهو غني عنها ، وسيأتي التصريح بذلك في قوله : ﴿ ... ﴾ [2] المستوفي في مضماره ﴿ ... ﴾ [3] " [4] .

فالمعنى طوي في ثنايا لغة الآية الأولى وأسفر ووضح في سياق آخر فصّل دلالته ورسم تقاسيمه وشكل له هيئة بعد أن كان إلماحه خفية وهذا معنى ما ذكره الحرالي من أن الإجمال إيحاء والتفصيل تخطيط للصور ونبه البقاعي على حال الآيات التي بين المعنى في صورته مجملاً ثم مفصل فذكر أن قوله تعالى :﴿ ... ﴾ وكان [5] " في هذه المحاجة التصريح بما لوح إليه أول هذه السورة من إبطال هذا المذهب ، وانعطف هذا على ذاك أي انعطاف ! وصار كأنه قيل : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون الأصنام والنجوم والنور والظلمة ، فنبههم يا رسول الله على ذلك بأنه لا متصرف غيرنا ، أذكر لهم أني أنا الذي خلقتهم وخلقت جميع ما يشاهدون من الجواهر والأعراض ، فإن تنبهوا فهو حظهم ، وإلا فاذكر لهم محاجة خليلنا إبراهيم عليه السلام إذ قال " لأبيه " [6] .

---

(١) الأنعام ، آية : ١٤ .

(٢) الأنعام ، آية ٩٩ .

(٣) الأنعام ، آية : ١١٨ .

(٤)" نظم الدرر " البقاعي ٥٩٧/٢ .

(٥) الأنعام ، آية : ٧٤ .

(٦) " نظم الدرر " البقاعي ٦٥٧/٢ .

فجملة إذا قال إبراهيم " طوت ما بينها وبين الآية الأولى من آيات والتحمت بها لأنها كالدليل القاطع المصدق لما لوح به بيان تلك .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ ﴾ [1] .

" ولما عقب سبحانه ما ضرب سابقاً من الأمثال تعالى " ورزقكم من الطيبات " وتلاه بذكر الساعة بقوله تعالى " وما أمر الساعة " إلى آخره ، واستمر فيما مضت مناسباته آخذاً بعضه بحجز بعض حتى ختم بالساعة وآمن من الظلم فيها ، وبين أن الأعمال هناك هي مناط الجزاء ، عطف على ما مضى من الأمثال المفروضة المقدرة المرغوبة مثلاً محسوساً موجوداً ، مبيناً أن الأعمال في هذه الدار أيضاً مناط الجزاء ، مرهباً من المعاجلة فيها بسوط من العذاب فقال تعالى : " وضرب الله " " [2] .

وهنا الارتداد ليس بين المعاني فحسب وإنما ينظر فيه إلى التقاء أطراف الأساليب وثني أسلوب على نظيره في السورة . ونبه الإمام على خصوصية كل مثل فالثاني داخله شوب من معاني الآيات السابق له حيث جرى فيها ذكر الأعمال وأنها مناط الجزاء فدل بذلك على تمكنها في موقعها بما لا يحسن معه انتزاعها ووضع نظيرتها مكانها.

وموقع الآية من الآية وحسن اقترانها وإيلائها لما قبلها لم يحل دون ملاحظة عناصر شبيهة بها تناظرها وتنتظم معها في قرن . كما في قوله تعالى : ﴿ 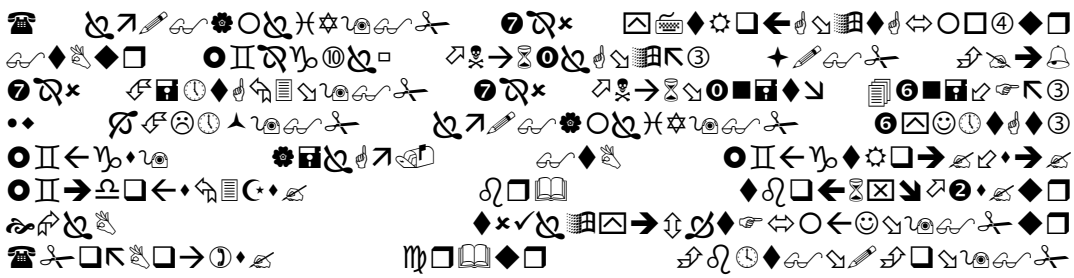 ﴾

---

(١) " نظم الدرر " البقاعي ٦٥٧/٢ .

(٢) السابق ٣١٦/٤ .

فنبه على مجيئها عقيب ذكر الإسلام [1] في قوله : ﴿ ... ﴾ [2] قال فيها : " وما أنسب ذكر هذا الحكم الذي كثرت فيه المراجعة على وجه يؤذن بعدم إذعان بعض النفوس له عقب آية الإسلام الذي معناه الانقياد والخضوع والإحسان الذي صار في العرف أكثر استعماله للإعطاء والتآلف والعطف لا سيما للضعيف وذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي تقدم أنه أتم ما ابتلاه الله تعالى به من الكلمات ووفى بها من غير مراجعة ولا تلعثم ، وأنه كان حنيفاً ميالاً مع الدليل ، تعنيفاً لمن قام عليه دليل العقل وأتاه صريح النقل وهو يراجع ! وإذا تأملت قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [3] مع قوله فيما قبل : ﴿ ... ﴾ [4] لاحت لك أيضاً مناسبة بديعة " [5] .

وهذا المنهج في تتبع الكلام واستدعاء ما تشابه منه على تباعد مطارح المعاني وتلفعها في ثنايا اللغة وسلها من ذلك الخفاء هو المنهج الذي يحكم تماسك الكلام ويسدي لحمته ويسد ما في النظم من ثغرات توقع البعض في وهم فقدان الوحدة .

وتميز البقاعي في دراسته للتعالق بين الآيات بالتنبيه على ما يفيده الترتيب من معان إنتاجية يمكن لتشكيلها معان سابقة ، والمعاني الإنتاجية ليست التنبيهات التي ذكرها الرازي وغيره من علماء المناسبات وإنما هي وصف في عمل الإبانة ، وإنشاء الكلام والدواعي

---

(١) النساء ، آية : ١٢٧ .

(٢) النساء ، آية : ١٢٥ .

(٣) النساء ، آية : ١٢٣ .

(٤) النساء ، آية : ٩ .

(٥) " نظم الدرر " البقاعي ، ٣٢٨/٢ .

التي مكنت لمجيء الآية عقيب الآية وكيف تخلقت من سابقتها وعول في ذلك على أمرين أحدهما : ملاحظة المعنى وما يستلزمه من معان تتفرع عنه وتسدي بيانه كما في قوله تعالى : "من يعمل سوء يجز به " بعد قوله " ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب " يقول : " ولما كانت أمانيهم أنهم لا يجازون بأعمالهم الخبيثة أنتج ذلك لا محالة قوله " من يعمل سوء يجز به " [1] .

أنسلت من [2] اختيار الجمع لكلمة رسول في قوله :

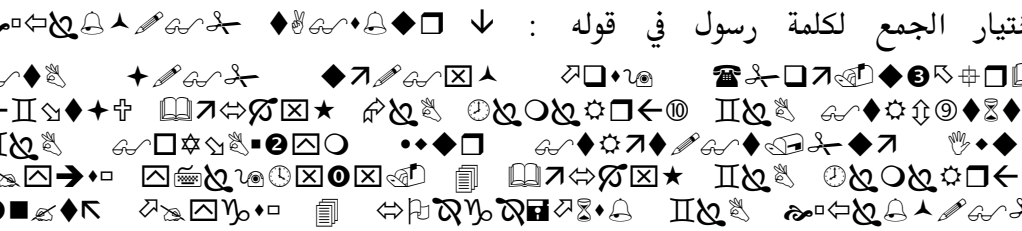

فـ " لما كان جمع الرسل مفهماً لتوزيعهم على الأمم ، كان موضع توقع [3] التصريح بذلك ، فقال دافعاً لكرب هذا الاستشراف ، نافياً لطروق احتمال ، دالاً على أن هذا القول السابق منصب إنكاره بالذات إلى اعتراضهم على الإرسال ومسلياً لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وحاثاً لهم على الاعتبار ، عطفاً على ما تقديره : فلقد بعثناك في أمتك هذه لأن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدينا ، ومنهم حقت عليه الضلالة " [4] .

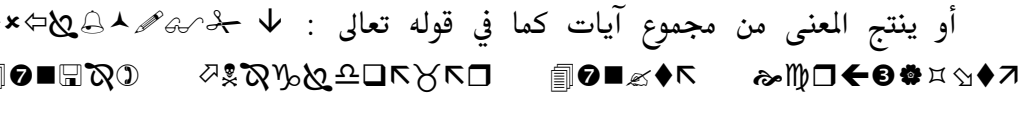

---

(١) السابق ، ٣٢٣ .

(٢) النحل ، آية : ٣٦ .

(٣) النحل ، آية : ١٣٥ .

(٤) " نظم الدرر " ٣٢٣/٢ .

كلها أنهم معاندون لربهم ، وأنهم يريدون بهذه السؤالات أن يضللوا سبيله ويحتقروا مكانته ويهدوا منزلته ، علم قطعاً أنه يعمر بهم دار الشقاء " [٢] .

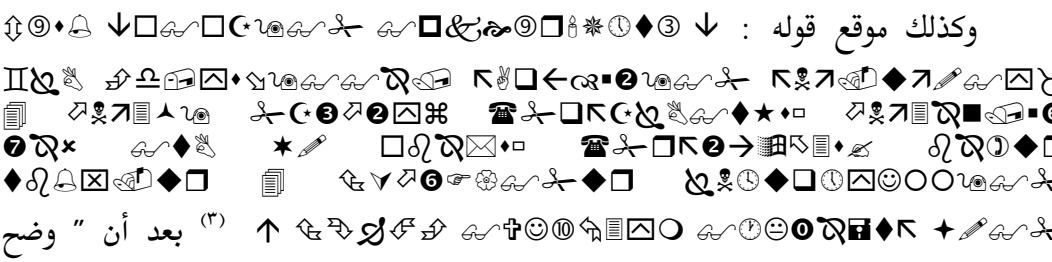

بالحجاج معهم الحق ، واستبان بمحو شبههم كلها من وجوه كثيرة الرشد ، وأوضح فساد طرقهم ، وابلغ في وعيدهم ، انتج ذلك صدق الرسول وحقيقة ما يقول " [٤] .

وثانيهما : ملاحظة ما يتوقعه المخاطب ويستشرفه من لوازم تثيرها تلك المعاني فيأتي ما بعدها إشباعاً لهذا التوقع فيتحدر الكلام إزالة لذلك التشوف كما في تمكن قوله تعالى : ↓

في سياق ما سبقها من آيات فقد " كان آخر هذه القصص في الحقيقة إبطال كل ما خالف الإسلام الذي هو معنى " إن الدين عند الله الإسلام " وما بعد ذلك إنما جره ختم الآية بدعوى أن المخالفين من الخاسرين ، وختم ذلك بأن من مات على الكفر لا يقبل إنفاقه للإنقاذ مما يلحقه من الشدائد لا بدفع لقاهر ولا بتقوية لناصر ، فتشوفت النفس إلى الوقت الذي يفيد فيه الانفاق وأي وجوهه أنفع ، فأرشد إلى ذلك وإلى أن الأحب منه أجدر بالقبول " [٦] .

---

(١) الفرقان ، آية : ٣٤ .

(٢) " نظم الدرر " البقاعي ، ٢٦٧/٤ .

(٣) النساء ، آية : ١٧٠ .

(٤) " نظم الدرر " البقاعي ٣١٦/٥ .

(٥) آل عمران ، آية : ١٠٢ .

(٦) " نظم الدرر " ١٢٥/٢ .

وأيضاً مجيء قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [1] في سياق ذكر ما أخذه الله على بني إسرائيل من ميثاق ، " وأنهم نقضوا العهود فأحاطت بهم الخطايا فاستحقوا الخلود في النار توقع السائل الإخبار عن سبب وقوعهم في ذلك هل هو جهل أو عناد فبشع سبحانه ذلك عليهم بحرف التوقع فقال " ولقد " باللام التي هي توكيد لمضمون الكلام " وقد " هي لوقوع مرتقب مما كان خبراً أو سيكون علماً " [2] .

وفي جميع هذه النصوص نجد الإمام البقاعي يستخدم كلمة " أنتج " ويجعل ذلك الموقع ومجيء الآية ردف ما قبلها علماً قطعياً والرازي لفت إلى بعض من هذا في تحليله لبعض الآيات كما في قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [3] جعلها " تتميماً للإرشاد وذلك لأنه لما قال : " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا " كان لظان أن يظن أو متوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال " بين أخويكم " وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيماً كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين " [4] .

ولكنه لم يتتبع الفكرة في كل الآيات كما فعل البقاعي حيث جعلها منهجاً في تحليل آيات القرآن فدل بها على تناسج معانيها وتناسبها وقوة إحكامها وأخذ بعضها بحجز بعض .

---

(١) البقرة ، آية : ٨٧ .

(٢) " نظم الدرر " ، ١٨٤/١

(٣) الحجرات ، آية : ١٠ .

(٤) " التفسير الكبير " ١٠٦/١٠ ، وينظر أيضاً ٤٢/١٠ ، و ٢٦٤/٨ .

الفصل الثالث

التناسب بين الأغراض داخل السورة

كشف الفصل السابق عن المدى الذي وصلت إليه نظرية النظم بإجرائها في مجالات أعم من مجالها إلى علاقات الآيات داخل السورة وما بينها من نسب أوجبت تجاورها وتجانسها في بناء كلي ، وهي وإن شطت بالنظرية إلى علاقات أبعد غوراً من العلاقة بين الجملة والجملتين إلى ملاحظة التجاوب وأسباب الوصل ونسبها المعنوية بين الآيات في مساحات السورة بأكملها ، وابتعدت عن المألوف إلا أنها تظل في دائرته لم تجتث الفكرة من أصولها وإنما تطاولت وتسامق فرعها وعلا على أصله ، بينما نجد بحثه لتناسب الأغراض امتد بالفكرة من الهيئات التي تتشكل بالرجوع إلى الآيات الأخرى في حيز محدود إلى الهيآت المنصورة من علاقات الانتظام والتحولات في البنى المعنوية والأغراض داخل السورة بأكملها على اختلاف توزيع هذه الأغراض قرباً وبعداً وائتلافاً واختلافاً .

ومعاني القرآن هي مجال من مجالات الإعجاز نبه أكثر العلماء عليه ، لكن توجهت أنظارهم تلقاء طبيعة المعاني ووجه تأديتها وكرم أصولها وصحتها واستقامتها في العقول ، أشار إليه الخطابي في قوله : " وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها "[1] .

وهذا أصل معتبر ولكن أصل الأصول في هذا الباب هو تأليفه لمعانيه وجمع معاقدها ، والملائمة بين ما تمايز ظاهرة فعاد معنى واحد لا اختلاف فيه ولا تباين ، وهذا من البلاغة الخاصة بالقرآن تجد الأغراض تترامى ويتقاذف بها القول في نواحي مختلفة وأودية متباعدة ثم تجد أصولاً عامة تستوعب ذلك كله وتجعله باباً واحداً .

وليس المعول في تأليفه على اللغة ونظمها وإنما هو ضرب عجيب من التأيف يصيّر المختلفات مؤتلفات ويعيد ما تنافر آحاداً [2] سبيلك في ذلك زيادة تأمل لحركة المعنى داخل منظومة السورة كلها ثم ملاحظة ضميمة الغرض إلى سابقه وكيف نشرطية وانسل من جنباته ووطأ له مهاده ، فتمكن في موضعه .

---

(١) " بيان إعجاز القرآن " ، ص٢٧ .

(٢)" إعجاز القرآن " الباقلاني

وقد فطن له عرب الجاهلية فتقاصر بيانهم عن مجاراته ورضوابالعجز عن التحدي ، فليس لفظه وحده هو الذي أبهر وإنما تضاعف الإعجاز لما رأوا تنوعه في تصريف المعاني المتفقة والأصول الواحدة في أنحاء مختلفة، ولخص الوليد بن المغيرة ذلك بقوله : " إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمعذق " والمعذق : كل غصن له شعب فهذه الكلمة على وجازتها استوعبت أسلوب القرآن لفظاً ومعنى، وما يعنيني هو قوله " أسفله لمعذق " وكأن هذا القرشي هالته أصول معاني القرآن وما بداخلها من حياة ونماء تتفرع ثم تكون أصولاً يتفرع عنها فروع وهكذا تنام وامتداد لا نظير له ولا يضبطه بيان إنساني .

ومقولة الوليد تستوعب ثقافة ذلك الزمن وأن العربي لم يكن يعني بالألفاظ فحسب وإنما ينظر إلى المعاني وبلاغتها ، وبلاغتها ليست في إيصالها وتصويرها وإنما في إحكام بناء الكلام بسطه وكيف يكون متكاثراً في مباني اللغة ومتنامياً في أصوله ذاتها .

ولم يغفل علماء البيان حينما جمعوا مذاهبه وقوانينه هذا الأصل بل جعلوا اتساق النظم وتسديد خصاص معانيه شرطاً في البلاغة لا يعذر المتكلم بتركه ولا يرخص له التهاون به وإن شغب شاغب ، فكأن ثبات القول هو صورة لثبات جنان قائله وقوة منته ، وهنا ربط جيد بين نفس القائل والقول لأن اقتدار المتكلم على ضبط أحوال نفسه وسياستها هي سياسة محكمة للقول وتصريفه وإحكامه ، يقول الجاحظ : " وأنشد أبو عبيده في الخطيب يطول كلامه ، ويكون ذكوراً لأول خطبته وللذي بنى عليه أمره وإن شغب شاغب فقطع عليه كلامه أو حدث عند ذلك حدث يحتاج فيه إلى تدبير آخر ، وصل الثاني من كلامه بالأول ، حتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر ، فأنشد :

وإن أحدثوا شغباً يقطع نظـــــمها فإنك وصـــــال لما قطع الشغب

ولو كنت نساجاً سددت خصاصها بقول كطعم الشهد مازجه العذب "[1]

وهذا الوجه من أبواب البلاغة الغائبة في دراسة السابقين للإعجاز وإن نبهت إليه أقلام ودلت عليه إيماء دون أن ينص على الشيء ما هو ويكشف عن وجهه ، باستثناء ما

---

(١) " البيان ، ٢١٥/١ .

وجدناه عند الباقلاني من شذرات نظر بها له وأجراها في سورة من سوره نبه فيها على نسب المعاني وأصولها وائتلاف فروعها على تنوعها ، وأن هناك وشيجة تضبط حركة المعنى وتوجه دلالته لمقصد كلي تلتقي عنده المعاني فوقف عند بعض مقاطعها وفصولها ونبه على بلاغة الوصل فيما يستعصي فيه الوصل وكيف عاد مؤتلفاً واجتمع مؤتنساً ففي قوله تعالى : ↓

. [1] ↑

يقول : " ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل .... وهذا الكلام مفصول ، تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه إلى ما تقدم وانقضى ، وعظم موقعه في معناه ، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم " [2] .

ثم قال في تناسب آيات التوحيد في قوله تعالى : ↓

. [3] ↑ " وإنما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما ، لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء ، ولأن الرزاق الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس ، تجب طاعته والنظر في آياته " [4] .

وقد ذكر هذا الباب في مواقع متفرقة من الكتاب في قوله : " إن القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حدِّ الآحاد ، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به

---

(١) غافر ، آية : ٧ .

(٢) " إعجاز القرآن " ١٩٨ .

(٣) غافر ، آية : ١٣ .

(٤) " إعجاز القرآن " ، ١٩٩ .

البلاغة ، ويخرج معه الكلام عن حدِّ العادة ويتجاوز العرف " [1]

وفي نص آخر : " فتأمل آية آية لتعرف الإعجاز وتتبين التصريف البديع والتنقل في الفصول إلى آخر السورة ... واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء : من احتجاج إلى وعيد ، ومن إعذار إلى إنذار ، ومن فنون من الأمر شتى ، مختلفة تأتلف بشريف النظم ومتباعدة تتقارب بعلى الضم " [2] .

والباقلاني لا يقصد بشريف النظم وعلي الضم الروابط اللغوية الظاهرة وإنما مراعاة مقاصد المتكلم في الخطاب أي " انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله " [3] .

وسمي فيما بعد بـ " صحة النسق " وهو : " أن يستمر في المعنى الواحد ، وإذا اراد أن يستأنف معنى أخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً بالأول غير منقطع عنه " [4] .

واستقر في صورة متكاملة عند حازم القرطاجني استوعب بها كلام السابقين وفصل مجمله ، ودعم أركانه وسمى ذلك بالأسلوب ، وقد وصف هذا الباب وصفاً دقيقاً موجزاً يقول : " لما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد ، ومسائل منها تقتني كجهة وصف المحبوب وجهة وصف الخيال وجهة وصف الطلول وجهة وصف يوم النوى وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب ، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من بعضها إلى بعض وبكيفية الإطراد في المعاني صورة وهيأة تسمى الأسلوب وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ ؛ لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة من جهات غرض القول وكيفية الإطراد من أوصاف جهة إلى جهة ، فكان بمنزلة النظم في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وإنحاء الترتيب ، فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية ، والنظم هيأة تحصل

---

(١) السابق ، ص٣٨ .

(٢) " إعجاز القرآن " الباقلاني ، ١٩٦–١٩٧ .

(٣)" عيار الشعر " ابن طباطبا، ٢١٣ .

(٤)" سر الفصاحة ابن سنان، ٢٦٨ .

على التأليفات اللفظية " [1] .

فالأسلوب هو ما يتشكل في النفس من صور وهيآت لمعان ثانوية تتولد من الاستمرار في جهة من جهات المعاني والتفريع عليها أو النقلة من جهة إلى آخرى . فكما أن النظم في الألفاظ صورة لما ترتب في النفس فكذلك الأغراض والمعاني انتظامها بكيفية مخصوصة هو صورة لما انطبع في نفس المتكلم وذهنه من مقاصد وأغراض ، وهذا قياس محمود فتح به أصلاً من أصول البلاغة الغامضة فكثيراً ما يتردد الأسلوب في مقابل العناية باللفظ ونظن أنه أعم من النظم دون النظر إليه باعتباره وصفاً خاصاً بالمعاني .

ونص حازم يكاد يكون شرحاً لمجمل النسق عند الخفاجي ، ومدخله في ذلك النظر في الأقاويل الشعرية من حيث استمرار الشاعر في المعنى واستئنافه لمعان جديدة ثم علاقة المعاني المطردة والمعاني المستأنفة وكيفية الملائمة وضروب التعلق بين تلك المعاني ، وأضاف على نص الخفاجي ربط ذلك بجهات المعاني ، فغرض النسيب تقوم فيه جملة معان لها جهات مختلفة تكاد تكون أصلاً في بابه ولكن طريقة الشاعر في التنقل من جهة إلى جهة أو الاستمرار في بعض الجهات هو الذي ينوع هذه المعاني ويبعث فيها الجدة ويشكل للمتكلم سمت بيانه ويجعل له خصوصية عن غيره ، وإن اتفق معهم في أصل المعنى لأن ما يعتمده من انحاء الترتيب والتنقل هو الذي يكون هيئة وخصوصية زائدة على الأصل .

وحازم يجعل ضابط الأسلوب هو التأمل في اقترانات المعاني وجهات انتماء كل معنى لما قبله وما بينهما من نسب وحسن التناسب والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة والصيرورة من مقصد إلى مقصد ، فوضع بذلك المنهاج لمعالم الأسلوب ودل على مدخله .

فهيآت المعاني المودعة في الألفاظ والمطوية في أبنية التركيب بحثت ودل عليها ونبه على ما فيها من لطائف وأسرار وكيف تشكلت وأبانت ، وبقي وراء ذلك باب حجب عن الكثيرين لصعوبة مراسه وحاجته إلى شمولية النظر ودقة التأمل فليس دركه بظواهر الألفاظ أو أبنية التراكيب وإنما سبيله التغلغل في جهات المعنى وزواياه وفي أصول المعاني والأغراض

---

(١) " المنهاج " ، ٣٦٣ .

وكيف انشق عنها ونبع من معينها ثم يجمع أطراف المختلفات ويؤلف منها ما تباعد وتنافر في ظاهره ليجعله قضية واحدة وإن توزعه الكلام انحناء مختلفة ومواقع متباينة .

وحازم لم يسبق إلى تحديد موضع الأسلوب في المعاني وإنما افاد ذلك من الرازي ، لأنه يكاد يكون أول من خص الأسلوب بالترتيبات الحاصلة بين المعاني وما ينتج عنها من تنبيهات ولطائف هي ولائد ذلك الترتيب يقول في هذا : " ومن تأمل لطائف نظم هذه السورة وبدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور "[1].

وتأمل قوله " ولعل الذين قالوا : إنه معجز بحسب أسلوبه ، ارادوا ذلك " – أي الترتيب – فكأن مصطلح حسن الأسلوب لم يخصص قبله بشيء وإنما كان قسيماً لفصاحة الألفاظ ، فكانت هذه المقابلة خطوة أولى لكشف خبئ الباب والتنبيه عليه ليطلب ، ويؤكد صحة ما ذهبت إليه قوله " إنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذا الباب " . أي أنه أول من فتحه وهتك الحجب دون ضميره وكلام حازم لا يعدو أن يكون فهماً محكماً وتلخيصاً دقيقاً لعلاقات الترتيب بين الأغراض عند الإمام وما وراء أحوالها من رقائق المعاني ولطائفها أو ما سماه بالتنبيهات .

وهذا لا يعني التقليل من شأن حازم وإنما ردّ الكلام إلى منبعه ولفت الأنظار إلى كيف كان علماؤنا يصنعون أبواب البلاغة ويقعدون لها ، وأن مرحلة التقعيد لا تكون إلا بعد إجراء الأصول في النصوص وتحريكها بها ثم تأتي القاعدة لتضبط تلك الحركة وتؤسس لها ، فالأسلوب كان يحتاج خطوة واحدة فقط وهي نقله إلى سياقه وإجرائه في حقله والعناية به كما يعني بالألفاظ وحسن تجاورها واتصالها وما يتولد عن البناء اللغوي من خصوصيات وأحوال لذلك لم تكن عناية الإمام بالتقعيد ووضع منهج نظري وإنما كان يتتبع صحة ما هداه إليه ذهنه من أن الأسلوب هو الترتيب بين المعاني ، فأخذ يتأمل مقاطع الكلام وأغراضه والقطع والرجوع والاستمرار في جهة من الجهات وفي كل ذلك تتشكل هيأت معنوية زائدة عن الإفادة

---

(١) " التفسير الكبير " ، ١٠٦/٣ .

باللغة ولم يكن لهذا منبع سوى نسق المعاني والتآليف بينها . فكان جلّ عنايته بالمعنى وعلاقاته وأحوال تأليفه .

فالتفسير جهد ضخم في دراسة المعنى وما يتشكل عنه من مقاصد وما يعتريه من تغيرات وزيادات ناتجة عن انتظامه مع غيره وترتيبه على ما قبله من المعاني .

وتحاول هذه الدراسة أن تصف منهج الإمام في التناسب بين الأغراض ، وما توحي به النصوص التطبيقية من أصول وضوابط في توجيه انتظام الكلام ، وملاحظة طرق وأنماط الترتيب بين الأغراض وما يسند إليه في رد المعنى على المعنى من قرائن .

وهذا الباب ليس له قانون يحيط به ، ولا حد يحصره ؛ لأنه نمط من التصريف والتنويع ، يأتلف بتنظيم المدلولات اعتماداً على أبنيتها الداخلية ، ودرك ذلك لا يكون إلا بالعقل وزيادة تأمل لأنه تنظيم لما اختلف ، والكلام يعتبر فيه الاختلاف حتى أنه لا يسمى نسقاً حتى " تكون الأشياء مختلفة في أنفسها ، ثم يكون للذي يجيء بها مضموماً بعضها إلى بعض غرض ومقصود ، ولا يتم ذلك الغرض وذلك المقصود إلا بأن يتخير لها مواضع فيجعل ذلك أولاً وذاك ثانياً " [1] . والوقوف على المقصد من تنزيل المختلفات منازلها وترتيب بعضها على بعض يحتاج إلى مراجعة عقل ، وإنعام تدبر ، وقد حدد الإمام ابتداء مقاصد القرآن وأصول معانيه فوجد أن مدار القرآن على ثلاثة اصول وهي التوحيد والنبوة والمعاد ويقترن بها أحياناً القضاء والقدر ، يقول في هذا : " اعلم أنا بينا مدار أمر القرآن على تقرير هذه المسائل الأربع ، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر " [2] .

وأكثر التفسير تتبع لنبع هذه الأصول تحت جمل القرآن وألفاظه من مثل تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ... ﴾

---

(١) " دلائل الإعجاز " عبد القاهر الجرجاني، ٤٧٣ .

(٢) " التفسير " ، ٢٥٥/٥ ، وينظر : ٢٣١/٧ .

[1] .

فـ " ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعدما سبق منه تقريرها بالدلائل ، فقوله : "أن تقوموا لله " إشارة إلى التوحيد ، وقوله : "وما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم " إشارة إلى الرسالة ، وقوله : " بين يدي عذاب شديد " إشارة إلى اليوم الآخر " [2] .

وكذلك قوله تعالى : .

ذكر أن فيها " لطيفة وهي أنه [3] أشار في الآيات الثلاث إلى الأصول الثلاثة فقوله تعالى : "إنهم كانوا قبل ذلك مترفين " من حيث الاستعمال يدل على ذمهم بإنكار الرسل ، إذ المترف متكبر بسبب الغنى فينكر الرسالة ، والمترفون كانوا يقولون " أبشر منا واحداً نتبعه " وقوله : " يصرون على الحنث العظيم " إشارة إلى الشرك ومخالفة التوحيد ، وقوله تعالى : " وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً " إشارة إلى إنكار الحشر والنشر " [4] .

فتأمل كيف بعث الأصلين من نظم الآيات ، فدلالة الحشر ظاهرة لأنها مدار السورة ، وكذلك التوحيد فاستدعى اجتماع الأصليين المعنى الثالث وهو النبوة فنزع بدلالة " مترفين " إلى لازمها وهو إنكار الرسل ، فالتقت بذلك الأصول الثلاثة وتقرر بذلك " أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي ، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث " [5] .

واتفاق معانيه على أصول مقرره لا يعني ثبات الدلالة بل يستدل به على بلاغة القرآن

---

(١) سبأ ، آية : ٤٦ .

(٢) " التفسير " ، ٢١٤/٩ .

(٣) الواقعة ، الآيات : ٤٥-٤٧ .

(٤) " التفسير " ، ٤١١/١٠ .

(٥) السابق ٣٩/٩ .

وقوة تصريفه للمعاني المعدودة وكيف يترامى بها في أودية مختلفة ويتصرف بها في كل منزع وليس ذلك إلا بالترتيب فتارة يجعل أحدهما أصلاً والآخرين فرعاً وأخرى يكون الفرع أصلاً وهكذا تتشكل معانيه وتتسع وتتنوع ببناء بعضها على بعض . ذكر ذلك في سورة يونس حيث قال : " إنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ، ثم أنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد البتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب ، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين : أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلهاً قاهراً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي والتكليف . والثاني : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما " [1] .

فدلائل الألوهية والحشر جاءت استمراراً وتتميماً لمعنى النبوة وإثبات الرسالة . فكل أصل يوضع منزلة يكون بها المدار وغيره تابعاً له . وملاحظة هذه المنازل هي الهادية إلى نمط التصريف وكاشفة عن وجه الإبانة فيه . فتأمل تحليله لقوله تعالى : ﴿ ﴾ [2] يقول : " لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي ... ومثله مذكور في قوله تعالى : ﴿ ﴾ ثم قال بعده ﴿ ﴾ [3] ﴿ ﴾ [4] حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضاً ، لكن المقصود أولاً هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى : " لا تسجدوا للشمس " ثم الحشر بدليل قوله تعالى : " إن الذي أحياها لمحيي الموتى "

---

(١) " التفسير " ١٨٨/٦ .

(٢) يس ، آية : ٣٧ .

(٣) فصلت ، آية : ٣٧ .

(٤) فصلت ، آية : ٣٩ .

وههنا المقصود أولاً إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر ، يدل عليه النظر في السورة ، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [١] إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر " [٢] .

فالأصول وإن كانت متفقة إلا أن ترتيبها واختيار منازلها وجه الدلالة ونظّم المباني جهة المقاصد ، فقدم المكان في سورة يس لأنه أقوى في الإبانة عن الحشر ، وقدم الزمن الليل والنهار والشمس والقمر في سورة فصلت ، لأنها أدل على التوحيد ، ولكن اقترانها بسياق الحشر في سورة يس خرج بها إلى معنى الحشر لأنه موضع عناية السورة .

وهذه الدلائل وإن كانت في أصلها دلائل توحيد إلا أنها تشكلت بهيآت مختلفة تشربتها من مقاصد السورة ، فالاستدلال بالزمن لما أقترن بالسجود دل على الوحدانية التي هي مدار فصلت ، وفي يس تضمن معنى الحشر لأنه أصل الأصول فيها .

فهذه الأصول لا تتجرد للدلالة على ذات المعنى وإنما يداخلها معان أخرى ناتجة من تجاورها مع غيرها من السياقات ، ففي سورة النحل يداخل دلائل التوحيد معنى الأنعام فقد " ذكرها الله تعالى ليستدل به على وجود الإله المختار الحكيم وليكون ذلك تنبيهاً على إنعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم " [٣] .

ودراسة الرازي للتناسب بين الأغراض تتمثل في تحديد مقاطع الكلام للوقوف على النقلة أو الاستمرار في المعاني ، والاستمرار في المعنى يكون لباعث يوجب إتمام المعنى وإزالة ما فيه من إبهام أو وهم أو تفصيلاً لمجملة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [٤] فهي

---

(١) فصلت ، آية : ٩ .

(٢) " التفسير " ٢٧٥/٩ .

(٣) " التفسير " ، ١٩٢/٧ .

(٤) الشورى ، آية : ٢٧ .

استمرار لقوله تعالى : ↓ ❐◆④⓪□❐❶❽➲ ♦×⇦

فهذه الآية أفادت أنه " يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبليه وفقر ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة ... فأجاب عنه بقوله " ولو بسط الله .... " أي ولأقدموا على المعاصي ، ولما كان ذلك محذوراً وجب أن لا يعطيهم ما طلبوه"[٢] .

وقوله تعالى في سورة يونس : ↓

فهذا المقطع أستلزمه واقتضاه قوله : ↓

، فلما كان هذا المعنى " مما يقوي قلوب المطيعين ، ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين " [٥] .

وأما النقلة في الكلام فهي خروج وانتقاله في المعنى ودخول في سياق آخر ، وقد نبه

---

(١) " الشورى ، آية : ٢٦ .

(٢) " التفسير " ، ٥٩٨/٩ .

(٣) يونس ، الآيات : ٦٢-٦٤ .

(٤) يونس ، آية : ٦١ .

(٥) " التفسير " ، ٢٧٥/٦ .

الرازي كثيرا على مقاطع الكلام ووجه العلقة بين الأغراض المختلفة وكيف اتسق بعضها مع بعض فسورة الإنسان يجعلها غرضين متقابلين ، فعندما عرض لتفسير قوله تعالى : " إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً "[1] نبه على أن هذا مفصل آخر للكلام لأنه " سبحانه بين في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم .. ثم بين أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين منهم شاكر ، ومنهم كفور ... ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار ، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء ... فظهر مما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة ، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين ، أما المطيعون فهم الرسول وأمته ، والرسول هو الرأس والرئيس ، فلهذا خص الرسول بالخطاب ... ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام " [2] .

وأيضاً قوله تعالى : ↓ 📖 ♦×⇦🔍🕭➹🖉🖋✂ ♦❷♦③ ⇔🏳⬧🌀◆❒❒📖 ☎✂🖷❒↖❷☒🖷☒📠 🔍☠🕓◆❑🕓🖂☺○○🌀🖋✂ ☐🔍❒📖 ☎✂🖷❒↖❷☒🖷☒📠 🖋☪☽↘🖋◆❻ 🖋♦☛♦✡🕭•🖹 ◆➘⇗❻☛❀🖋✂◆❒ ⌘Ⅱ🔍✌ 🖋☐✡▫🖬🖂➔🖂♉◆❒ ☎ 🖋🖂☺←♍🕓☐✡↘☽♦☛☒🖷⬧▫ •☒⬧▫❒📖 ☎ 🖋♍🖂❒ ✇↗⇔🖂☒★ ☐🖋↗📠 🔍↗🖉🖋🖂☺↘🌀🖋✂ ✇➘⇗❻☛❀🖋✂ ❼🔍× 🖋◆☪▫🖬🖂➔🖂♉◆❒ ✇🏴🖋🖋 ♦🔍❑↖☪🔍✌⇙⬧↖③ 🖋◆☪▫🖬🖂➔🖂♉◆❒ ⇗☠🔍♍🔍📠 🖂⑨⑩🔍☺⬧🖋 🔍❒📖 ⌘🖂✇🖋🕓◆❒◆❻ ⇗☠←♍❋🖬🖂➔➹🌀 ✥☒←🖷←ᘓ 🕭☯Ⅱ🖋🖂⩛🔍▫ 🖋☐❸🔍▫ 🖋◆☪▫🖬🖂➔🖂♉◆❒ ✇🏴🖋 ♦🔍❒←⑨♦✌⇗🖒◆⑨ ⇗☠➔♎◆❒ ☎ 🖋✥←❑→🖷↘♦⊙👌 🖋☪🖷↘☽🖂ᘓ ◆↗🖉🖋🖂☺○○🌀🖋✂ ◆❑➔♎◆❒ ✇🏴🏴🖋 ♦🔍❑→🖋🏴❷⇙➔↖✍ 🖋☐🖒🖋☺🕓♦③✂◆↗ ⇳Ⅱ♦↖ ◆❻🖋☐🖒☐❁🌀🖋✂◆❒ •✍↘❶➹🌀🖋✂ ♦🖃■🖬🖂❀ ❽🔍🕭➹🖉🖋✂ ❒"▪⇳☺⊙⌖🌀🖋✂◆❒ ☎ ♦❷🖂☺⬧☽↘🌀🖋✂◆❒ ❼🔍× ✍✍↗📠 ▫■🖷⬧▫🖮⇦○☐④ ↑ ✇🏴🏴🖋 ♦🔍❑←⬧♦🖮⇦○☐④ [3] .

وهذا الفصل وإن كان غرضاً برأسه فهو دال على وجود الصانع إلا أنه يتصل بما قبله ويضيف إليه لأن " هذه الدلائل أيضاً دالة على كونه منزهاً عن الشريك ، لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم ، ووجود إلهين يقتضي وقوع الفساد فهذه الدلائل تدل من

---

(١) الإنسان ، آية : ٢٣ .

(٢) السابق ، ٧٥٧/١٠ .

(٣) الأنبياء ، آية : ٣٠-٣٣ .

هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم ، وفيها أيضاً رد على عبده الأوثان من حيث أن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع " [1] .

فهي وإن كانت مقطعاً مختلفاً لأن الغرض منها الرد على عبادة الأوثان إلا أنها داخلة في تقرير التوحيد فهي كالتأكيد له .

وذكِرُ وقعة حنين في سياق التحذير من مخالطة المشركين وإن كان ظاهرها غرضاً أجنبياً إلا أن أقترانها به و إلحاق معناها ومداخلته لذلك السياق أسبغ على الواقعة معنى وجعلها رمزاً عضد به المعنى السابق ، وزاد في توكيده وإظهاره لأنه من باب الأمثال والمثل يجلى المعنى ويقويه . يقول فيها : " اعلم أنه تعالى ذكر في الآية المتقدمة أنه يجب الإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والأخوان والعشائر وعن الأموال والتجارب والمساكن ، رعاية لمصالح الدين ، ولما علم الله تعالى إن هذا يشق جداً على النفوس والقلوب ، ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضاً ، وضرب تعالي لهذا مثلاً ، وذلك أن عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة ، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين ، ثم في حال الإنهزام لما تضرعوا إلى الله قواهم حتى هزموا عسكر الكفار ، وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا ، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه ، فكان ذكر هذا تسلية لأولئك الذين أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء والأموال والمساكن ، لأجل مصلحة الدين وتصبيراً لهم عليه ، ووعداً لهم على سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلك فالله تعالى يوصلهم إلى أقاربهم ومساكنهم على أحسن الوجوه ، هذا تقرير النظم وهو في غاية الحسن " [2] .

وأحياناً يكتفي بالتنبيه على النقلة والقطع دون بيان لوجه العلاقة كما في قوله تعالى :

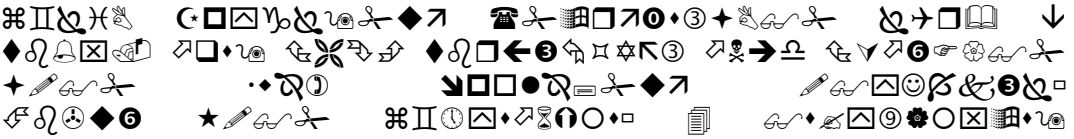

---

(١) " التفسير " ، ١٣٦/٨ .

(٢) السابق ١٨/٦ .

يقول : " اعلم أن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالاً وجواباً ، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد "[٢] .

وسكت عن بيان الوجه لقوة ظهوره لأن النبوات كلها جاءت لتوكيد التوحيد ونفي الأضداد والأنداد ، فالسكوت عن بيان الوجه مرجعه إلى قوة ظهوره .

والنقلة أحياناً تكون بالرجوع إلى الغرض الأصل ، فتارة يأتي معنى ثم ينقل منه إلى غرض أخر ويستمر في التفريع على ذلك الغرض فإذا استوفاه عاد الكلام إلى البيان الأول كما في قوله تعالى :

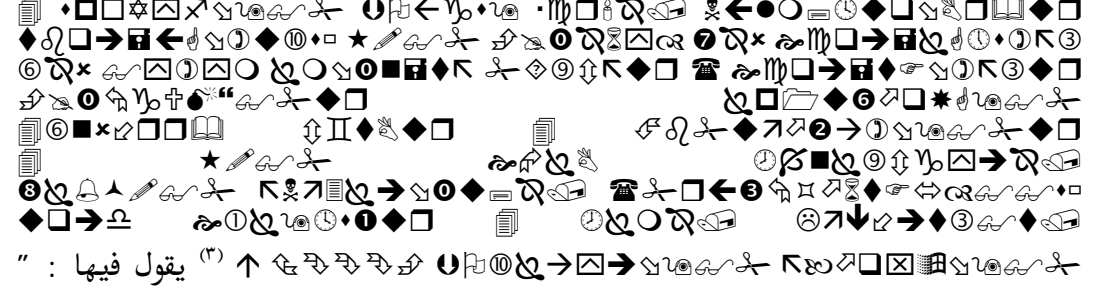

اعلم أنه تعالى لما شرع في شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك فلما تمم ذلك الشرح والبيان وذكر اقسامهم وفرع على كل قسم ما كان لائقاً به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته " [٤] .

وأحياناً ينعطف الكلام إلى الغرض الأول بعد أن يوطئ له بآية تكون قفلاً لما قبلها

---

(١) الأنبياء ، الآيات : ٢١-٢٥ .

(٢) " التفسير " ١٢٥/٨ .

(٣) التوبة ، آية : ١١١ .

(٤) " التفسير " ، ١٥٠/٦ .

وتجسر للرجوع كما في قوله تـــعالى : ﴿ فالآية تتصل بسبب من [1] الغرض السابق لها فهي كالمؤكد لخطأ نسبة الغلول إليه لأنه نشأ بينهم ولم يظهر منه إلا الأمانة والصدق فكيف يليق به هذا الوصف وقد يكون الانتقال لوصفه عليه الصلاة والسلام وبيان شرفه لإلزام كل ذي لب أن يعينه وينصره " فوجب عليكم أن تحاربوا أعداءه ، وأن تكونوا معه باليد والسيف والمقصود منه العود إلى ترغيب المسلمين في مجاهدة الكفار " [2] . فليس الغرض إثبات خلوه من العيب . وإن كان هذا الأمر مفروغاً منه وإنما المسألة أنه موصوف بأعلى الصفات وأنه نعمة يمنها الله عليهم فيجب عليهم نصرته وإعانته وهذا هو غرض السورة ومدارها .

وقد تكون النقلة لتناسي المقصود الأصلي أو الغرض الأول فيخرج إلى معنى آخر لا تعلق له بالمعنى الأول ، فيخرج إلى معنى ثان ثم يضمن ذلك المعنى جزء من الحجة التي تقيم المعنى الأول وتقرره ، فيكون هذا أبلغ في إلزام المخاطب ، فالاستطراد هنا لإيهام المخاطب واستدراج ذهنه لتصديق المعنى الأول ذكر هذه الدقيقة في تفسيره سياق قصة داود عليه السلام في نسق ما قبلها من حكاية المستهزئين من الكفار وأنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة يقول فيها : " ولما حكى الله عنهم ذلك لم يذكر الجواب . بل قال " اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود " ومعلوم أنه لا تعلق بذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق، ... ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإن كان كذلك كانت هذه الفصول فصولاً متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض ... والجواب :..... أن العقلاء قالوا من أبلى بخصم جاهل مصر متصلب ، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار ، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ... وأن يخوض في كلام أخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك

---

(١) آل عمران ، آية : ١٦٤ .

(٢) " التفسير " ٤١٧/٣ .

الأجنبي، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفحماً .... إن الكفار لما بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا " ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب " فقال يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة وهي قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة ثم قال في آخرها : " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق " وكل من سمع هذا قال : نعم ما فعل حيث أمره بالحكم الحق ، ثم كأنه تعالى قال : " وأنا لا أمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضي بالباطل ... فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل ، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر " [1] .

وهناك مقاطع يقف عندها ويستحضر بها السياقات السابقة ويعيد تنظيم وترتيب فصول السورة بجمع معاقد معانيها ووصل كل غرض برأس الغرض الأخر حتى يصل إلى ما يريد بيانه في الآية التي هو بصدد تفسيرها كما في قوله تعالى : ﴿ ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ ۖ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2]

يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما حكى في أول السورة أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد ، وإلى أنه رسول مبين من عند الله ، وإلى أن القول بالقيامة حق ، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزءوا بقوله ، ثم إنه تعلى

---

(١) " التفسير " ٣٨٨/٩ .

(٢) ص ، الآيات : ٦٥-٧٠ .

ذكر قصص الأنبياء لوجهين . الأول : ليصير ذلك حاملاً لمحمد صلى الله عليه وسلم على التأسي بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على سفاهة القوم . والثاني : ليصير ذلك رادعاً للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان . ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وعقاب أهل العقاب ، فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي تقرير التوحيد والنبوة والبعث ، فقال : قل يا محمد إنما أنا منذر ... فإن الترتيب الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولاً ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب ... لأن إزالة ما لا ينبغي مقدمة على إثبات ما ينبغي .. ومن نظر في هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم " (1) .

وهذا تلخيص محكم صور لك السورة بناء واحداً ولم يغفل فيه أصلاً من أصولها وطوى ما بين الأغراض ونبه عليه بقوله " تمم " لأن الفرع هو تشعيب للأصل وتكميل لدلالته فهو جار فيه غير مستقل بذاته ، حتى وإن كان هذا الفرع أصلاً لفروع أخرى فإنه منتمي إلى غرض أعم يستوعبه ويحيط بدلالته .

وفي تلخيص آخر يجعل فيه الكلام مصبوباً لغرض واحد كل معنى يقتضي ما بعده لا تشعب ولا فروع كما في قوله : ↓ ❐◆⬧❒◆ ⬀❑⬧◆❒ ⬆⊠⬀⬈⬀◆➐ ◆❿⬀❿◆⬀
⬀⬀⬀➔❿⬀⬀⬧⬀ ⬀⬀←⬀⬀⬀→⬀ ⬀⬀⬀❻⬀⬀⬀✂ ❼⬀× ⬀◆⬀ ⌘⬀◆⬀✞⬀
⬀⬀✸☹⬀○ "❑⬀❑⬀⬀⬀✂ ←■⬀❷⬀⬀➔⬀ ✸⬀⬀❑⬀⬀❑⬀
③◆⬀⬀❑⬀✂☎ ⬀⬀⬀⬀⬀⬀⬀✓⬀⬀ ⬀⬀⬀⬀ ↑ (2)

فـ " هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها ، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يهددهم بنزول العذاب ... ثم إن الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته ، وكانوا يبالغون في استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية ، ثم إن الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد ، ثم ضرب لهذا أمثلة ، وهي واقعة نوح وواقعة

---

(1) " التفسير " ٤٠٦/٩ .

(2) يونس ، آية : ٩٩ .

موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات إلى هذه المقامات ، ثم في هذه الآية بين أن جد الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل ، وفي الجواب على الشبهات لا تفيد لأن الإيمان لا يحصل إلا بتخليف الله تعالى ومشيئته " [1] .

وتارة يخلص من هذا التلخيص إلى أن ما قبل هذه الآية هو تمهيد وتوطئة لها فيجعلها مركز السورة كما في قوله : [illegible] [2] .

يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها .. فعند هذا صرح بالنتيجة فقال : ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ... ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه وإظهار فساد الشرك علم أنه لا طريق أوضح ولا أصلح منه "[3] .

وقوله صرّح بالنتيجة هو الذي أغرانا بالقول بأنه جعلها مركز السورة يعني القطب الذي تدور عليه .

وفي مواضع أخرى ينبه على صلة الأغراض والتقائها بعد تفرقها وانقطاعها من خلال آيات تجمع ما تفرق وتؤلف بين ما تباعد ، وكأن عمل هذه الآيات تكوير ما تحور داخل السورة من أصول ، والاستدارة على ما أنجر في ثناياها لتوحيده وإجماله . نحو قوله تعالى : [illegible] [4] ذكر أنه : " لما بين

---

(١) " التفسير " ٣٠٤/٦ .

(٢) الأنعام ، آية : ١٠٢ .

(٣) " التفسير " ٩٤/٥ ، وينظر ٥٩٦/٩ .

(٤) العنكبوت ، آية : ٢٣ .

الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل : " والذين كفروا بآيات الله ولقائه " إشارة إلى الكفار بالله ، فإن لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته ، فإذا أشرك كفر بآيات الله ، وإشارة إلى المنكر للحشر فإن من أنكره كفر بلقاء الله .. لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة .... فإذا تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك ، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر " [1] .

فتأمل كيف نشر الإمام ما تحت لفظي " الذين كفروا بآيات الله " و " ولقائه " وحار بهما إلى أصول وأغراض السورة السابقة ، وعلق الآية بهما فجعلها تهديداً لمن أنكر وحدانية الله وأعرض عن الآيات ولمن أنكر اليوم الآخر .

وكذلك تأخير الاحتجاج في قوله :

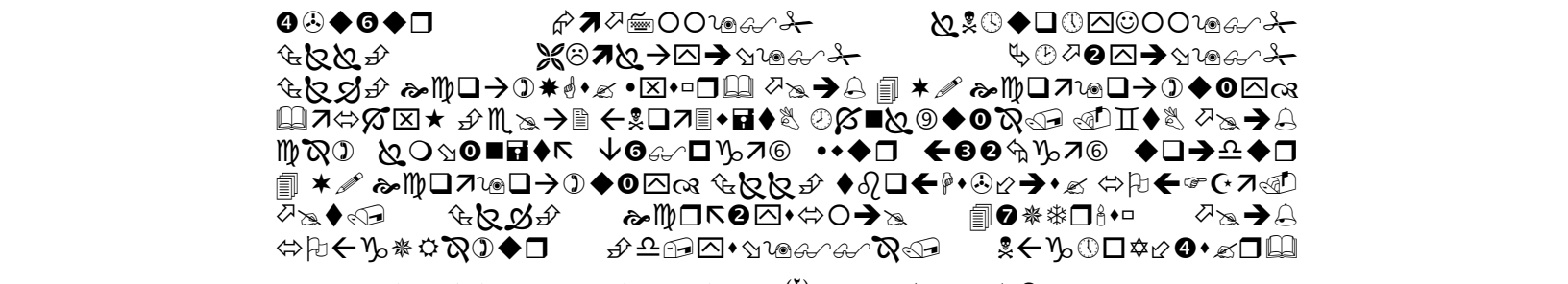

إلى ما بعد الغرضين بينما لو جاءت عقيب التوحيد لخصت به لمناسبتها الشديدة له ؛ لأنها من دلائله ولكن لما أخرت بعد ذكر الإعادة تشربت معان من الغرض السابق أمكن معها تحميل اللغة مضامين الغرضين السابقين يقول في توجيه معناها : " اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكري الإعادة وأن يكون المقصود الرد على عبدة الأوثان ، وذلك لأن القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله زلفى، ثم إنه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة : أحدها : قوله " قل لمن الأرض ومن فيها " ووجه الاستدلال به على الإعادة أنه تعالى لما كان خالقاً للأرض ولمن فيها من الأحياء ، وخالقاً لحياتهم وقدرتهم وغيرها ، فوجب أن يكون قادراً على أن يعيدهم بعد أن أفناهم . ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الأوثان ، من حيث إن عبادة من خلقكم

---

(١)" التفسير " الرازي ٩ /٤٣ .

(٢) المؤمنون ، الآيات : ٨٦-٩٠ .

وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، وقوله " أفلا تذكرون " معناه الترغيب في التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه . وثانيها : قوله :" من رب السموات السبع ورب العرش العظيم " ووجه الاستدلال على الأمرين كما تقدم ، وإنما قال : " أفلا تتقون " تنبيهاً على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة . وثالثها : قوله تعالى : " قل من بيده ملكوت كل شيء " .

إعلم أنه سبحانه لما ذكر الأرض أولاً والسماء ثانياً عمم الحكم ههنا ، فقال من بيده ملكوت كل شيء ، ويدخل في الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة ، وقوله : " وهو يجير ولا يجار عليه " يقال أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته منه ومنعته . يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ، ولا يغيث أحد منه أحداً " [1] . □

والعناية بوجوه الترتيب لم تكن بين الأغراض المختلفة فحسب بل داخل فروع الأصل الواحد ، لأن الانتظام فيها يكون وفق أولويات يقتضيها المقصد ، فيقدم الأهم ويلحق به ما كان تبعاً وعرضاً في الكلام كما في قوله تعالى : 🡻🕮❒▫•☺♊◰⌗•❸◆◰◰ ✃✍✎✦
🕒❁⑨⇧❻◆■←⌚ 🕬🕬♉"❁♉⇔🖬■🕔🏱✍ ▫•♑←❑◆ ⇖◆✍■❼🗐 ☼←❑❻🕬
✌♓♉♊ ❻▪✍■♐❍♉🕓 🗐 ▫•❑◆③✍✍✍ 🕬ℯ♉🖬▫⌬•⌚○⌖❶◆❑♉
🕭➔🖬➔❑▯⬊♆⬋♆ ✌♓♉♊ ❶♉🖅⬊❷⌧ ✃✎✍★ 🗐
🕮🡹❒🕬•⌚✵⟐✍⌧⌨ ✕♐❼ ⟳❁🖬■⌚✍🕬 ✌⑩⌨♐✓✕✌ ✍⌘⌘⭍ 🡹 [2] .

يقول : " والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة ، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا ، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض " [3] .

فوجوب الإقبال على طاعة الله الأقوى لها ذكر الآخرة ، وقوة هذا المعنى جاءت لأن سياق الكلام يقتضيه ولأنه أصل في الترغيب مع تضمنه لمعنى التنفير فتقديمه هيأ للمعنى بعده

---

(١) التفسير ٣٩٠/٨ .

(٢) الزمر ، آية : ٢٢ .

(٣) " التفسير " ٤٤٠/٩ .

ومكن لتفريعه عليه .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [1] فـ " لما شرح معايب هؤلاء الكفار وفضائحهم عاد إلى الترغيب في مقاتلتهم ، وقال : " يا أيها الذين آمنوا ... " .

وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر الآيات السابقة أسباباً كثيرة موجبة لقتالهم وذكر منافع كثيرة تحصل في مقاتلتهم ، كقوله : " يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم " وذكر أقوالهم المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا وعند هذا لا يبقى للإنسان مانع من قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة ، فبين تعالى أن هذا المانع خسيس لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر ، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه " [2] .

فالآية وإن كانت تتعلق بآيات الترغيب وتعود إليها إلا أن تأخيرها ووضعها بعد شرح فضائح الكفار والأسباب الموجبة لقتالهم أضاف إليها معنى زائداً على الترغيب وهو التقرير عليهم بأنه لم يبق باعث للنفرة عن الجهاد إلا حب الحياة والركون إلى متاع الدنيا ، فوضع الاستفهام في حيز السياقات السابقة يستحثهم على التأمل ومراجعة النفس في البواعث التي تعيقهم عن قتال الكفار مع ظهور فضائحهم وإباحة قتالهم وأنه لم يبق معه باعث سوى حب الحياة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ... ﴾

---

(١) التوبة ، آية : ٣٨ .

(٢) " التفسير " ، ٤٧/٦ .

. [1] ↑ ⬁

يقول فيها : " ومن تأمل في هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه، فإنه تعالى لما بين قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم ، بين مالهم في الآخرة من العذاب الشديد ومالهم في الدنيا من وجوه المحنة والبلية ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال لا ينتفعون به يوم القيامة البتة . ثم بين في هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات في الدين والدنيا ، ومبطل لجميع الخيرات في الدين والدنيا ، وإذا وقف الإنسان على هذا الترتيب عرف أنه لا يمكن ترتيب الكلام على وجه أحسن من هذا " [2] .

فتأمل كيف وقف عند تناسق المعاني وحسن تتابعها وتجاورها وأدارها على المعنى المقصود من السياق هو أن النفاق جالب لجميع الآفات فجاءت الآيات لإشاعة الحسرة في نفوسهم ، لأنه لما كان قد وقع في ظنهم حصولهم على فائدة من منافع الدنيا قطع ذلك الرجاء بأن بين أن ما يجدونه من منافع في الدنيا وطيبات هي سبب في زيادة الحسرة واجتماع المحن عليهم ، فإذا علموا ذلك زادت حسرتهم وانقطع رجاؤهم .

وأيضاً في قوله تعالى : ↓ ⬁

↑ ⬁ [3] نبه على الترتيب التدريجي في بناء المعاني ، وما ينطوي عليه من أسرار يقول فيها : " اعلم أن الله تعالى بين أولاً تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر ، فقال : ↓

---

(١) التوبة ، آية : ٥٥ .

(٢) " التفسير " ، ٧١/٦ .

(٣) البقرة ، آية : ٢٠٠ .

السورة من إخبار " الرسول لهم باقتراب الساعة ، وأقام الدليل على صدقه ، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر .. فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة وذكروا الأقاويل الكاذبة فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفاً لهم ، وهذا هو الترتيب الحكمي ، ولهذا قال بعد الآيات حكمة بالغة " [1] .

وأيضاً العدول عن لفظ الجلالة " الله " في سورة العنكبوت – مع أنه الاسم المهيمن على آياته – إلى لفظ " الرب " في قوله : " ولئن جاء نصر من ربك " وذلك لأن الكلام خرج لغرض آخر فناسبه لفظ الرب " لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة " [2] .

ويتخذ منهج الرازي في دراسته لما بين الأغراض من علاقات مسارين الأول : يحدد الغرض ابتداء ثم يدير عليه المقاصد . والثاني وهو الأغلب : يحلل كل آية ثم يردها إلى الأصل المتفرعة عنه ثم يربط ما بين الأغراض المختلفة بردها إلى غرض كلي وهو الغرض الذي يكثر الرد إليه فيصبح هو مركز السورة المسيطر على تنظيم آياتها .

فسورة الفاتحة يركز دلالتها في مقصد كلي هو عمودها ومدار آياتها ومفرداتها وهو : إثبات الألوهية والدعوة للتوحيد وتفرع منه الأمر بالعبودية ، فـ " التوحيد أصل والعبودية فرع ، والتوحيد شجرة والعبودية ثمرة ، ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر " [3] .

ثم يقسم السورة إلى مقطعين الأول في تقرير الربوبية والثاني في العبودية يقول في هذا : " معرفة الربوبية فكمالها مذكور في قوله " الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين " فكون العبد منتقلاً من العدم السابق إلى الوجود يدل على كونه إلهاً وحصول الخيرات والسعادات للعبد حال وجوده يدل على كونه رباً رحماناً رحيماً ، وأحوال سعادة العبد تدل على كونه مالك يوم الدين ، وعند الإحاطة بهذه الصفات حصلت معرفة الربوبية على أقصى

---

(١) " التفسير " ٢٩١/١٠ .

(٢) السابق ، ٣٤/٩

(٣) " السابق " ، ٢١٥/١ .

الغايات ، وبعدها جاءت معرفة العبودية ولها مبدأ وكمال ، وأول وآخر ، أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية وهو المراد ، بقوله : " إياك نعبد " وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعته إلا بتوفيق الله ، فعند ذلك يستعين بالله في تحصيل كل المطالب ، وذلك هو المراد بقوله " وإياك نستعين " ولما تم الوفاء بعهد الربوبية وبعهد العبودية ترتب عليه طلب الفائدة والثمرة وهو قوله " أهدنا الصراط المستقيم " وهذا ترتيب شريف رفيع عال يمتنع في العقول حصول ترتيب آخر أشرف منه"[1].

ويسيطر هذا المقصد على ترتيب الأسماء داخل نسق السورة وتوزيعها على هذه الهيئة ويجعل منها تفريعاً لجهات الألوهية وتغذية لدلالة الربوبية ، فهي تنظيم لأحوال خلق الإنسان " فاسم الله منبع الخلق والإيجاد والتكوين والإبداع ، واسم الرب يدل على التربية بوجوه الفضل والإحسان ، واسم الرحمن يدل على التربية في معرفة المبدأ ، واسم الرحيم في معرفة المعاد حتى يحترز عما لاينبغي ويقدم على ما ينبغي ، واسم الملك يدل على أنه ينقلهم من دار الدنيا إلى دار الجزاء " [2] .

وأما سورة البقرة فيجعل مركز السورة وجذر أغراضها التأكيد على الميثاق الذي أخذه الله على المكلفين ، فبدأت السورة بتقديم أحكام الفرق الثلاثة أي : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين ، ثم أقام الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد في قوله تعالى : ↓

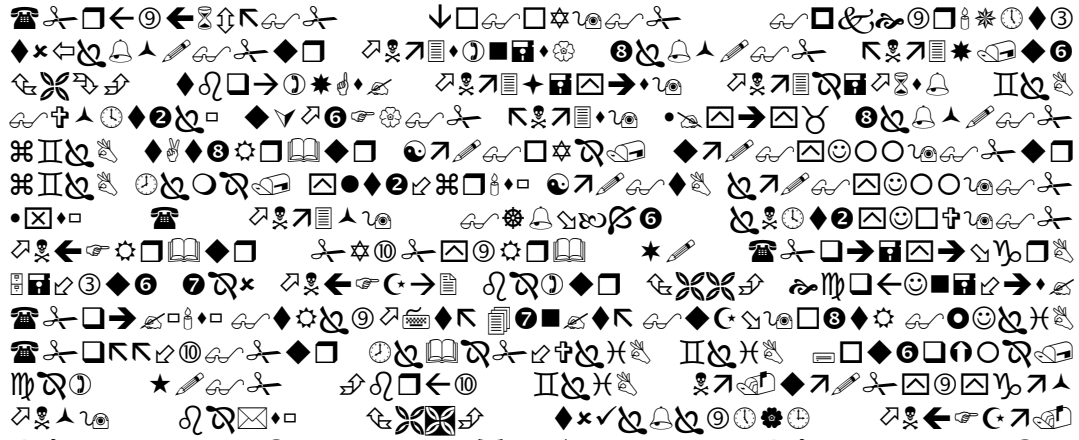

(١) " التفسير " ٢١٥/١ .

(٢) السابق ، ٢٤٤/١ .

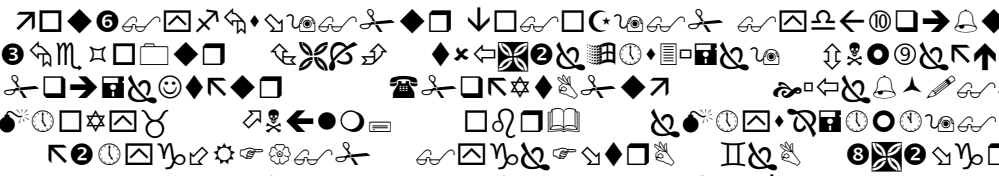

وجاء تأكيده بقوله " الذين ينقضون عهد الله .... " والميثاق هو حجة الله القائمة على عباده الدالة لهم على صحة توحيده وصدق رسله " [٢] ثم تفرع على قوله : " اعبدوا ربكم " شرح النعم عامة واستمر هذا المعنى وامتد إلى آية (٣٩) . ونبه الرازي على أن النسق المعتبر في تفريع المعنى واستمراره يلاحظ فيه ما جرى داخل جذر الدلالة من ترتيب فبدأ أولاً بنعمة الأحياء وهي متفرعة من قوله " الذي خلقكم " ثم ذكر الانتفاع بالأرض والسماء وهو متفرع من قوله " والذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء " فامتدت الآيات وتشعبت من تحت كلماتها و " ما أحسن ما رعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولاً ثم اتبعه بذكر السماء والأرض"[٣].

ثم يرتب الدلالة المتفرعة على السياق العام ويجعلها " دالة على التوحيد من حيث أن هذه النعم أمور حادثة فلابد لها من محدث ، وعلى النبوة من حيث أن محمد — صلى الله عليه وسلم — أخبر عنها موافقاً لما كان موجوداً في التوراة والإنجيل من غير تعلم ولا تلمذة لأحد وعلى المعاد من حيث أن من قدر على هذه الأشياء ابتدأ قدر على خلقها إعادة " [٤] .

وترتيبها عليه شكل لها هيئة وأضاف لها معنى زائد على إثبات وجود الصانع أو التذكير بالنعم وخرج بها إلى زجرهم عما أقدموا عليه من ردّ الحق والتمسك بالكفر ، وبعثهم

---

(١) البقرة ، آية : ٢١–٢٥ .

(٢) التفسير ، ٣٧٤/١ .

(٣) السابق ، ٣٧٩/١ .

(٤) السابق ٤٧٣/١ .

على اكتساب الإيمان وقبول التكليف[1].

ثم شعب دلالة الفرع من العموم إلى الخصوص فاستأنف من الإنعام العام أنعاماته الخاصة – سبحانه وتعالى – على اليهود " كسراً لعنادهم ولحاجتهم .. واستمالة لقلوبهم بسببها وتنبيهاً على ما يدل على نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – من حيث كونها إخباراً عن الغيب ، وأعلم أنه سبحانه ذكرهم تلك النعم أولاً على سبيل الإجمال : فقال : "يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم " وفرع عن ذكره الأمر بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم " وأمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم " ثم عقبها بذكر الأمور التي تمنعهم عن الإيمان به ، ثم ذكرهم تلك النعم على سبيل الإجمال ثانياً بقوله مرة أخرى : " يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم " تنبيهاً على شدة غفلتهم ، ثم أردف هذا التذكير بالترغيب البالغ بقوله : " وأني فضلتكم على العالمين " مقروناً بالترهيب " واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً " ثم شرع بعد ذلك في تعديد تلك النعم على سبيل التفصيل ، ومن تأمل وأنصف علم أن هذا هو النهاية في حسن الترتيب لمن يريد الدعوة وتحصيل الاعتقاد في قلب المستمع " [2] .

وذكر النعم مبني على التفريع فتجد التفصيل والتشقيق بشكل ظاهر حتى أن بعضها يكون ضمناً فيما قبله ويكون نعمة واحدة ولكن بناء الكلام يجعلها في مقام نعمتين كما في قصة إحياء القتيل ، وذبح البقرة ، وهما قصة واحدة فالأصل في الكلام : أن يكون القتل مقدماً على الأمر بالذبح فجاء بالتقديم والتأخير لزيادة التقرير عليهم ، فـ " قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من بينية التفريع " [3] .

ثم أردفها بالتشديدات التي فرضها الله على بني إسرائيل والفائدة منها الدلالة " على أن أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – خير الأمم ؛ لأن أولئك اليهود مع أنهم شاهدوا تلك

---

(١) السابق ، ٣٧٥/١ .

(٢) " التفسير " ٤٧٣/١ .

(٣) السابق ، ٥٥١/١ .

البراهين القاهرة أغتروا بهذه الشبهة الركيكة جداً ، وأما أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – ، فإنهم مع أنهم محتاجون في معرفة كون القرآن معجزاً إلى الدلائل الدقيقة لم يغتروا بالشبهات العظيمة وذلك يدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلاً وأزكى خاطراً منهم " [1] .

ومكن ذلك لمعنى وهو وصف قبائح اليهود وشبهاتهم ومطاعنهم في نبوة – محمد صلى الله عليه و سلم – ثم عاد إلى تقرير التوحيد بقوله : ↓ 🕮❐🕭♦➔■🖬🖉🕭 🖉 ★🖋🖒✂ ♍❐🕮· ✂🖒🖋 ♦🕮🖈🕓 ⓿↖ 🖬▫📻→ ✂🖒🖋 ♦🕮↖⓿ ○○☺🖂🕓◆❑🕓◆🕭 ★🖋🖒✂ ⓿♍❐←⑩ ♊♌)(✍ 🕭→⌛♦🕭 ✂🖒🖋◆❐ 🖹 ✍➘🖉❻☞❀🖒✂◆❐ ♊♌✍ ❐◆🖫♍❼🖫◆❐ ♊♌✍ ✌❸❷🏠🕓♦☼ •• ◆❐ ↑ ✍➘🖉🖒✍ [2] وذلك في سياق ردّ شبهة النسخ فـ " لما حكم بجواز النسخ عقبه بيان أن ملك السموات والأرض له لا لغيره ، وهذا هو التنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما حسن منه الأمر والنهي لكونه مالكاً للخلق ... وإنما حسن التكليف منه لمحض كونه مالكاً للخلق مستولياً عليهم لا لثواب يحصل أو لعقاب يدفع . قال القفال : ويحتمل أن يكون هذا إشارة إلى أمر القبلة فإنه تعالى أخبرهم بأنه مالك السموات والأرض ، وأن الأمكنة والجهات كلها له ، وأنه ليس بعض الجهات أكبر حرمة من البعض... فلا مانع من تغيره من جهة إلى جهة " [3] .

فهي تقرير المعنى قبلها لأن المكلف مطالب بالانقياد لله لأنه في ملكه وتدبيره ومستولي عليه فلا يسئل عن شيء من أفعاله وهم يسألون ، وتهيئ لمعنى يتولد في ثنايا السورة وهو قوله : ↓ ★🖋◆❐ ↗🖆🇬🇧❷⇳⌖◘☼▫✈✂◆❐ ➲☮🇬🇧❷🏚⇔◘☼▫✈✂◆❐ 🗐 ★🖋✂ ←❍⇳♉◆❐ ▪🕭♦✞♦▫ ☎✂❑ᘐ🕮◆❑➔🖉 ✂🖂☺◆☪🖉③❐🕯♦▫ 🗐 ♍ᘓ◑· ✂🖒🖋 ◆❐🖉🖳⑩ᘓ🖬◆↘ ↗↗🕭ᘓ🕓◆❐ ↑[4] لأن النسخ وتحويل القبلة بينهما مقاربة ، وإشارة القفال تجعل ما بين آية النسخ وآية تحويل القبلة ، متمماً لقوله : " ألم تعلم أن لله ملك السموات والأرض " .

---

(١) " التفسير " ، ٥١٢/١ .

(٢) البقرة ، آية : ١٠٧ .

(٣) " التفسير " ٦٤٣/١ .

(٤) البقرة ، آية : ١١٥ .

ثم ختم الفصل بعد أن استقصى شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل وشرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم – بما بدأ به وهو تذكيرهم بنعمه " وإلزامهم بما واثقهم به فقال : ↓

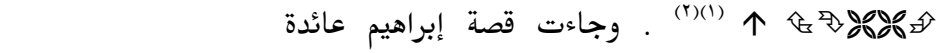

. وجاءت قصة إبراهيم عائدة بالخطاب إلى المكلفين ، أو الفرق الثلاثة التي ابتدأت السورة بهما يقول : " شرع سبحانه ههنا في نوع آخر من البيانات وهو أن ذكر إبراهيم – عليه السلام – وكيفية أحواله ، والحكمة فيه : أن إبراهيم – عليه السلام – شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل ... فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه "[٣].

أي هي تأييد لدين الإسلام وشرعه وفيها بيان لكمال حال أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – وأن هذا الدين هو استجابة لدعوات إبراهيم عند عمارته للبيت الحرام " ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم " [٤] .

ويجعل قصة إبراهيم ويعقوب – عليهما السلام – تمتدان بسبب إلى قوله " يأيها الناس أعبدوا ربكم " يقول : " ولعل هذه إشارة إلى ذكر الدليل على وجود الصانع على ما ذكره الله تعالى في أول هذه السورة في قوله " يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم " وههنا مرادهم بقولهم : " نعبد إلهك وإله آبائك " أي نعبد الإله الذي دل عليه وجودك ووجود آبائك وعلى هذا الطريق يكون ذلك إشارة إلى الاستدلال لا إلى التقليد " [٥] .

وهذا فقه جيد في تحليل النصوص ورد الدلالة إلى عناصر مشابهة بحيث لا يفسر أي عنصر في غياب نظائره ، فقول أبناء يعقوب – عليه السلام – " نعبد إلهك وإله آبائك "

---

(١) البقرة ، آية : ١٢٢ .

(٢) ينظر " التفسير " ٣٠/٢ .

(٣) " السابق " ٣٠/٢-٣١ .

(٤) ينظر السابق ٥٨/٢ .

(٥) السابق ٦٦/٢ .

ظاهره يفيد التقليد والسير على هدى السابقين دون اعتبار الدلائل ولكن أجراءها وردها إلى سياق الأمر ورأس الكلام وهو قوله : " يأيها الناس " ألف بين الدلالتين وبعث ما في باطن اللغة من معان ووجه دلالتها إلى الاستدلال بخلقه وخلق آياته على ألوهيته سبحانه وعندها استقام الكلام وصحت طريقته .

وقد هيأت هذه الآيات الدالة على صحة الإسلام إلى ذكر : شبه الطاعنين في الإسلام من قوله : " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى " إلى قوله " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم " ثم قرر بعدها خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً " ومكن له قوله : " قل لله المشرق والمغرب " فـ " هذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكاً لله وملكا له ، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلاً منه وإحساناً فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة فضلاً منه وإحساناً لا وجوباً " [1] .

وقد لخص الرازي السياقات السابقة حينما فسر قوله " كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم " وبين جهات اتصال المعاني بجمع معاقدها وتنظيمها بردها إلى أصل متفق يقول : " أعلم أنا قد بينا أن الله تعالى استدل على صحة دين محمد – صلى الله عليه وسلم – بوجوه بعضها إلزامية : وهو أن هذا الدين دين إبراهيم فوجب قبوله وهو المراد بقوله : " ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه " وبعضها برهانية وهو قوله : " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط " ثم أنه سبحانه وتعالى عقب هذا الاستدلال بحكاية شبهتين لهم : إحداهما : قوله : " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا " والثانية استدلالهم بإنكار النسخ على القدح في هذه الشريعة ، وهو قوله : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " وأطنب الله تعالى في الجواب عن هذه الشبهة وبالحق فعل ذلك ، لأن أعظم الشبهة لليهود في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إنكار النسخ ، وختم ذلك الجواب بقوله : " ولأتم نعمتي عليكم " فصار هذا الكلام مع ما فيه من الجواب عن الشبهة تنبيهاً على عظيم نعم الله تعالى ، ولا شك أن ذلك أشد استمالة

---

(١) التفسير ٨٤/٢

لحصول العز والشرف في الدنيا والتخلص من الذل والمهانة يكون مرغوباً فيه ، وعند اجتماع الأمرين فقد بلغ النهاية في هذا الباب " [1] .

ثم انتقل الكلام إلى جهة أخرى تتمة للإنعام وإن صورة النظم في صوره المنفصل في قوله :

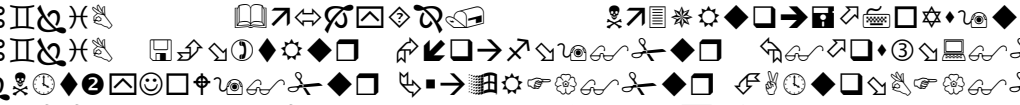

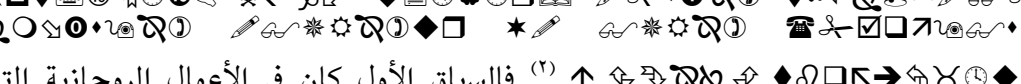

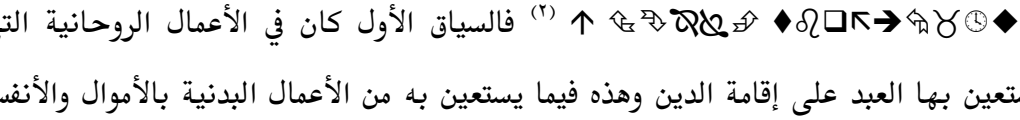

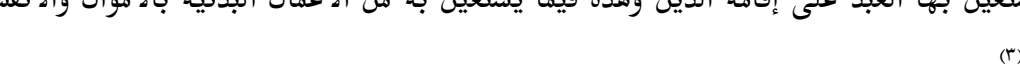

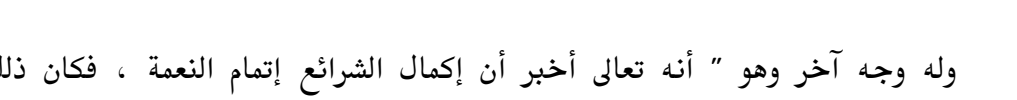

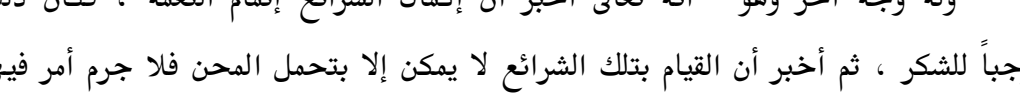 [2] فالسياق الأول كان في الأعمال الروحانية التي يستعين بها العبد على إقامة الدين وهذه فيما يستعين به من الأعمال البدنية بالأموال والأنفس [3] .

وله وجه آخر وهو " أنه تعالى أخبر أن إكمال الشرائع إتمام النعمة ، فكان ذلك موجباً للشكر ، ثم أخبر أن القيام بتلك الشرائع لا يمكن إلا بتحمل المحن فلا جرم أمر فيها بالصبر والثاني إنه تعالى أنعم أولاً فأمر بالشكر ، ثم ابتلى وأمر بالصبر ، لينال الرجل درجة الشاكرين والصابرين معاً ، فيكمل إيمانه "[4] .

ثم ختم هذا الفصل بمثل ما بدأ به بتقرير التوحيد والحكم بالفردانية والاستدلال عليه بالدلائل وأردفه بالتعريض بالمشركين في قوله : 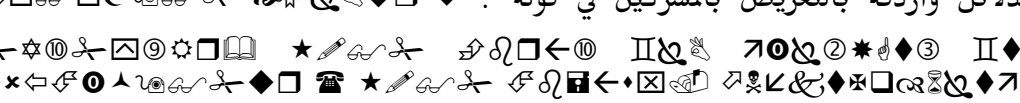

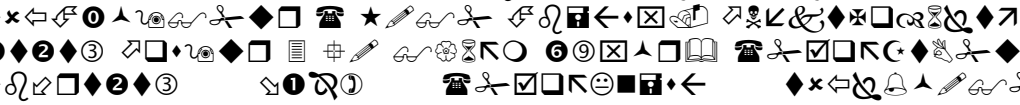

---

(١) السابق ١٢٢/٢ .

(٢) البقرة ، آية : ١٥٤-١٥٦ .

(٣) " التفسير الكبير " ، ١٢٥/٢ .

(٤) السابق ، ١٢٨/٢ .

، ثم توسط التعريض بطريقة المشركين إنعام الله عليهم في قوله تعالى : [1] ↑

واســـــتمر [2] ↑

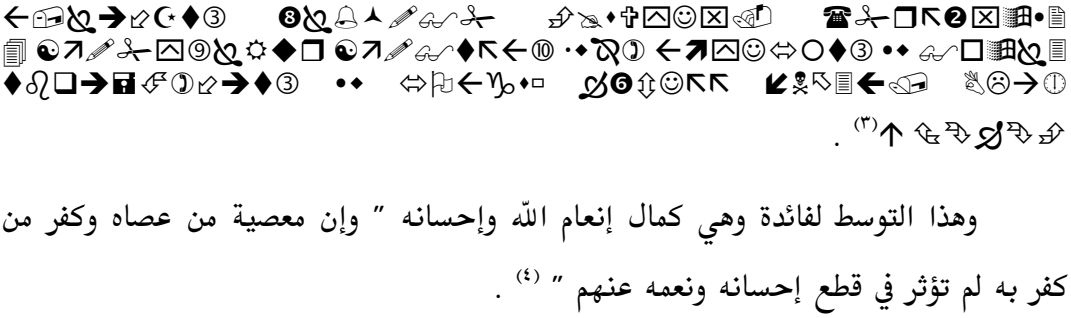

الكـــــلام في ذلك إلى قـــوله : ↓

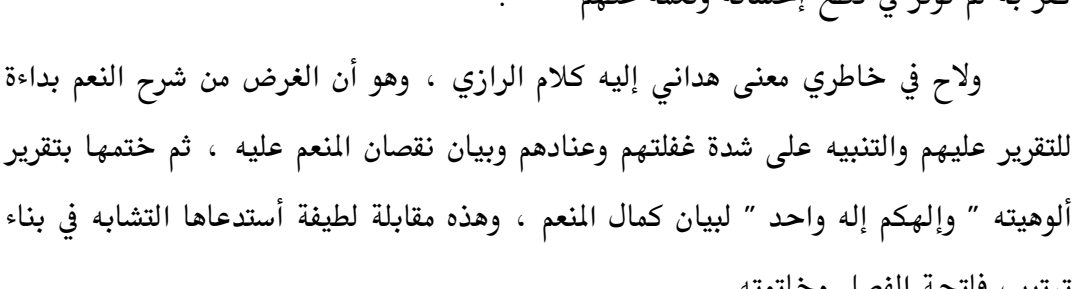

. [3] ↑

وهذا التوسط لفائدة وهي كمال إنعام الله وإحسانه " وإن معصية من عصاه وكفر من كفر به لم تؤثر في قطع إحسانه ونعمه عنهم " [4] .

ولاح في خاطري معنى هداني إليه كلام الرازي ، وهو أن الغرض من شرح النعم بداءة للتقرير عليهم والتنبيه على شدة غفلتهم وعنادهم وبيان نقصان المنعم عليه ، ثم ختمها بتقرير ألوهيته " وإلهكم إله واحد " لبيان كمال المنعم ، وهذه مقابلة لطيفة أستدعاها التشابه في بناء ترتيب فاتحة الفصل وخاتمته .

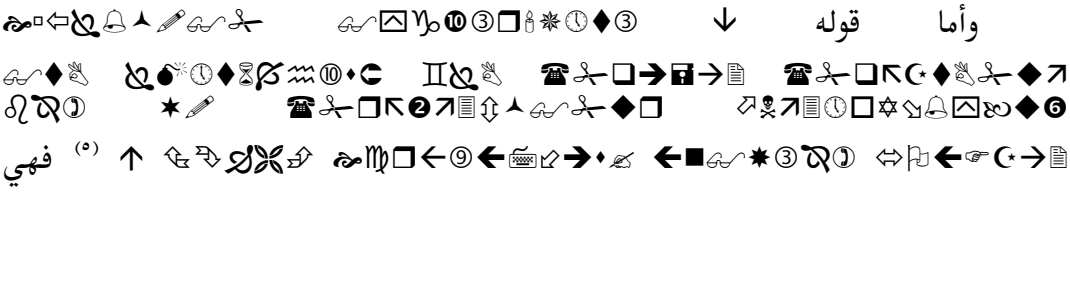

فهي [5] ↑

---

(١) البقرة ، آية : ١٦٥-١٦٧ .

(٢) البقرة ، آية : ١٦٨ .

(٣) البقرة ، آية : ١٧١ .

(٤) " التفسير " ١٨٥/٢ .

(٥) البقرة ، آية ١٧٢ .

فصل وغرض آخر فـ " الله سبحانه وتعالى تكلم من أول السورة إلى ههنا في دلائل التوحيد والنبوة واستقصى في الرد على اليهود والنصارى ، ومن هنا شرع في بيان الأحكام " [1] .

ويجعلها شبيه بقوله : ↓

[2][3] إلا أن هناك فروقاً في الدلالة باعتبار الأغراض واللغة فالأولى جاء الأمر عاماً مسبوقاً بقوله : " ياأيها الناس " لأنه في سياق الإنعام ، وفي الثانية خصصت الدلالة بـ " الذين آمنوا " لأنه يترتب عليها ذكر الأحكام ، ويتفرع عنها ، فالاغراض نزعت بالدلالة نحو الخصوص .

والأحكام ليست غرضاً مستقلاً أو في معزل عن غيره من الأغراض ، وإنما تمتد بوشائج وأسباب تصلها بمركز السورة وجذرها فقوله تعالى : ↓

[4]

ليس المقصود به حقيقة السؤال والاستخبار لأنه عليه الصلاة والسلام أطلعه ربه على أحوال بني إسرائيل مما لا يحتاج معه إلى مسألتهم " بل المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله تعالى ، وبيان هذا الكلام أنه تعالى قال : ↓

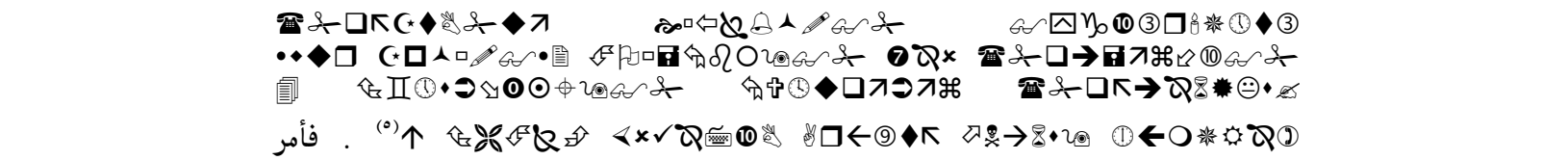

[5] . فأمر بالإسلام ونهى عن الكفر ، ثم قال " فإن زللتم من بعد .. " أي فإن أعرضتم عن هذا التكليف

---

(١) التفسير ، ١٩٠/٢ .

(٢) البقرة ، آية : ١٦٨ .

(٣) " التفسير " ١٩٠/٢ .

(٤) البقرة ، آية : ٢١١ .

(٥) البقرة ، آية : ٢٠٨ .

صرتم مستحقين للتهديد بقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥] ثم بين ذلك التهديد بقوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٦] (١)

ثم ثلث ذلك التهديد بقوله : " سل بني إسرائيل " يعني سل هؤلاء الحاضرين أنا لما أتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى ، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زالوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمين"(٣) .

وكأن الرازي يريد بقوله : " وبيان هذا الكلام " أن يطمئن القارئ لصحة المعنى المستنبط ويشكل أمامه الهيئة التي تولدت من ترتيب المعاني من بيان التأليفات المعنوية ، وهو وصف للمعنى بعد وضعه في حيز معان سابقة ، وكيف اختلفت دلالته من الإخبار إلى هيئة أخرى وهي المبالغة في التهديد .

ثم جاء في ثناياه معان تحتاج إلى إشباع فاستمر الكلام في إشباع الدلالة السابقة فجاء قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] ثم بين ذلك التهديد بقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥] (٢)

ثم ثلث ذلك التهديد بقوله : " سل بني إسرائيل " يعني سل هؤلاء الحاضرين أنا لما أتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى ، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زالوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمين"(٣) .

وكأن الرازي يريد بقوله : " وبيان هذا الكلام " أن يطمئن القارئ لصحة المعنى المستنبط ويشكل أمامه الهيئة التي تولدت من ترتيب المعاني من بيان التأليفات المعنوية ، وهو وصف للمعنى بعد وضعه في حيز معان سابقة ، وكيف اختلفت دلالته من الإخبار إلى هيئة أخرى وهي المبالغة في التهديد .

ثم جاء في ثناياه معان تحتاج إلى إشباع فاستمر الكلام في إشباع الدلالة السابقة فجاء قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] ثم بين ذلك التهديد بقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥] (٤)

وهو تفريع لجملة : " ومن يبدل نعمة الله " فـ " اتبعه الله بذكر السبب الذي لأجله كانت هذه طريقتهم ، فقال : " زين للذين كفروا الحياة الدنيا " ومحصول هذا الكلام تعريف

---

(١) البقرة ، آية : ٢٠٩ .

(٢) البقرة ، آية : ٢١٠ .

(٣) " التفسير " ٣٦٥/٢ .

(٤) البقرة ، آية : ٢١٢ .

المؤمنين ضعف عقول الكفار المسرفين في ترجيح الفاني من زينة الدنيا على الباقي من درجات الآخرة " [1] واستلزم ذلك البيان بياناً آخر وهو " أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان ، بل كان حاصلاً في الأزمنة المتقدمة ، لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ، ثم اختلفوا وما كان اختلافهم إلا بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا فهذا هو الكلام في ترتيب النظم " [2] . ثم يرد هذه الآيات إلى الجذر المتفرعة عنه ، وهو قوله : " يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة " إليه ويجعلها تجري في حيز دلالته . [3]

وختم الفصل بقوله : [illegible] [4] ويصله بالغرض الكلي وهو بيان خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم – ففائدة الآية : أنكم لا تستحقون الفضيلة والخيرية إلا إذا صبرتم على المحن والبلوى واحتملتم الشدائد في إقامة الدين وصبرتم وصابرتم على الحق[5] .

وكانت فرشاً لما بعدها من الأغراض فقد هيأت النفس لقبول التكاليف والأحكام التي أعقبتها في قوله : [illegible] [6] لأنه "لما بالغ في بيان أنه يجب على كل مكلف أن يكون معرضاً عن طلب العاجل ، وأن يكون مشتغلاُ بطلب الآجل ، وأن يكون بحيث يبذل النفس والمال في

---

(١) " التفسير " ٢/٣٦٦-٣٦٧ .

(٢) " ينظر السابق ٢/٣٧٤ .

(٣) السابق ٢/٣٧٢ .

(٤) البقرة ، آية : ٢١٤ .

(٥) ينظر " التفسير " ٢/٣٧٧ – ٣٧٨ .

(٦) البقرة ، آية : ٢١٥ .

ذلك ، شرع بعد ذلك في بيان الأحكام .. لأن من عادة القرآن أن يكون بيان التوحيد وبيان الوعظ والنصيحة وبيان الأحكام مختلطاً بعضها بالبعض ، ليكون كل واحد منها مقوياً للآخر مؤكداً له "[1] .

وربط هذا التنوع بغرض السورة في موضع آخر يقول : " إنه تعالى مدح المؤمنين في سورة البقرة من أول السورة إ لى قوله : { وأولئك هم المفلحون } . وذم الكافرين في آيتين : أولهما قوله { إن الذين كفروا } إلى قوله : { ولهم عذاب عظيم } . ثم ذم المنافقين في ثلاث عشر آية : أولها قوله تعالى : { ومن الناس من يقول آمنا بالله } إلى قوله : { يا أيها الناس اعبدوا ربكم } ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كأنه قيل : هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة المعاد ، فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة . فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة " [2] .

فالتجاور ليس رصفاً عرياً عن الفائدة ، وإنما تجد الدلالة تدخل في نسيج سابقتها وتغير في مدلولها وتضيف إليها هيأة وخصوصية ما كانت لولا ترتبها عليها وحسن ردها إليها.

ثم انتقل الكلام إلى قصة طالوت بعد الحث على الإنفاق في قوله : [3] مما يوهم ظاهره بالخروج عن نسق المعنى السابق ، وبالتأمل في ترتيب المعاني وبناء بعضها على بعض يجد أن السياق يتناوب معنى الجهاد والإنفاق فيأتي الجهاد ثم يردفه بالإنفاق وكأنهما معنيان متلازمان ، إذا ذكر أحدهما نبه على الآخر واستحضره ، يقول : " إنه تعالى أمر بالقتال فيما سبق بقوله : " وقاتلوا في سبيل الله " ثم أعقبه بقوله "من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً " والمقصود منه إنفاق المال في الجهاد ثم إنه مرة ثانية أكد الأمر بالقتال وذكر فيه قصة طالوت

---

(١) " التفسير " ، ٣٨١/٢ .

(٢) " عجائب القرآن " الرازي ، ص٩ .

(٣) البقرة ، آية : ٢٤٥ .

ثم أعقبه بالأمر بالإنفاق في الجهاد " [1] .

فاقتران الإنفاق بقصة طالوت حفز الذهن إلى معنى الجهاد رديفة في التركيب فنبه على هيئة القصة وانتزعها من معنى الحكاية إلى تأكيد معنى الجهاد ، والحث عليه وهذه خصوصية زائدة على أصل الدلالة شكلها التآلف المعنوي وترتيب المعاني بعضها على بعض .

ولم يقتصر الرازي على ذلك وإنما أكد هذا الوجه بقرينة لفظية تصحح العلاقة ، وهي قوله : " والله أعلم بالظالمين " : " أي هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف ربه ، ولم يف بما قيل من ربه وهذا هو الذي يدل على تعلق هذه الآية بقوله قبل ذلك " وقاتلوا في سبيل الله " فكأنه تعالى أكد وجوب ذلك بأن ذكر قصة بني إسرائيل في الجهاد وعقب ذلك بأن من تقدم على مثله فهو ظالم والله أعلم بما يستحقه الظالم وهذا بين في كونه زجراً عن مثل ذلك في المستقبل وفي كونه بعثاً على الجهاد " [2] .

وتخلل الكلام آيات في التوحيد وقصص لإثبات العلم بالصانع وإثبات الحشر والبعث وعاد بعدها إلى أحكام الإنفاق في قوله : [3] وهذه النقلة بين المعاني لم تنفك بها عرى النظم وإنما هي تجري في سياق المعنى السابق وتقويه وتزيد في بيانه يقول : " في كيفية النظم وجوه : الأول : قال القاضي رحمه الله : إنه تعالى لما أجمل في قوله : " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً يضاعف له أضعافاً كثيرة " فصل بعد ذلك في هذه الآية تلك الأصناف وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماته من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق ، لأنه لولا وجود الإله المثيب المعاقب لكان الإنفاق قد عرفت أني خلقتك ، وأكملت نعمتي عليك بالإحياء ، والإقدار وقد علمت قدرتي على المجازاة والإثابة ، فليكن علمك بهذه الأحوال داعياً إلى إنفاق المال ، فإنه

---

(١) " التفسير " ٥٣٠/٢ .

(٢) " السابق " ٥٠٣/٢ .

(٣) البقرة ، آية : ٢٦١ .

يجازي القليل بالكثير ، ثم ضرب لذلك الكثير مثلاً ...

الوجه الثاني : في بيان النظم ما ذكره الأصم ، وهو أنه تعالى ضرب هذا المثل بعد أن احتج على الكل بما يوجب تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ليرغبوا في المجاهدة بالنفس والمال في نصرته وإعلاء شريعته "[1] .

فالقاضي يجعل إثبات وجود الإله مرغباً في الإنفاق ومقوياً له .

ويردها الأصم إلى المعنى الكلي وهو إقامة الحجة والدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك المثل مرغباً لهم في الجهاد . واستمر المعنى إلى نهاية السورة ، وقد وقف الرازي على طريقة التفريع ، واستمراره ، فبدأه بتعظيم الإنفاق في سبيل الله من قوله :

واتبعه ببيان الأمور التي يجب تحصيلها حتى يبقى ذلك الثواب ، منها ترك المن وترك الأذى ، والقول المعروف وذلك في آيات من قوله :

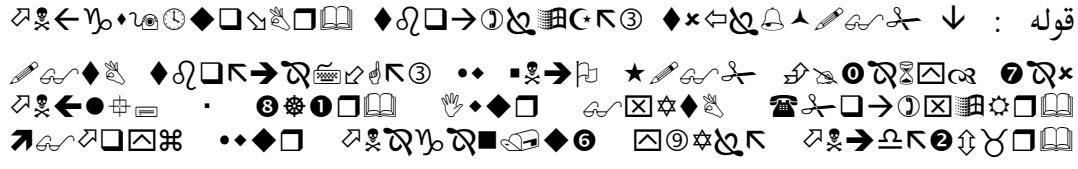

إلى :

[2] يقول : " اعلم أنه رغب في الإنفاق ، ثم بين أن الإنفاق على قسمين : منه ما يتبعه المن والأذى ، ومنه ما لا يتبعه ذلك.

---

(١) " التفسير " ٣٩/٣ .

(٢) البقرة ، آية : ٢٦٦ .

ثم أنه تعالى ذكر ما يتعلق بكل واحد من هذين القسمين ، وضرب لكل واحد منهما مثلاً يكشف المعنى ويوضح المقصود منه على أبلغ الوجوه .

ثم إنه تعالى ذكر في هذه الآية أن المال الذي أمر بإنفاقه في سبيل الله كيف ينبغي أن يكون فقال : " انفقوا من طيبات ما كسبتم " [1] .

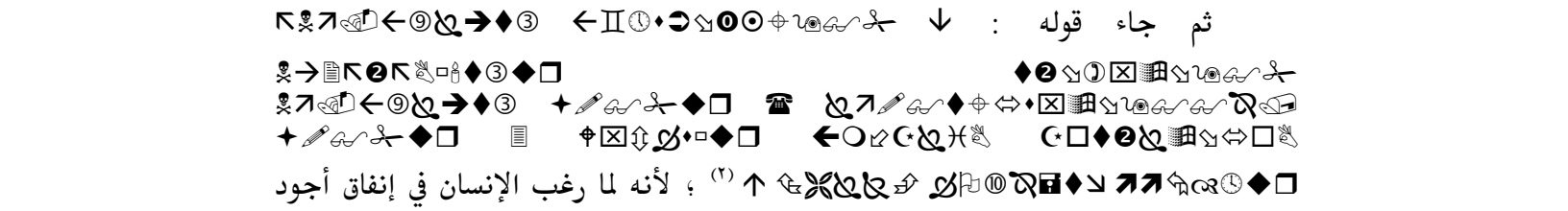

ثم جاء قوله : ↓ ❒◆✍☜♋☼☒◑⇘☜❷◆♦➔♋⊙◉↖ ☠↗✍←⑨♋➔♦③ ←♊🕓⬧➲⇘❶⊙⌖☜✍✂ ↓ ✂♊🕓⬧➲⇘❶⊙⌖☜✍✂ ♦❷⇘◑☒▦⇘☜✍✂ ☠→🖹↖❷↖✍▫🕯♦③◆❒ ☠↗✍←⑨♋➔♦③ ✦🖉✍✂◆❒ ☎ ♋↗🖉✍♦⌖⇔⬧☒▦⇘☜✍✍✍ ✦🖉✍✂◆❒ 🖹 ⌖☒⇳ℒ⬧▫◆❒ ←❍⇙☪♋♓✍ ☪□◆❷♋▦⇘⇔□✍ ❒◆🕓☜♋➔➔⇗♦⇘▀⑩✍ℒ ↑ [2] ؛ لأنه لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يكسبه حذره من اتباع وسوسة الشيطان وما يلقى في نفسه من تخويف الفقر مما قد يضعف عزيمته على الإنفاق[3] .

ولما كان هذا المعنى موضع عناية امتد واستطال وبالغ في الحث على الإنفاق من الأجود الأكمل إلى آية ٢٧ في قوله : ↓ ❒◆✍♦✍☜☼❒▦☒◑⇘☜☞←☜🏳♓✍ 🕮❒☼▦☒◑⇘☜❷◆♦➔♋⊙◉↖ ☠↗✍←⑨♋➔♦③ ✂☜✍ ⊙◉❒◆ ←❍←☺■▀⇙➔♦③ ✍♦✍◆❒ 🖹 ☜✍ ✍☜⇘▀✉▫✓♋☺✍▀🕓➘→▀♋☜ ♓🖉✍✂ ⊙◉❒◆ ☼❒🕮 ⇳♊♋✍ ✌❻✍✿🕓☼❒🕮 ⇳♊♋✍ ✍☜⇘▀✉▫✓♋☺✍▀🕓➘→▀♋☜ ♓🖉✍✂ ♌✍◑ ↓ وجاء قوله تعالى : ↑ ☜✍ℒ✍ ✌❻✍✿🕓☼❒🕮 ⇳♊♋✍ ☎ ✂❒←⑨⇗⌛➔✍ ✍☒♎❑➔✍⇙⬧➔✍◆❒ ✍☒♎❑→▦⇙②➔✍ ♌✍◑◆❒ ☎ “❻♋♎ ✍❍☺♋➔♋☪⬧▫ ♋💣🕓⬧🔔☒⑨❍🕓☜✍✂ ☎✂❒←⑨⇗⌛➔✍ ✍☒♎❑➔✍⇙⬧➔✍◆❒ 🗐 ⇗☠→⌛➘☜ ➴❸⇗❷☒⌘ ◆❑←℁⬧▫ ◆↗🖉✂♦❷⬧◑→▦⇘☜✍✂ 🖹 ⇗☠→⌛♋✍✍♦★ℒ♒❶☒ᔓ ♊♋✍ ☠→⌛☪♦↖ ↖❷♋ℳ▦⬧▤↖③◆❒ ↑ ☜✍ℒ✍ ➴❸❷✍⌛☒⌘ ♦♌❑➔▀☒☺⇙➔⬧✍ ✍☒☺✍✍✦🖉✍✂◆❒ [4] ليعيد تشكيل المعاني السابقة ويضع لها هيئة ثانية تتشاكل معه يقول : " اعلم أنه تعالى لما بين أولاً : أن الإنفاق منه ما يتبعه المن والأذى ، ومنه ما يكون كذلك ، وذكر حكم كل واحد من القسمين ، ثم ذكر ثانياً : أن الإنفاق قد يكون من جيد ومن رديء ، وذكر حكم كل

---

(١) التفسير ، ٥٢/٣ .

(٢) البقرة ، آية : ٢٦٨ .

(٣) التفسير ، ٥٥/٣ .

(٤) البقرة ، آية : ٢٧١ .

واحد من القسمين ، وذكر في هذه الآية أن الإنفاق قد يكون ظاهراً وقد يكون خفياً " [1] .

والرازي غالباً ما يقف عند آية يعيد بها ترتيب المعاني السابقة ويوجه علاقاتها توجيهاً مختلفاً ويستنبط بها ما في طيات ذلك التجاور من إضافة معاني وزيادة بيان فالإنفاق من الجيد والرديء لم يكن قسيماً ظاهراً وإنما أبرزه التصنيف الثالث وأخرجه من باطن الكلام إلى ظاهره .

وأظن هذه هي الهيآت التي يشكلها الترتيب والتآليفات بين المعاني بعطف بعضها على بعض فيحصل لها في الذهن هيئة لم يفدها ظاهر الكلام وإنما دل عليها التأليف .

وفرع على الإنفاق ذكر الربا لوجود " مناسبة من جهة التضاد ؛ لأن الصدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمر الله بذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه، فكانا متضادين " [2] .

ثم استأنف حكم الدين لمعنى يتعلق بالأمر بالإنفاق والأمر بترك الربا يقول : " أن الله سبحانه لما ذكر قبل هذا الحكم نوعين من الحكم أحدهما : الإنفاق في سبيل الله وهو يوجب تنقيص المال . والثاني : ترك الربا ، وهو أيضاً سبب لتنقيص المال ، ثم إنه تعالى ختم ذلك الحكمين بالتهديد العظيم ، فقال : " واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله " والتقوى تسد على الإنسان أكثر أبواب المكاسب والمنافع ذلك بأن ندبه إلى كيفية حفظ المال الحلال وصونه عن الفساد والبوار ، فإن القدرة على الإنفاق في سبيل الله ، وعلى ترك الربا ، وعلى ملازمة التقوى لا يتم ولا يكمل إلا عند حصول المال ، ثم إنه تعالى لأجل هذه الدقيقة بالغ في الوصية بحفظ المال الحلال عن وجوب التوي والقلق ، فحث على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سبباً لمصالح المعاش والمعاد ،قال القفال رحمه الله : " والذي يدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار وفي هذه الآية بسط شديد ، ألا ترى أنه قال : "إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه " ثم قال : ثانياً : " وليكتب بينكم كاتب بالعدل " ثم قال ثالثاً : " ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله " فكان هذا كالتكرار لقوله " وليكتب بينكم كاتب

---

(١) " التفسير " ٦١/٣ .

(٢) "التفسير" ، ٧٢/٣ .

بالعدل " لأن العدل هو ما علمه الله ، ثم قال رابعاً : " فليكتب " وهذا إعادة الأمر الأول ثم قال خامساً " وليملل الذي عليه الحق " وفي قوله : " وليكتب بينكم كاتب بالعدل " كفاية عن قوله " فليملل الذي عليه الحق " لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه ، ثم قال سادساً : " " وليتق الله ربه " وهذا تأكيد . ثم قال سابعاً : " ولا يبخس منه شيئاً " فهذا كالمستفاد من قوله : " وليتق الله ربه " ثم قال ثامناً : " ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله " وهو أيضاً تأكيد لما مضى ، ثم قال تاسعاً: " ذلكم أقسط عند الله " فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة وكل ذلك يدل على أنه لما حث على ما يجري مجرى سبب تنقيص المال في الحكمين الأولين بالغ في هذا الحكم في الوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك والبوار فيتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله ، والإعراض عن مساخط الله من الربا وغيره ، والمواظبة على تقوى الله ... " [1] .

فالحث على التقوى في سياق الإنفاق في سبيل الله وترك ما من شأنه أن ينمي المال ويزيده في الظاهر أو هم المخاطب أن التقوى المأمور بها تسد عليه جميع المكاسب ، والمنافع مما قد يفرط معها الإنسان في حفظ حقوقه ، فانتهج ذلك حكم الدين ليفيد أن الأصل هو حفظ المال وصيانته لأن به يصلح معاش الإنسان ومعاده .

وما ذكره الرازي من قول القفال يقوي به سلامة المعنى من خلال الأبنية اللغوية وأن المبالغة في الحث على حفظ المال جار ومتردد بشكل بالغ في أبنية الآية وبسطها للمعاني في موضع يتأتى معه الاختصار ، ولكن التفصيل الشديد أفاد العناية بالمعنى وجاءت هذه المبالغة متناسبة مع السياق السابق الذي قابلها بالتأكيد على الإنفاق .

فالمعاني الفرعية شديدة الملازمة للغرض الأصلي حتى كأنه دعامة لها لا تنفك عنه كما في تعقيب قوله تعالى : ↓ ❍⌅➔♎❑←☺←☞⬂◑❋🖬⬩⊂ ♌⍁◑◆❒ ⌅♌✍

⇔⚐←☞⇳⬎♦❷⬩▫ ⇳⑨⬩🔔◆❒ ❍⌅➔♎❑❹○⊠☺⬩✍ ♌❒🕮 ⬀⬂⬈⌛⬩🔔
🖗⬩⍁◑ ⬃☹↗🡻⇳⬎♦❷⬩▫ ✍◆✍ ←✂⇔🕐♌✲⬩▫ ☪❑⬩🖉③🀰❷⬩▫ ❍⌅←●❍🖴
❽♌🔔⮝🖉✍✂ ☎✂◆❑→▦⬃➔♦③ ⬃❒❒🕮 🖘♍❑→▦⬃➔♦③ ♌❒🕮
♌❒🕮◆❒ 🗐 ⬁⊠🔔⬩🗏♌⌘☪⍥✍✂ ↗□⊠⑨⬂◑↖↖ 🕘🖉■♌⑨◆❶⍁🖎
⬩⬩◆❒ 🗐 🗏❾◆❑⬂◑✷🖬♌⍥ ⊂✞♦❷⬂❒🕮 ☎✂☑❑→▦⬃➔⬩✍
□♌⍁◑ 🗐 ⬀☠↗🗏◆☪⬃❹♦🖎 ⬩✍⇳🖉⊠▦⬂⍥✍✂ ☎✂↓❑❁○✲⬩✍

(١) " التفسير " ٣/٨٩-٩٠ .

[1]

بالأمر بالصلاة في قوله تعالى :

[2] فحصل من ترتيبها فائدة " أحدها : أن الصلاة لما فيها من القراءة والقيام والركوع والسجود والخشوع تفيد إنكسار القلب من هيبة الله تعالى ، وزوال التمرد عن الطبع وحصول الانقياد لها وأمر الله تعالى والانتهاء عن مناهيه .. والثاني : أن الصلاة تذكر العبد جلالة الربوبية وذلة العبودية وأمر الثواب والعقاب ، فعند ذلك يمهل الانقياد للطاعة ولذلك قال : " واستعينوا بالصبر والصلاة " . والثالث : أن ل ما تقدم من بيان النكاح والطلاق والعدة اشتغال بمصالح الدنيا ، فأتبع ذلك بذكر الصلاة التي هي مصالح الآخرة " [3] .

وقرينة كونها متفرعة من تحت بيان ذلك الغرض رجوع الكلام بعدها ومعانقته للأصل بأسلوب التعميم بعد الخصوص في قوله :

[4] فهناك ذكر حكماً خاصاً ، وههنا ذكر حكماً عاماً " [5] .

ولما أعاد حكم المتعة معمماً زاد في التهيئة بذكر القصص في قوله :

[6] .

---

(1) البقرة ، آية : ٢٣٧ .

(2) البقرة ، آية : ٢٣٨ .

(3) " التفسير " ٤٨٢/٢ .

(4) البقرة ، آية : ٢٤١ .

(5) " التفسير " ٤٩٤/٢ .

(6) البقرة ، آية : ٢٤٣ .

لـ " يحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد ، ومزيد الخضوع والانقياد "[1] .

وبهذا نجد الرازي يجعل سورة البقرة قضية واحدة ، وكلاماً متفقاً أوله مع آخره يصب في غرض واحد ينميه ويفرع عليه مجار مختلفة تعود لتصب في دلالته وتزيد في أصل بيانه ، وهذه منهجية صارمة وفقه واع في تنظيم الدلالات والتأليف بين المعاني وإدارتها حول مقصد كلي هو عمودها الذي عليه المدار وبه الاستقرار وهذا المقصد هو إثبات خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن منهج الإسلام هو المنهج الصحيح والصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله وذلك الفلاح وهذا المعنى ليس ظاهراً وإنما تولد من ترتيب الأغراض وتفريعها فشكل هيأته وأبان عنه بما بث فيها من تفريعات هي مقدمات وتمهيدات ومنها ما هو كالتيمم والتأكيد والتفصيل والبيان وكل ذلك يقرر الأصل ويبينه .

وفي سورة النمل يصرح بتقسيم السورة إلى فصول ويديرها على المقصد الجامع لها وهو الرد على عبدة الأوثان ولفتهم إلى دلائل صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لذلك بدأها بالثناء على من آمن به وصدق واتبع هدى الله الذي جاء به فقال : ↓ ×▪⊂ 🗐 ▫🖬🔍✍ 🖂 ✌×✓🚫📻⑩✍ 🗄🕹✍♦☝🖍🗎◆❐ 🖋🔍✂◆↗🗗❷→◑🔍🕸✍✂ →💣🕓♦③✂◆↗ 🖍🦋🖋 ♦×✓🔍☪🔍✍⬩←☺▫🖬🔍🕸 🗏❽◆❸⇳¤🡐📪◆❐ ❽✥⑨➔🕭 🖍🖍🖋 ■□🗐❑■🖬❍🕓🕸✍✂ ♦🔍❑←☺⓿🖋◑↖③ ♦×⇦🔍🔔⅄🖉✍✂ ☠➔🕭◆❐ ■□🗐❑•🗎□❽🕸✍✂ ♦🔍❑➔✍🗗⬩↖③◆❐ 🖋🔍❑↖☪🔍🔔❑↖③ 🗗☠➔🕭 🗷□♦❷🖍⌘☞🖂✍✍🚫📪 ↑ 🖍🏴🖋 ♦🔍❑↖☪🔍🔔❑↖③ 🗗☠➔🕭 🗷□♦❷🖍⌘☞🖂✍✍🚫📪 [2] وأردفه ببيان ما للكفار المعرضين عن الدلائل من سوء العذاب ↓ ••♦×⇦🔍🔔⅄🖉✍✂□🔍🚫◑ ☠➔●❍▭ ✍□☪✸③🖂🕸 🗷□♦❷🖍⌘☞🖂✍✍🚫📪 ♦🔍❑↖☪🔍✍⬩↖③ 🕮❐↖⇳☺🖂■🖬🕓🖂☺⇳↖❐ 🗗☠←♑■🖬🕓🖂☺⇳↖❐ ▫🗗☠←♑⬩▫ ♦🔍❑←♑🖂☺🗗➔♦③ 🖍🗷🖋 ↓↗☑❑←ᘓ 🗗☠←●❍▭ ♦×⇦🔍🔔⅄🖉✍✂ 🖂 🕮❐🡅 🖂🖃✥🕓⬩🕸🕯🗗☠←●❍▭ ♦×⇦🔍🔔⅄🖉✍✂ 🖂 ↖☠➔🕭 🗷□♦❷🖍⌘☞🖂✍✍🚫📪 ❐ 🖋☺✂☒⓿🖂➔🕸🕸✍✂ ❼🚫× 🗗☠➔🕭◆❐ 🖋☺✂☒⓿🖂➔🕸🕸✍✂ ↑ 🖍🚫🖋 ♦🔍❐←❸🖂❍🗗⌘☞❁✍✂ [3] .

أما وسط السورة فيشمل " عدة فصول :

الفصل الأول : في الرد على عبدة الأوثان ، ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه

---

(١) " التفسير " ، ٤٩٥/٢ .

(٢) النمل ، الآيات : ١-٣ .

(٣) النمل ، الآيات : ٤-٥ .

وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة من لا منفعة منه البتة .

... تكلم بعده في حال المعاد وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة ، أو في كمال العلم فإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل المكنات وعالماً بكل المعلومات.

ثبت القول بالحشر .

.... ولما تمم الكلام في إثبات المبدأ أو المعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن لا جرم بين الله تعالى أولاً كونه معجزاً " [1] .

وجاء قوله : " فتوكل على الله " تنمية للسياقات السابقة وتأكيداً لظهور حجة رسالته وأن المحق حقيق بنصر الله وتمكينه ، وهذا باعث وسبب لتقوية قلب الرسول على التبليغ وإظهار الدين . [2] ويلاحظ استمرار السورة في بناء الأغراض والفصول بعضها على بعض في نسق متتابع دون تفريع على الفروع إلا ما جاء في نهاية فصل النبوة حيث ارتد الكلام إلى ذكر المعاد وكان ذلك لفائدة بيانية وهي : " أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة ، وكمال العلم ، ثم فرع عليها القول بإمكان الحشر ، ثم بين الوجه في كون القرآن معجزاً ، ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم تكلم في مقدمات قيام القيامة وإنما أخر تعالى الكلام في هذا الباب عن إثبات النبوة ، لما أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في وجود الترتيب " [3] .

أي أنه لما كانت أحوال القيامة من الأمور الغيبية التي لا يمكن معرفتها إلا بواسطة الرسل قرر أولاً صدق نبوته بالدلائل ثم فرع عليها أحوال القيامة ولم يفرعها على إثبات الحشر رغم أنه يقتضيها وهي تأتي في أكثر القرآن مقترنة به ، لأمر يتصل بأجواء السورة وسياقها لأن الخطاب مع المنكرين الطاعنين في نبوته فإثبات وقوع القيامة لا يتم إلا بعد تقرير دلائل صدق نبوته عليه السلام .

---

(١) " التفسير " ٥٦٢/٨ -٥٦٩-٥٧٠ .

(٢) السابق ، ينظر : ٥٧١/٨ .

(٣) " التفسير " ٥٧٢/٨ .

وسورة فصلت أنموذج مكتمل لدراسة بناء الكلام بعضه على بعض ، وتعليق جميع عناصرها بجذر واحد ومركز واحد تلتقي عنده الدلالات تتفرع منه وتغذي دلالته وتستطيل بمعناه في تنامي مستمر إلى أن يكتمل وفي كل نقلة واستمرار ورجوع تتشكل هيآت تزيد في دلالته وتفصل مجمله ، فقلب السورة هو قوله تعالى : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ يعلق بها جميع المقاطع ، ويهتدي ببصيرة نافذة إلى ما خلف مواقع التأليف من معان وأحوال هي بسبب منها .

وبدأ بذلك بتصنيف السورة إلى مقاطع وفصول بحيث لا تجد آية في الفصل التالي يمكن أن تكون فيما قبلها ، فكل مقطع يمثل وحدة معنوية صغرى ، هي في ذاتها غرض ولها دلالة ولكن تأليفها وترتيبها على الأصل يوجه دلالتها إلى ما يناسب ذلك الأصل ويقويه؛ لذلك سأعرض تقسيمه للسورة بكاملها وكيف كان يقف عند كل وحده ليربطها بذلك الجذر .

أولاً : وحدة الافتتاح : من الآية ١ إلى الآية ٨ : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) فصلت ، آية : ٥

ثانياً : من الآية ٩ إلى الآية ١٢ : ↓ بمثابة الاستدلال على قوله " إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد " فـ " لما أمر محمد صلى الله عليه وسلم في الآية الأولى أن يقول :"إنما أنا بشر ... " أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته في خلق السموات و الأرض في مدة قليلة .. " [1] .

ثالثاً : من آية ١٣ إلى آية ١٨ : ↓

---

(١) " التفسير " ٥٤٣/٩ .

إلى آية ٢٤ ﴿ ... ﴾ يقول : "اعلم أن الكلام إنما ابتدئ من قوله : " إنما إلهكم إله واحد " واحتج عليه بقوله : " قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين " وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به ، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له في الإلهية ؟ ولما تمم تلك الحجة قال : " فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " وبيان ذلك لأن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه ، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم فلهذا السبب قال " فإن أعرضوا فقل أنذرتكم " "[1] .

ثم استمر المعنى السابق وتشعب عنه العذاب في الدنيا فجاء المقطع الرابع من آية ١٩

يقول في ذلك : " واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة ، ليحصل منه تمام

---

(١) التفسير ، ٥٥١/٩ .

الاعتبار في الزجر والتحذير "[1].

المقطع الخامس من آية ٢٥ إلى آية ٢٩ ↓

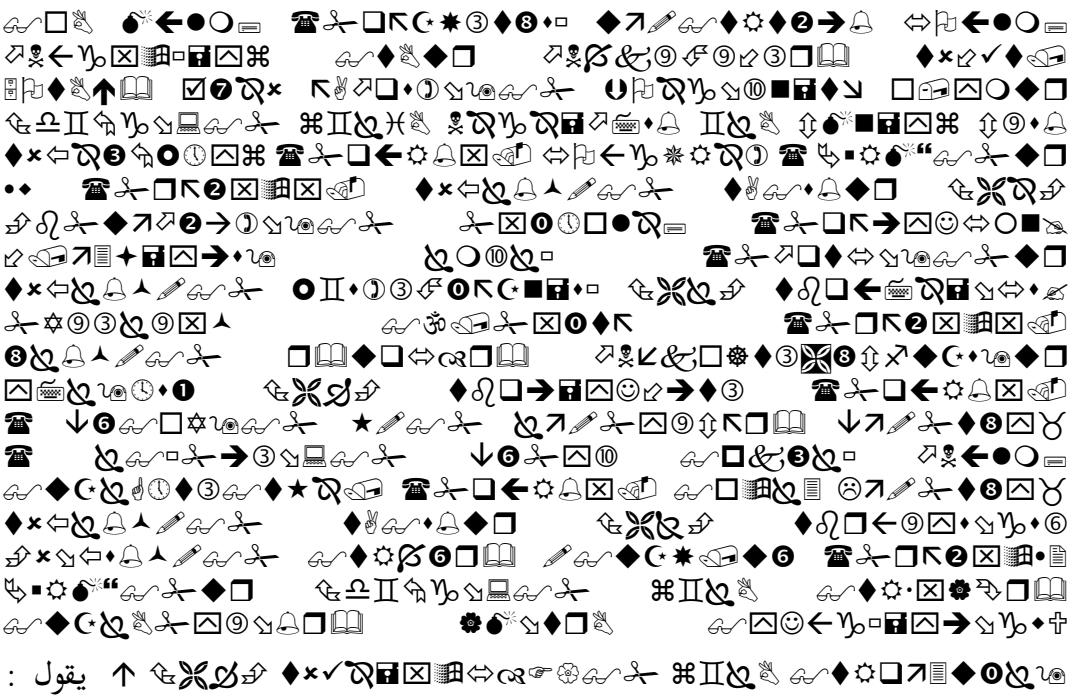

" اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال : "وقبضنا لهم قرناء " [2] ثم يرتب المقاطع كلها ويردها إلى جذر الكلام يقول : " واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدئ من قوله " وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه " إلى قوله " فاعمل إننا عاملون " فأجاب الله عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة ، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع " [3]

المقطع السادس : من آية ٣٠ إلى آية ٣٢ : ↓

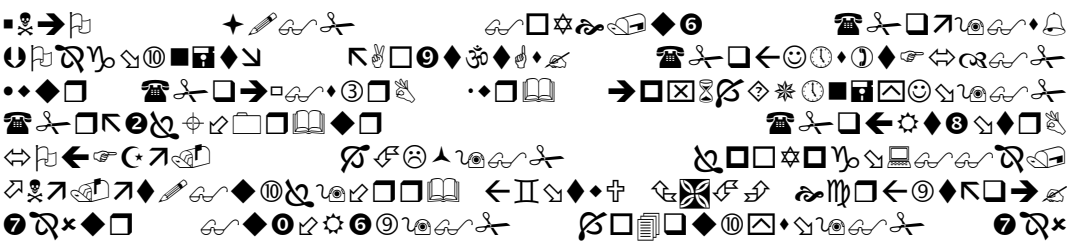

---

(١) " التفسير " ، ٩/٥٥٥ .

(٢) السابق ، ٩/٥٥٧ .

(٣) "التفسير" ، ٩/٥٥٨ .

لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف ، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه " [1]

.

المقطع السابع : من آية ٣٣ إلى آية ٣٦ :

والرازي قبل أن يبين وجه العلاقة يستحضر ترتيب الآيات ثم يصلها برأس الكلام وجذره فيمكن لها مع ما قبلها ومع أصل الكلام يقول في ذلك " إنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدئ حيث قالوا للرسول " قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه " ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك ، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة ، فقالوا : " لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه " وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة ، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة ، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات .. فقال : " ومن أحسن قولاً ... " فهذا وجه حسن في نظم آيات هذه السورة ، وفيه وجه آخر وهو أن مراتب السعادات اثنان: التام ، وفوق التام أما التام : فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته ، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين ، إذا عرفت هذا فنقول قوله : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " إشارة إلى المرتبة الأولى .... فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب

---

(١) السابق ، ٥٦٠/٩ .

الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الانتقال بتكميل الناقصين ... وهو المراد من قوله : " ومن أحسن قولاً ... " [1]

المقطع الثامن : من آية ٣٧ إلى آية ٣٩ :

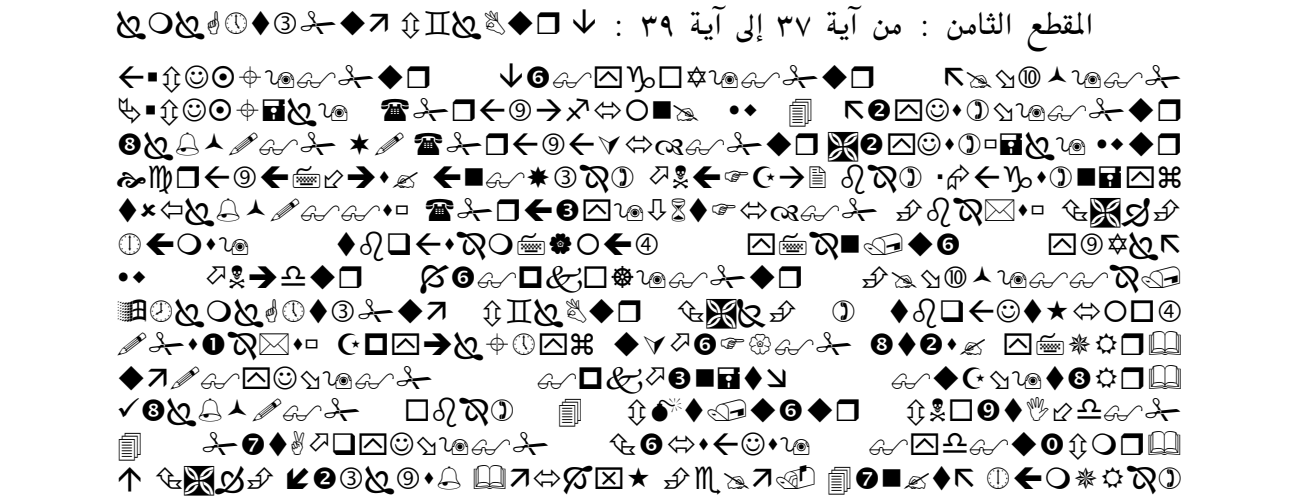

يقول فيها : " اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى اردفه بذكر الدلالة الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، وتنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن " [2] .

المقطع التاسع : من آية ٤٠ إلى آية ٤٢ :

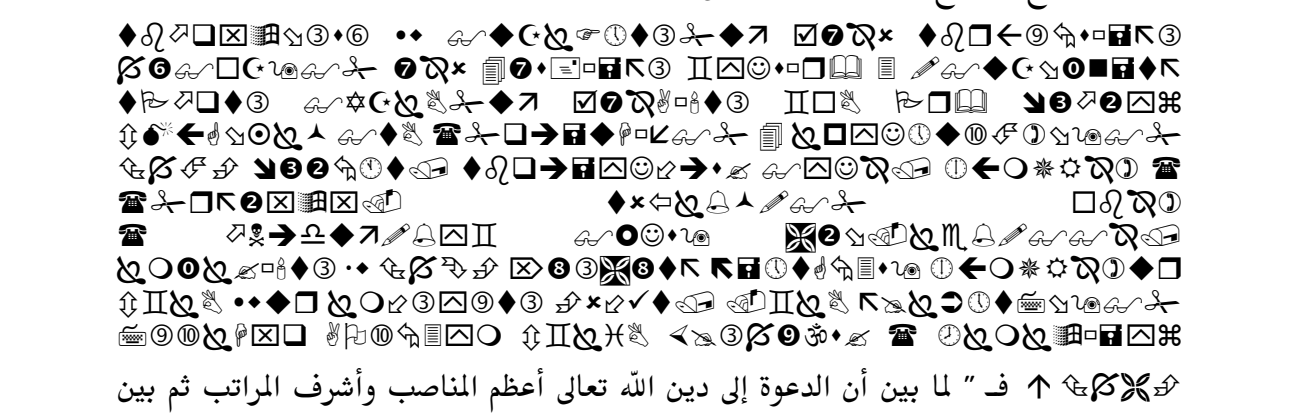

يقول فيها : " لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ثم بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة ،

---

(١) " التفسير " ، ٥٦٢/٩ .

(٢) السابق ، ٥٦٩/٩-٥٦٦ .

عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات ويحاول إلقاء الشبهات " [1] .

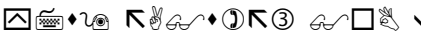

المقطع العاشر : من آية ٤٣ إلى آية ٤٦ : ↓

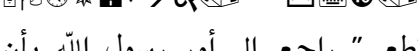
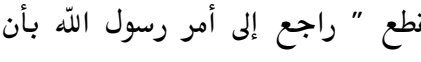
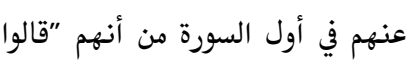

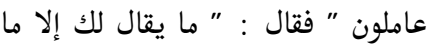

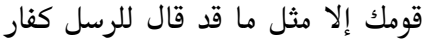
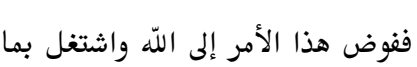

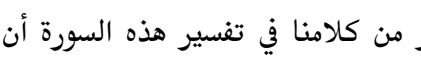
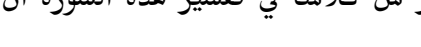
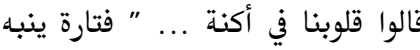

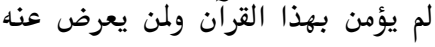
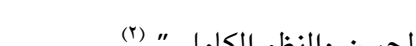
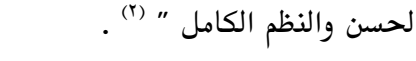
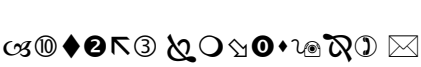

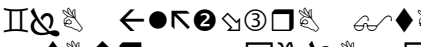

هذا المقطع " راجع إلى أمر رسول الله بأن يصبر على أذى قومه وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم "قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه " إلى قوله " فاعمل إننا عاملون " فقال : " ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك " .. أن المراد ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة ... ففوض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى ... وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة هو ذكر الأجوبة عن قولهم " وقالوا قلوبنا في أكنة ... " فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه وامتد الكلام في هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل " [2] .

المقطع الحادي عشر : من آية ٤٧ إلى ٥٤ : ↓

---

(١) " التفسير " ٥٦٨/٩ .

(٢) " التفسير " ، ٥٦٩/٩ .

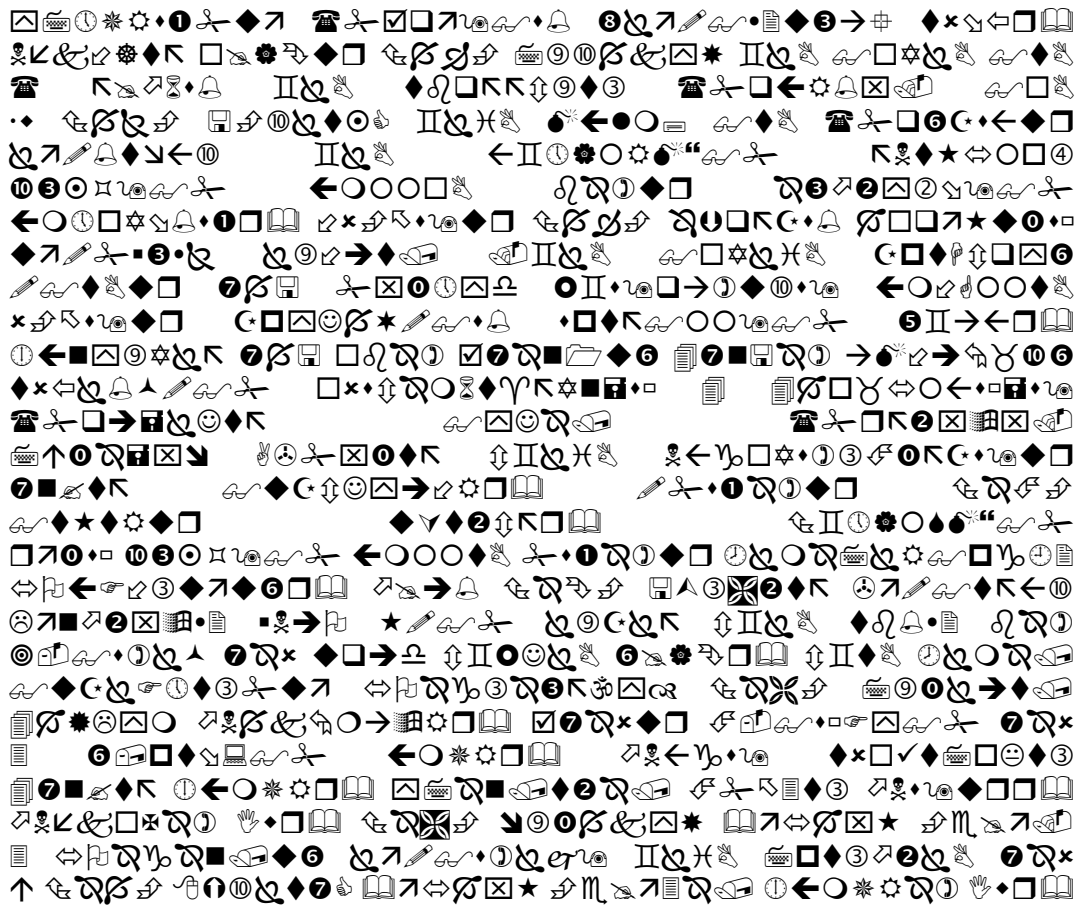

وهذه خاتمة السورة ، يذكر تعلقها بما قبلها : " اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله : " من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها " ومعناها أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة ، وكأن سائلاً قال : ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فقال تعالى .... " إليه يرد علم الساعة " ... ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة وهذا الذي ذكره شديد التعلق أيضاً بما وقع الابتداء به في أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام بدليل أنه قال في أول السورة : " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد " فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد فقال: " ويوم يناديهم أين شركائي " [1] .

وبهذا التأمل وهذا النمط من التحليل تظهر وحدة الكلام فالترابط العضوي بين عناصر

---

(١) " التفسير " ٥٧١/٩ .

الكلام لا يتنامى في ظاهر اللغة وإنما وراء مواقع الأبنية تتشكل الوحدة وتكتمل الدلالة ، فمتى قبضنا على المعنى الجذر أو الجملة الأم فإن جميع الأغراض تنحدر تبعاً إليه وتنساق بالذهن إلى أوديته فلا تجد شعباً من شعب الكلام إلا وهي فرع عنه وتؤول إليه وإن كان ظاهره مستقلاً. فالمقطع الخامس ليس ظاهراً في كونه سبباً وعلة لإصرارهم على التمسك بشبهة ظاهرة في الضعف والوهن وإن ذلك بتزيين وتأييد قرناء ضلوا وأضلوا الناس وصرفوهم عن تأمل الأدلة والبراهين فكانوا كالحجاب المانع لهؤلاء عن النظر والاستدلال وكينونة المعنى ليست في داخل التراكيب لأن مدلول اللفظ هو ما ذهب إليه الزمخشري " يعني أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوء الشياطين "[1] . ولكن تعليقه بجذر الدلالة نزع باللغة نحو ذلك المعنى فمنحه خصوصية تناسبه وتأتلف معه . وكذلك المقطع السابع صورته صورة الخبر ولكن رده إلى قوله " قلوبنا في أكنة " وترتيبه عليه أحدث فيه هيأة زائدة وخصوصية بيانية لم تكن لولا ذلك التأليف وهي " المواظبة على التبليغ " وأحسب هذه الزيادات والتشكيلات التي تحدث في الكلام بسبب الترتيب والتي يسميها الرازي تنبيهات هي الهيآت الناتجة عن التأليفات المعنوية التي أشار إليها حازم وجعلها مناط الأسلوب .

وفي " نظم الدرر " نجد الإمام البقاعي يربط عناصر السورة وأغراضها بالمغزى وهو المعنى الذي انتجه التأليف المعنوي بين الآيات وهو " الإعلام بأن العلم إنما هو مااختاره المحيط بكل شيء قدرة وعلماً لعباده فشرعه لهم فجاءتهم به عنه رسله ، وذلك العلم هو الحامل على الإيمان بالله والاستقامة على طاعته المقترنة بهما " [2] وهذا بخلاف ما رأيناه عند الرازي ، وهو أن خالفه في المنبع إلا أنه يستند في توجيه دلالة الفروع على ما ذكره الرازي ولا يختلف معه إلا في مقطعين في قوله : " وما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك " فالرازي يجعلها متعلقة بجذر الدلالة " قلوبنا في أكنة " فـ " كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة فبقي أن يقال : أن كل من أتاه الله طبعاً مائلاً إلى الحق ، وقلباً صادقاً ، وهمة تدعوه

---

(١) " الكشاف " ١٩٦/٤ .

(٢) " نظم الدرر " ٥٤٧/٦ .

إلى بذل الجهد في طلب الدين فإن هذا القرآن يكون في حقه هدى وشفاء .. وأما من كان غارقاً في بحر الخذلان وتائها في مفاوز الحرمان ومشغوفاً بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن في أذنه وقراً (وفي أذننا وقر) وكان القرآن عليهم عمى كما قال : " ومن بيننا وبينك حجاب ... " وكل من انصف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً نحو غرض واحد " [1] .

والبقاعي يردها إلى مفتتح السورة ويعلقها بقوله : " كتاب فصلت آياته " يقول : "ولما افتتح السورة بأنه أنزل على أحسن الوجوه ، وأجملها وأعلاها ... فقالوا فيه ما وقعت هذه التسلية لأجله من قولهم " قلوبنا في أكنة ... " إلى آخره وكان ربما قال قائل : لو كان بلسان غير العربي ، وأعطي هذا النبي فهمه والقدرة على تبيينه لكان أقوى في الإعجاز وأجدر بالإتباع ، أخبر أن الأمر ليس كذلك ، لأنهم لم يقولوا : هذا لشك حصل لهم في أمره بل عناداً ، ... فقال على سبيل التأكد ، معلماً بأن الأمر على غير ما ظنه الظان ، وقال الأصبهاني : أنه جواب عن قولهم " وقالوا قلوبنا في أكنه " والأحسن عندي أن يكون معطوفاً على " فصلت آياته قرآنا عربياً " [2] .

وأيضاً في المقطع الأخير " إليه يرد علم الساعة ... " حيث جعله الرازي توجيه للمشركين للتأمل والبحث عن الأدلة ، فليس العلم بكون القرآن باطلاً علماً بديهياً فجاء التحذير من الأصرار على دفع الأدلة دون التحقق من صحتها لأن الإصرار على دفعها وهي حق من أعظم موجبات العقاب . [3]

والبقاعي يربطها بالمغزى وهو العلم يقول : " لما دل اتباعهم للظن حتى في ذلك اليوم الذي تنكشف فيه الأمور .. اتبع ذلك الدليل على أن ذلك طبع هذا النوع فلا يزال متبدل الأحوال متغير المناهج وأن أحس بخير انتفخ عظمه وتطاول كبراً وإن مس ببلاء تضاءل ذلاً وامتلأ ضعفاً وعجزاً وذلك ضد مقصود السورة الذي هو العلم ، بياناً لأن حال هذا النوع بعيد

---

(١) " التفسير " ٥٧٠/٩ .

(٢) نظم الدرر ، ٥٨١/٦ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير ، ٥٧٣/٩ .

عن العلم " [1] .

وأنا استحسن ما ذهب إليه الرازي لأن " قلوبنا في أكنة " هي قلب السورة ، فما قبلها من ذكر الكتاب ، وتفصيل آياته يمهد لها وما بعدها يجليها ويبينها ومجيئها بعد تفصيل الآيات لا للتأكيد على العلم ؛ لأن الدلائل ظاهرة وقوية ، وإنما لبيان شريحة من الناس تتجلى أمامهم الحقائق وتقهرهم الدلائل بظهورها وقوتها ثم يجادلون فيها ويعرضون عنها ، فدأبهم التشكيك فيها والطعن بأوهي الحجج . وتبين السورة منهج الدعوة إلى الله مع وجود هذا الصنف وكشف دواخلهم والمسببات التي انتحبت مثل هذا النوع من العقول من قرناء السوء وما جبل عليه الإنسان من التبدل[2] . ثم ختمها بالتحذير والوعيد من مغبة هذا المنهج وبيان المسلك الصحيح في فحص الأدلة قبل الإصرار على تركها .

والإمام في تحليله للسور السابقة يسعى إلى دمج العناصر الدلالية المتحدرة من فروع مختلفة ويؤلفها بمعنى كلي يجمع أعناقها ويضبط معاقدها ، وأما في سورة النساء فينبه على مسلك آخر يقصد فيه الاختلاف والتنوع ، ويجعل تمام الدلالة ومقاطعها الخروج عن المقصد ، لذلك كان يكتفي في دراسته للسورة – غالباً – بالتنبيه على مواضع القطع والرجوع دون بيان لوجه العلقة بين الأغراض ، فقوله تعالى : ↓ 📖❐❼■🖫🗘❶ ♦❷⬧✍ ⬀☠⬧❁❐📖 ♦✖⇦🗘🔔➹✎❐✂☎ ✍✡⌨⑩🡐🕓♦☼ 📖🡅❐✍➔❑✂☎ ⌘Ⅱ🗘♯✍ ♦♌❐🡄❸♦✋⇳⌖☐④ 🖫🖬🕓♦☝🡐📋🡒❁✂ ♦♌❐←⑨③🏴❷↖③◆❐ ♦♌❐📖 ☎✂❑✍🖬🡐🗘⬧ ♌❐📖 ⬧✍🖬❑✂☎ ⬧⓿🗘⌛○○❁✂ ♦♌❐←⑨③🏴❷↖③◆❐ ✦✎✂◆❐ 📖❐↖⇳■🖬⬀☠ ✎✂✦ ⬀☠↗📋🗘✶✎✂⌧⑨⇳↖❐🕯🗘✍ ⬀☠↗📋🗘✶✎✂◆❐ ⬧🗘🗘🖝 🗐 ✍★ ❐◆❐ ⬧⑩🗘❁◆❐ ★✎✍✍🗘✍ ❐◆❐ ✍⊠✂⬧❼🗐 ✍★ ❐◆❐ ⬧⑩🗘❁◆❐ ★✎✍✍🗘✍ ❐◆❐ ✍⊠✂⬧❼🗐 ✍★ ☼♦🕓🡐❸❷✂☪ 🖝🗘🗘⬧ ↑ [3] يقول : إنه " لما ذكر من أول هذه السورة إلى هذا الموضع أنواعاً كثيرة من التكاليف والأحكام الشرعية ، قطع ههنا ببيان الأحكام الشرعية ، وذكر أحوال أعداء الدين وأقاصيص المتقدمين ، لأن البقاء في النوع الواحد من العلم مما يكل الطبع ويكدر الخاطر فأما الانتقال من نوع من العلوم إلى نوع آخر فإنه ينشط

---

(١) " نظم الدرر " ٥٨٦/٦ .

(٢) " التفسير الكبير " ٥٧٣/٩ .

(٣) النساء ، الآيات : ٤٤–٤٥ .

الخاطر ويقوي القريحة "[1] .

وهذا وإن كان في أسلوب القرآن وترتيب معانيه ، إلا أنه ظاهره بارزة في سورة النساء لأن مدار السورة على تقرير الأحكام لذلك يكثر فيها الخروج وليس لذلك غرض سوى معاضدة تلك الدلالة والتلطف في تقريرها يقول في هذا : " اعلم أن عادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه ، وهو أن يذكر شيئاً من الأحكام ثم يذكر عقيبة آيات كثيرة في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة الهيبة ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربهما إلى التأثير في القلوب ، لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول إلا إذا كان مقروناً بالوعد والوعيد والوعد والوعيد لا يؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد ، فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الدين الحق ، وإذا عرفت هذا فنقول : أنه سبحانه ذكر في أول هذه السورة أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف ثم اتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين واستقصى في ذلك ثم ختم تلك الآيات الدالة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه ، ثم عاد بعد ذلك إلى بيان الأحكام " [2] .

أما السور القصار فالكلام فيه عامد إلى الغرض منصباً إليه متجرداً له حالها كالجملة الواحدة التي تتضام ويتصل أولها بآخرها لتفيد معنى واحداً كما في سورة البروج فـ " المقصود من هذه السورة تسلية النبي وأصحابه عن إيذاء الكفار وكيفية تلك التسلية هي أنه تعالى بين أن سائر الأمم السالفة كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود وختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا في التكذيب ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر ، وهو " والله من ورائهم محيط " ذكر وجهاً ثالثاً هو أن هذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير وهو وقوله "بل هو قرآن مجيد " فهذا ترتيب السورة " [3] .

فهذا تركيز لدلالة الآيات وتحريكها تجاه مقصد كلي يربط بينها ويجعل منها جملة

---

(١) " التفسير " ٩١/٤ .

(٢) " السابق " ٢٣٢/٤-٢٣٣ .

(٣) " التفسير " ١٠٦/١١ .

واحدة ، فليست هناك تفريعات أو نقلة وإنما كل آية هي استمرار لما قبلها حتى يكتمل المعنى ويتم .

وسورة المزمل يجعلها في مقطعين متقابلين حيث " بدأ في أول السورة بشرح أحوال السعداء ، ومعلوم أن أحوالهم قسمان أحدهما : ما يتعلق بالدين والطاعة للمولى فقدم ذلك ، والثاني : ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله " واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً " وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال ، وهو قوله تعالى :"وذرني والمكذبين " ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الأخذ الوبيل في الدنيا ، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة وفي عند هذا تم البيان بالكلية فلا جرم ختم ذلك الكلام بقوله " إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً " [1] .

وأحياناً يداخل أغراضها أصول أخرى فسورة الغاشية مدار آياتها على إثبات يوم القيامة وتأكيد وقوعه وخالطها النقلة إلى إثبات الإلوهية وذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع وذلك لأن إثبات الحكم بوقوع يوم القيامة مترتب في إثباته على تقرير هذه الدلائل ، يقول : " اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسم أهل القيامة إلى قسمين الأشقياء والسعداء ، ووصف أحوال الفريقين وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم ، ولا جرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال : " أفلا ينظرون إلى الإبل " وجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد أنها تدل على وجود الصانع الحكيم ، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد .... فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة . [2]

وقد لفت الإمام إلى تداخل القصص مع الأغراض في كثير من سور القرآن الكريم ، ودل على ما فيه من فوائد وأسرار متنوعة بعضها يمكن أن يقال في سياق كل قصة وهي عدة " أمور : أولها : أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل ، وذلك إنما يكون في غاية الندرة ، فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص

---

(١) السابق ٦٩٣/١٠ .

(٢) " التفسير " ١٤٣/١١ – ١٤٤ .

كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول .

الوجه الثاني : أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ثم يذكر عقيبهما أجوبة الأنبياء عنها ثم يذكر عقيبها أنهم لما أصروا واستكبروا وقعوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا والآخرة ، فكان ذكر هذه القصص سبباً لإيصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين وسبباً لإزالة القسوة والغلظة عن قلوبهم فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه .

الفائدة الثالثة : أنه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ، ولا تلمذة لأحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه .

الفائدة الرابعة : إن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها ، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة ، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع فلابد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال ، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص " [1] .

فهو عادة مألوفة ومسلك ظاهر في البيان القرآني[2] ، وبعضها خاص يتشكل باعتبار من الأغراض المحيطة بالقصة فتنزع بالقصة إلى دلالة معينة تخرج بها الحكاية إلى معنى متمم لبيان السورة ومقصودها وجعل هذا الباب من أنفس علوم القرآن يقول في إيراد قصة موسى وفرعون في سورة الزخرف أن المقصود من إعادتها " تقرير الكلام الذي تقدم وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه ، فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة ... أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش . فقال : إني : غني كثير المال .. وأما موسى فإنه فقير مهين

---

(١) " التفسير " ٣٩٥/٦ ، وينظره : ٢٩٣ ، ٢٨٢ .

(٢) "ينظر : ٦٤/٧ .

وليس له بيان ولسان ، والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من الله إلى الملك الكثير الغني ، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قوله " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " وقد أوردها بعينها فرعون على موسى .. وليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة ، وعلى هذا فلا يكون هذا تقرير للقصة البتة وهذا من نفائس الأبحاث " [1] .

فالسياق قلل من شأن الحمولة التاريخية لأنها ليست تقريراً للقصة البتة ، وإنما هي صياغة وتصوير للردّ على الشبهة المذكورة وتقرير الجواب عنها.

وأيضاً قصة إبراهيم في نفس السورة خرجت عن الحكاية وسلك بها مسلك الرد على فساد القائلين بالتقليد يقول : " اعلم أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، ثم بين أنه طريق باطل ومنهج فاسد ، .... أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين : الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل ... وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد ... فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية .

الوجه الثاني : في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين ، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه في متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً في عقبه إلى يوم القيامة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة " [2] .

ونفاسه هذا المبحث جاءت من أن القصة تحيل إلى معان تتصل بمقاصد السورة وأغراضها ولها مواقع مختلفة فتارة تكون رمزاً لحمولات دلالية متكاثرة لا يستوعبها اللفظ الصريح فتوضع الحكاية لتومي إليها وتوحي بتلك المعاني وتحيل الذهن إليها كما في ذكر قصة نوح عليه السلام في سورة يونس عليه السلام يقول : " اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات

---

(١) " التفسير " ٦٣٦/٩ .

(٢) " التفسير " ٦٢٩/٩ .

التي جرت بين نوح وبين أولئك الكفار ، ذكر ما إليه رجعت عاقبة تلك الواقعة ، أما في حق نوح وأصحابه ، فأمران : أحدهما أنه تعالى نجاهم من الكفار .....، والثاني : أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق ، وأما في حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسل ومن كذب به كانت زجراً للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ، وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان ليصلوا إلى مثل ما وصلوا إليه قوم نوح وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء عليهم السلام "[1] .

فالأبلغية في الحكاية جاءت من كونها ذات معان متكاثرة ومتضمنة لمقاصد مختلفة ما بين الوعد والوعيد والترغيب والتحذير إلى جانب ما فيها من تنشيط للسامع وخروج به من فن من فنون الكلام إلى آخر فيجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلاً قوياً لمتابعة القول[2] فـ " الحكايات إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية " [3] أي أنها داخلة في بناء الكلام ونسجه وتقع مواقع معان يعدل عن التصريح بها كما في الوعيد السابق عدل عنه صراحة إلى الرمز بالقصة .

ويبين هذا أيضاً ما ذهب إليه في جعله القصص الثلاث الواردة في سورة الحاقة دعامة يرتكز عليها المعنى ويقوم بها فهي مركز الكلام وحلقة الوصل بين طرفيه يقول : "واعلم أنه تعالى لما حكى هذه القصص الثلاث ونبه بها عن ثبوت القدرة والحكمة للصانع فحينئذ ثبت بثبوت القدرة إمكان القيامة ، وثبت بثبوت الحكمة إمكان وقوع القيامة ، ولما ثبت ذلك شرع سبحانه في تفاصيل أحوال القيامة "[4] .

فالسورة بدأت بذكر يوم القيامة ووصف أحوالها ثم ختمت بتفاصيل هذه الأحوال

---

(١) " السابق " ٢٨٦/٦ .

(٢) السابق ، ٣٨٢/٦ .

(٣) " التفسير " ، ٣٩/٩ .

(٤) السابق ، ٦٢٤/١٠ .

ومقدمتها ، وتوسطت القصص بين المعنيين وهذا التوسط لفائدة وهي إثبات قدرة الله تعالى وحكمته فإذا تقرر هذا المعنى تأكد إمكانية وقوع القيامة وحسن بعدها ذكر التفاصيل ، فتفاصيل أحوال القيامة لا يتمكن إلا بعد ثبوت إمكانية وقوعها .

وتارة تأتي لتقرير معان ذهنية فتكون أشبه بضرب الأمثال كما في قصة عاد في سورة الأحقاف ، فـ " لما أورد الدلائل على إثبات التوحيدوالنبوة وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها أعرضوا عنها ... فلما كان الأمر كذلك بين أن قوم عاد كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاها منهم ، ثم إن الله سلط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم فذكر الله تعالى هذه القصة ههنا ليعتبر بها أهل مكة فيتركوا الاغترار بما وجدوه في الدنيا ويقبلوا على طلب الدين ، وهو مناسب لما تقدم لأن من أراد تقبيح طريقه عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال " [1] .

واعتبار المقاصد في دراسة الحكاية لفت إلى أسرار التصرفات التي تختلف بحسبها القصة الواحدة فكل سورة لها مقصد محدد وهدف خاص ، فـ " تتأثر في ألفاظها وتراكيبها بروح السورة ، وجوها الخاص ، فيعبر عن المعنى الواحد .. بألفاظ وتراكيب تختلف قليلاً أو كثيراً عن الألفاظ والتراكيب التي عبر عنها في السورة الأخرى "[2] .

وما يتولد عنها من زيادات وتغيرات في دلالة الكلام يسمى بالمعاني الخادمة فهي ليست المقصود الأصلي ولكن من مكملاته ومتمماته [3] .

فالقصة تذكر ثم تعاد في سورة أخرى وليس ذلك من التكرار وإنما لأن " القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ، ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش ، فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء

---

(١) " السابق " ٢٤/١ .

(٢)" التناسب البياني " أبو زيد ١٧١ .

(٣)" الموافقات " الشاطبي ١٠٦/٢ .

والإيحاش كان حاصلاً في زمان نوح ، إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر ، فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً عن الفائدة " [1] .

فأختلف المعنى باختلاف المساق فالأولى كانت في حال تكذيب الكفار واستعجالهم للعذاب والثانية في حال مبالغتهم في إيذائه وإيحاشه عليه السلام . فاختلف وجه الانتفاع بها باختلاف مقصد السورة .

وقصة آدم ذكر أنها تكررت في القرآن في ست سور في كل لها معنى بحسب مغزى السورة والغرض فيها ، ونبه على تصريفها باعتبار المقاصد وما يتولد عن هذا الاعتبار من توجيهات مختلفة تنزع بالحكاية إلى تقرير مضامين السورة وتقويتها ، أو يردها إلى آيات محددة تعطي خصوصية للقصة وزيادات تشبع تلك الجمل وتبين عنها .

ففي سورة الحجر يربطها بما قبلها ويفرعها على " ذكر حدوث الإنسان الأول ، واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس أبي وتمرد " [2] .

وأما سورة ص فالقصة مقطع مستأنف يستقل بالفائدة في وجه ويرتد إلى مغزى ما قبلها ليقرره . يقول فيها : " المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس ، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمد عليه السلام بسبب الحسد والكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإضرار والتقليد " [3] .

فخصوصية المعنى جاءت من الزيادة في تصريف الحكاية فأشبع القول في أنفة إبليس من السجود لآدم والتصريح باستكباره والتقرير عليه بالاستفهام ثم تصريح إبليس بالمانع له من

---

(١) ينظر السابق ١٠٦/٢ .

(٢)" التفسير " الرازي ١٣٩/٧ .

(٣) السابق ٤٠٩/٩ .

السجود فعمود القصة ومدارها بيان المانع من السجود ليصير مرغباً للمكلفين في النظر والاجتهاد ومانعاً من التقليد . بينما أوجزه في الحجر ودل عليه بقوله " أبى " .

وفي سورة الإسراء يوزع القصة على دلالات مختلفة في السورة ويعلق نظمها بها ذكر في قوله : " في كيفية النظم وجوه : الأول : أعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه بين أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك . ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم ، ثم إنه كان في محنة شديدة من إبليس . الثاني : أن القوم إنما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد ، أما الكبر فلأن تكبيرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية ، فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من الإيمان والدخول في الكفر ، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق . والثالث : أنه تعالى لما وصفهم بقوله " فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً " بين ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس " لأحتنكن ذريته إلا قليل " فلأجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم فهذا هو الكلام في كيفية النظم " [1] .

وفي الوجه الثالث يجعلها منجرة من تحت فاصلة الآية قبلها فتمكنت فيها تمكن السبب من المسبب ، فجعل عمود القصة ومقصودها قوله " لأحتنكن ذريته إلا قليلاً " .

وكذلك في سورة طه سدت مداخل متعددة في الآية السابقة لها فهي تجري في أبنية تلك الجمل وتداخل بيانها قال فيها : " اعلم أن هذا هي المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن : أولها في سورة البقرة ثم في الأعراف ثم في الحجر ثم في الإسراء ثم في الكهف ، ثم ههنا . واعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه أحدها : أنه تعالى لما قال : "كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق " ثم إنه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة إنجازاً للوعد في قوله " كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق " ثانيها : أنه لما قال : " وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً " أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال : " إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فإنا قد عهدنا إلى

---

(١) " التفسير " ٣٦٥/٧ .

آدم من قبل أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا : " إن هذا عدو لك ولزوجك " ثم إنه مع ذلك نسى وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم . وثالث٣ها : أنه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : " وقل رب زدني علماً " ذكر بعد قصة آدم عليه السلام فإنه بعدما عهد الله إليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي ، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية على التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان . ورابعها : أن محمد صلى الله عليه وسلم لما قيل له " ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه " دل على أنه كان في الجد في أمر الدين ولم يتحفظ حتى نسى فوصف الأول بالتفريط والآخر بالإفراط ليعلم أن البشر لا ينفك عن نوع زلة . وخامسها : أن محمد صلى الله عليه وسلم لما قيل له " و لا تعجل " ضاق قلبه وقال في نفسه : لولا أني أقدمت على ما لا ينبغي وإلا لما نهيت عنه فقيل له : إن كنت فعلت ما نهيت عنه فإنما فعلته حصاً منك على العبادة ، وحفظاً لآداء الوحي وأن أباك أقدم على ما لا ينبغي للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره " [1] .

وحينما يأتي إلى تحليل المقطع الأخير من القصة يقوي تعلقها وتفرعها عن قوله " ولا تعجل بالقرآن من أن يقضى إليك وحيه " فتكون " هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره " [2] .

فكل سورة تذكر من القصة ما يتلاءم مع مغزاها كما في قصة موسى عليه السلام ، في قوله تعالى : [illegible]

(١) " التفسير " ١٠٥/٨ .

(٢) السابق ١٠٧/٨ .

▫♦⑨🖂✍□❷⇗☼♦🕓♑←⇗🏴‍☠️✍♦⑨⇳✍❷❸C✂ ⇗🖄🏴‍☠️⇖ ↑ [1] فاكتفى بأحداث معينة من القصة " فذكر حاشيتها أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني التزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم " [2]

فهذه الدراسة توجه النظر إلى ما في بناء الكلام من إحكام وتماسك ووصل حلقاته المتفرعة لتصبح كياناً متفقاً لاختلاف فيه ولاتباعد ولا تدابر وإنما يصافح المعنى ، فكل غرض يضطلع بوظيفة خاصة ضمن المجموعة ، لذلك كان تتبع توزيع الأغراض داخل السورة هو المدخل لوصف المقصد الكلي لكل سورة .

---

(١) الفرقان ، الآيات : ٣٥-٣٦ .

(٢) " التفسير " ٤٥٩/٨ .

الباب الثاني : التناسب بين السور

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التناسب في ترتيب السور

الفصل الثاني : التناسب بين السور المتشابهة المطالع

الفصل الثالث : التناسب على مستوى السياق العام للقرآن

الفصل الأول

التناسب في ترتيب السور

ويعد هذا الباب من فرائد الإمام التي لم يسبق إليها المفسرون من قبله على الوجه الذي جاء عليه الباب في تفسيره وإنما هداه بيان القرآن إلى هذا اللون من التناسب المعجز بين السور المتتالية ، ومكان كل سورة من السورة السابقة لها ، وما بينهما من وشائج تنظم السورة في بيان ما قبلها وتدل على حسن تجاورها وصحة ترتيبها عليها وأنه ليس بالإمكان وضع غيرهما موضعها . وقد تخلل التراث الذي بين يديه نصوصاً تحمل مضامين تومي إلى ما في الباب من خصب وسعة لكنها ظلت ساكنة حتى ضرب الرازي في مجهولها وفتح غيبها بملاحظة عملها في بعض سور القرآن الكريم فكان دليلاً على صحتها وتعميقاً لأصولها فتجاوز بها مستوى الفكرة إلى مساحات أرحب وأغزر في العطاء فمن ذلك ما ذكره الزمخشري في فضل تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً : " التفصيل يسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم إلى غير ذلك من الفوائد " [1] .

هذا النص يؤكد أن القرآن كلام واحد يتصل بعضه ببعض وأن البسملة الفاصلة بين كل سورة وأخرى ليست حائلاً دون التقاء المعاني بل هي حافز على ملاحظة وجوه الاتصال بين أغراض السور وما بينها من تشاكل وائتلاف ؛ لأن النفس تنشط إذا كان الكلامان مختلفين لعقد الائتلاف وتتبع التشابه وتأنس بذلك الالتقاء أكثر منها لو كان كلاماً واحداً .

وقد تتبع الإمام الرازي نبع كل سورة في بيان ما قبلها وكيف تولدت منها ونتجت عنها. ولما كان هذا النوع من الإبانة لا تتصوره العقول في كلام البشر ولا تدركه الأفهام في القرآن إلا بعد المحاولة والمزاولة ، لم يظهر بصورة مكتملة إلا في الأجزاء الأخيرة من التفسير بعد أن كان تنبيهات وومضات خاطفة هيأت للتأصيل له فيما بعد بأصول محكمة ومعايير ثابتة قوية ، وآثار هذا اللون وابتدأه في نفسه حديثه عن الاختلاف بين العلماء حول سورة التوبة والأنفال في كونهما سورة واحدة أو أن كلاً منهما سورة مستقلة بذاتها ، فذكر ما قيل في ذلك من وجوه وكان منها ما يتعلق بما بين معانيها من تداخل وتعالق ، يقول في ذلك : " ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً وأن يكون منقطعين عن الكفار

---

(١)" البرهان " الزركشي ١/٣٣٤-٣٣٥ .

بالكلية ، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى في قوله : " براءة من الله ورسوله " فلما كان هذا عين ذلك الكلام وتأكيداً له وتقريراً له ، لزم وقوع الفاصل بينهما ، فكان إيقاع الفاصل بينهما تنبيهاً على كونهما سورتين متغايرتين ، وترك كتب بسم الله الرحمن الرحيم بينهما تنبيهاً على أن هذا المعنى هو عين ذلك المعنى " [1] .

وزاد في موضع آخر بيان الخصوصية التي نزعت بسورة التوبة إلى الاستقلال فهي وإن التقت مع الأنفال في جانب إلا أنها بيان مقابل لما جاء فيها ، فالأنفال بيان لموالاة الله للمؤمنين وخطاب منه سبحانه بإيجاب أن يوالي المسلمون بعضهم بعضاً ونبهت بفحوى الخطاب على أنه يجب عليهم التبرؤ من الكفار . أما التوبة فقد اختلفت جهة الخطاب فجاءت إخباراً بأن الله يتولى المؤمنين ويتبرأ من المشركين تحذيراً منه عز وجل وبنى على هذا البيان ذكر التوبة المزيلة لهذا الإثم يقول في ذلك : " والمقصود أنه تعالى أمر في آخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالي بعضهم بعضاً ونبه به على أنه يجب عليهم أن لا يوالوا الكفار وأن يتبرؤا منهم ، فههنا بين أنه كما يتولى المؤمنين فهو يتبرأ عن المشركين ويلعنهم ، وكذلك الرسول ، ولذلك اتبعه بذكر التوبة المزيلة للبراءة " [2] . فاختلاف الخطابين نحا بالكلام نحو الاستقلال وأعطى له سمتاً خاصاً مكن لإنفراده عن سلك سابقه وإن كان موصولاً به متسقاً معه .

وفي موضع ثان لفت إلى السرِّ البياني في تقديم سورة الإسراء على الكهف وحسن الترتيب فيها فأنجر القول إلى ذكر التناسب ين مقاصد السورتين يقول : " ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد – صلى الله عليه وسلم – فقال : " سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً" وذكر التحميد عندما قال أنه أنزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم فقال : "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب " .... التسبيح أول الأمر لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره ، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملاً في ذاته ونهاية الأمر كونه مكملاً لغيره فلا جرم وقع الابتداء بقولنا

---

(١) " التفسير " ، ٥٢٢/٥ .

(٢) " السابق " ، ٥٢٦/٥ .

"سبحان الله " ثم ذكر بعده " الحمد لله " تنبيهاً على أن التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية . إذا عرفت هذا فنقول : ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله " [1] .

وفي سوى هذين الموضعين تختفي الإشارة إلى التعالق بين السور بعضها ببعض ولا تظهر إلا عند عناصر يحتاج فهمها إلى استحضار ما قبلها للكشف عن نواحي الإجمال فيها ، كما في بيان المراد من لفظة " الضالين " في سورة الفاتحة فيتجاوز المعنى الوضعي بإجرائها في سياق نظائرها في سورة أخرى . فقد تتبع الأصناف الثلاثة الواردة في سورة الفاتحة في سورة البقرة فوجد أنها تحتمل معنى المنافقين " وذلك لأنه تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آيات من أول البقرة ، ثم اتبعه بذكر الكفار وهو قوله : " إن الذين كفروا " ثم اتبعه بذكر المنافقين وهو قوله : " ومن الناس من يقول آمنا " فكذا ههنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله : " أنعمت عليهم " ثم اتبعه بذكر الكفار وهو قوله " غير المغضوب عليهم " ثم اتبعه بذكر المنافقين وهو قوله : " ولا الضالين " " [2] . فحمل الإجمال في بعض ألفاظ سورة الفاتحة على السورة التالية لها وفصل دلالتها بردها إليها .

وأيضاً وقوفه عند تقديم السؤال عن الكيفية في سورة طه يقول : " حكى عنه في هذه السورة أنه قال : " فمن ربكما يا موسى " وقال في سورة الشعراء " وما رب العالمين " فالسؤال ههنا بمن وهو عن الكيفية وفي سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والأقرب أن يقال سؤال من كان مقدماً على سؤال ما لأنه كان يقول إني أنا الله والرب فقال : فمن ربكما . فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل إلى المقام الثاني وهو طلب الماهية وهذا أيضاً مما ينبه على أنه كان عالماً بالله لأنه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر " [3] .

---

(١) " التفسير " ٤٢١/٧ .

(٢) السابق ٢٢٣/١ .

(٣) " التفسير " ، ٥٧/٨ .

فتقديم السؤال بـ " من " اقتضاه حال فرعون ابتداء قبل إقامة البينة فجاء السؤال عن الكيفية ، فلما تمكن في نفسه قوة دلائل موسى ولم يستطيع منازعته حاول تعجيزه بما لا يحيط بعلمه البشر سأله عن الماهية . فالتقديم والتأخير يلتفت إليه في الجملة الواحدة أما ملاحظته فيما بين كلام متباعد فيندر التنبه إلى ما يترتب عليه من معان . وكأن الخصوصيات التي تدرس في الجملة الواحدة قائمة في نظم القرآن بأكمله فتقدم سورة على أخرى رعاية لتلك الخصوصيات والأحوال .

وبهذا الفقه يكشف عن المدى الذي حازه نظم القرآن حتى أصبح الكتاب على تعدد سورة واختلاف مقاصده كالسورة الواحدة يراعى فيه اتساق العناصر اللغوية وائتلاف الأغراض فلا توضع فيه عبارة إلا باعتبارات تلتئم فيها مع نظائرها في الكتاب .

والرازي يحلل مباني كل سورة في ضوء سابقتها فيلج بالقارئ إلى مسارب مجهولة ومطارح بعيدة امتدت بالدرس البلاغي إلى أفق أرحب من حدود نظم الجملة إلى النظم بمفهومه الأوسع لينتظم جميع ما يصدر عن المتكلم وجعله سياقاً واحداً ونسقاً متفقاً يرد بعضه على بعض .

وأبعد من ذلك رده التغيرات في استعمال الصيغ الصرفية للفظة الواحدة واختلافها في السور المتتالية إلى حسن الترتيب ورعايته فيقدم الأصل في السورة التي هي أصل لما بعدها كما في لفظة " معدودة " فقد ذكر أنها جاءت في البقرة بزنه ثم جاءت في آل عمران بزنة أخرى ، يقول فيها : " ذكر ههنا : " وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة " وفي آل عمران : " إلا أياماً معدودات " ولقائل أن يقول : لم كان الأولى معدودة والثانية معدودات والموصوف في المكانين موصوف واحد وهو " أياماً " ؟ والجواب : أن الاسم إن كان مذكراً فالأصل في صفة جمعه التاء ، يقال : كوز وكيزان مكسورة ... وإن كان مؤنثاً كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء يقال : جرة وجرار مكسورات ... إلا أنه قد يوجد الجميع بالألف والتاء ، فيما واحدة مذكر في بعض الصور نادراً نحو حمام وحمامات ... وعلى هذا ورد في قوله تعالى : " في أيام معدودات " ... فالله تعالى تكلم في سورة البقرة بما هو الأصل وهو قوله " اياماً معدودة " وفي

آل عمران بما هو فرع " [1] .

وعند سورة محمد تتخذ الدراسة مساراً واضحاً وتتحد العلاقة بصورة جلية تتجاوز الاستدعاء في التحليل إلى التدقيق والتفتيش عن روابط واصلة بين السورتين وتدرج في الكشف عن وجود انتساب السور بعضها ببعض ، فذكر بعض الوجوه دون بعض فنبه أولاً على أظهرها وهو التعلق بين أول السورة وآخر السورة التي قبلها فنبه في سورة محمد على هذا الوجه دون أن يذكر ما بين مقاصدهما من تناسب واستمر في ذلك إلى سورة الذاريات وزاد فيها تنبيهاً خفياً على اتصال المقاصد بين السورتين وجاء هذا الوجه عرضاً حيث قال : " أول هذه السورة مناسب لأخر ما قبلها ، وذلك لأنه تعالى لما بين الحشر بدلائله وقال : ↓ ❶♦🕓🐵🖂 ❍🖂📻🙍 ④🖋◆☪🔉⑩■🖬♦↖ ↘❸⇳⌑🖂❍ ◻🏠❷❸➢ ↑ ق٤٤ ، وقال : ↓ ❐◆♦🖋 🕮❐🔓🕘🗎☠🎣🖋❸■🖬♦↖ ❁💣☼❐🕮 🖋🖋♦✎◆❐ ↑ ق ☎ 🐵❻🖋✶⌛◘♍🕘🗎☠🎣🖋❸■🖬♦↖ ❁💣☼❐🕮 🖋🖋♦✎◆❐ ↓ ق ٤٥ ، ... إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليـــهم لم يبق إلا اليـــمين فقـــال : ↓ ❐◆✂🖋🖋♦🕓③🎣❻🕓➹🔔🖋✂✡❐🖋❻♦❶ 🙍💣🕓♦③🎣❻🕓➹🔔🖋✂✡❐🖋❻♦❶ 🙍💣🕓■🖬🙍☺🕓◘♦↘💻🖋🖋♦▫ 🖋✂❁❷↘🔔🎣❐ 🙍💣🕓■🖬🙍☺🕓◘♦↘💻🖋🖋♦▫ 🖋🇬🇧 ✂☪❸⇳❍🡐④ 🙍💣🕓♦③🇬🇧❷🕓◘♍↘💻🖋🖋♦▫ 🖋🇬🇧 ✂☪❸⇳❍🡐④ 🙍💣🕓🖂☺🖎♌❍♦☽←☺↘🐵🖋🖋♦▫ 🖋✂🕐❷↘✎❐🕮 🙍💣🕓🖂☺🖎♌❍♦☽←☺↘🐵🖋🖋♦▫ 🖋🎣 ✂🕐❷↘✎❐🕮 🖋🏛🕇✞🔀☽ 🖋❐🏛🕇✞🔀☽ ↑ 🖎🔀 ➢🖻🙍⑩🖋❁🕓♦🐵♦♌❐←⑨♦↖❐➔✍ " [2] .

فأخر سورة ق استحضر ما انعقد عليه من معان ومقاصد فأشار إليها وقررها ، فالسورة بينت الحشر وأقامت عليه البراهين والأدلة القاطعة للظنون وجاءت الخاتمة " وما أنت عليهم بجبار " لتؤكد إصرارهم على الكفر وتلبيس ما لا يلتبس ، ثم جاءت الذاريات تكميلاً للاحتجاج وتقريراً له باليمين بعد البرهان . وكأن هذه الإلماحة فتحت للإمام نافذة على علاقات المقاصد بين السور ، فتتبعها فيما بعد بين السور المتتابعة ونبه على المعاني الكلية الناظمة لما تجاور فنجد في سورة الطور يذكر أن وجه المناسبة بينها وبين ما قبلها أي

---

(١) " التفسير " ، ٥٦٧/١ .

(٢) السابق ١٥٩/١٠ .

الذاريات .. " من حيث الافتتاح وبيان الحشر فيهما " [1] .

ثم أخذت المناسبات من سورة الرحمن تتخذ عمقاً وبعداً تجاوز المعنى الكلي إلى مضامين تدق وتخفى مما استلزم معه التفتيش في عناصر السورة السابقة وجس زواياها ومكاشفة بواطنها للكشف عن العلاقات والنسب المؤلفة بين ما اختلف من السورتين والمنبه على سبب تجاورهما واقترانهما ولما وقعت تلك السورة تالية لما قبلها وبهذا الوعي تعمق هذا المبحث وقويت أركانه لأنه يستند على أسس ومعايير ملموسة يشار إليها فقد ذكر أن المناسبة بين سورة الرحمن والقمر من وجهين : " أحدهما :أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر .. وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم .. ، ثانيهما : أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة : " فكيف كان عذابي ونذر " غير مرة ، وذكر في السورة " فبأي آلاء ربكما تكذبان " مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة ، وهذه سورة إظهار الرحمة " [2] .

فهو يجعل سورة الرحمن معنى مقابلاً لما جاء في سورة القمر ، فالقمر مدارها على إثبات معجزة تدل على الهيبة والجبروت فجاءت آيات الرحمن بمعنى مقابل لذلك وهو إثبات الدلائل بذكر معجزة تدل على الرحمة فهما معنيان يقرران غرضاً كلياً يتجاذبانه تارة بالوعيد وأخرى بالوعد وهذا منهج عام في ترتيب آيات القرآن فحيثما ذكر الوعيد أردفه بالوعد ، فامتد بها إلى ما بين السورتين ، فقارب بذلك بينهما وبعث التناسب بين أغراضهما بإجرائها على ذلك المنهج في وضع المعاني وترتيبها .

فاستقام له الوصل ووضح ما بينهما من تعالق وتشابه بعد ظاهر يوهم بالاختلاف والتدابر وطفقت الأساليب بعد هذه الوشيجة تلتقي وتتعالق مع عناصر السورة السابقة وتتقاطع معها ، فوجه حذف المفعول الثاني في قوله تعالى : " علم القرآن " بما يلائم المعنى المقابل لسورة القمر يقول فيها : " قوله تعالى " علم القرآن " لابد له من مفعول ثان فما ذلك ؟ نقول الجواب عنه .. علم بمعنى جعله علامة أي هو علامة النبوة ومعجزة وهذا يناسب قوله تعالى : " وانشق

---

(١)السابق ١٠/١٩٨ .

(٢) " التفسير " ١٠/٣٣٥ .

القمر " على ما بينا أنه ذكر في أول تلك السورة معجزة من باب الهيئة وهو أنه شق ما لا يشقه أحد غيره ، وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة ، وهو أنه نشر من العلوم ما لا ينشره غيره ، وهو ما في القرآن " [1] .

وأيضاً تغير الإسناد في قوله : " فبأي آلاء ربكما تكذبان " ونزوعه عن التكلم الذي غلِّب في سورة القمر فـ " قال : " كذبت ثمود بالنذر " و " كذبت قوم لوط بالنذر " وقال :"كذبوا بآياتنا " وقال : " فأخذناهم " وقال : " كيف كان عذابي ونذر " كلها بالاستناد إلى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى أعظم من أن يخشى فلو قال : أخذهم القادر أو المهلك لما كان في التعظيم مثل قوله: " فأخذناهم .... وهذا كما أن المشهور بالقوة يقول أنا الذي تعرفني فيكون في إثبات الوعيد فوق قوله : أنا المعذب ، فلما كان الإسناد إلى النفس مستعملاً في تلك السورة عند الإهلاك والتعذيب ذكر في هذه السورة عند باب الرحمة لفظ يزيل الهيبة وهو لفظ الرب ، فكأنه تعالى قال : فبأي آلاء ربكما تكذبان وهو رباكما"[2].

وبهذا يقوي الإمام ما ابتدأه حول ترتيب سورة الرحمن على ما قبلها واقترانها بها من خلال أثر التقابل على مكونات السورة وملاحظة ما يعتري أساليبها من توجيهات أفادتها من عطفها على سابقتها وهو ملحظ دقيق في تحليل أساليب السور المتلاحقة .

وقد فتح للرازي هذا الباب ولعه الشديد بالتفيش عن علائق الائتلاف الوادعة في قوالب الكلم ، وملاحظة منازل بعضها من بعض ، فتتبع قنواتها فيما بين سور القرآن ومنزلة كل سورة ومكانها من سابقتها ، ثم تجاوز ذلك في بعض المواضع إلى الكشف عن المناسبة في كل ما تفرع عن منظومة القرآن وأنسل بيانه من بيانه ، كما نجد في تحليله لدلالات الذكر المشهور " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " وتفصيل معانيه ، وتصوير النمو الدلالي الذي تكتنزه هذه المفردات بردها إلى أصولها في القرآن فحركها نحو البيان المتنامي فترتيب مفردات الذكر متفرع عن مراتب الأسماء الخمسة الواردة في سورة الفاتحة يقول في ذلك : "فقولنا : الله مبدأ لقولنا سبحان الله ، وقولنا : رب مبدأ لقولنا الحمد لله ، وقولنا : الرحمن

---

(١) السابق ٣٣٧/١٠ .

(٢) " التفسير " ٣٤٧/١٠ .

مبدأ لقولنا لا إله إلا الله ، فإن قولنا : لا إله إلا الله إنما يليق بمن يحصل له القدرة وكمال الرحمة وذلك هو الرحمن . وقولنا الرحيم : مبدأ لقولنا الله أكبر ومعناه أنه أكبر من أن لا يرحم عباده الضعفاء . وقولنا : مالك يوم الدين مبدأ لقولنا لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لأن الملك والمالك هو الذي لا يقدر عبيده على أن يعملوا شيئاً على خلاف إرادته والله أعلم " [1] .

فكأن هذه الأذكار حادثة عن هذه الأسماء ومتدفقة من تحت بيانها ، فالله استلزم تعظيمه وتنزيهه بالتسبيح والرب اقتضى حمداً للإنعام والتربية فكان التحميد وهكذا في جميع ما ذكر يتمكن الذكر بترتيبه وتفريعه على تلك الأسماء . وقد أحسن الإمام حينما جعل الأسماء في سورة الفاتحة مبادئ وأصولاً شكلت مفردات الذكر وقوت دلالته وضاعفت بيانه، ونبهت على حسن تجاورها وانتظامها فنقلتها من كونها سرد ألفاظ إلى بيان متكامل .

وبذلك أبعد الشأو وتجاوز مساحة الجدل والخلاف حول كون الترتيب توقيفاً أو اجتهاداً"[2] إلى ما يؤول إليه النظر والفحص لأسرار الترتيب والاقتران بين السور فمتى تكاثرت الدقائق ولطفت النكات دلَّ على أن وراء ذلك إعجازاً إلهياً لا يصل إليه اجتهاد المجتهدين في إدراك الوشائج الخفية في لحمة السور فلا يند موضع سورة في منظومة ما قبلها ؛ لذلك لم يكتف بتحقيق التشابه بأي وجه من الوجوه الظاهرة كاشتتراكهما في مكان النزول أو تجانسهما في الأغراض العامة وإنما توغل في عمق المقاصد وعني بما خلف الكلام من تشابه وإئتلاف وفحص لمعاني القرآن وأصوله ثم تتبع ذلك تحت كل لفظة وعبارة لأن " القرآن كله كالسورة الواحدة و الآية الواحدة يصدق بعضه بعضاً ويبين بعضه معنى بعض " [3] فكشف بهذا عن التآخي بين سور القرآن وانتساب بعضه إلى بعض ورد كل سورة إلى أصولها في سابقتها فالسورة تجري فيها مقاصد ما قبلها وتندس في أغراضها وتمتزج بها وتداخل معانيها فهي بناء على ما قبلها وبيان لها .

---

(١) " التفسير " ٢٤٣/١ .

(٢) ينظر : " البرهان " الزركشي ، ٦٤/١ .

(٣) " التفسير " ٢٩٥/١١ .

وغاية هذا الفصل تكمن في معرفة نهج الرازي وتحليله للتناسب في ترتيب السور ووجه تعلق كل سورة بسابقتها ، وغالباً ما ينيطها بالمقاصد فينبه على مجرى السورة في محيط ما قبلها والمسارات الدلالية السابقة التي ترفدها وتصب فيها ، وتشكلت دراسته للعلاقات في ثلاثة مستويات هي كالآتي :

١. تعلق أول السورة بآخر التي قبلها .

٢. تعلق مقاصد السورة بمقاصد السورة السابقة .

٣. تعلق السورة بأكثر من سورة .

وسنقف عد كل مستوى بالتحليل والاستشهاد .

أولاً : تناسب أول السورة مع أخر ما قبلها :

وهذا الضرب أكد فيه الإمام على أن التناسب بين السور تضبطه علاقات محكمة ، وأن الالتقاء عند المقاصد لا يعني الانفصال التام بين نظم الجمل وإنما يتحدر الكلام ويظل متصلاً يبني بعضه على بعض ، فإذا قدمت سورة على أخرى اختل النظام وفسد الكلام ، نبه على ذلك قبله ابن الأنباري حيث قال : " فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي –صلى الله عليه وسلم – ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات " [1] .

وتأمل قوله : " فقد أفسد نظم الآيات " ولم يقل أفسد نظم القرآن لأن المعتبر عنده أن رأس كل سورة متعلق بفاصلة خاتمة ما قبلها ، فإذا وضعت سورة أخرى مكانها اختل النظام وعريت عن الفائدة التي توشتها بحسن تجاورها مع ما قبلها وذلك لأن آخر كل سورة يحمل تنبيهات تحيل إلى مقاصد تبنى وتركب عليها السورة التالية ومتى وضعنا غيرها مكانها بترنا تلك التنبيهات وأصبحت فجوة بين بيانها وبيان ما قبلها ، فكل سورة تحمل أمشاجاً من سابقتها تتداخل مع مكوناتها وإن صورها النظم بهيئة جديدة وصورة أخرى إلا أنه تظل هناك قسمات وملامح تنسبها إلى أصولها وتنادي على ما بينهما من تشابه وتقارب . وأحياناً تكون الصلة ظاهرة وذلك بتكرار ألفاظ من مقطع السورة في مطلع ما بعدها وهذا قريب لم يقف عنده

---

(١)" البرهان " الزركشي ٣٢٩/١ .

الإمام إلا في سور معدودة ذكر ذلك في تحليله لسورة الطور حيث قال فيها : " وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها ، لأن في آخرها قوله تعالى : ↓ ▫⬩❑◆③⬀⬃⋞ ⧫×⇦⧰⍝⮝⬼⧰ℯ𝓇⍝ ⊡⬼❐⇖❷☒⊞•▤ ⌶⧰✌ ⍝⇖☠⧰♑⧰✌⬀❑⧫③ ⬼⟿✎⮝⍝⧰❽ ③⇖❑⇖⧫⑨⇐❐♌⧫ ⬀☞⧰⬁ ↑ الذاريات ٦٠ ، وهذه السورة في أولها ↓ ▫⬩❑◆③⬀⋞ ③⧫❑⬀✌⧫⟐⧰❶▦ ⍝ℯ𝓇⧰⍰▫☺⬇▤⬩❶ℯ𝓇☞⍈⧰✓×⧫ ⬀☞⬂⬂⬁ ↑ الطور١١ ، وفي آخر تلك قال : ↓ ▫⬩☒⧰♌❐ ⍝⧰⬼⮝⍝⧰⇦×⧫ ⬅⬩☐⬩❐☺⬅❑⬼☎ ❶⬩☼⬅❑⍰ॐ⟿ ✌♓⧰⬅⬃⬩ ❶⬩☼⬅❑⊗☞ ⌧⧰⬀☞ ↑ ⬀♌❐➔⬃⬀⬏☞➔⧫✌⇔○☐④ ▫⬩☒•⬩ ⬀☠⊘ℰ⬀⊟⏲❑⧫⬂⏲❐🕮 الذاريات ٥٩ ، إشارة إلى العذاب وقال ههنا : ↓ ⬿⧰♌☐ ⇖⧫❶☒⬼⊗⌘ ❻⧫⟐⍰■⧰⊡⌨◻ ⍝⬩❑⧫⏲⍝⧰⬈⊘ ⬀⊘☞ ↑ الطور ٧ "[1] .

وأيضاً مطلع سورة القمر " مناسب لآخر ما قبلها ، وهو قوله : " أزفت الأزفة " فكانه أعاد ذلك مع الدليل ، وقال قلت : أزفت الأزفة ، وهو حق ، إذا انشق القمر "[2] .

فكأن ما بين قوله : " أزفت الأزفة " و " اقتربت الساعة " استطراد أستأنف بعده الكلام لإشباع ذلك المعنى وتحقيقه مع الدليل .

وأكثر ما عني به التأمل في أحوال الكلام ، فيتدبر جملة المطلع يبحث فيها عن نميمة تشي بمعان تلتقي فيها مع مقطع سابقتها ، أو عن جهة جامعة بينهما وما أنداح فيهما من معان تشربتها من تلك الجملة فـ " يحدد الخيط الرفيع الغائر في ضمير الكلام ، فيجمع أوله وآخره ، وهل انخرط في هذا الخيط حبات من أجناس متباعدة وهل وقع هذا البعيد في سياقه موقع القريب المأنوس فقبله السياق وتشربه النص "[3] . فضبط بهذا صلات الجمل في سياقاتها المتباعدة برد كل جملة إلى أصلها وجذرها المتفرعة عنه ، والتنبيه على موقعها في بيان ما قبلها سواء بطريق العبارة أو الفحوى واللزوم .

فمطلع سورة محمد – صلى الله عليه وسلم – ↓ ⬼⟿✎⮝⍝⧰⇦×⧫ ⧫☒⊞☒❷⇖❐⬼☎ ❐⧫⬀⊕❾❻❐⬼☎ ⇖⧫⌶ ⬀❶⬩⍰⊠⬩❶⬀⬀ ⬼⟿✎★

---

(١) " التفسير " ١٩٨/١٠ .

(٢) السابق ، ٢٨٨/١٠ ، وينظر : ٢٣١/١٠ .

(٣)" دلالات التراكيب " د . محمد أبو موسى ، ٢٦٨ .

📖❒➷✿✍□ 📖❒⇙⏍◆🕐🖬■♑←☠⬀ ✍➷⛴ ↑ : " مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن أخرها قوله تعالى : ↓ 🗐 ▫♦♑⊡✍⬀ ③⬉♑⇳🖬■🖮→ ➂⤬◆· ✂︎⌢︎⦾⌢︎⌒︎♦❒⬀⬁⬉ ✂︎⌢︎⦾⌢︎▦☒🕐○⬁➂→❒♌♦ ✍⤬▩⛴ ↑ " (1) فإن قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك ؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله ، وقال تعالى : " الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم " أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك " (2) .

فالعموم في جملة " هل يهلك إلا القوم الفاسقون " أثار في النفس وسوسة خفية و هاجساً ملحاً حول مصير حسنات الفاسق وما حال صالح الأعمال التي كان يعمل من إطعام وصلة وسكتت السورة عند هذا المقطع الحافل بالهواجس المليء بالتوقعات فجاءت السورة التالية لها مركبة على دلالتها ومترتبة على بيانها ، وأعني بتركيبها على دلالة ما قبلها كونها جواباً على تساؤل همست به الجملة السابقة ، وبياناً لمصير أعمالهم وأنها إلى الضلال والخسران ، وأما كونها ترتيباً على بيانها فمجيئها بعد الاستفهام تحقيقاً في صورة ما وقع وأنقضى أمره .

فبناء جملة الافتتاح في سورة محمد جاء متسقاً مع مقطع الأحقاف داخلاً في نسيجه متحدراً من لغته ، وقد نبه على ذلك الإمام في قوله : " أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك " ، فالإمام يدخل عدم امتناع الإهلاك في حيز جملة الافتتاح وهو معنى جرى في محيط السورة السابقة ، فلم يجعل " الذين كفروا .. " إخباراً مقطوعاً عن ما همّ به الاستفهام وإنما هي إشباع لحاجة الهاجس النفسي في مقطع الأحقاف .

وأحياناً تتضمن الخاتمة قضايا كلية فتأتي جملة الافتتاح في السورة التالية بمعنى جزئي يقع موقع الاستدلال على ذلك المعنى الكلي كما في تحليله للمناسبة بين أول الطلاق وآخر التغابن يقول فيها : " فلأنه تعالى أشار في آخر تلك السورة إلى كمال علمه بقوله " عالم الغيب" وفي أول هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء والأحكام المخصوصة بطلاقهن ،

---

(1) الأحقاف ، آية : ٣٥ .

(2) " التفسير " ٣٢/١٠ .

فكأنه بين ذلك الكلي بهذه الجزئيات " [1] .

وقد زاد عليه الغرناطي بيان سبب تخصيص ذلك الكلي بأحكام النساء دون غيرها مما هو داخل في محيط كمال علمه – سبحانه – وذلك لأنه " لما ختمت التغابن بأنه تعالى شكور حليم عزيز حكيم مع تمام العلم وشمول القدرة ، بعد التحذير من النساء بالعداوة ، وكانت العداوة تجر إلى الفراق افتتح هذه بذم الأنفس عند ثوران الحظوظ بزمام التقوى " [2] .

وأخرى يكون أول السورة تفصيلاً وإشباعاً لآخر ما قبلها كما في سورة الرحمن ، يقول في ذلك : " أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها حيث قال في آخر تلك السورة " عند مليك مقتدر " ، والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة وقال ههنا " الرحمن " أي عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار ، رحمن منعم غافر للأبرار " [3] .

فالملك في آخر القمر يكتنفه أجواء السياق وما فيها من دلالة الجبروت والانتقام لأن قوله "مقتدر " قيدت دلالته مما يداخلها من معان أخرى فجرد دلالتها بما يناسب مقصد السورة وهو إظهار الهيبة " لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المقترب منه أشد ألتذاذاً وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك ، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه ، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه ، والله تعالى " مقتدر " لا يقرب أحد إلا بفضله " [4] .

وكمال الملك لا يكون إلا مع الفضل والإنعام فجاءت سورة الرحمن مكملة لذلك ، وكان اختيار اسم " الرحمن " تهيئةً وتلطفاً في الانتقال من جو سورة القمر وما فيه من المبالغة في الوعيد بذكر آياته الدالة على جبروته وعظيم اقتداره إلى سياق الإنعام والرحمة فأزال بذلك التباعد والتنافر فقرر معاني الهيبة وجسر لمعاني الرحمة .

بينما يجعل البقاعي سورة الرحمن تجاذب مقطعين من آخر القمر وأن ما فيها من معان

---

(١) " التفسير " ٥٥٨/١٠ .

(٢) " البرهان في ترتيب سور القرآن " ص ٣٣٩

(٣) " التفسير " ٣٣٥/١٠ .

(٤) السابق ٣٣٤/١٠ .

تفصيل وتفريع وتحليل لهما بقول : " ولما ختم سبحانه القمر بتعظيم الملك وبليغ القدرة ، وكان الملك القادر لا يكمل إلا بالرحمة ، وكانت الرحمة لا تتم إلا بعمومها قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين وذلك من آثار الملك ، وفصل فيها ما أجمل في أخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة " [1] .

وتأمل قوله : " وذلك من آثار " وكأني بالبقاعي يقتص آثار معاني القمر في بناء بيان سورة الرحمن وكيف تشكل منها وانشعب من محيطها . فنبه على ما بين السورتين من قبض وبسط ووضع لفتات نافذة وصل فيها الفروع بالأصول وحدد أقسام سورة الرحمن وردها إلى نظائرها في مقطع القمر فكأن الرحمن نشر لما لف وطوى من معان في تلك الجملة .

وهذا المسلك ابتدأه الإمام الرازي في توجيه العلاقة بين أول الزلزلة وآخر البينة حيث ذكر: " أنه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر ، فقال : أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره : ما للأرض تزلزل ، نظيره قوله : " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه " ثم ذكر الطائفتين فقال : ﴿ ﴾ [2] ﴿ ﴾ ، ثم [3] جمع بينهما في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر " [4] .

فسورة البينة أجملت وعيد الكافر في قوله تعالى : ﴿ ﴾

---

(١) " نظم الدرر " ٣٧١/٧ .

(٢) آل عمران ١٠٦ .

(٣) آل عمران ١٠٧ .

(٤) " التفسير " ٢٥٣/١١ .

[illegible] . وفصلت جزاء المؤمن ثم كرت الزلزلة على ما أجملته البينة فنشرته وفصلته ثم جمعت ما تفرق بين سورتي البينة وأول الزلزلة لتلتقي حلقتا الكلام عند هذا المقطع [illegible] " .

واللف والنشر ضرب من ضروب بناء العبارة وتنظيم معانيها والتنظيم فيه يترك جانباً منه ليقظة النفس وقرائن الكلام [١] ، هذا فيما بين العبارة ا لواحدة لأن المعاني تتوزع في مساحة محدودة بين طرفي الجملة أما فيما بين السور فإن المعاني تختلف صورتها بالتفصيل والتفسير فيكون ردها إلى مباديها وجذورها فيه شوب غموض وخفاء فيتطلب ذلك يقظة حس وزياة تأمل للعناصر وتحديد المشترك منه ورده إلى نظيره المجمل .

وأحياناً يأتي افتتاح السورة بصريح معان تضمنتها السورة السابقة فيكون كالمؤكد لها كما في وجه تعلق سورة لقمان بسورة الروم ، فـ " وجه ارتباط أول هذه السورة بأخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال : [illegible] [٢] إشارة إلى كونه معجزة ، وقال : "ولئن جئتهم بآية " إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله " آلم. تلك الآيات الكتاب الحكيم " ولم يؤمنوا بها ، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله : [illegible] [٣] " [٤]

---

(١)" دراسة في علم البديع " د . محمد أبو موسى ص٣٣ .

(٢) الروم ، آية ٥٨ .

(٣) لقمان ، آية ٧ .

(٤)" التفسير الرازي " ١١٤/٩ .

وسورة المطففين يجعلها معان حامت حولها عبارة الانفطار واستغنت بالتلميح عن التصريح فجاء مفتتح ما بعدها مصرحاً بها وماطلاً لإيحائها ، فالرازي يرتب " ويل للمطففين " على قوله تعالى : " يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله " يقول في وجه تعلقه بها : "اعلم أن اتصال أول هذه السورة بأخر السورة المتقدمة ظاهر ؛ لأنه تعالى بين في آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر كله لله ، وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة ، فلهذا اتبعه بقوله : " ويل للمطففين " والمراد الزجر عن التطفيف وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية " [1] .

فوصف اليوم استلزم تهديداً صرحت به جملة الافتتاح . بينما يجعل الإمام الغرناطي " ويل للمطففين " معنى اقتضاه قوله " وإن عليكم لحافظين ... " لأنه مشعر بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يغادر منها شيئاً فعقبه بذكر التطفيف ومال مرتكبه من الجزاء . [2]

ويتبعه في ذلك السيوطي إلا أنه لا يعلق سورة الانفطار برأس المطففين وافتتاحها بالوعيد وإنما يجعل ما ذكر فيها من حال ما يكتبه الحافظون تفصيلاً لقوله : " وإن عليكم لحافظين.... " فـ " ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحافظون وهو : كتاب مرقوم ، يجعل في عليين أو في سجين ، و... عقب الكتابة إما في يومه أو بعد الموت والبرزج كما في الآثار"[3].

وسورة القارعة يجعلها تحليلاً وتفصيلاً للإجمال في سورة العاديات في قوله تعالى : ↓ ❽❷❶◆❻□ ❽❶❼◆❹❑❹◆❸ ❽❶❼❸❷① ❽❷❶◆❻□ ❽❶❼❸❷① ↑ [4] فهي ابتداء جواب عن سؤال مقدر آثاره ذلك الخطاب ، " فكأنه قيل وما ذلك اليوم . فقيل : هي القارعة " [5] . ويوجه جميع آياتها تجاه هذا المقصد فيتنزل منزلة الجملة من الجملة ، وقد نبه على ذلك في بيان سرّ اختيار التعبير بقوله : " وما أدراك ما هية " دون " وما أدراك ما هاوية " ولم يجيرها على نظم الافتتاح في قوله : " وما أدراك ما

---

(١) السابق ٨٢/١١ .

(٢) " البرهان " ص ٣٥٨ بتصرف .

(٣) " تناسق الدرر ، ١٥٩ .

(٤) العاديات ، آية ١١ .

(٥)" التفسير " الرازي ٢٦٥/١١ .

القارعة " مطابقة لأولها في النظم والمعنى أي المبالغة في التهويل " لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه ، ... كأنه تعالى قال : قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع ، ونار الدنيا في جنب الآخرة كأنها ليست بنار " [1] .

وفي سورة الممتحنة يبني افتتاحها على الصفات القدسية التي ختمت بها الحشر دون أن يذكر سبب توسط جملة الأوصاف بين غرضين متصلين ؛ لأن الحشر في بيان حال النبي مع المتعاهدين من اليهود والنصارى والممتحنة في المتعاهدين من المشركين"[2] وإنما اكتفى بقوله : "لما أن آخر تلك السورة يشتمل على الصفات الحميدة لحضرة الله تعالى من الوحدانية وغيرها ، وأول هذه السورة مشتمل على حرمة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات " [3] .

وخالفه من جاء بعده في نسبة هذه السورة إلى ما قبلها فالغرناطي لا يرتبها على الحشر بل يردها على سورة المجادلة ، ويجعل الحشر معترضة بين النهيين في آخر سورة المجادلة

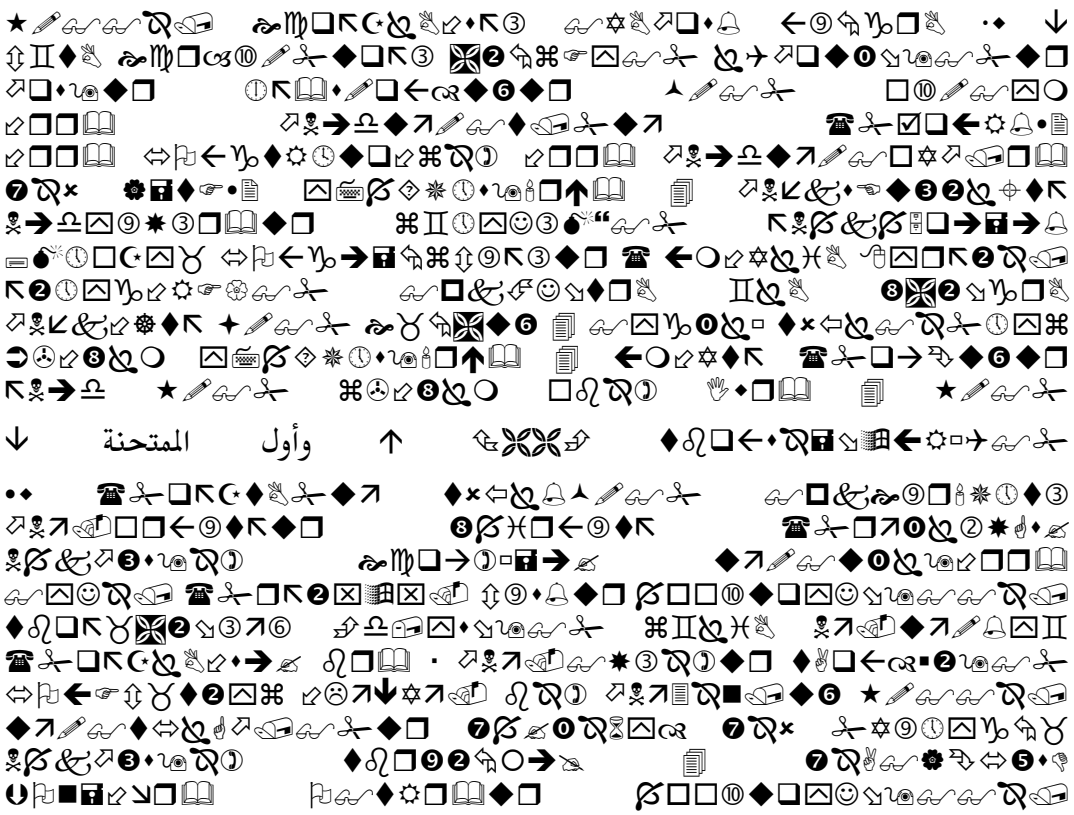

(١) السابق ٢٦٦/١١ .

(٢) ينظر السابق ٥١٥/١٠ .

(٣) السابق نفسه .

لغرض يقول فيه : " وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة، لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم ، اعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم ثم اتبع ذلك ما عجله لهم من النقمة والنكال ، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء حملة له " [1] .

أما السيوطي فيعلقها بمقصد السورة وغرضها العام ويجعلها بسطاً وتفصيلاً لمعنى ذكر في الحشر هو نهي المؤمنين عن موالاة الذين نافقوا الكفار فكررت المتحنة هذا المعنى وبسطته[2].

وتنبه البقاعي إلى دقيقة في كلام الإمام الرازي كشفت له عن خصوصية غرض المتحنة وأن تعلقها بمقاصد ما قبلها ليس بسطاً وتكراراً وإنما لزيادة فائدة لذلك لم يعول الرازي على المقصد وإنما قال : " من جملة ما يتحقق به التعلق " [3] أي أن مضامين السورة تحمل تفاصيل أخرى وتقاسيم جديدة غير التي في سياق الحشر وهذه الخصوصية نبعت من تحت بيان مقطع الحشر والاستطالة في ذكر الصفات المجيدة ، وقد التقط البقاعي هذا الخيط وكشف به عن التناسب بين السور المتتالية وكيف نزعت تلك الصفات بالمعنى وجعلت له سمتاً أخر وشقت مجرى لدلالة أضفاتها في سورة الممتحنة ، يقول : " ولما كان قد تم في المجادلة النهي الشديد عن إظهار مطلق الموادة للكفار ، وفي الحشر الزجر العظيم عن إبطان ذلك فتكلفت السورتان بالمنع من مصاحبة ودهم ظاهراً أو باطناً ، بكت هنا من اتصف بالإيمان وقرعه ووبخه على السعي في موادتهم والتكلف لتحصيلها فإن ذلك قادح في اعتقاد تفرده سبحانه بالعزة والحكمة " [4] .

وفي سورة الجمعة يمكن لتعلق أولها بأخر ما قبلها عن طريق ربط مطلع سورة الصف

---

(١) " البرهان " ص ٣٣٣

(٢) " تناسق الدرر " ١٣٣ .

(٣) " التفسير " ٥١٥/١٠ .

(٤) " نظم الدرر " ٥٤٨/٧ .

بمطلعها يقول فيها " وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة (سبح لله) بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل فقال في أول هذه السورة بلفظ المستقبل ليدل على التسبيح في زماني الحاضر والمستقبل ، وأما تعلق الأول بالآخر ، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا عالين على الكفار ، وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه إذ هو غني على الإطلاق ، ومنزه عما يخطر ببال الجهالة في الآفاق ، وفي أول هذه السورة ما يدل على كونه مقدساً ومنزهاً عما لا يليق بحضرته العالية بالاتفاق ثم إذا كان خلق السموات والأرض بأجمعهم في تسبيح حضرة الله تعالى فله الملك " . [1]

فخاتمة السورة هيأت لمطل دلالة التسبيح في المطلع وحركت الفعل من المضي إلى الاستقبال لتزيل ما في معنى التسبيح من التقييد وتجعله تسبيحاً مطلقاً لا يحده زمن ، والذي أسبغ عليه معنى الاستقبال ما تضمنته الخاتمة من معنى تأبيد الله لأهل الإيمان وإظهارهم على الكفار فاقتضى ذلك التعظيم لشأنه لأنه الغنى على الإطلاق ، واستلزم الإنعام مطلق التنزيه من المنعم عليهم ، وهذا قريب من الوجه الذي ذكره الواحدي في تفسيره للآية حيث قال : " قال أهل المعاني : إنما أعيد ذكر التسبيح في هذه السورة لاستفتاح السورة بتعظيم الله من جهة ما يسبح له كما يستفتح بـ " بسم الله الرحمن الرحيم " وإذا جعل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به " [2] .

فقوله " تعظيم لله من جهة ما يسبح له " هي الوشيجة الممتدة من نسيج خاتمة سورة الصف والباعثة لمعاني ومقاصد سورة الجمعة ، فكأن اختيار صيغة المضارع تصوير لحال تلك الفئة في ثنائها المطلق على الله . وبذلك تكون السورة بناء على مقاصد السورة قبلها وإثارة لمعان في ابنيتها اللغوية . وهذا يحتاج إلى تدسس في تلك الأبنية وتفتيش في خباياها عن ما استكن وأضمر في غيبها فيمتد به ويبعثه نحو الظهور والإبانة في بيان السورة بعدها ، ثم زاد على استحضار المعنى السابق بوصف وجه الزيادة في مطلع الجمعة وتوجيه ذلك نحو المقاصد

---

(١) " التفسير " ٥٣٧/١٠ .

(٢) " الوسيط " ، ٥/

وذلك في قوله " الملك القدوس " وهذا الوصف إشباع لبقايا مقاصد جرت فيما قبلها وقد جلى هذه الفكرة والمغزى من الوصف ابن الزبير فذكر أنه " ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم ، وقد أمر المؤمنين بالتشبه بهم في قوله تعالى:

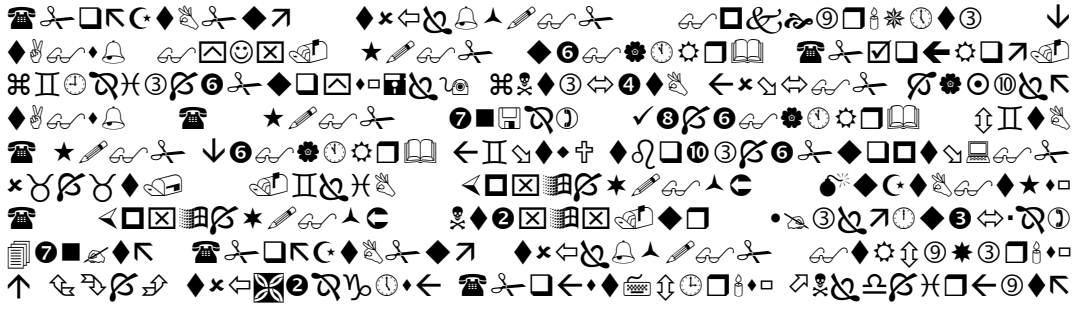

[1] كان ذلك مما يوهم فضل اتباع عيسى – عليه السلام – على أتباع محمد – صلى الله عليه وسلم – فأتبع بذكر هذه الأمة والثناء عليها ، فافتتحت السورة بالتنزيه عما أشار إليه قوله : " وكفرت طائفة " [2] .

فالثناء على الله بما ينبغي وتنزيهه عما لا ينبغي تضمن معنى التعريف بكفر طائفة من النصارى وهيأ لمدح أمة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءت السورة مدحاً لهم .

ودراسة التناسب فيما بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها كشفت عن جانب وضيء في إعجاز الجملة القرآنية وما يراعى فيها من خصوصيات بيانية تمكن للسياق السابق وتداخله بها ثم تهيئ لمعنى جديد ، وذلك يتطلب براعة في التأليف وخصوصية في البناء ، فالجملة تتصور ابتداء في صورة المنفصل وكأنها مقطع مستقل لكن بصيرة الإمام استطاعت أن تنفذ إلى ما وراء ذلك الفصل من وصل وائتلاف فنبه عليه وكشف عن أسرار بلاغته . وهذا يحتاج إلى مزيد بحث وعناية في الدراسات البلاغية لأنه باب لم يفتح وإنما طرقات ابتدأها الإمام تنتظر المتابعة حتى يكشف عن معالمه .

ثانياً : التناسب بين مقاصد السورة والسورة التي قبلها :

---

(١) الصف ، آية : ١٤ .

(٢) " البرهان " ٣٣٥-٣٣٦ .

لم يكتف الإمام بالتناسب بين السورتين باعتبار التئام جملتي مطلع السورة ومقطع السابقة لها من غير أن يكون هناك إيذان من المقاصد والأغراض تتحقق معها المناسبة وتقوى به المصاهرة فنشأ هذا اللون من الدراسة عنده وهو أعم من سابقه ويداخله شيء من الغموض ؛ لأن الناظر فيما بين السورتين لا يراوح النظر بين الآية والآية أو جملة آيات وإنما يستبطن عمق المقاصد ويلحظ ما بينها من روابط وعلاقات يحسن معها التجاور ويستقيم معها الترتيب ، ولو كان الأمر مجرد وجه يكفي لحفظ التناسب والتشاكل بين السورتين لوقف الإمام عند التعلق بين جملتي المطلع والمقطع ولكن كانت غايته الاستدلال على تماسك أجزاء الكتاب العزيز وتداخل آياته وسوره وبلوغه في ذلك مبلغ الإعجاز الذي تنقطع عنده الأطماع فالترتيب قد يتأتى في البيان الإنساني في الكلام الواحد ، وربما يتفق بين كلامين مختلفين زمنياً لكن تكون العلاقة باهتة وخافتة تتمحلها الأذهان ، أما في القرآن فتجد ضروباً مختلفة من التأليف تتفرع وتتكاثر وتتداخل حتى تظن أن هذه قطعة من تلك وأن ما بينها من فاصل هو استرواح لتجديد نشاط القارئ أو مناقلة للمقاصد وإعادة تصريف بيانها بأفنين مختلفة تعجب المتأمل وتجلي له عطاء الكلمة الإلهية وما يمدها من خزائن علم الله .

فاللحمة بين السور تجاوزت ذلك إلى مساحات أوسع في هيكلة السورة كلها ، فأخذ تستشرف إيماضات وتنبيهات تحيل إلى مقاصد ما قبلها ، والعلاقة بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها لا يكتمل بمعزل عن الأغراض والمعاني . فكل سورة تحمل مضامين تنسل من معان تحت أبنية ما قبلها وتمتد بدلالات جرت في سياق أخيتها . وهذا المعنى قائم في المبنى اللغوي للفظة السورة فهي تعني " قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه " [1] . أي أن هناك بقايا من معان سابقة لم تشبعها تلك السورة فجاءت ما بعدها تفصيلاً لها فخالطت محتواها ، ومازجت عناصرها وذابت في أغراض السورة التالية وكونت مقاصدها ، فكل سورة بوضعها المستقل لها فائدة ثم إذا اعتبرت مع ما قبلها كانت تفصيلاً لما أجمل في تلك السورة من معان وتفريعاً لأغراض وتنبيهات تضمنتها وطويت في أنبيتها اللغوية ، فلما رتبت وركبت عليها انبعثت منها ولائد هي نتاج لدلالة السورة السابقة

---

(١)" التفسير " الرازي ٣٤٩/١ .

ومعانيها . لكن التفصيل بين السورتين ليس كالتفصيل في حيز السورة الواحدة لأن المعنى يتجاذبه سياقان مختلفان فتتغير صورته باعتبار الأجواء المحيطه به أي أغراض كل سورة فتكتنف العلاقة شوب من الخفاء لا يزول إلا بملاحقته في نظم ما قبلها وترتيبه عليها فتتلاحظ الأشباه وتتجاوب الأشكال وتتجاذب فتسفر العلاقة عن صبح .

فغالباً ما يفتيش في أبنية السورة السابقة عن جهات انتساب مقاصد السور التالية إليها وما استنار فيها من معان توقدت تحت بيان ما قبلها من ذلك ما ذكره في وجه العلاقة بين سورتي الطلاق والتغابن : " أما التعلق بما قبلها فذلك أنه تعالى قال في أول تلك الصورة : ☎ ←⑨⇳☺🖂♦🖎🖲🖍✂ ↖🕮♦🖉◆❐ →🖮▫🖬←☺🖎🖲🖍✂ ↖🕮♦🖉 ↓ ❐◆❑➔♎◆❑ ↖♦🖉■❼❷🗐 🕮↗⇔🛇☒★ 🖈♏🖄↗🖒 ♘③❷◣ 🖈🖚🖘 ↑ [1] والملك يفتقر إلى التصرف على وجه يحصل معه انتظام الملك ، والحمد يفتقر إلى أن ذلك التصرف بطريق العدل والإحسان في حق المتصرف فيه وبالقدرة على من يمنعه عن التصرف وتقرير الأحكام في هذه السورة متضمن لهذه الأمور المفتقرة إليها تضمناً لا يفتقر إلى التأمل فيه فيكون لهذه السورة نسبة إلى تلك السورة"[2].

فسورة الطلاق سدت مدخلاً في بيان جملة افتتاح التغابن ، فالتغابن أثبتت صفتي الملك والحمد في سياق التهديد والوعيد البالغ للفرق الضالة من اليهود والنصارى وأهل النفاق ، فجاءت الطلاق إشباعاً للإثبات وتقريره بالدليل والبرهان فكانت كالدعامة والركيزة التي مكنت لتلك الجملة فتضمنت تقرير الأحكام الدالة على تصريفه سبحانه وتنظيمه لأحوال ملكه بالعدل والإحسان .

وأما سورة الحجرات فلها أصداء متعددة في سورة الفتح فهي تتعلق بمعان مختلفة جرت في سياقها يقول فيها : " في بيان حسن الترتيب وجوه أحدها : أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي صلى الله عليه وسلم من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم على

---

(١) التغابن ، آية : ١ .

(٢) " التفسير " ٥٥٨/١٠ .

سبيل العموم : لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله .

الثاني : هو أن الله تعالى لما بين محل النبي صلى الله عليه وسلم وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله : [1] قال لا تتركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول ، ولا تغتروا برأفته ، وانظروا إلى رفعة درجته .

الثالث : هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى ، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله : " ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل " فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً ووعدهم بالأجر العظيم ، فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجاتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا " [2] .

فالوجه الأول استحضر وأبرز معنى مكنون جيء به في تلك السورة متمماً لغرض أصل وهو قوله : " [3] ، وقوله : [4] . فنبهت الآيات على الترغيب

---

(١) التوبة ، آية : ١٢٨ .

(٢) " التفسير " ، ٩١/١٠ .

(٣) الفتح ، آية ١٦ .

(٤) الفتح آية : ١٧ .

في الطاعة لله ولرسوله عليه السلام ، فجاء قوله : " يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا " مطلاً للدلالة وإشباعاً لمعنى الترغيب وتأكيداً له بصورة الأمر والإيجاب .

والوجه الثاني والثالث جعله مرتباً على قوله : فهي أما أن تكون تخليصاً لوصف الرسول – عليه الصلاة والسلام – بالرحمة من أي توهم يؤدي إلى مجاوزة الحدّ أو الاغترار بذلك ، لأن الآية السابقة وضعته في قدم مساواة مع الذين آمنوا فقال : " رحماء بينهم " فقد يظن معها أن طريقة تعاملهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كالتعامل بينهم فجاءت هذه الآية دفعاً للتوهم وبياناً لمكانته صلى الله عليه وسلم وخصوصية محله ورفعة درجته .

ومعاني الكوثر كانت مفهومات تحت منطوق سورة الماعون فذم صفة يستلزم الثناء على ضدها فتحركت الدلالة نحو الإبانة فجاءت معاني الكوثر مترتبة على هيئة ما قبلها ، يقول فيها : " اعلم أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة و وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة : أولها : البخل ، وهو المراد من قوله : ، والثاني : ترك الصلاة ، وهو المراد من قوله : 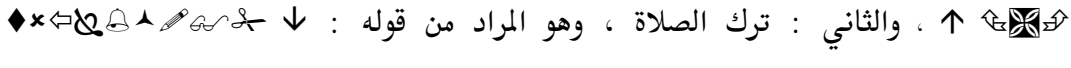 ، الثالث : المراءاة

(١) الفتح ، آية : ٢٩ .

في الصلاة وهو المراد من قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، والرابع : المنع من الزكاة وهو المراد من قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ . فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر في مقابلة البخر قوله : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أي أنا أعطيناك الكثير فأعط أنت الكثير ولا تبخل وذكر في مقابلة " الذين هم عن صلاتهم ساهون " قوله : " فصل " أي دم على الصلاة ، وذكر في مقابلة " الذين هم يراءون " قوله : " لربك " أي أئت بالصلاة لرضا ربك لا لمراءاة الناس ، وذكر في مقابلة " ويمنعون الماعون " قوله " وانحر " وأراد به التصدق بلحم الأضاحي ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله " إن شانئك هو الأبتر " أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر ، وأما أنت فتبقى لك في الدنيا الذكر الجميل ، وفي الآخرة الثواب الجزيل " [1] .

فتجاوز بها السياق الخارجي وركب بيانها على تراكيب ما قبلها وأجراها في نظمها فاستقام له المعنى وتكامل ، وزاد مقطعها في الالتئام حيث عاد آخر الكوثر بالمذمة على ذلك الصنف الذي يكذب بالدين ويأتي بالأفعال القبيحة وبيان ما آل إليه حاله من الخسران والخذلان .

وكذلك في المقابلة بين سورتي الناس والفلق فـ " المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات : وهي الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهي : الرب ، والملك ، والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة ، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن والمطلوب في

---

(١) " التفسير " ٣٠٧/١١ .

السورة الثانية سلامة الدين ، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت ، الله سبحانه وتعالى أعلم " [1] .

فاختلاف توزيع المعاني والمقابلة في تصريفها حيث جعل المستعاذ به في الثاني ثلاث صفات بينما كان هناك وصفاً واحداً ، وجعل المستعاذ منه في الثاني نوعاً واحداً بينما كان في الأولى ثلاثة أنواع ، آثار بياناً وراء تغاير البناء ومناقلة الترتيب مع تشابه شيات المعاني في السورتين فنبه ذلك على عظمة الدين وضرورة التحذير التام من أجل سلامته .

وهذا المعنى تشكلت هيئته بترتيبه على السورة السابقة فكل سورة مشحونة بإصداء المقاصد السابقة لها فبمجرد النظر إليها في سياق ما قبلها يثير هواجع معانيها و يبعث ولائد أنتجتها ما قبلها وهي مع هذا لا تتقاطع معها وإنما تزيد في بيانها وتتمه . فسورة الممتحنة أوجبت البراءة عن المشركين ووصفت العباد بالتنزه عن موالاتهم[2] ، وهيأت للأمر بالجهاد وقدمت لبيانه بقوله تعالى : ↓ ③♦🕓❋⑨❒🕯🖒◘✍🖋⮜🔔🔍♦×🖙 ✍ ✂ 🖋✍🖒 ✂ ✍◘&✍⑨❒🕯❋🕓♦③ ↓ ✍◘&✍⑨❒🕯❋🕓♦③ ☎✂❑↖☪♦✍✂◆↗ ••✍🖋♦✱②✍🖒❑↗⓿🔍✂❒↗⓿🔍②✱✍♦✍ ☎✂❑↖☪♦✍✂◆↗ ❸🚫✂❒←⑨♦↖ ◆↗✍🖋✍◆⓿🔍✍🖒❑❒🕮 ◆↗✍🖋✍◆⓿🔍✍🖒❑❒🕮 ⬀☠↗📠❑❑←⑨♦↖◆❒ ✍♍❑→◑▫🖬➔✍ ⬀☠↗📠❑❑←⑨♦↖◆❒ ⇳⑨♦🕭◆❒ ☠🚫&⬀❸♦✍🖒◑ ✂❑❑⑩◆❑🖂☺↘✍🖋✍✍🖒📠 ☠🚫&⬀❸♦✍🖒◑ ⌘Ⅱ🔍✂✍ ☠↗📠◆↗✍🕭🖂Ⅱ ✍🖂☺🖒📠 ☎✂❒↖❷☒▦☒📠 ♦✌❑←☙▪❷✍🖋✂ ♦♌❑↖☿🇬🇧❷↘③↗⑥ ✍🖂☺🖒📠 ☎✂❒↖❷☒▦☒📠 ♦✌❑←☙▪❷✍🖋✂ ♦♌❑↖☿🇬🇧❷↘③↗⑥ ⬀☠↗📠✍✱③🖒◑◆❒ ★✍🖋✍✍🖒📠 ☎✂❑↖☪🔍✍⬀♦➔✍ ♌❒🕮 · ⬀☠↗📠✍✱③🖒◑◆❒ ✂✡⑨🕛🖂♍↖☿ ⇔⚐←☞⇳☿♦❷🖂⌘⬀☹↗🡻✡↗📠 ♌🖒◑ ⬀☠↗▤🖒■📠◆❻ ❼🖒✌✍✿🖘⇔❺♦✍ ◆↗✍🖋✍♦⇔🔍✍⬀📠✍✂◆❒ ❼🚫✍⓿🖒⧖🖂☙ ❼🖒× 🗐 ❼🖒✌✍✿🖘⇔❺♦✍ ◆↗✍🖋✍♦⇔🔍✍⬀📠✍✂◆❒ ❼🚫✍⓿🖒⧖🖂☙ ❼🖒× ✂□□⑩◆❑🖂☺↘✍🖋✍✍🖒📠 ☠🚫&⬀❸♦✍🖒◑ ♦♌❒❾❷↖○➔✍ ⬀☹↗🡻↘⑩☒▦⬀⌘❒🕮 ✍🖂☺🖒📠 ❶⚐■🖬⬀↘❒🕮 ⚐✍♦✡❒🕮◆❒ ↖🕮▫✂🖂➔↘▦♦③ Ⅱ♦✍◆❒ 🗐 ⬀☹↗🡻✡■🖬⬀↘❒🕮 ✍✍♦✍◆❒ ✍⬀☠↗▤☪🔍✍ ⬀☹↗🡻✡■🖬⬀↘❒🕮 ✍✍♦✍◆❒ ✍✍⓿🖒⧖○○✍✍✂ ◆↗✍✂◆❑🖂☙ □✍🖘🖒 ⇳⑨♦◑♦▫ ⬀☠↗▤☪🔍✍ ◆↗✍✂◆❑🖂☙ □✍🖘🖒 ⇳⑨♦◑♦▫ ⬀☠↗▤☪🔍✍ ↑ 🖒🖘🖋 [3] فجاءت الصف للحث على الخروج للجهاد " وبيان ما يحمل أهل الإيمان على الجهاد " [4] وليس لبسط ذكر الجهاد كما ذكر السيوطي[5] .

---

(١) السابق ٣٧٨/١١ .

(٢)" البرهان " الغرناطي ٣٣٣ .

(٣) الممتحنة ، آية : ١ .

(٤)" التفسير " الرازي ٥٢٦/١٠ .

(٥) " تناسق الدرر " ١٣٤ .

ثم أدار سورة الصف على تلك الآية في الممتحنة لإشباع هذا المقصد وبسطه وبعث مغزى السورة وهو الحث من خلال مراوحة أساليبها بين الترغيب والترهيب ، فرهبت من تركه في قوله تعالى : [illegible] ورغبت فيه في قوله تعالى : [illegible] فـ "تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا . وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه "[1] .

وفي قوله " [illegible] [2] مبالغة في الجهاد وذلك بمجيئ الجهاد بعد " تؤمنون بالله ورسوله " فقوى معنى الجهاد وشعبه ، فأفاد ثلاثة معان يقول : " والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة : جهاد فيما بينه وبين نفسه ، وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات ، وجهاد فيما بينه وبين الخلق ، وهو أن يدع الطمع منهم ، ويشفق عليهم ويرحمهم ، وجهاد فيما بينه وبين الدنيا وهو أن يتخذها زاداً لمعاده "[3] .

ونوع آخر تجد فيه سورة أم تتوالى بعدها عدة سور تتفرع عنها وكل سورة تشبع زاوية مجملة في تلك السورة فتكون هي المركز الذي تتجاذبه وتلتف حوله ذكر ذلك في تفسيره لسورة المنافقين والتغابن يقول في مناسبة المنافقين لسورة الجمعة : " وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر من كان يكذبه

---

(١) السابق ١٠/٥٢٧–٥٢٨ .

(٢) الصف ، الآيات ١٠–١١ .

(٣) " التفسير " ١٠/٥٣١ .

قلباً ولساناً بضرب المثل كما قال : " مثل الذين حملوا التوراة " وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلباً دون اللسان ويصدقه لسان دون القلب " [1] . ثم جاءت التغابن مقابلة لما قبلها ومتممة لما جاء في الجمعة يقول : " وجه التعلق بما قبلها ظاهرة لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمنافقين الصادقين وأيضاً تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سراً وعلانية ، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم " [2] .

فسورة الجمعة جاءت لبيان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وأحوال الخلق مع ما أنزل الله على رسوله ففصلت حال المؤمنين المصدقين وعرضت ضمناً لموقف صنفين من المكذبين: الأول : أهل الكتاب وموقفهم من مبعثه عليه السلام ، وإنكارهم لما جاء به مع زعمهم أنهم مهتدون فألمح لهذا الفريق بضرب المثل في قوله : ↓ ↖✍⬧✞◆✍ ▪☠➔⚐ ⬧◘🗁◆❻⬀❑✸✌❁✍✂ ☎✂❑➔🖬🙍🕭☺↖❍ ◆×⇦🙍🔔➹🖉✍✂ ✍❻✍🖂☺↰⬧↘❁✍✂ 🖈✍⬧✞🖂☺☒📠 ✍🖂🕭❑➔🖬🙍☺↘◆⬧⑥ ⬀☠⬧❁ ⑥⬧✞◆✍ "▪↘➹🗭📠 🗐 ✂✌❻✍☒▦⇔🗠❒🕮 ↖✍🙍☺↘◆⬧⑥ ☎✂❑🡐📠⊙⓿☒📠 ◆×⇦🙍🔔➹🖉✍✂ 🙍➔⬀❑⬧◑↘❁✍✂ ❽🙍⑨⬀🖒◆⑨ •• ✦🖉✍✂◆❒ 🗐 ★🖉✍✂ 🙍💣🕓◆③✍◆★🗭📠 ✂✍❁✍✂ ◆🏳⬀❑⬧◑↘❁✍✂ ◆×✓🙍🖉🕭🕓➹→❁✍✂ ◆×⇦🙍🔔➹🖉✍✂ ⑥⬧✞◆✍ "▪↘➹🗭📠 🗐 ✂✌❻✍☒▦⇔🗠❒🕮 ↖✍🙍☺↘◆⬧⑥ ☎✂❑🡐📠⊙⓿☒📠 ◆×⇦🙍🔔➹🖉✍✂ 🙍➔⬀❑⬧◑↘❁✍✂ ❽🙍⑨⬀🖒◆⑨ •• ✦🖉✍✂◆❒ 🗐 ★🖉✍✂ 🙍💣🕓◆③✍◆★🗭📠 ✂✍❁✍✂ ◆🏳⬀❑⬧◑↘❁✍✂ ◆×✓🙍🖉🕭🕓➹→❁✍✂ ↑ ⬁🗭🖈 ◆×✓🙍🖉🕭🕓➹→❁✍✂ ◆🏳⬀❑⬧◑↘❁✍✂ ↑ ⬁🗭🖈 ◆×✓🙍🖉🕭🕓➹→❁✍✂ ◆🏳⬀❑⬧◑↘❁✍✂ [3] .

والثاني : من صدق به لساناً وكذبه اعتقاداً ووجداناً وجاء ذلك في سياق الأمر بتعظيم مكانه عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ↓ ☎✂⬃❒❒🕮◆❻ ✂⬧❶🗭◑◆❒ ☎✂☑❑❻🖉☒▦☼✍✂ ✂🕑❑↘●❍▭ ⬃❒❒🕮 🕑◘◆❷🕓◘🖞🙍✍ ⬀✍➔🔔 🗐 ✍✞☺🖉★🖉✍⬧🔔 ☒🖑❑↗📠◆❷⬧🖎◆❒ ✍◘🖒⬀❸⬧❁🗭◑ 🖈❑⇳🖞❋🖬❁✍✂ ⌘Ⅱ🙍✌ ➴❸⬀❷🖂⌘ ★🖉✍✂ 🖂⑨🕒🙍↖ ✍◆✍ ←❸⬀❷🖂⌘ ✦🖉✍✂◆❒ 🗐 🖉◘◆❷🕓🖂↗🙍■☞❁✍✂ ⌘Ⅱ🙍✍◆❒ ✂✍❁✍✂ ◆×✓🙍🔔🗭🕬🕓⬧❷❁✍✂ ↑ ⬁🗭🖈 ◆×✓🙍🔔🗭🕬🕓⬧❷❁✍✂ [4] . فكانت " تنبيهاً لأهل الإيمان على تعظيم الرسول — صلى الله عليه وسلم — ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة وتقديم متابعته في الأداء على غيره وأن ترك التعظيم من شيم المنافقين ، والمنافقون هم الكاذبون"[5] .

---

(١) " التفسير " ١٠/٥٤٥ .

(٢) السابق ١٠/٥٥١ .

(٣) الجمعة ، آية : ٥ .

(٤) الجمعة ، آية : ١١ .

(٥)" التفسير " الرازي ١٠/٥٤٥ .

ويجمع هذين الموقفين جملة واحدة هي قوله : ﴿ ﴾ [1] وهي الجذر الذي تفرعت عنه سورتا المنافقين والتغابن لأن ما بعدها بيان لمضمر هذه وتفصيل لأحوال الآخرين وحالهم مع ما أنزل الله على رسوله . وزادت التغابن التهديد البالغ لكلا الفريقين بعد ما زال الغطاء عن مكنونات السرائر وبانت بطالة أهل النفاق سراً وعلانية فلخصت تلك المواقف في قوله تعالى : ﴿ 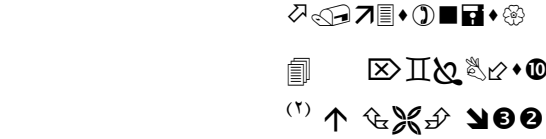 ﴾ [2] ثم ارتدت إلى معنى جاء مجملاً في سورة الجمعة ففصلته وهو أن مدخل هذا الكفر والنفاق جاء من إنكار اليوم الآخر واطمأنناهم بالحياة الدنيا ودل عليه كراهيتهم للموت في قوله : ﴿ ﴾ [3] فحللت التغابن هذا المعنى وبالغت في وصفه وتهويل ما استخفوا به وباعدوه عن ظنونهم وصورته في صورة الواقع المشاهد أمام أبصارهم وحكت ما يؤول إليه أمرهم في ذلك اليوم ﴿ ﴾ [4] فالتقت عندهم عناصر السورتين السابقتين وانعطفت أطراف المعاني على أصولها فقررت التغابن اليوم الآخر رداً عليهم فقال تعالى : ﴿ ﴾

---

(١) الجمعة ، آية : ٣ .

(٢) التغابن، آية : ٢ .

(٣) الجمعة ، آية : ٨ .

(٤) التغابن ، آية : ٩ .

⌘⌧⌨❷❸➢ ⇗⌫⇖↑ [1] فتصديق ذلك اليوم هو سبب للإيمان بالله ورسوله وهذا يقابل ما جاء في سورة الجمعة من أن كراهيتهم للموت هي سبب في صدهم عن الهدى الذي عرفوه .

وأحياناً يكتفى بالإشارة إلى علاقات ظاهرة بين السورتين كاشتراكهما في الغرض العام أو الخطاب أو تشابه الافتتاح . مثل ما ذكره في مناسبة سورة الممتحنة بسورة الحشر يقول : " اعلم أن من جملة ما يتحقق به التعلق بما قبلها هو أنهما يشتركان في بيان حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحاضرين في زمانه من اليهود والنصارى وغيرهم " [2] .

أما الاشتراك في الخطاب أو التناسب بين الافتتاح فلا يكون علة للمناسبة والتعلق فيما بين السورتين ما لم يكن باعتبار من المعاني وملاءمة بين الأغراض كما في سورة الطور حيث ذكر فيها : " هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح وبيان الحشر فيهما " [3].

وكذلك سورة التحريم وتعلقها " بما قبلها فذلك لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة لما كان الطلاق في الأكثر من الصور أو في الكل كما هو مذهب البعض مشتملاً على تحريم ما أحل الله " [4] .

---

(١) التغابن ، آية : ٧–٨ .

(٢) " التفسير " ٥١٥/١٠ .

(٣) السابق ١٩٨/١٠ .

(٤) السابق ، ٥٦٨/١٠ .

ثالثاً : تعلق السورة بأكثر من سورة :

وهو نوع يظهر في تفسير الرازي بصورة لم أعرف أن غيره دخل فيه كما دخل الرازي فليس له نظائر في التفاسير المتقدمة أو المتأخرة عنه ، وجاءت ندرته من غموض مسلكه وحاجته إلى تلطف لمعرفة مداخل السورة في السورة السابقة ، وكيف تلاقت أطرافها ، وانسلت من نسيجها في تتبع محكم لتوالي المعاني ونبعها من تحت لغة البيان السابق وكيف يفضي غرض إلى غرض وبيان إلى بيان . وهذه اللفتة وإن لم تكن في جميع السور إلا أن ما ذكره يمكن أن يكون منهجياً ينهج في كل سورة ، وقد ذكر ذلك في تفسير سورة الكوثر وظني أن الذي فجر في نفسه – رضي الله عنه – كل هذه المعاني محاولة دفع ما شاع حول أن التحدي وقع بالسور الطوال وأن الإعجاز يتفاوت وليس واحداً في جميع السور ، لذلك كانت هذه السور موضع عناية علماء البيان للكشف عن وجه الإعجاز فيها وأن التحدي واقع بها كالتحدي بأطول سورة ، فأفرد الزمخشري رسالة حول الإعجاز في بيانها ، وغزارة المعاني تحت ألفاظها ، وما يحويها محارها من لآلئ البلاغة وأسرارها ، وما تكتنزه من المحاسن والدقائق .

وقد ذكر الرازي ملخص هذه الرسالة في كتابه " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " وزاد في تفسيره بيان الإعجاز المتعلق بترتيبها وعلاقتها بما قبلها من السور وما بعدها . فجعل منها حلقة وصل بين السور السابقة لها واللاحقة يقول : " إن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور . أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة والضحى في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر في أول السورة ثلاث أشياء تتعلق بنبوته أولها : قوله : " ما ودعك ربك وما قلى " ، وثانيها قوله : "وللآخرة خير لك من الأولى " ، وثالثها : " ولسوف يعطيك ربك فترضى " ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله : " ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى " .

ثم ذكر في سورة : " ألم نشرح " أنه شرفه بثلاثة أشياء أولها : " ألم نشرح لك صدرك " وثانيها : " ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك " ، وثالثها : " ورفعنا لك ذكرك" .

ثم إنه تعالى شرفه في سورة التين بثلاثة أنواع من التشريفات أولها : أنه أقسم ببلده وهو قوله : " وهذا البلد الأمين " وثانيها : أنه أخبر عن خلاص أمته من النار وهو قوله : "إلا الذين آمنوا " وثالثها : وصولهم إلى الثواب وهو قوله : " فلهم أجر غير ممنون " .

ثم شرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات أولها " اقرأ باسم ربك " أي اقرأ القرآن على الحق مستعيناً باسم ربك ، وثانيها : أنه قهر خصمه بقوله " فليدع نادية سندع الزبانية " وثالثها : أنه خصه بالقربة التامة وهو " واسجد واقترب " .

وشرفه في سورة القدر بليلة القدر التي لها ثلاث أنواع من الفضيلة ، أولها : كونها خيراً من ألف شهر ، وثانيها : نزول الملائكة والروح فيها ، وثالثها : كونها سلاماً حتى مطلع الفجر .

وشرفه في سورة لم يكن بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات أولها : أنهم خير البرية وثانيها : أن جزاؤهم عند ربهم جنات وثالثها : رضا الله عنهم .

وشرفه في سورة إذا زلزلت بثلاث تشريفات : أولها : قوله " يومئذ تحدث أخبارها " وذلك يقتضي أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية ، والثاني : قوله " يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم " وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعتهم فيحصل لهم الفرح والسرور ، وثالثها : قوله : " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره " ومعرفة الله لا شك أنها أعظم من كل عظيم فلابد وأني صلوا إلى ثوابها ثم شرفه في سورة العاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصل تلك الخيل بصفات ثلاث : " والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً " .

ثم شرف أمته في سورة القارعة بأمور ثلاثة ، أولها : فمن ثقلت موازينه ، وثانيهما : أنهم في عيشة راضية ، وثالثها : أنهم يرون أعداءهم في نار حامية .

في شرفه في سورة ألهاكم بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه أولها : أنهم يرون الجحيم وثانيها : أنهم يرون عين اليقين وثالثها : أنهم يسألون عن النعيم .

ثم شرف أمته في سورة العصر بأمور ثلاثة أولها : الإيمان " إلا الذين آمنوا " وثانيها: " وعملوا الصالحات " وثالثها : إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة ، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر .

ثم شرفه في سورة الهمزة بأن ذكر أن من همز ولمز ، فله ثلاث من أنواع العذاب أولها لا ينتفع بدنياه ألبته ، وهو قوله : " بحسب أن ماله أخلده كلا " . وثانيها : أن ينبذ في الحطمة . وثالثها : أن يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء في الخروج ، وهو قوله ((إنها عليهم مؤصدة)) ثم شرفه في سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه في نحرهم من ثلاثة أوجه.

وشرفه في سورة الماعون بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة أولها الدناءة واللؤم وهو قوله : " يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين " وثانيها : ترك تعظيم الخالق وهو قوله : " عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون " ، وثالثها : ترك انتفاع الخلق ، وهو قوله : " ويمنعون الماعون " .

ثم إنه سبحانه وتعالى لم شرفه في هذه السورة من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها : "إنا أعطيناك الكوثر " أي إنا أعطيناك هذه المناقب ا لمتكاثرة المذكورة في السور المتقدمة التي كل واحد ة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب وبإرشاده عباده إلى ما هو الأصلح لهم ، أما عبادة الرب فإما بالنفس وهو قول "فصل لربك " وإما بالمال وهو قوله : " وانحر " وإما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم فهو قوله : "يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون " فثبت أن هذا السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنهم كالأصل لما بعدهم فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله : " يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون " ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم ، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم ، فلا جرم كان الطعن في مذهب الناس يثير من العداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن ، فلما أمره بأن يكفر جميع أهل الدنيا ، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية

العداوة له ، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه، وأنظر إلى موسى عليه السلام كيف / كان يخاف من فرعون وعسكره . وأما ههنا فإن محمداً عليه السلام لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا ، كان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه ، فدبر تعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، وهو أنه قدم على تلك السورة هذه السورة فإن قوله " إنا أعطيناك الكوثر " يزيل عنه ذلك الخوف "[1] .

فردها إلى جذر الدلالة الذي نمت منه وتفرعت عنه وهو سورة الضحى ، فالضحى قررت معنى وهو مدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم تضمنت معنى مجملاً وهو قوله : " ولسوف يعطيك ربك فترضى " .

وتأكد هذا المعنى بذكر أحواله قبل اصطفائه واجتبائه لتلك المنزلة الشريفة ، وكيف آواه وهداه وأغناه ثم أجملت معنى وهو أن هذه العطايا ممتدة لا تنقطع فتوالت السور بعدها تغذى المعنى وتزيد في الإبانة عنه ، وتفصيله متدرجة بالمنح الإلهية منها ما يختص بذاته الطاهرة صلى الله عليه وسلم من شرح الصدر وإعلاء الذكر ، وتأييده بالقرآن واختصاصه بالقربة التامة ، وغير ذلك ومنها ما هو عام في أمته فقد شرفها بالخلاص من النار ، والثواب غير المنقطع وليلة القدر وجعلهم خير أمة وهذا غاية في بابه . وكل ذلك لتحقيق معنى "فترضى " وتصوير كيف تكون العطايا مرضي عنه .

وجاءت ا لكوثر لتجمل جميع العطايا السابقة وتقررها فقال : " إنا أعطيناك الكوثر" أي المناقب المتكاثرة ، وأضافت معنى امتداد هذه المنح إلى آجلها في الآخرة ، وهو نهر في الجنة وتناوب المعاني بين الإجمال تارة والتفصيل أخرى مسلك ظاهر في إشباع دلالة الآيات داخل السورة الواحدة ، وقد استثمره الإمام للكشف عن خبايا التناسب والتعالق بين السور المتجاورة والتدليل على كونها معنى متكاملاً ، فقوله : " إنا أعطيناك الكوثر " وهي إعادة ، واستحضار لجملة " ولسوف يعطيك ربك فترضى " وهذا تفتيش دقيق في أبنية الكلام لتجلية أصول المعاني بعضها من بعض ، والمقاربة بين متشابهه وإن تباعد واختلف .

---

(١) " التفسير " ٣٠٨/١١ – ٣٠٩ .

فالرازي لا يعلق السورة بما قبلها دون اعتبار لنسب توجب الانتساب إليها وإنما يعتمد في ذلك على الفحص لمباني الجملة وخصوصيات الأداء ، فلام العهد في كلمة " الكوثر" جاءت ولم يكن ثمة معهود سابق في الجملة تعود عليه أحال إلى سياقات سابقة تتبعها فانتظمت جميع ما يمكن دخوله في حيز عموم العطاء ، فاستحضرت ثلاثة عشر سورة وهي مجموع ما بين سورتي الضحى والكوثر ، ثم حارت دلالتها لتلتقي مع رأس المعنى وهو "ولسوف يعطيك " . فالكوثر هو المناقب الكثيرة التي جرت في السياقات السابقة على اختلاف مقصد كل سورة . فكان ذلك هو الخيط الناظم للسور التي توسطت بين الوعد بالعطاء في قوله " ولسوف يعطيك ربك " وإنجاز الموعود في قوله : " إنا أعطيناك الكوثر " .

وأيضاً رجوع المعنى مجملاً بعد تفصيله سدى لحمة الكلام وعانق بين أجزائه وجعله منصباً في حاق المعنى السابق ، وهو " ولسوف يعطيك " فقوله : " إنا أعطيناك " هي واقع عملي للعطاء الذي وعد به عليه الصلاة والسلام من ربه فقرره ورتب عليه ما ينبغي تجاه ذلك الإنعام من شكر النعم والاشتغال بالعبادة .

أما كونها أصلاً لما بعدها فلأنه أخبر بنقصان من شنأ مسلكه عليه الصلاة والسلام وحاد عن نهجه فجاءت " قل يا أيها الكافرون " لبيان أن الكمال لا يكون إلا بالتبرؤ من الشرك والمشركين .

ولما كان عسف الناس وقيادتهم في أديانهم ومذاهبهم من اشد الأمور إثارة للعداوة والبغضاء قدمت سورة الكوثر إزالة لدواعي الخوف والخشية التي قد تساور فؤاده الشريف ، وتثبيتاً لنفسه عليه السلام لمجابهة أئمة الكفر ومشافهتهم بإظهار الدين ونبذ جميع ما يدعون من دون الله ، وقد أحسن الرازي حينما نبه إلى منبع هذه الفكرة وأن الذي أثارها في نفسه هو سمت بيان القرآن فليست غريبة عنه ، ولا مستقاها الفكر المجرد وإنما جرت في سياق آخر شبيه بهذا السياق ، فلما اختار الله موسى للتكليف بدعوة فرعون كلمه وناجاه " فهذا يقوم مقام قوله " وكلم الله موسى تكليماً " بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه في غير هذا المعنى بل يفيد قوة في القلب ويزيل

الجبن عن النفس ، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله " إنا أعطيناك الكوثر " مما يزيل المخاوف عن القلب والجبن عن النفس " [1] .

وفي قوله : " إذا جاء نصر الله .. " ردها إلى رأس الكلام وجذره وهو الوعد بالتربية العظيمة بقوله : " لما وعد محمداً بالتربية العظيمة بقوله : " ولسوف يعطيك ربك فترضى " وقوله : " إنا أعطيناك الكوثر " لا جرم كان يزداد كل يوم أمره ، كأنه تعالى قال : يا محمد لم يضيق قلبك ؟ ألست حين لم تكن مبعوثاً لم أضيعك ، بل نصرتك بالطير الأبابيل ؟ وفي أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف ثم الآن أزيد فأقول إني أكون ناصراً لك بذاتي : " إذ جاء نصر الله . فقال : إلهي إنما تتم النعمة إذا فتحت لي دار مولدي ومسكني ، فقال : " والفتح " فقال : إلهي لكن القوم إذا خرجوا فإي لذة في ذلك ، فقال : " ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً " ثم كأنه قال : هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة ، إنما وجدتها لأنك قلت في السورة المتقدمة " يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون " [2] .

وهي وإن كانت تجري في دلالة العطاء إلا أن توسط سورة " قل يا أيها الكافرون " أضاف خصوصية زائدة للمناقب التي جاءت بها سورة النصر وضاعفت من كونها نعماً ومناقب إلى جعلها متممات ومكملات لجميع النعم ، فجاءت بأفضل التشريفات وأحبها على قلبه عليه الصلاة والسلام وهي فتح مكة وإعادة الإلف بينه وبين قومه بدخولهم في دين الله بعد أن نابذوه العداوة ونابذهم البراءة من شركهم .

فسورة الكوثر كالشريان الذي تلتقي عنده جزئيات المعاني ليصلها بقلب الدلالة ومركزها وهو سورة الكافرون ، لأن جميع المناقب السابقة من قبيل التهيئة والتلطف لإلزامه بعد ذلك بالأمر الشاق لذلك ، قدم " هذه السورة على سورة " قل يا أيها الكافرون " حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفيره جميع العالم ، وإظهار البراءة عن

---

(١) التفسير ، ٣١٠/١١ .

(٢) " السابق " ٣٣٤/١١ .

معبودهم فلما امتثلت أمري ، فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشياع ، إن أهل الدنيا يدخلون في دين الله أفواجاً " [1] .

وبعد أن بين وجه تعلقها بما قبلها فرع ما بعدها عليها فـ " لما قال في آخر السورة المتقدمة " لكم دينكم ولي دين " فكأنه قال : إلهي وما جزائي فقال : نصر الله . فيقول : وما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام فقال : " تبت يدا أبي لهب " فإن قيل : فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد ، قلنا : لوجوه أحدها : لأن رحمته سبقت غضبه والثاني : ليكون الجنس متصلاً بالجنس فإنه قال : " ولي دين " وهو النصر كقوله " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين أسودت وجوههم " . وثالثها : الوفاء بالوعد أهم في الكرم من الوفاء بالانتقام فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السورة من الله وبأمره "[2] .

وهذا الفهم يحكم بناء الكلام ويصوره بياناً متفقاً يأخذ بعضه بحجزه بعض فتجد السورة تداخل بيان سابقتها وتتولد من بعض عناصرها فتتسع وتتكاثر بدلالتها ثم تنشق عن بيان آخر تبنى عليه سورة أخرى فتداخل حلقات الكلام وتشتد أواصره ويفرغ إفراغاً واحداً ثم يجعل سورة " إنا أعطيناك الكوثر " وما تحيط به من سور داخله في جملتها كلاماً واحداً يقابل به منظومة من السور يجعلها قسيماً للمعنى الأول فسورة " قل هو الله أحد " وهي في شرح صفات الله وما تفرع عنها من ذكر مخلوقاته في سورة الفلق ومراتب النفس الإنسانية وترقيها في معرفة الله وكل هذا " في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبتر ولا ولد له ، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا الله ولداً ، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق لله تعالى فلهذا السبب قال ههنا : " قل " حتى تكون ذاباً عني ، وفي سورة " إنا أعطيناك " أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك " [3] .

---

(١) " التفسير " ٣١٠/١١ .

(٢) السابق ، ٣٣٥/١١ .

(٣) " السابق " ٣٦٦/١١ .

وهذا ضرب لطيف من المقابلة قارب أطراف الكلام و جمع منه ما تشابه على تباعد مطارحه ومنازلة ، ودركه لا يكون إلا بزيادة فطنه وبصر بمداخل الكلام بعضه في بعض ، وحسن التأتي بملاحظة اللغة وما وراء التراكيب من تنيبهات وتلوحيات تحيل إلى أشباه ونظائر لها ، فتعيدها إلى الذهن وتنبه إلى ما بينهما من تآخي فتتجاوب المعاني وتتلاقى لتكون بياناً مكتملاً لا يغني فيه جزء عن جزء ، فسورة الإخلاص أمر من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام بدفع مقالة من أثبت له سبحانه الولد ، وهذا المعنى إعاد نظيره في سورة الكوثر في دفاع الله عن نبيه وتسليته حينما عاب عليه المشركون أن لا ولد له ، فانعطف آخر الكلام على أوله ، وكون من مجموع السور وتتابعها بهذا النسق والترتيب هيئة لمعنى كلي احتوى ما بعدها وانتظمه على اختلاف أغراضه فوحد ما تفرق وجعل منه بياناً مكتملاً لأنه وإن تشعبت أفانينه يلتقي عند غرض أصل ومعنى جذر يؤلف ذلك كله وينحو به منحى واضحاً ويؤم به مقصداً محدداً .

وكانت هذه الصفحات موضع عناية العلماء بعده فاستوقفهم منهج تحليل الرازي لتتابع السور وتعليق بعضها ببعض فتبعه البقاعي في أكثر ذلك فقد علق الإخلاص بسورة الكوثر وجعل ما بينها من سورة مبنية ومركبة على الكوثر لأن هذه السورة أثارت تساؤلات عن ما يفعله عليه السلام مع الشانئين من معاركة أو متاركة فجاءت (الكافرون) إشباعاً لمعنى المشاركة والبراءة من دينهم (والنصر) فرعت معنى المعاركة وما يترتب عليها من قهر الشانيء فالفعل ، فلما نبهت (النصر) على التوبة على من آمن بعد الفتح أثارت تساؤلات حول حال من لم يؤمن فجاءت (تبت) لتفصل مالهم من الخذلان بذكر مصير أشقائهم فاستحضرت حال أشدهم عناداً واعتاهم في مواجهة دين الحق والاجتهاد في كل ما يضاد أشرف العباد مع قرابته للرسول عليه الصلاة والسلام فذكرت مصيره وماله من الخذلان والذل يوم المعاد [1] . إلا أنه لم يجعل (الإخلاص) معنى مقابلاً للكوثر وإنما معنى انتجته السور السابقة فقد أثارت في النفس تشوقاً واستشرافاً لمعرفة ما هية هذا المولى فـ " جاءت (

---

(١) ينظر " نظم الدرر " ٥٧٦/٨ .

الإخلاص) كاشفة عن ثبت من العظمة لولي النبي سبحانه وتعالى الذي أمره بهذا الدين وفعل له هذه الأمور العظيمة الموجبة .... لئلا يستبعد عليه سبحانه وتعالى شيئاً من ذلك " [1] .

وامتد البقاعي بهذه الفكرة إلى ملاحظة التشابه في بناء المعاني من سورة الفيل إلى نهاية القرآن وأن ذلك إعادة تشكيل لأصول المعاني الممتدة من الفاتحة إلى آية الكرسي ، فعانق مقطع الكتاب مطلعه والتحم مفصله بموصله أشد التحام يقول في ذلك " من أعظم المناسبات في ذلك بالنظر إلى الآيات أنه سبحانه شرح بالفيل وما بعدها من السور آيات الفاتحة كلها ثم من أول البقرة إلى آية التوحيد ، فأشار بالفيل إلى استجماعه لصفات الكمال بأن له الحمد بما حرس به بيته من الملوك وحماه من كيد الجبابرة وأحسن التربية لقريش الذين هم أشراف العالمين وبصلاحهم صلاح بلدتهم أم القرى ... فدل ذلك على أنه يدين العباد يوم التناد ، ولذلك أعطى رأس الهداة الدين الذي أفرده بالعبادة والاستعانة بالكوثر ، وهداه إلى الصراط المستقيم وأعاذه من طريق الكافرين المعاندين والضالين ، وأشار أول البقرة إلى دخول المتقين – الذين الكتاب هدى لهم – في الدين أفواجاً وإن أغنى أهل الكفر وأعتاهم سواء عليهم الإنذار وعدمه في أنه لا يؤمن وهو أبو لهب ومن سار بسيره من مجاهر ومساتر ويعمهم الخسار ويشملهم الهلاك والتبار بحكم الواحد القهار ، المأمور بعبادته وتوحيده في الآية الجامعة لدعوات التوحيد " يا أيها الناس أعبدوا ربكم " المتصف بما في سورة الصمد التي لم ينزل في وصفه مثلها ، فتم الدين عند ذلك بما له سبحانه من كمال الأوصاف وجلال النعوت بالجبرت والإلطاف فلم يبق إلا تعويذ أهل الدين من أن يدخل عليهم خلل أو يلحقهم نزع أو زلل فختم بالمعوذتين لذلك " [2] .

وردها الإمام السيوطي إلى سورة الكافرون لاشتمالها على غرض واحد وهو التوحيد يقول " إن هذه السورة أي الإخلاص متصلة بـ " قل يا أيها الكافرون " في المعنى ، ولذلك من أسمائها الإخلاص ، وقد قالوا : إنها اشتملت على التوحيد وهذه أيضاً اشتملت عليه ... ، وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون ، صرح هنا بلازم ذلك وهو أن معبودهم واحد ، وأقام

---

(١) "نظم الدر" ، ٥٨٦/٨

(٢) " السابق " ٥٧٦/٨ – ٥٧٧ .

الدليل عليه بأنه " صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك وليس في معبودهم من هو كذلك " [1] .

وأحكم المتأخرون بعد الرازي هذا الباب بما لا مزيد عليه فقلبوا جهات التماسك بين السور المتتابعة ، وفصلوا القول في وجوه انتساب كل سورة وموقعها في بيان ما قبلها وكيف تناسبت أغراضها وتناسجت من جمل وآيات هيأت لمقاصدها ومكنت لموقعها وحسن تجاورها وانتظامها من السورة قبلها ، ودلوا في ذلك كله على مداخل السورة في السورة في مقاصدها وابنيتها ومكوناتها ومجاذبة ذلك برد الكلام بعضه على بعض فتتعانق السور وتتلاقى عناصرها وتتلاقح فينمو المعنى ويتسع ويثمر في بيان السور التالية ، ويظل ما بين أصله مجملاً وموقعه مفصلاً إيحاءات تحيل إليه وتحفز الذهن لإعماله في ذلك السياق ورده عليه . ثم تترك السورة في ثناياها بذوراً لمعنى آخر تجاذبه السورة بعدها وهكذا تنام مستمر تتحرك السورة في أحشاء ما قبلها وتتناسل منها .

والأصل الضابط هو أن السورة تطوي في أبنيتها معان مجملة تقتص السورة التالية أثارها فتنشرها وتبني عليها مقاصدها ذكره السيوطي في قوله : " إن القاعدة التي استقرأتها من القرآن : كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ، وشرح له ، وإطناب لإيجازه وقد استمر معنى ذلك في غالب سور القرآن طويلها وقصيرها " [2]

والإبانة بالمجمل داعية ومحرك للنفس على الاستفسار والطلب والتأمل فيتجاوز العبارة للكشف عن حقائقها المستترة بقرينة نص آخر يجاذب به دلالتها ويمتد به نحو التفصيل والتفسير ؛ لذلك عول العلماء في بيان وجه تماسك السور والتحام بعضها ببعض على تتبع عناصر السورة السابقة ومكوناتها في تأليفها وما داخلها من الزيادة والتغيير ، فلم يشكل استقلال السورة حاجزاً يعزلها عن ما جاورها أو يحول دون الالتفات إلى ما تحدر إليها من نظم سابقتها ومعانيها فقد تأتي السورة بناء على آيات محدودة في بيان ما قبلها كما في موقع الأعراف في سورة الأنعام فـ " سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق وقال فيها (هو الذي خلقكم

---

(١) " تناسق الدرر " ١٨٧ .

(٢) السابق ، ٤١ .

من طين) وقال في بيان القرون : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وأشير فيها إلى ذكر المرسلين وتعداد كثير منهم وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال لا التفصيل ، ذكرت هذه السورة عقبها لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها فبسط فيها (قصة) خلق آدم أبلغ بسط بحيث لم تبسط في سورة ما بسطت فيها وذلك تفصيل إجمال قوله: (خلقكم من طين) ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم وكيف هلاكهم تفصيلاً تاماً شافياً مستوعباً لم يقع نظيره في سورة غيرها ، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلهم ، فكانت هذه السورة شرحاً لتلك الآيات الثلاثة .

وأيضاً فذلك تفصيل قوله (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) ولهذا صدر السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة وقال في قصة عاد " جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح" وفي قصة ثمود " جعلكم خلفاء من بعد عاد " [1] .

ويقوى هذا الوجه ما لحظه الغرناطي من إحالة آي الأنعام إلى الاعتبار بالأمم السالفة وتكراره ولم يجر ذلك من قبل في السور السابقة لها فاقتضى وضعها عقيبها " لأنها بسط واتباع لبعض عناصرها . [2]

والسيوطي يجعل السياق متلاحماً بتتبع لفظه الخلافة المتحدرة من تحت أغراض الأنعام التي جاءت لبيان الخلق وامتزاجها بذكر الأمم السالفة في الأعراف وأحياناً تقتص السورة المعاني المجملة في السورة قبلها فتزيدها إبانة وتفصيلاً حتى تكاد لا تغادر منها شيئاً كما في منزلة آل عمران من البقرة " فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه " لا ريب فيه " وقيل في آل عمران " نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه " وذلك بسط وإطناب لنفي الريب عنه .

ومنها : أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجملاً وقسمه هنا : إلى آيات محكمات و" متشابهات " .. ومنها أنه أوجز في البقرة ذكر المقتولين في سبيل الله ، بقوله " أحياء " وزاد

---

(١) " تناسق الدرر" ، ص٧٠-٧١ .

(٢) ينظر " البرهان ، ٢١١ .

هنا " عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم " وذلك إطناب عظيم .

ومنها : أنه قال في البقرة " والله يؤتي ملكه من يشاء وقال هنا " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " الآية ، فزاد إطناباً وتفصيلاً ... " [1] .

ولم يكتف بملاحظة التشابه في المباني وتتبع كل لفظة انجرت في سياق آل عمران وما داخلها من زيادات وإنما رد ذلك إلى تكامل مقاصدهما وترتب كل منهما على الآخر ذكر : " أن بين هذه السورة وسورة البقر اتحاد شديد وتلاحم متأكد لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إقامة الحجة وهذه بمنزلة إزالة الشبهة ولهذا تكرر ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب من قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم " [2] .

ونوع آخر من مواقع السور في السور تكون فيه السورة استدارة على مضامين ما قبلها تبرز ما دفن واستكن وتضمر ما ظهر منها وفصل ، فتصبح السورة في قلب الأخرى و هذه روعة الإعجاز وتسامق بيانه وتشعب أفانينه في تصريف المعاني وتقليبها ظاهراً وباطناً نحو موقع أغراض النساء في آل عمران وما طوته من مفصلها وما نشرته من مجهلها .

" ومنها : أنه لما قال في آل عمران في المتشابه " والراسخون في العلم يقولون آمنا به " قال : هنا : " لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك " .

ومنها : أنه لما قال في آل عمران : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا" فصل هذه الأشياء في السورة التي بعدها على نسق ما وقعت في الآية ليعلم ما أحل من ذلك فيقتصر عليه وما حرم فلا يتعدى إليه لميل النفس إليه ففصل في هذه السورة أحكام .

ثم فصل فيها ذكر البنين أيضاً لأنه لما أخبر بحب الناس لهم وكان من ذلك إيثارهم على البنات في الميراث وتخصيصهم به دونهن ، تولى قسمة الميراث بنفسه ، وقال : "يوصيكم

---

(١)" تناسق الدرر " السيوطي ٤٨-٤٩ .

(٢) السابق ٥١ .

الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين " ... فكان ذلك تفصيلاً لما يحل ويحرم من إيثار البنين اللازم عن الحب ، وفي ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكور أخذه من الذهب والفضة وما يحرم " [1] .

فهذه العناصر أجملت فصيرها التفصيل من كونها فروعاً إلى أغراض وقضايا تدور عليها مقاصد النساء ، وبعض آيها طي وقبض لمقاطع من آل عمران أكتفى بالإشارة إليها فـ " سورة آل عمران ذكرت فيها قصة أحد مستوفاة وذكر في هذه السورة ذيلها وهو قوله " فمالكم في المنافقين فئتين " .... ومنها التي بعد أحد في قوله : " الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح " الآيات ، وأشير إليها هنا بقوله : " ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون " [2] .

وكذلك القصص بين ثلاث سور هي : مريم ، وطه ، والأنبياء ، والمراوحة فيها بين القبض والبسط رعاية لما ذكر منها في الأخرى وما طوي فـ " لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء وهم : زكريا ويحيى وعيسى والثلاثة مبسوطة ، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز ، وموسى وهي موجزة مجملة ، وأشار إلى بقية النبين في الآية الأخيرة إجمالاً وذكر في هذه السورة شرح قصة موسى التي أجملها هناك فاستوعبها غاية الاستيعاب ، وبسطها أبلغ بسط.

ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم ، الذي وقع في مريم مجرد ذكر اسمه هناك .

ثم أورد في سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر قصته في مريم ، كنوح ولوط وداود وسليمان ، وأيوب ، واليسع وذي الكفل ، وذي النون .

وأشير فيها إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة كموسى وهارون وإسماعيل وزكريا ومريم لتكون السورتان كالمتقابلتين .

---

(١)" تناسق الدرر " السيوطي ٥٧-٥٨-٥٩ .

(٢) السابق ٥٦ .

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ، ولم يذكر حاله مع أبيه إلا إشارة كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ، ومع أبيه مبسوطاً فإنظر إلى عجيب هذا الأسلوب وبديع هذا الترتيب" [1]؟

أو تتفرع السورة من تحت بعض كلمات السورة السابقة أو جمل محدده فتعمل على تشكيل مقاطعها وتدير أغراضها فتتفرق وتتوزع ثم تعود لتجتمع عند الكلمة الأم كما في سورة البقرة حيث تأتلف أغراضها المتنوعة في مجموعات تتحدر إلى أصولها في الفاتحة وتصب في دلالتها فـ " قوله : " الرحمن الرحيم " قد أومى إليه في قصة توبة آدم .. وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة .. وما وقع من قصص بني إسرائيل .. وذكر آية الدين إرشاداً لعباده ، ورحمة بهم ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر .. وقوله " إياك نعبد " مجمل شامل لجميع أبواب الشريعة الفروعية ، .. وقوله: " إياك نستعين " تفصيله شامل لعلم الأخلاق وقد ذكر منها في هذه السورة الجم الغفير من التوبة والصبر والشكر والرضى ..وقوله " أهدنا الصراط المستقيم .. ما وقع في السورة من ذكر سيرة الأنبياء ، ومن خادعهم من اليهود والنصارى.."[2].

وسورة يوسف ترتد إلى اربع آيات في هود تتفرع عنها مقاطعها ، وهي : " قوله تعالى "إن الحسنات يذهبن السيئات " و قوله : " واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " ، وقوله : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة " وقوله : " وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون " فتدبر ذلك .

أما نسبتها للآية الأولى فإن ندم أخوة يوسف واعترافهم بخطأ فعلهم وفضل يوسف عليهم وعفوه عنهم " لا تثريب عليكم اليوم " وندم امرأة العزيز وقولها " الآن حصحص الحق.... الآية " كل هذا من باب إذهاب الحسنة السيئة ، وكأن ذلك مثال لما عرف المؤمنون من إذهاب الحسنة السيئة ، وأما نسبة السورة لقوله تعالى : " واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه عليه السلام بالصبر على قومه ، فاتبع بحال

---

(١)" السابق ٩٤-٩٥ .

(٢)" تناسق الدرر" ص٤٢-٤٣ .

يعقوب يوسف عليهما السلام ، وما كان من صبرهما مع طول المدة وتوالي امتحان يوسف عليه السلام بالجب ومفارقة الأب والسجن حتى خلصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات .

ويوضح ما ذكرناه ختم السورة بقوله تعالى : " حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصر ... " فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن عاقبة أولياء الله فيه ، وأما النسبة لقوله " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين " فلا أنسب لهذا ولا أعجب من حال أخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحي عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولي الألباب ، وأما النسبة لآية التهديد فبينة وكأن الكلام في قوة أعملوا على مكانتكم وانتظروا ، فلن نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف (عليهما السلام) وقد وضح بفضل الله وجه ورود هذه السورة عقب سورة هود . والله أعلم . [1]

وتتنوع العلاقات فتقع بعض السور موقعاً غير التفصيل فتجري مجرى التكميل لما قبلها كما في سورة الزمر والتحامها بسورة ص حتى أنه " لو سقطت البسملة لالتأم الكلام كالآية الواحدة ولم يتنافر .

ثم إنه تعالى ذكر في آخر ص قصة خلق آدم وذكر في صدر هذه القصة خلق زوجه منه وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ثم ذكر بأنهم ميتون ثم ذكر وفاة النوم والموت ثم ذكر القيامة الحساب والجزاء والنار والجنة ...

فذكر أحوال الخلق من المبتدأ إلى آخر المعاد متصلاً بخلق المذكور في السورة التي قبلها.[2]

أو تكون في حكم الجملة المقابلة لأختها في التركيب الواحد فيراعى في ترتيبها الخصوصيات المرعية في أحوال الجمل الواحدة كما في ترتيب أغراض سورة الواقعة وتنزيلها وفقاً لمنازل المعاني في سورة الرحمن ذكر ذلك السيوطي يقول : " وانظر إلى اتصال قوله هنا

---

(١) " البرهان " الغرناطي ٢٢٩-٢٣٠-٢٣١ .

(٢) " تناسق الدرر " السيوطي ١١٧ .

"إذا وقعت الواقعة " بقوله هناك " فإذا انشقت السماء " ولهذا اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء وفي الواقعة على ذكر رج الأرض فكأن السورتين لتلازمهم واتحادهما سورة واحدة فذكر في كل شق ولهذا عكس في الترتيب فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك ، كما أشرت إليه في سورة آل عمران مع البقرة ، فافتتح في سورة الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان والجان من مارج من نار ، ثم صفة يوم القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة وهذا ابتداؤها بذكر القيامة ثم صفة الجنة ثم صفة النار ، ثم خلق الإنسان ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم ذكر النجوم ولم يذكرها في الرحمن كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ثم ذكر القرآن . فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك وكرد العجز على الصدر " [1] .

وعلماء المناسبات لفتوا من خلال تفتيشهم في ما أنجر من أغراض السورة السابقة وما استطال من بيانها في السورة المجاورة إلى وظيفة تلك الأغراض في تكوين مقاصدها وسياقها الخاص ، فسورة الأنبياء لما افتتحت بقوله تعالى " اقترب للناس حسابهم " وتكرر فيها التهديد في مواضع منها " ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك " " وهم من الساعة مشفقون " ، و" اقترب الوعد الحق " و " يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب " : " إلى ما تخلل هذه الآي من التهديد وتشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بما في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة .. اتصل بذلك ما يناسبه من الأعلام بهول الساعة وعظيم أمرها فقال تعالى : ↓ ③♦⓫⓾♍▫☪☜▫☐↓

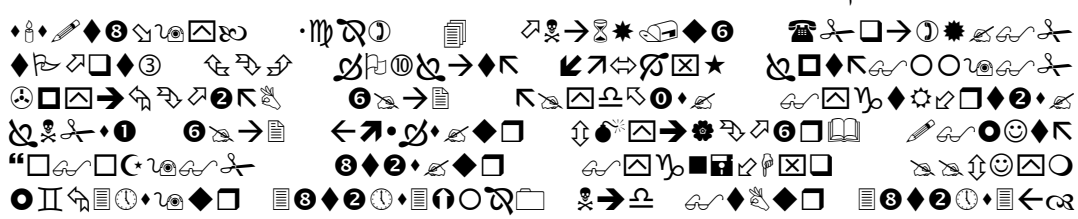

(١) السابق ، ص١٢٩ .

ﭐﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ (١) ثم اتبع ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان " (٢) .

أي أن هناك معان فرعية تلح وتصبح هاجساً تتشوف النفس وتستشرف بيانه فتأتي التالية إشباعاً للمعنى فيصبح مقصداً تؤمه السورة.

وتتعقد العلاقة وتدق حينما تتشابك مجموع آيات لتنتج دلالة ومقصد السورة التالية فيتطلب الأمر يقظة شديدة وحساً متقداً يلامس الخيوط والوشائج ويتتبع أصولها الغائرة في مقاطع السورة السابقة فهي فهي لا تتعلق بآية أو معنى مجمل تفصله وإنما إيحاءات تتولد من تناسج آياتها وتنبسط على مساحة كبيرة وتظل تلح عليها حتى تمتد من ضمير تلك السورة لتتحول إلى معنى صريح تقصده السورة التالية وتجليه في بيانها مثل ما ذكره الغرناطي في موقع سورة يونس عليه السلام من التوبة يقول : " لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى " إلا تنصروه فقد نصره الله " وقوله " عفا الله عنك لم أذنت لهم " وقوله " رحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم " وقوله لقد جاءكم رسول إلى آخر السورة ، إلى ما تخلله أثناء آي هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب ، ووصفه بالرأفة والرحمة ، هذا مع ما انطوت عليه هي والأنفال من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه ، وعلو دعوته وإعلاء لكلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه ، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك ومثيراً لتحرك ساكن الحسد من العدو لعظيم ما منحه عليه السلام ، قال تعالى في هذه السورة : " أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس إلى قوله لسحر مبين " ثم قال تعالى : " إن ربكم الله " فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير ، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبديه"(٣).

---

(١) الحج ، آية : ١-٢ .

(٢)" البرهان " الغرناطي ٢٥٦ .

(٣)" البرهان " الغرناطي، ص٢٢١-٢٢٢ .

على أن هذه المعاني والأغراض المتحدرة من أبنية السورة السابقة لم تأت عفواً وإنما قصد إليها وروعي فيها خصوصيات لغوية تتسق بها المباني وتنتظم فتحكم الربط وتبني المعنى على المعنى ، فسورة الرحمن ارتدت على آيات القمر ففصلت مجملعها على الترتيب الوارد في الإجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى إذهابها ثم وصف النار وأهلها ولذا قال : "يعرف المجرمون بسيماهم " فلم يقل الكافرون أو نحوه لاتصاله بقوله هناك " إن المجرمين " ثم وصف الجنة وأهلها وكذا قال فيهم : " ولمن خاف مقام ربه جنتان " وذلك هو عين التقوى ولذلك لم يقل ولمن آمن أو أطاع ، أو نحوه ، لتتوافق الألفاظ في التفصيل ، والمفصل ، وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها " [1] .

وتأمل قوله " لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل " وما فيها من التنبيه على القصد وأن السورة بناء على نسق ما قبلها ويهيئ لذلك اختيار ألفاظ مكنت لموقعها في بيان ما قبلها ونسجتها في نسيجها .

وسورة المؤمنين لما كانت تفصيلاً لقوله تعالى : ↓ ③♦③❒③⑩♈♋☎✂❑↖➔•🖹⬀❻✍✂ ☎✂❑↖☪♦✍✂◆↗ ☎✂❑↖➔•🖹⬀❻✍✂ ☎✂❑←⑨→↗⇔✍✂◆❒ ☎✂❒←⑨←⧖⇳↖✍✂◆❒ ☎✂❑➔🖬🖂➔⬂✍✂◆❒ ☎✂❑➔🖬🖂➔•✍ ◆❸⬀❷🖂②⬂✍✂ ☎✂❑←•✍🖬⬂▦➔✍ ↑ [2] رتبت عليها وعلقت بها فأحدث ذلك تغيرات في النظم للوصول فألفت بين السورتين وجعلتهما أشبه بالسياق الواحد ذكر ذلك الغرناطي في قوله : " والالتحام الكلاميين أورد الأول أمراً والثاني في مدحه وتعريفاً بما به كمال الحال ، وكأنه لما أمر المؤمنين وأطمع بالفلاح جزاء لامتثاله كان مظنة لسؤاله عن تفضيل ما أمر به من العباد وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه فقيل له : المفلح من التزم بكذا .. "[3].

وكذلك سورة الملك لما افتتحت بتبارك مكنت لحضور السياقات السابقة لأن التنزيه لا يأتي إلا متصلاً بأمر سابق وعقيب إيراد عجائب ودفع شبهات يقول : " ورود ما افتتحت

---

(١)" تناسق الدرر " السيوطي ١٢٨ .

(٢) الحج آية ٧٧ .

(٣) " البرهان " ٢٥٧ –٢٥٨ .

بهذه السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقيب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه " [1] .

وحرصهم على الوحدة وتماسك النظام بين السورتين لا يلغي خصوصية كل سورة ومقاصدها بل نبهوا على ما يدخل البناء اللغوي من ألفاظ تحول مسار السياق وتشق مجرى لمقاصد جديدة تضيفها السورة التالية على مقاصد ما قبلها . مثل ما جاء في البقرة " وما أنزل من قبلك " مجملاً ، وقال هنا : " وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس " مفصلاً وصرح بذكر الإنجيل هنا ؛ لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها ، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة لأنها خطاب لليهود " [2] .

فقوله تعالى : " وأنزل التوراة والإنجيل من قبل " امتدت من مقاصد البقرة لتعانق بين السورتين ثم نبذ فيها بلفظه الإنجيل تهيئة للخطاب مع النصارى وإعلاماً بمقاصد السورة .

وسورة النحل قررت وعيد المستهزئين المذكورين في آخر سورة الحجر في قوله : ♦×✓🔗➔◆🏴⬁🕭❒🕮 ⇔🏳←♈□✲■🖬♦★⇔○□✲♦🔗 🖎①🔗■🖎◆❻◆❑♦▫ ↓ ⬁🔗🔗⬀ ↑ [3] و" أعقب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال تعالى " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وزاد هذا بياناً قوله سبحانه وتعالى : " عما يشركون " فنزه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم واتبع ذلك تنبيها وتعظيماً فقال : " خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون " ثم اتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان "[4] .

فقوله سبحانه وتعالى " عما يشركون " قناة فتحت مجرى لآيات التنزيه وكانت مداراً لأغراض السورة ، والتنزيه استلزم تقريراً لألوهية ودلائل صنعه فانجر الكلام إلى ذكر خلق السموات والأرض وابتدأ خلق الإنسان ، ثم ألقى في سياق الخلق وصفاً أحال إلى مقاصد سابقتها وأحكم لحمة السياقين بقوله " فإذا هو خصيم مبين " وهذا الوصف استدار بفصول سورة النحل إلى أجواء آيات و عيد المستهزئين في سورة الحجر وصب في بيانها و نمى معانيها

---

(١) السابق ٣٤١ .

(٢)" تناسق الدرر " السيوطي ٤٨-٤٩ .

(٣) سورة الحجر ، آية : ٩٢ .

(٤)" البرهان " الغرناطي، ٢٤٢ .

و إن اتخذ هيئة أخرى و مسلكاً مختلفاً في صورة عرض الدلائل إلا أنه يجاذب المقاصد السابقة وينقل مضامينها ويعالج ما فيها من دخل ، وقد نبه الغرناطي على أن عرض الدلائل منزل على تلك المقاصد واقع فيها فجاء " بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلته ، وخلق الإنسان من نطفة " ثم أبلغه تعالى حداً يكون منه الخصام والمحاجة ، وأعقب هذا بذكر بعض ألطافه سبحانه في خلق الأنعام وما جعل فيها من منافع المختلفة وما هو سبحانه عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخر العقوبة عن مستوجبها ، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله قوله " ولو شاء لهداكم أجمعين " فبين أن كل الواقع من هداية وضلال خلقه وفعله وإنه وجد الكل من واحد وابتدأهم ابتداء واحد ، خلق الإنسان من نطفة ، فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك " [1] .

أي هي فذلكه لذلك الوعيد منحته أجواء السورة تأنياً وسمتاً هادئاً أشاعته جملة "فلا تستعجلوه " .

ولما تشابهت الأحقاف مع الجاثية نبه المطلع على ذلك التشابه وقرره بقوله " ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق " وأجل مسمى ، ثم شعب غرضاً خاصاً وفتح قناته بزيادة لفظه الأجل ذكر ذلك البقاعي في قوله : " ولما ثبت في الجاثية مضمون قوله تعالى في الدخان ، وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لعبين " بما ذكر فيهما من الآيات والمنافع والحكم ، أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل... ولما كان من المقاصد هنا الرد على المجوس وغيرهم ممن ثبت خلقاً لغير الله قال : " وما بينهما " [2] .

أو تتكاثر آيات معينة تلح على مضمون كلي يكون مداراً لآياتها مع ندرة حضورها فيما سبقه من السور فيكون ذلك بمثابة منارة تهدي إلى القصد وتنبه المخاطب وتحفزه لتتبع خصوصية تلك الآيات مثل ما جرى في سورة الشورى وتحديد مقصدها من تلاحق آيات أحكمت وصلها بمقاصد سورتي غافر والسجدة يقول : " لما تضمنت سورة غافر ما تقدم من

---

(١) " البرهان " ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٢) " نظم الدرر " ١١٥/٧ .

بيان حال المعاندين والجاحدين وأعقبت بسورة السجدة بياناً أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم وإيضاحات لآيات الكتاب العزيز وعظيم برهانه ، ومع ذلك فلم تجد على من قضى عليه تعالى بالكفر ، اتبعت السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية " فريق في الجنة وفريق في السعير " " وما أنت عليهم بوكيل " " ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة " " ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم " " لنا أعمالنا ولكم أعمالكم " " ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم " " وهو على جمعهم إذ يشاء قدير " " وما أنتم بمعجزين في الأرض " ، " ومن يضلل الله فما له من سبيل " ، " إن عليك إلا البلاغ " ، " نهدي من نشاء من عبادنا " .

فتأمل هذه الآي وما التحم بها مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر ومحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها " [1] .

ولما كان غاية علماء المناسبات البحث في العناصر المؤثرة في تكوين مقصد السورة لم يقصروا النظر على الوشائج الناظمة للسورتين المتعاقبتين كتشابه الافتتاح أو تعلق مطلع السورة بمقطع ما قبلها ، وإنما تتبعوا منابع المعاني في أصول السور البعيدة وما أنساب منها في بيان تلك السورة وهذا يتطلب لطف وبصيرة في تصنيف المعاني أصولها وفروعها ورد كل فرع إلى أصله ثم القبض على نقطة التقاء الأصول عند معنى جامع يؤلف ما اختلف ويصيره بياناً متفقاً ومقصداً مكتملاً ، هذا المعنى هو مناط نظرهم فيه تتبين منازل ورتب السور بعضها من بعض وسبب أن قدمت تلك وأخرت الأخرى وتوسطت الثالثة ، نحو موقع الأنعام فيما تقدمها من السور فهي " بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال " رب العالمين " وبالبقرة من حيث كونها شرحاً لإجمال قوله " الذي خلقكم والذين من قبلكم " وقوله " هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً " .

وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله: " والأنعام والحرث " وقوله : " كل نفس ذائقة الموت " .

---

(١) "البرهان" الغرناطي ص٢٩٨-٢٩٩ .

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق والتقبيح لما حرموه على أزواجهم ، وقتل البنات بالوأد .

وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها " [1] .

فتتبع أغراض الأنعام في السور الخمس المتقدمة وجاذب نظائرها في تلك السورة ومدى صلتها بالمقصد الأم ، فالبقرة التقت معها في معنى أصل وهو ذكر الخلق وتضمن ذكر الخلق معنى الملك ، ثم توزعت السور بعدها مضامين البقرة وانحدر إليها هذان الأصلين : فآل عمران جرى فيها أمر الخالق فذكر " الأنعام والحرث " والنساء عالجت خلق الإنسان وما يتعلق به والمائدة جاءت بما يتعلق بالطيبات من الأطعمة وغيرها . فلما تفرقت تلك الأصناف تطلبت مقصداً جامعاً يعانق بين أصلي الملك والخلق ويعيد تأليفهما فقصدت الأنعام ذلك وهيأ لذلك وضعها بعد سورة المائدة لتضمنها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [2] وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [3] وأخبر فيها عن تحريم الكفار لأشياء افتراء على الله للتشنيع عليهم ولتحذير المؤمنين أن يحرموا ما أحل الله [4] . فـ " الإذن فيها .. مسبب عما ثبت له من الفلق والتفرد بالخلق ، وتضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها دينا ، لأنه لم يأذن فيه ولا إذن أحد معه ؛ لأنه المتوحد بالألهية لا شريك له وحصر المحرمات من المطاعم التي هي جلها في هذا الدين وغيره فدل ذلك على إحاطة علمه " [5] .

---

(١)" تناسق الدرر " السيوطي ٦٧ –٦٨ .

(٢) المائدة ٨٧ .

(٣) المائدة ١٠٣ .

(٤)" تناسق الدرر " السيوطي ٦٦–٦٧ .

(٥)" نظم الدرر " البقاعي ٥٧٨/٢ .

لذلك لم يحسن تقديمها بعد الفاتحة رغم أن جميع معانيها متحدرة من تحت لفظ "رب العالمين " وقدمت البقرة مع أن التعبدات والأحكام متأخرة عن أمر الخالق لفائدة وأصل بياني من رعاية الأهم " بالإشارة إلى مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا ، ولأن المقصود من الخلق إنما هو العبادة فقد ما هو الأهم في نظر الشرع " [1] .

أو يتأخر ترتيبها عن الأصل الذي تفرعت عنه لتصعيد المعنى ، فتمهد له السورة ثم تتلاحق السور بعدها تحمل شياته وأحواله فتضمنه إيحاء دون التصريح فتتنامى تلك الإيماضان وتتصاعد من عمق التراكيب ليتمخض عنها مقصداً تؤمه السورة كما في معنى المبالغة في توبيخ المشركين وزجرهم الذي دارت عليه آي القمر ونموه من سورة ص ذكر ذلك الغرناطي في قوله " أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه للازدجار ، فقال تعالى : " اقتربت الساعة وانشق القمر " ثم إن سورة ص تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها .

و .. انبنت السور بعد على تمهيد ما تضمنته سورة ص فلم تخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم كقوله في الزمر " والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " .. وقوله في سورة غافر " ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد " ... إلى ما تخلل هذه الآي كقوله في السجدة " فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون " وقوله في الشورى " والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل " إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع ، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها ، وقوله في الدخان : " بل هم في شك يلعبون " إلى قوله " يوم نبطش البطشة الكبرى إنا مقنتقمون " وقوله في الشريعة " فبأي حديث بعد الله و آياته يؤمنون " إلى قوله : " والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم " .. وقوله في الأحقاف " والذين كفروا عما أنذروا معرضون " ومعظم آي هذه السورة لم يخرج عن هذا إلى خاتمتها ...

وكذا سورة الحجرات لتضمنه من الأمر بتعزيز النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد ، وما فيها ايضاً من ائتلاف أمر المؤمنين وجمع كلمتهم

---

(١)" تناسق الدرر " السيوطي ٦٦ .

وتآخيهم وموقع هذا من العدو بحيث لا يخفى على أحد ، وأما سورة " والذاريات " ، و "والطور " ، و " النجم " ، فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء وبذلك افتتحت كل سورة منها ، فتأمل مطالعها ، ففي ذلك كفاية في الغرض فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغت الآي في هذه السور من ذلك أقصى غاية وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم ولم يجدوا جواباً ، عرض عليهم سبحانه في سورة القمر أحوال الأمم مع أنبيائهم وكان القصد (من ذلك) والله أعلم مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم وأن لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم فهذه السورة أعذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم ، وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر ، لهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله " ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر " وختمها بقوله : " اكفاركم خير من أولئكم " وهذا ما قدمناه وكأن قد قيل أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبهم وتظنون أنكم ستفوزون بعظيم جرأتكم ، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجزل إيراد وأفحم عبارة وألطف إشارة " [1] .

وهنا يوظف الغرناطي مسلك الاقتصاص ليكشف عن مغزى السورة من خلال انعكاسات المعنى في مواقع متفرقة ، وحقيقة هذا المسلك " أن يكون الكلام في سورة مقروناً بلام الذكر ، فيقتص العالم ذلك من كلام آخر ما في تلك السورة وأما في سورة أخرى " [2] .

فاللام في قوله " ولقد جاءهم من الأبناء ما فيه مزدجر " ، لفت سياقات متباعدة ونسجتها في نسيج السورة فداخلت أغراضها وانغلت في تراكيبها وجعلتها جزء من بنائها حتى أصبح تحديد المقصد في غياب تلك المواقع لا ينهض بدلالة كاملة .

فلام الذكر ولا مذكور سابق في التراكيب حفز الذهن للخروج إلى دائرة منفصلة وسياقات خارجة باقتصاص آثار المعنى في السورة السابقة ورحلته في قلب الأبنية المتدة ليمد الإجمال ويحركه نحو التفصيل المنتج للسياق الخاص لسورة القمر فتعدت الدلالة أسوار السورة

---

(١) " البرهان " ٢١٩-٢٢٠-٢٢١-٢٢٢ .

(٢) "تيسير البيان " ١٥٨/١.

للتعانق نظائرها في الكتاب لتثير نصوصاً متعددة ذابت في بنائها واختلطت بأغراضها فانبعثت فيها إشعاعات لمقاصد أخرى أشرقت بها تقلبات المعنى ومراحله في السياقات السابقة من بدء كونه إبلاغاً متلطفاً مرغباً إلى إنذار مرهب إلى مرحلة التقريع حتى انتهى إلى التبكيت وقطع الحجة . فمعنى التبكيت لا يأتي مجرداً عن تلك المقدمات ، وتفسير قوله "ولقد جاءهم من الأنباء " على أنها تقريع إجهاض للدلالة وإخلال بمقاصد المتكلم من حيث أبان ، لأن وضع اللام ولا عائد هو تأسيس لمعنى مطوي رفعت عليه دعائم السورة .

وقد تقدم السورة لأنها مكملة لما قبلها ثم تعلق السورة بعدها بالسورة الأم وتبنى عليها كما في سورة تبارك ناسب مطلعها مقطع التحريم وتعلقت مضامينها بسورة الطلاق فجاءت موصولة بقوله تعالى : 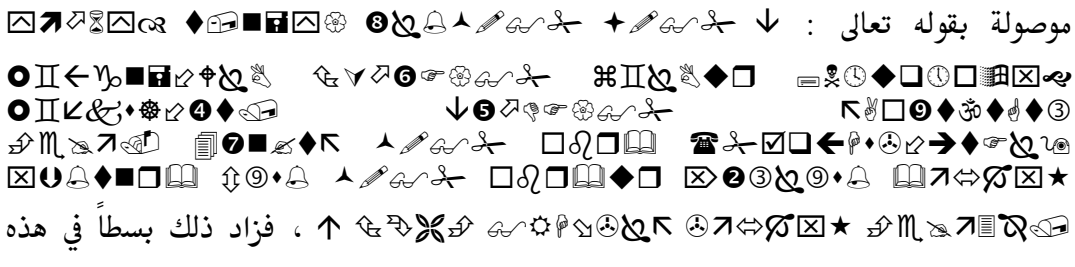 ، فزاد ذلك بسطاً في هذه بقوله تعالى : " الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن ... فطور " إلى قوله " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح " وإنما فصلت بسورة التحريم لأنها كالقطعة من سورة الطلاق والتتمة لها " [1] .

وسورة مريم أصل تفرعت عنه طه والأنبياء ومكن لموقعهما قوله : 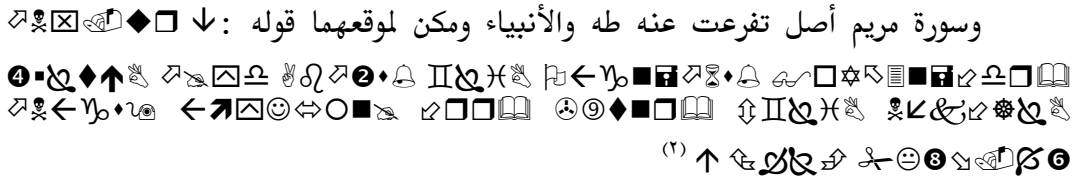 [2]

فـ " استدعت هذه الجملة بسط حال ابتداء بتأنيسه عليه السلام وتسليته حتى لا يشق عليه لردهم ، فتضمنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقوله : " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " وتأنيسه بقصة موسى عليه السلام وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى عليه السلام لدد فرعون ومرتكبه إلى أن وقصه الله وأهلكه وأورث عباده أرضهم

---

(١)" تناسق الدرر " السيوطي ص١٤١ .

(٢) مريم ٩٨ .

وديارهم ثم اتبعت بقصة آدم عليه السلام ليرى نبيه صلى الله عليه وسلم سننه في عباده حتى أن آدم عليه السلام وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه فقد كابد من إبليس ما قصه الله في كتابه ، وكل هذا تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه إذا تقرر لديه أنها سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدتهم ثم ابتدأت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس فبين اقتراب الحساب ووقع يوم الفصل المحمود فيه ثمرة ما كوبد في ذات الله والمتمنى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة وجليل الجزاء ، ثم اتبع سبحانه ذلك بعظات ودلائل ومواعظ وبسط آيات ، واعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته فأهلك من لم يكن من الإيمان من متقدمي القرون وسالفي الأمم " ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها " وفي قوله " أفهم يؤمنون " تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر قريش ومن قبيل ما الكلام بسبيله "[1] .

فالآية سكنت فيها دلالات متزاحمة ما بين الإنذار والتأنيس فتحلقت السورتان حولها لتغذيتها وبسط لوازمها ومقتضياتها فأنسل من أغراضها البشارة له – عليه الصلاة والسلام – الذي تضمنته سورة طه مع تأنيسه بالقصص لتقرير أنها سنة الله في عباده ، فإذا علم ذلك هان عليه إعراض قومه وشقاقهم فلما تم ذلك الغرض حارت سورة الأنبياء على أصل الكلام لتزيد جهة أخرى في التأنيس فأسس لمعنى آخر بذكر مكابدته – عليه الصلاة والسلام فانساق الكلام لبيان يوم الحساب وأنجر إلى العظات والدلائل ثم تثنى الكلام وتعطف عليه منبعه فأعاد المعنى بقوله : ↓ ✍🖋◆☪◆✂🖊◆⇧💣◆♊⌛🖬■🖬←☠Ⅱ ☎ ✍🖋⛫♍🕓❑✲⇖▤■🖬⇙⛢❒🕮 ✇❑◆③➋⇗♦🔔 ❒♦♍←☠⇗ 🕮❒⛢⇙🖬■▤⇖✲❑🕓♍⛫✍ ↑ ⇗♌❑❑⇖☪⇙🖊⇙♦⇖③ [2] فعانق بين الفرع وأصله وطوى بذلك الأغراض المختلفة داخل السورتين وجمعهما في عنق الآية وهذا أشبه بما يحدثه رد الأعجاز على الصدور في أحكام التماسك بين الشطرين .

---

(١)" البرهان " الغرناطة، ٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٢) الأنبياء ، آية : ٦ .

وقد تقع السورة موقع الجملة المعترضة بين متصلين كما هو حال السورة الحشر وتوسطها بين غرض واحد توزعته سورة المجادلة والممتحنة فسورة الممتحنة : " افتتحت بوصية المؤمنين على ترك موالاة أعدائهم ونهيهم عن ذلك ، وأمرهم بالتبري منهم وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة المجادلة " لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم إلى آخر السورة " وقد حصل منها أن أسنى أحوال أهل الإيمان ، وأعلى مناصبهم " أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه " فوصى عباده في افتتاح الممتحنة بالتنزه عن موالاة الأعداء ووعظهم بقصة إبراهيم عليه السلام والذين معه في تبرئهم من قومهم ومعهاداتهم والاتصال في هذا بين ، وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تماما الفائدة لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليها ، واعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم ، ثم اتبع ذلك ما عجله لهم من النقمة والنكال ، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة " [1] .

فالممتحنة وإن رجعت غرض المجادلة إلا أن تنزيلها بعد الحشر هيأ المعنى بهيئة أخرى وزاد فيه فائدة ماكانت لولا ذلك التوسط الذي جاء بتنزيه الله عن أعتدائهم وعصيانهم ونقمته عليهم ، فلما كانت التبرئة تتعلق بأولى القربى والنفوس تجد مشقة في ذلك مهد للأمر بذكر ما من شأنه إزالة هذه المشقة بذكر أفعالهم وعصيانهم حتى إذا استشبعته النفوس واستقبحته مكن لصريح الأمر .

وتأمل حال المعنى قبل مجيء سورة الحشر وصورته بعد التحامه به ، وكيف جسرت لانتقال المعنى من الخبر والوصية إلى الإلزام والتأكيد وكذلك يكون حال الجمل الاعتراضية " تشبه في الكلام الثمرة الكريمة التي تسقط فور نضجها لا تبالي في أي موقع سقطت ، ولو أن المتكلم هيأ لها مكاناً غير الاعتراض لما ألتفت السامع إليها إلا بقدر ما يلتفت لغيرها من الجمل " [2] .

---

(١)" البرهان " الغرناطي ٣٣٣ .

(٢) " المراجعات " د . محمد أبو موسى، ١٢٧ .

الفصل الثاني

التناسب بين السور المتشابهة المطالع

أبان الفصل السابق عن إلتحام الكلام من خلال ما يحدثه الترتيب والتوالي بين السور من فوائد قياساُ على الترتيب بين الجمل والأغراض داخل السورة ، فما دام أن الترتيب في بنية السورة تنتج عنه فوائد وتنبيهات ويحكم تماسك الكلام ، فكذلك بين السور المتوالية تلتحم به المقاصد وتتكامل فتأتي السورة بناء على ما قبلها تبعث أغراضها من بقايا معان اندست في بيان سابقتها فتنسل في بيان ما بعدها .

وهذا الفصل يتجاوز حدود الوحدة المتولدة من التجاور والتوالي إلى تلاحظ السورة مع السور المشابهة لها ، وذلك من خلال إعادة عناصر من السورة السابقة وغرسها في لحمة بيان تلك ، ووقف علماء المناسبات عند المطالع المتشابهة التي تتنازعها عدة سور وشأنها في وحدة الكلام وجمع أطرافه ، وكان اختيار المطالع لأنها أبرز المكونات التي تشكل مقاصد السورة وأغراضها . فتكرار عناصرها في افتتاح سورة أخرى مهيئ لوصلها وترتيبها على السورة المتقدمة ، فتجاذبها بالتأكيد لتشابهها معها ، وتستقل بزوائد تؤسس بها لمعان مستقلة عنها . فالتشابه ضابط لحركة مقاصد تلك السورة في الأخرى ومدى تدخلها في بنائها بمقدار ما أعيد فيها من عناصر .

وهو نوع من الروابط عمله يتجاوز حدود السورة مع الجهات المحيطة بها للتنقيب والتفتيش عن ما وراء المعالم المتشابهة من إيحاءات وفوائد . وهذا مسلك من مسالك العربية في الإبانة نجده في الشعر يحتال به المتكلم لإدخال سياقات أخرى في كلامه ليشابك بين نصوصه ويفرع بعضها من بعض ، وفق ضوابط مقننة من قبل المتكلم يبث فيها العناصر بنسب مقدرة تناسب السياق الأخر ويطوي ما لا يتلاءم معه؛ مما يجعل طرح هذا المسلك من الترتيب في معالجة البيان وتحليله يخل بمقاصد المتكلم وما تجشمه من خصوصيات ليحدث بها دمج السياقات والمقاربة بينها . ويصبح معه الوعي بالنص منفرداً غير كاف للإحاطة بحقائقه في غياب السياق الأم ، وإنما تظل الحاجة بالغة لاستدعاء المتشابه وضمه إليه .

قد لفت الإمام إلى أن التشابه بين المطالع ليس من التكرار بل هو ضرب من التصرفات يقصد إليه المتكلم ، ويخضع لاعتبارات من الاختيار والترتيب للإبانة عن أحوال وأغراض لا تتأتى إلا بالتشابه ولا يصل الدارس إلى ما تحتها إلا ببعث ما وراء الائتلاف من اختلاف وإن جاءت صورته صورة الإعادة والتكرار . وذلك من خلال تحليله لفائدة التشابه بين مطالع خمس سور من القرآن وهي : الفاتحة في قوله :

(١)

والأنعام في قوله :

(٢) .

والكهف في قوله :

(٣)

وسبأ في قوله :

(٤)

وفاطر في قوله :

(٥) .

---

(١) الفاتحة ، آية : ٢ .

(٢) الأنعام ، آية : ١ .

(٣) الكهف ، آية : ١ .

(٤) سبأ ، آية : ١ .

(٥) فاطر ، آية : ١ .

ذكر " أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر ، ونعم الله قسمان : عاجلة وآجلة ، والعاجلة وجود وبقاء ، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى ، وقوله تعالى :

إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد ، واستدللنا عليه بقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ وقوله في الكهف

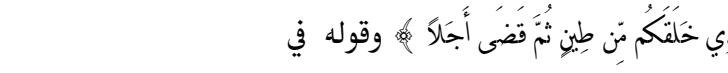

إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب ، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم فكان يفضي ذلك إلى التقاتل والتفاني ، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل ، وفي قوله في سورة سبأ :

إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر ، واستدللنا عليه بقوله " يعلم ما يلج في الأرض " من الأجسام " وما يخرج منها ما ينزل من السماء " من الأرواح " وما يعرج فيها " وقوله عن الكافرين : " وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي " ، وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة ، ويدل عليه قوله تعالى " جاعل الملائكة رسلاً " أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله ، كما قال تعالى " وتتلقاهم الملائكة " وعلى هذا فقوله تعالى " فاطر السموات" يحتمل وجهين . الأول : معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس ، والثاني : " فاطر السموات والأرض " أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى : " جاعل الملائكة رسلاً " فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلاً ، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى ، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت . كما قال تعالى عنهم " وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش " فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين وبين أن يفتح لهم أبواب الرحمة " [1] .

---

(١) " التفسير " ٢٢١/٩ .

فحضور " الحمد لله " وتكراره بعد تصديره لفاتحة الكتاب أحال إلى ذلك الموقع ، وحرك النفس وبعثها على اقتصاص الأصل الجامع واستكشاف موضع الالتقاء وبين السور الخمس التي تجتمع في كلمة ثم تتوزع في مواقع متباعدة ، فالحمد لما اقترن وجوده ابتداء بالنعم لزم عنه أن يكون ما بعدها داخل في ذلك المعنى ومتفرع عنه وصف هذا في قوله عن الكلمة الأم في سورة الفاتحة : " وهذه السورة مسماه بأم القرآن فوجب كونها كالأصل والمعدن ، وأن يكون غيرها كالجداول المتشعبة منه ، فقوله : " رب العالمين " تنبيه على أن كل موجود سواه فإنه دليل على إلهيته . ثم إنه تعالى افتتح سور أربعة بعد هذه السورة بقوله " الحمد لله " ... وهذه أسرار عجيبة ولطائف عالية إلا أنها بأسرها تجري مجرى الأنواع الداخلة تحت البحر الأعظم المذكور في قوله " الحمد لله رب العالمين " فهذا هو التنبيه على أن قوله " رب العالمين" يجري مجرى ذكر الدليل على وجود الإله القديم " [1] .

فكأن ملازمة الحمد واقترانها ابتداء مع لفظة رب العالمين استلزم حضور ذلك المعنى معها ومصاحبته لها في تحولاتها وتقلباتها في مختلف السياقات ، وقد وجد أن تحت كل قيد من القيود المتنوعة التي أضيف إليها الحمد في تلك السور عنصر من عناصره وجزء من أجزائها ، فكانت كلمة " رب العالمين " أصلاً وجه تلك القيود وشق جداولها وشعبها من نبعها ، فتلك الكلمة أحاطت في مبناها بجميع أنواع النعم العاجلة والآجلة وطوت أقسام كلا النوعين من حيث الوجود والإبقاء فلما نشرتها السور وفصلتها انسلت منها على نفس النظام والترتيب في وضع الكلمة الأم ، فقدم النعم العاجلة وبدأ بما كان منها بغير واسطة ممثلة في نعمة الإيجاد والتربية في سورة الأنعام ثم عقبها بنعمة الإبقاء وهي ما كانت حاصلة بواسطة الرسل وذلك بإنزال الكتاب والشرائع التي بها صلاح أحوال الناس ومعاشهم . فلما تمم ذلك القسم بنى عليه قسيمة المقابل ونسقه على منهاجه في الترتيب فقدم نعمة الإيجاد في الآجلة وتلاها بنعمة الإبقاء في الآخرة .

ورعاية الحذو في تنظيم الكلام وتنسيقه على نسق ما قبله نبه على القصد في توزيع المتشابهات وحفز الذهن لتصنيفها وضم بعضها إلى بعض واستثارة ما وراءها من أسرار تتعلق

---

(١) التفسير ، ١٦٢/١ .

بمقاصد السور وتتحدر بها إلى أصل متفق . فقارب الحذو بين السياقات المتباعدة وجمع بينها في ربقة . وزاد في المعانقة بين الكلامين عطف الفرع الأول من القسم الثاني ورده على الفرع الأول من القسم الأول بإعادته ومداخلته به للبناء عليه فقال في سبأ " الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الأخرة " ؛ لأن " نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الأرض ، ثم قال : " وله الحمد في الآخرة ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال : " وهو الحكيم الخبير " إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخير والحكمة صفة ثابتة لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة " [1] .

ويزاد على ما ذكره الإمام في تناسب السور وتنسيقها أنه لما آخر في تفريع النعمة العاجلة ما يكون منها بواسطة راعي ذلك في القسم الثاني ، فجاءت نعمة البقاء في الآخرة بشرى من الملائكة لمن آمن بما أعد لهم في الآخرة من رحمة .

فالمتكلم سبحانه بهذا التشابه يدل على السياقات المتفقة في كلامه ويقارب بينهما ويجعلها نسقاً واحداً تتدرج فيه أحوال المعنى حتى يصل إلى التكامل ويصير معه تحليل السورة منفردة مثل الوقوف عند الكلمة من النظم تؤدي مقصداً مجرداً دون بيان الخصوصية ؛ لذلك حينما وجه الإمام العلاقة بين المطالع ابتداء ذكر تناسبها في المعنى المجرد حيث قال " فبين في أول سورة الأنعام أن السموات والأرض له ، وبين في أول سورة سبأ أن الأشياء الحاصلة في السموات والأرض له ، وهذا أيضاً قسم من ا لأقسام الداخلة تحت قوله " الحمد لله رب العالمين " [2] . فلما تتبع مراتب المعاني وترتيبها لاحت له الخصوصية ، لأن جمع عناصر الكلام واقترانها ورد آخرها على أولها يحدث زيادات في أصولها وينمي معانيها وذلك نحو الفائدة التي يؤديها الترتيب في الجمل المتقابلة " فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً ، وآخره ما يليقي به آخراً " [3] وفق نسب تقتضي تعلق أحدهما بالآخر ينتج من مجموعها

---

(١) " التفسير " ١٩١/٩ .

(٢) السابق ١٦٢/١ .

(٣)" العمدة " ابن رشيق ١٥/٢

حكماً كلياً هو صورة وهيأ للمعنى الذي أراده المتكلم والذي من أجله أورد العبارة هذا الإيراد ورتبها على هذا الترتيب .

وقد نتج من ترتيبها على هذا الخصوص معنى كلياً هو انعكاس ضمني لما صرح به في الجملة الأم " الحمد لله رب العالمين " فالتقت حلقتا الكلام واجتمعت أجزاؤه عند النبع الأول الذي تحدرت جداولها من تحت بيانه يقول في هذا المعنى " فظهر أن الكلام الكلي التام هو التحميد المذكور في أول الفاتحة ... أما التحميدات المذكورة في أوائل السور فكان كل واحد قسم من أقسام ذلك التحميد ونوع من أنواعه " [1] .

وأخذ عنه السعد وجه التناسب بين هذه التحميدات في السور الأربع وتعليقها بالفاتحة ، إلا أنه وزع المطالع على آيات الفاتحة وقابلها بها على الترتيب نقل هذا الرأي البقاعي في قوله : " وقد أشير في أم الكتاب – كما قال العلامة سعد الدين بن مسعود التفتازاني الشافعي – إلى جميع النعم فإنها ترجع إلى إيجاد وإبقاء أولاً وإلى إيجاد وإبقاء ثانياً في دار الفناء ، أما الإيجاد الأول فبقوله : " الحمد لله رب العالمين " فإن الإخراج من العدم إلى الوجود أعظم تربية ، وأما الإبقاء الأول فبقوله : " الرحمن الرحيم " أي المنعم بجلائل النعم ودقائقها التي بها البقاء ، وأما الإيجاد الثاني فبقوله " مالك يوم الدين " وهو ظاهر ، وأما الإبقاء الثاني فبقوله : " إياك نعبد " إلى آخرها ، فإن منافع ذلك تعود إلى الآخرة .

ثم جاء التصدير بالحمد بعد الفاتحة في أربع سور أشير في كل سورة منها إلى نعمة من هذه النعم على ترتيبها " [2] .

واستحسن مذهب الرازي في رد الإبانة في تحميدات تلك السور إلى كلمة "رب العالمين" فتسميتها بالبحر الأعظم تصوير لحركة المعاني وتدافعها وازدحامها تحت لجة بيانها واختلاط بعضها ببعض وتشابكها في المضافين ، فتكررت الحمد كقناة تفتح مجرى لتدفق تلك المعاني من تحتها ، وتشق جداولها وتوزع مجملاتها وقد فصل الإمام إجمالها بقوله : " فهذا يقتضي كونه رباً للعالمين ، وإلهاً للسموات والأرض ومدبراً لكل الخلائق أجمعين ، ولما تقرر هذا

---

(١)" التفسير " الرازي ٤/٤٧٤ .

(٢) " نظم الدرر " ١/٢٠ .

المعنى ظهر أن الموجود الذي يخلق هذه العوالم على عظمتها ... لابد وأن يكون قادراً على إهلاكها ، ولابد أن يكون غنياً عنها ، وحينئذ يقع في قلب العبد أني مع نهاية ذلتي وحقارتي كيف يمكنني أن أتقرب إليه ، وبأي طريق أتوسل إليه فعند هذا ذكر ما يجري مجرى العلاج الموافق لهذا المرض " [1] .

فهذا التداخل يصعب معه تعليق افتتاح الأنعام بقوله " رب العالمين " لأنها لم تتجرد للنعم العاجلة ، وكذلك " إياك نعبد وإياك نستعين " معنى صريح في بيان طريق العبودية الذي هو نعمة البقاء في الدار الأولى فليس ثمة مناسبة بينه وبين مطلع فاطر .

وسورتا لقمان والسجدة تجاذبان سياق البقرة باستدعاء عناصر المطلع وتصديرها لمقاصدهما للتنبيه على تداخلها والتقائها معها بمقدار تلك العناصر المستدعاة فتتبع الإمام ما تكرر وما أضيف من مكونات جديدة شقت مجرى لمقاصد وأغراض كل سورة ويظهر بجلاء في تحليله لافتتاح لقمان في قوله تعالى : ↓ [2]

ومقابلة كل عنصر من عناصره بمطلع البقرة ، حيث قال : " قال في سورة البقرة " ذلك الكتاب " ولم يقل الحكيم ، وههنا قال " الحكيم " فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر مر في أحواله فقال : " وهدى ورحمة " وقال هناك " هدى للمتقين " ، فقوله : " هدى " في مقابلة قوله " الكتاب " وقوله " ورحمة " في مقابلة قوله " الحكيم " ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكمة كقوله تعالى " في عيشة راضية " أي ذات رضا .

---

(١) " التفسير " ١٦٥/١ .

(٢) لقمان ، ١–٥ .

قال هناك " للمتقين " وقال ههنا " للمحسنين " لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال : " للمتقين " أي يهتدي به من بتقي الشرك والعناد والتعب ، وينظر فيه من غير عناد ، ولما زاد ههنا رحمة قال : " للمحسنين " أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتي بالإيمان والمتقي هو التارك للكفر ، كما قال تعالى : " إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة ، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى : " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال : " للمحسنين " لأن رحمة الله قريب من المحسنين .

قال هناك " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة " وقال ههنا " الذين يقيمون الصلاة" ولم يقل يؤمنون لما بينا أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتي بحق الإيمان ويلزمه أن لا يكون كافراً ، فلما كان المتقي دالاً على المؤمن في الالتزام صرح بالإيمان هناك تبييناً ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى " الذين يقيمون الصلاة " [1] .

فنبه على التشابه في كونهما يتعلقان بوصف الكتاب ثم حرك العبارة نحو الاختلاف بمواقع الزيادة ، فقوله " الحكيم " زيادة انسحب أثرها على ما بعدها فتتابعت نسقاً متداعياً من الكلمة الجذر ، فتبدل منهاج العبارة يزيد فيها ما تقتضيه تلك الكلمة ويحذف منها ما لا يتناسب معها ولا تستدعيه ويستغنى عنه ويطوي تحقيقاً لغرضها ، فلفظ " الحكيم " اقتضى تعقيب قوله " هدى " وأردافه " بوصف آخر يلائم " الحكيم " ويشيع أصداءه في العبارة فقال " ورحمة " ، واستلزم مجموع الإضافة تنمية وصف المتقين إلى رتبة أعلى فقال : " المحسنين" والتقى هو ترك الكفر ، أما الإحسان فمعناها الإتيان بحق الإيمان ولا يأتي إلا من المؤمن ، فنبه ذلك على حال فئة خاصة مع الآيات ، ولما كانت الآيات لمن آمن ناسبه طي ذكر الإيمان بالغيب والاستغناء عنه ظاهراً ؛ لأن وصف الإحسان صريح في الإيمان متضمن للإيمان بالغيب وزيادة . بينما صرح به في البقرة بعد وصف المتقين وقدم على سائر الأوصاف وتصديرها للعناية والاهتمام فقال : ↓ ✂🖋🕮🕭♦ ⑨♦⇦✖♦ ♦♌❑♉☪🕭🖋♦♉⑨

---

(١) " التفسير " ١١٥/٩ .

■□🗐❑■🖬❶🕓🝢🝢✂ ♦♌❑↖☹❶🝰◑↖③◆❒ 🝰🖬⇘❶♦⇔⇘🝢🝢🝢🝰🝢 ♦♌❑→◑🝰▦☪↖③ ⇗☠←♍🕓◆☪⇘🕭🖂ᘐ◆❻ 🝢✹▦🝰☜◆❒ ↑ [1]

لأن أول درجات التقى وترك الكفر والإيمان بالغيب فناسبه التصريح به ، ولما كان الإحسان نهاية طرح أحوال الابتداء فاسقط الإيمان بالغيب وأكد بقوله ↓ ♦✖⇦🝰🕭⮝🖉🝢✂ ♦♌❑→🝬🝲⬩↖③◆❒ ■□🗐❑■🖬❶🕓🝢🝢✂ ♦♌❑←☺❶🝰◑↖③ ⇗☠➔♎ 🝰□♦❷🝖⌘☜🖂🝢🝢🝰🝢 ☠➔♎◆❒ ■□🗐❑☒🝰□❽🝢🝢✂ ③↖❑🕭🝰❑↖☪🝰 ♦♌❑↖☪🝰🝲🝬⬩↖③ ♦✖⇦🝰🕭⮝🖉🝢✂◆❒ ♦✌🝰❽☼🡅🕮 🖉🝢□▦🝰🖹 ♦♌❑↖☪🝰🝲🝬⬩↖③ ①ᘐ🝢❶⬩⇘🖮🖂 ↑ [3] لأنها تفريع على تلك الجملة وهذا غاية في إحكام البناء على المعنى ومجاذبته من سياقه البعيد وتوجيهه نحو التخصيص غير المنقطع عن الأصل ، وإنما تظل الدلالة تلاحظ جذورها في ذلك السياق وترتد إليها وتلتقي عند عمومها ثم تشق مجرى للمعنى الخاص المتولد من تحويرات العبارة فلفظ الحكيم خلص مقصد سورة لقمان من كل ما يتعلق بذكر أهل الكتاب وجردها لتفصيل خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأفاد الإمام معنى الخصوصية من تفسير ابن عباس لقوله : " هدى ورحمة " أي : " بيان من الضلالة ورحمة من العذاب للموحدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم " [4] . فنبذ هذه الزيادات في العبارة المتحدرة من مطلع البقرة تنبيه على أنها بناء وتفريع عليها ، فاستحضرت بالتشابه أصل تلك السورة لأن المطلع من كل سورة صفوة مقاصدها وجذر بيانها ، فلما كرر العبارة تحدرت بعض المقاصد إلى سورة لقمان وكادت تنزع بها إلى الأصل لولا الخصوصية التي أحدثتها الزيادات فغذت بيانها وأسست لمقاصد وسياق خاص يتناسب معها ، فكانت آية " البقرة بداية ، وهذه نهاية " [5] .

فلفظ الحكيم وإن كان وصفاً خاصاً غير مسار السورة وأسس لأغراضها إلا أنه داخل في جملة " لا ريب فيه " وملتف في بيانها فقد ذكر الإمام في تفسيرها أن " المراد منها نفي كونه

---

(١) البقرة ٣ .

(٢) لقمان ، آية : ٤ .

(٣) البقرة ، آية : ٤

(٤)" الوسيط " الواحدي ٤٤٠/٣ .

(٥)" نظم الدرر " البقاعي ٥/٦٥ .

مظنة للريب بوجه من الوجوه والمقصود أنه لا شبه في صحته ، ولا في كونه من عند الله ، ولا في كونه معجزاً " [1] .

فكأن سورة لقمان تفصيل لجانب آخر من نفي الريب عن الكتاب وهو تقرير كونه معجزاً وهيأ لذلك ترتيب السورة وتنزيلها بعد سورة الروم فـ " لما قال : 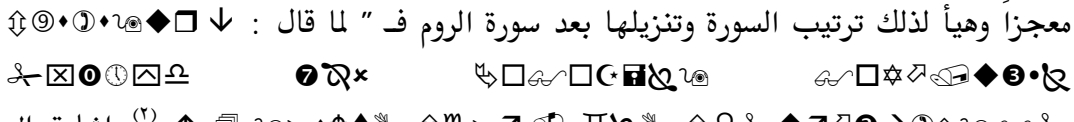 إشارة إلى كونه معجزة ، وقال : إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله : " ألم . تلك آيات الكتاب الحكيم " [4] .

وجاءت عقيبها سورة السجدة لنفي حاله أخرى من أحوال الريب وهو نفي ما ذكره المشركون من كونه افتراء من عند الرسول صلى الله عليه وسلم بإثبات منزله " تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين " [5] وأعادها بلفظها هنا لاشتراكهما في الخطاب .

فتحلقت السورتان والتفت على مركز الدلالة وأصلها ، فتلاقت في " لا ريب فيه " ثم انشقت عن فرع آخر يناسب وصفها بعد لقمان وهو : " لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال : " آلم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه " وقد علم ما في قوله " ألم " وفي قوله : " لا ريب فيه " من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال : " من رب العالمين " وقال من قبل " هدى ورحمة للمحسنين " وقال في البقرة " هدى للمتقين " وذلك لأن من يرى كتاباً عند غيره فأول

---

(١)" التفسير الرازي ٢٦٥/١ .

(٢) الروم ، آية : ٥٨ .

(٣) الروم ، آية : ٥٨ .

(٤) " " التفسير " الرازي ٩ /١١٤ .

(٥) السجدة آية ٢ .

ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول ما هذا الكتاب ؟ فإذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو ؟ ولا يقال أولاً : هذا الكتاب تصنيف من ؟ ثم يقول فيماذا هو ؟ فإذا علم هذا فقال أولاً هذا الكتاب هدى و رحمة ، ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته " [1] .

فقوله " من رب العالمين " قيد حول مسار العموم إلى غرض محدد أخذت الآيات داخل السورة بحجزته وعاضدت دلالته . وبهذا يحكم التماسك بين السور ويجعلها سياقاً متكاملاً لا توضع فيه كلمة إلا باعتبار ما وضع أولاً ، وهذا يشبه أن يكون وصفاً محللاً لما ذكره الإمام عبد القاهر في التنظيم الذي يتحد في الوضع ويدق في الصنع حيث قال : " واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويغمض المسلك ، في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً ، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك ، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين"[2].

فوضعت المعاني وضعاً واحداً ابتداء في قوله " لا ريب فيه " وتداخلت أجزائها في هذه الجملة ثم انسلت وتفرعت عنها فيما بعد من السور ، وتقاذفت في مواقع متباعدة ولم يحل ذلك دون الالتقاء حيث هيأ الإجمال للبناء على المعنى .

ويتتبع الإمام أصداء الزيادة داخل الأغراض وسط سورة لقمان وكأن مدارها إشباع المكونات الإضافية الزائدة على ما قررته البقرة وهما : " الحكيم " و " رحمة للمحسنين " فالحكيم تفرع عنها ذكر حال الكفار مع الآيات في قوله تعالى : ⌘ΙΙ♌✍◆❐ ↓ ◆❑⇳♈•❧ ❽♋❸♦✋⇳⌖♦③ ΙΙ♦✍ ↳□☙□☪❧☙✂ ★✐☙✂ ✍✍❶♋⧖⍓☋ ΙΙ♦↖ □✍↰♐↖❶♌❧ ♌❁③♌⑨⍓•↘❧☙✂ ☍✂🕐❐↓❽➔♎ ☙⍓♎⊠❶♌②✸☝♦③◆❐ 🗄⚐▫🖬♌↘ ♋❸⬀❷♦⇔♋☜ 🗐

(١) " التفسير " ١٣٥/٩ .

(٢)" دلائل الإعجاز " ، ٩٣ .

[1] يقول ﷺ : " لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويستعجلون بغيره " [2] .

وحكاية لقمان والاستدلال بالآفاق من جنس الآيات المحكمة وظيفتها زيادة تقرير إحكام آياته سبحانه يقول : " لما استدل بقوله تعالى " خلق السموات بغير عمد " على الوحدانية وبين بحكاية لقمان أن معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة وما جاء به النبي – عليه السلام – من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة ، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله ، فضلاً عن أنه على وفق الحكمة " [3] .

وفصل الوعد بالرحمة في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [4] يقول : " لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى ، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها ، وكما أن ذلك له مراتب من التولية و الاستكبار ، فهذا له مراتب من الإقبال والعمل به ، فإن من سمع شيئاً وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين " [5] .

وهذا إن جاء تالياً لذكر الكفار ومقابلاً له إلا أنه ليس أصلاً له وإنما يرتد إلى قوله "رحمة للمحسنين " ونبه على هذه الصلة المبالغة في وصف الرحمة من جهات : " إحداها : توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب . الثانية : تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرفة إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً

---

(١) لقمان ، آية : ٦ .

(٢)" التفسير " الرازي ١١٥/٩ .

(٣) السابق ١٢٣/٩–١٢٤ .

(٤) لقمان ، ٨–٩ .

(٥) " التفسير " الرازي ١١٦/٩ .

للراحة إلى القلب ، ولا يبين النقمة ، وإنما ينبه عليها تنبيهاً الثالثة : قال عذاب ، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون ، وإنما أشار إلى الخلود بقوله : " مهين " وصرح في الثواب بالخلود بقوله : " خالدين فيها " ، الرابعة : أكد ذلك بقوله " وعد الله حقاً " ولم يذكره هناك . الخامسة : قال هناك لغيره " فبشره بعذاب " وقال ههنا بنفسه " وعد الله " "[1] .

وقرينة ذلك وضع الكلام في صورة المنقطع ليمكن من إجرائها وعطفها على الافتتاح مع عدم انقطاعها كلياً عن الكلام قبلها ، وزاد في التئام الجملتين الإحالة إلى الوعد المذكور سالفاً بقوله " وعد الله حقاً " فردت الكلام وعادت به إلى نبعه تحت كلمة " ورحمة " .

وإذا لم يجر ظاهر الكلام على المبالغة عطفها على الغرض فهيج خفي الإيحاء تحت اللغة ونزع بها إلى قوة التصريح ، فتأتلف المعاني ظاهراً وباطناً ، كما في قوله تعالى : ⬇ ✉
★✎👓✂ ❼■🖫ℵ☽ ▦🕛⬅○⍓♑⇳♉◆❐ ⬀☠ℵ🖬⇔○⬅④ ♊♦👌◆❐
⍓⌨✿○⇳☺♦☝⇔ℜ👓✂ ℓ⑨⬩☽⬩▫ ⌦♊⬉○⬂♦➔👍 ◆❑➔♎◆❐
❼■🖫ℵ☽◆❐ 🗏 🗐❼⬩🖃⬂🏱⬇❑⬂✆👓✂ ℘□◆❐⬀❷⬉➔⬂✆👓👓ℵ📪
✂👓★⬉♦🕓☽✍⌨♦□➔ ✂👓🏵⌖👌⬉❑❻℘⬀🕮🕮⬁⬆ [2] .

حيث ذكر أنه قال : " قال ههنا : " ومن يسلم وجهه إلى الله " وقال في سورة البقرة " بلى من أسلم وجهه لله " فعدى ههنا بإلى وهناك باللام ، قال الزمخشري معنى قوله : " أسلم ... لله " أي جعل نفسه لله سالماً أي خالصاً والوجه بمعنى النفس والذات ومعنى قوله " يسلم وجهه إلى الله " يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا ، ويمكن أن يزدا عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله ، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهي إليه أي توجهت نحوك وينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول ، إذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى : "لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى " فقال الله رداً عليهم " تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم " ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى : " بلى من أسلم وجهه لله " أي أنتم مع أنكم تتركون الله لدنيا وتتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلاً تدخلون النار ، ومن كان

---

(١) السابق نفسه .

(٢) لقمان ، آية : ٢٢ .

بكليته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقص بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال : أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال : بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله " فله أجره عند ربه " وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجلية " [١] .

أي أن اتصالها بسياق الوعد للمحسنين تحول باللغة من المبالغة الظاهرة التي أثارها وضع اللام في سورة البقرة في قوله " ومن أسلم وجهه لله " بعد سياق قطع اليهود والنصارى بعدم دخول من آمن الجنة ، فناسبه النقض عليهم بالتصريح بوعد من أخلص وكان بكليته لله تعريضاً بحالهم واستبطن المبالغة بذكر المنزلة الأدنى في سورة لقمان بوضع إلى موضع اللام ؛ لأنه لما كان وعد المحسنين مقصداً أصلياً فيها اكتفى بالمعنى الأدنى تصعيداً للوعد لأنه متى كان هذا حال من هو دونه فكيف بما أعد للمحسنين منهم . [٢]

وكذلك السجدة يجمع معاقد آياتها في عنق كلمة " من رب العالمين " فتقرير الرسالة وسط السورة للدلالة على كونها مبلغ عن ربه وإثبات أن آيات الكتاب تنزيل من لدن رب العالمين يقول في ذلك : " لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه"[٣] .

وكرر ذلك في تفسيره لقوله ↓ ❒◆☜⧫◑⑨⇧ ↗◆✂✍⧫❹⬀✡❒✍ ✍⬀✡❒✍ ✌❒⬉☜⬀⧄ ✂✍☜⧖⬄☞⧫◑❒◆✿ ⧫⬄☒⧫ ✍⧫☰↗♊ ×⚐❼ ✍☞❺⬄③⧫❒⌨ ♒⧗♓ ☜♈⧫☜⧫◑⍣♋ ✍☜✶⍉○♋◑ ☎ ❒⧫♉⬉⬀⬅⧫❒✡❒◑○⬅ ♎⬄→⑨⧫❽ ☜♈⧫⧖⧫♉⍉⍉× ◑⚐•⬄❸◆◑↗♋③☜• ⬀⊠⊠⬀ ↑ [٤] قال : " لما قرر الأصول

---

(١) السياق يقتضي الجنة .

(٢)" التفسير " الرازي ١٢٥/٩ .

(٣)" التفسير " الرازي ١٤٣/٩ .

(٤) السجدة ، آية : ٢٣ .

الثلاثة .... عاد إلى الأصل الذي بدأ به وهو الرسالة في قوله " لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير " [1] .

ولم يقف بفائدة التشابه على المقاصد فحسب ، وإنما نبه على أنها إحدى دلائل إعجاز القرآن التي بها يدرك حسن نظمه وصحة ترتيبها، فالسورة تنزل في مكانها ليس كيفما اتفق بل وفق اعتبارات توجب تلك الرتبة تقديماً وتأخيراً ، وهذه صورة من صور صحة معانيه في العقول التي كررها دارسوا الإعجاز ، أوضح الإمام هذا فيما ذكره حول ترتيب سورة الحج على النساء ومقابلتها لها ووشيجة ذلك تشابه المطلع فجاء مطلع النساء بقوله تعالى : ↓

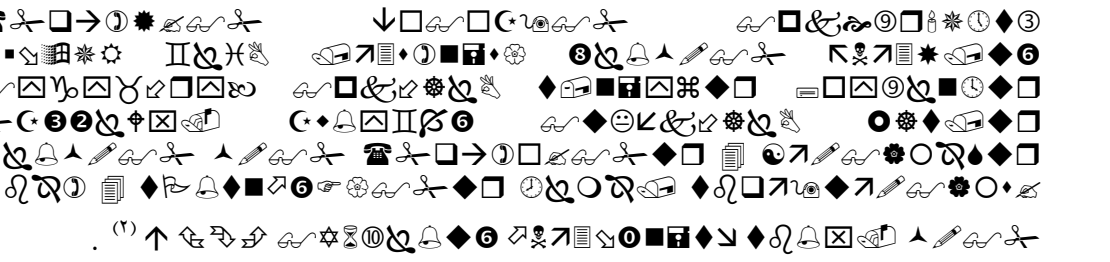

[2] .

ومطلع سورة الحج بقوله تعالى : ↓

[3] .

قال : " جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن : إحداهما : هذه السورة وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن . والثانية : سورة الحج ، وهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن ، ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة ، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال علمه وكمال حكمته وجلاله ، وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد ، وهو قوله " إن زلزلة الساعة شيء عظيم " فجعل صدر هاتين السورتين

---

(١) " التفسير " ١٥٠/٩ .

(٢) النساء ، آية : ١ .

(٣) الحج ، آية : ١ .

دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد ، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد ، وتحت هذا البحث أسرار كثيرة " [1] .

وأما الفواتح المبدوءة بحروف مقطعة فيكتنفها كثير من الغموض أحجم بعض الأئمة عن القطع بدلالتها فوكلوا علمها إلى الله ، وصنفوها في باب المتشابه المكنون علمه في ودائع خزائنه عز وجل .

وإن كان هذا الوجه لا يسد السبيل تماماً ، وإنما يسلك طريقاً إلى اقتناص فوائد الخطاب به ، فجعلوا الغموض رائداً للذهن يحثه على التفكر والتدبر لتجلية سره وقص آثاره في كلام الله فيحصل له بذلك فائدة بقاء الذهن متلفتاً ، والخاطر مشتغلاً بذكر الله ، والتفكر في مراده لأن " الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه ملتفتاً إليه أبداً ومتفكراً فيه أبداً " [2] .

وأختار البعض الآخر تجاوز التدبر والتفكر إلى البحث في مدلولات الحروف وما تحمله من معان ووجوه ، فشقوا مجرى للدخول إلى أعماقها لبعث غيبها وإذاعة سرها ، فجاءت أوجه متكاثرة تختلف في مغزاها وتتسع في مؤادها ، وقد عد الرازي منها إحدى وعشرين وجهاً وقد ردّ سبب التنوع إلى كونها أصواتاً مجردة خالية من أي معنى فتقبلت مختلف التصورات ، لذلك درج المفسرون على تصدير حديثهم عنها بعرض هذه المباحثات المتعددة وحملها على أحد الوجوه المظنون رجحانها دون الحمل على جميعها لتعذر ذلك .

واختار الرازي منها وجهين وناصرهما بالأدلة وهما :

١- ما اختاره الخليل وسيبويه من أنها أسماء للسور وعليه أكثر المتكلمين . [3]

---

(١) " التفسير " ، ٤٧٦/٣ .

(٢) " السابق " ٢٥٥/١ .

(٣) " التفسير " ٢٥٢/١ .

٢- ما ذكره ابن روق وقطرب من أنها تنبيهات لإلزام الكفار الإنصات لكلام الله ، فالكفار لما قالوا " لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون " وتواصوا بالإعراض عنه أورد الله عليهم ما لا يعرفونه ليكون سبباً لإسكان شغبهم ، وأخراص لغوهم ، ملزماً لأسماعهم على الإصغاء والتفكر فيما يرد عليهم من الآي ، فكانوا إذا سمعوها قالوا متعجبين : إسمعوا إلى ما يجيء به محمد عليه السلام ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن " [١] .

ثم رد ما عداهما من الأقوال لأن الحمل على المعنى بناء على أصوات الحروف من غير أن تكون اللفظة موضوعة في اللغة لذلك المعنى يفتح طريقة الباطنية في تفسير سائر ألفاظ القرآن بما يشاكل هذا الطريق . [٢]

وإن استحسن بعض الأئمة ومنهم ابن قتيبة هذه التفسيرات وخرجها على مذاهب العرب وطرائقها في الإبانة الموجزة للمعاني الكثيرة في مباني معدودة يقول : " ولكل مذهب من هذه المذاهب وجه حسن ، ونرجو ألا يكون ما أريد بالحروف خارجاً منها إن شاء الله " [٣].

وفي موضع آخر يبين شيوع الخوض فيها على ألسنة الجمهور يقول : " ولم نزل نسمع على ألسنة الناس : الألف آلاء الله ، والباء بهاء الله . والجيم جمال الله . والميم مجد الله ، فكأنا إذا قلنا " حم " دللنا بالحاء على حليم ، ودللنا بالميم على مجيد ، وهذا تمثيل أردت أن أريك به مكان الإمكان " [٤] .

فلما كان مكان الإمكان فيها متسعاً وليس بعضها أولى من بعض أرتج مداخل المذاهب المختلفة بضبط دلالتها باعتبار الوضع ، فإذا كان لها ما يصدقها أخذ بالمعنى وإن كان لا فلا . وهذه نظرة سديدة من الإمام وفقه جيد للمدى الذي تجرى فيه الدلالة من الألفاظ وذلك باعتبار الوضع أو ضميمة قرائن تفتح معان أخر للفظة . أما التعويل على التصورات الذهنية البعيدة عن أصل الوضع يصير اللغة لجاجة تحمل فيها اللفظة معان فردية متدافعة تختلف

---

(١) السابق ٢٥٣/١ .

(٢) السابق ١٩٤/٥ .

(٣) تأويل مشكل ٢٩٩-٣٠٠ .

(٤) السابق ٣٠٩ .

باختلاف الأهواء والتصورات فيضيع معها الإفهام. فمتى امتنع هذا التأويل في الحروف المجردة والمفرغة من باب أولى أن يسد مسلكه في الألفاظ ذات الحمولة الدلالية المستمدة من الوضع أو السياق .

لذلك لم يجعلها أسماء معان وإنما جعلها أسماء ألقاب لأن " أسماء الألقاب لا تفيد فائدة في المسميات بل هي قائمة مقام الإشارات " [1] .

فهذه الأفكار التي استقرت عند المفسرين نجدها تحظى عند الرازي بالتأمل العميق الذي ارتقى بها إلى مستوى الإبداع لما كشف عن حقائقها وأصولها وأجناسها في الإبانة . فخرج بها عن أن تكون أسماء معان وألحقها بجنس الإشارات المهيأ للمعاني لأنها لا تفيد معنى في المسميات وإنما هي إلماحة وتنبيه وإيقاظ للمخاطب يلزمه على العناية بما بعدها من الكلام . فوجه عنايته إليه وفعّل بيانها من خلال اللواحق التي تقترن بها وتجري في سياقها.

فهذه الأدوات وإن التقت مع غيرها من أدوات التنبيه الأخرى كالاستفهام والنداء في تصدرها لكل معنى ذي بال يقصد المتكلم لفت الأفهام إليه لتقريره في النفوس إلا أنها تنفرد بخصوصية بيانية جاءت من تجردها للتنبيه ، فخلوها من أي معنى آخر محض دلالتها للتنبيه فاختصت بالمواقع التي تشتد فيها غفلة المخاطب أو يكون المعنى من المهمات الكبرى مما يتطلب زيادة إيقاظ وتنبيه يقول : " الحكيم إذا خاطب من يكون محله الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليتفت المخاطب بسببه إليه فيقبل عليه ، ثم يشرع في المقصود ... ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام أهم كان المقدم على المقصود أكثر فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي كالمنبهات ، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى " [2] .

والحكمة في اختيار حروف مجردة من المعاني لفعلها في النفوس وتأثيرها في التنبيه حتى يصغى المستمع بقلبه وعقله فلا يقطع نظره ولا ينصرف بقلبه حتى يدرك ما وراءها من

---

(١) " التفسير " ١٩٤/٥ ، ٥٠٦/٧ .

(٢) السابق ٢٣/٩-٢٤ .

أغراض ومرادات . يقول : " إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه مالم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود " [1] . وهذا بخلاف إذا كانت حروفاً متواضعاً على دلالتها فإنه " إذا سمعه ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام بعده فيقطع الالتفات عنه " [2] .

وعبارته " لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود " يداخل بها نفس المخاطب فالنفس تتوزعها شواغل مختلفة تصرفها عن إصابة عين القول فإذا أورد عليها ما تجهله هزّ انتباهها وشحذ خاطرها لارتياد غوامضه فتنفض عنه الشواغل ليقبل على الكلام منتظراً لما بعدها من القول ولو كان تنبيهاً مفهوماً لفقد الخاطر لحظة التوقع والتحفز لما بعد هذه الحروف .

فالتنبيه في الأدوات الأخرى يستصحب معه المعنى المقصود فلا نجد تلك الفترة الممتدة بين التنبيه وبين المعنى التي يتخللها توقعات المخاطب لما سيرد عليه وأما الحروف المقطعة فيظل الفكر متردداً بين دلالة الحروف وما بعدها من معنى . فالمخاطب يعلم بأن الحروف ليست غرض المتكلم فتتهيأ نفسه ويثار حسه لاستقبال ما بعدها من الكلام مما يجعله يتمكن في النفس أيما تمكن . فهي نوع من الإبانة التي تخاتل النفس فتظن أنها لم تفدها شيئاً وقد وفتها إياها وزيادة [3] .

إذن العناية بمداخل الكلام يقابله مزيد حفاوة بالأغراض والمعاني ، لذلك رفض الرازي أي تفسير للحروف المقطعة مكتفياً بكونها مداخل لنوع من الأغراض والمقاصد التي تشتد عناية المتكلم بها وتكون عنده من المهمات الكبرى ، فيتخذ نوعاً من الإبانة يعمل في النفوس عمل السحر يجذبها إلى الإنصات وتفريغها لمراد المتكلم ، فلا ينصرف خاطره عن شيء من الكلام .

وهذا وإن كان في فقه المناسبة بين أوائل السور والمقاصد إلا أننا أثرنا بحثه في المطالع المتشابهة ، لأن خلف الافتتاح بالحروف علامات تنبه وتدل على اتفاق أغراض تلك السور ، فالمطالع ليست كلها تلخيصاً للمقاصد أو تأسيساً لها ، بل هناك فواتح وظيفتها التهيئة

---

(١) " التفسير " ٢٤/٩ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) "أسرار البلاغة" عبد القاهر ، ٨ .

والتنبيه دون فائدة إخبارية تفيدها المخاطب من ذاتها لذلك عدّ الزركشي هذه الحروف " كالعلائم ، مبينة أن هذه السورة من قبيل تلك السورة التي أنزلت من عشر سنين مثلاً حتى كأنها تتمة لها ، وإن كان بينها مدة " [1] .

فاقتران الحروف المقطعة بجنس معين من السور للإعلام عن تشابه المقاصد .

وقد تتبع الرازي السياقات التي تعقب هذا النوع من التنبيه فوجد أنها تتميز بخصيصتين هما :

١- أنه يتبعها ذكر ما هو معجز فغالباً ما يردفها الحديث عن التنزيل والكتاب والقرآن إلا في سورة الروم ومريم حيث جرى فيها ذكر الإعجاز بالإخبار عن الأمور المغيبة يقول : "إن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة ، فقدمت عليها الحروف ... وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع " [2] .

وهذا الوجه أفاده من الباقلاني حيث صرح أن كثيراً من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته " [3] .

٢- ثقل ما بعدها من التكاليف والمعاني، فالقرآن وإن كانت جميع معانيه لها عبء وثقل إلا أنه في السور المفتتحة بالحروف أشد ، وجاء ذلك من كونها تستحضر جميع معاني القرآن وتنبه عليها وتؤكدها مع تضمنها معان تستقل بها ، يقول : " لا ريب في أن كل سورة من القرآن ، لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن ، فإن قوله تعالى : " طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن ، فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما ، وكتاب

---

(١) " البرهان " ، ٢٢٧/١ .

(٢) " التفسير " ٧٩/٩-٨٠ .

(٣) " إعجاز القرآن " ، ٩ .

آخر يرد منه عليه فيه : إنا كتبنا إليك كتباً فيها أوامرنا فامتثلها ، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول " [1] .

وهذا الملحظ كشف به عن سرٍّ افتتاح سورة العنكبوت بالحروف ولم يجر في أوائلها ذكر الكتاب أو القرآن ، ولكن لما تناولت السورة حقائق تغفل عنها الأنفس حتى تصبح في انشغالها عن الالتفات إليها كالمنكرة لها ، تطلب ذلك مزيد إيقاظ وتنبيه . فالقرآن بسط حقيقة الإيمان وأزال جميع ما يناقضه حتى يمكنه في النفوس ، فلما كان له هذا الثقل في ميزان مقاصد القرآن مما قد يظن معه ظان أنه لا مطلب بعده ولا غاية سواه ، جاءت السورة لتقلب الاعتقاد وتزيل ما استقر من أن الإيمان متى أقر به اللسان وصدقه الاعتقاد كان كافياً في النجاة يوم الحساب ، فقررت مقصداً آخر وهو " أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يفتنون " ليدفع به هذا الوهم وليؤكد سنة الابتلاء والتمحيص بفرض التكاليف ، واختبارهم بالسراء والضراء لتمييز المجاهدين الصابرين من الذين أثقلتهم التكاليف فأطمانوا بزينة الحياة الدنيا ، وفتنهم واقعهم المادي فلم يعالجوا نفوسهم بالمصابرة ، لأن الإيمان لا يطمأن في القلوب حتى يصدقه العمل بالجوارح وتشهد عليه الأعضاء فلن " تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين ، بل لابد من ذلك جميعه " [2] .

والسورة وأن لم تصرح بالفرائض والتكاليف إلا أنها أحالت بهذا الإجمال على جميع سياقات الأوامر والنواهي في جميع القرآن ، بل وأغلظت في الخطاب بتأكيد المراقبة والمحاسبة ، فشابهت في ثقل معانيها السور التي تنبه على القرآن جميعه ، مما ناسبه افتتاحها بالحروف ويقول الرازي : " وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن القرآن ثقله وعبئه بما فيه من التكاليف والمعاني ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف ، فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي " [3] .

---

(١) " التفسير " ٢٤/٩ .

(٢) السابق ، ٢٦/٩ .

(٣) " التفسير " ، ٢٥/٩ .

فهي خطاب عام يشتمل الابتلاء بجميع التكاليف والفرائض البدنية والمالية ، وقد امتدت مساحة هذا المعنى في السورة مع تقاطعه مع معان تغذي دلالته ، وتصعد من ثقل ومشتقة الإلزام وأنه لابد فيه من عزم قوي وجلد يصور ذلك قوله سبحانه وتعالى : " ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ، أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين " .

وتارة يلين الخطاب بالترغيب كما في قوله : " والذي جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين " .

ثم تصور قصص الأنبياء المنهج الأقوم في المصابرة والمجاهدة للنفس ولأهل الباطل وصبرهم في تبليغ ما أوحي إليهم ، ثم تمضي في بيان مصير من نكص على عقبيه وتمرد على حقائق التوحيد ، ورد يديه في أفواه المبلغين عن ربهم وصورته في أعتى بيان وأشده و يقول سبحانه " فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا " .

فمفهوم الثقل والعبء الذي أجمله الرازي يفصله إرهاف الحس أمام بيان السور المفتتحة بالحروف وملاحظة وطأة القول وتصاعد الترهيب والوعيد مما يجعل لها أجواء ذات خصوصية بيانية تنفرد بها عن غيرها من سور القرآن.

وهناك من اكتفى في عرض رأي الرازي بالأمر الثاني وهو ثقل الكتاب وعبء التنزيل وأغفل ما ورد في سورة الروم ، فبنى عليه حكماً خاطئاً وهو أن الزركشي كان أوضح مسلكاً وأنأى عن تكلف إذا اكتفى بقوله " واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن ... وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم فيسأل عن حكمة ذلك "[1].

---

(١)" الإعجاز البياني للقرآن " د . عائشة بنت عبد الرحمن ص١٦٦ .

والحق بخلاف ذلك فقد أخل نقل الزركشي عن الرازي بكثير من الأسرار البيانية التي قدمها نص الرازي ، إضافة إلى الإجمال المعتم حول السؤال عن حكمه خلو سورتي الروم والعنكبوت من ذكر التنزيل وقد كشف عنها التفسير الكبير .

ورعاية التشابه يمكن تعديتها إلى الخواتيم والنظر فيما اعتبر فيها من خصوصيات كيما تتلاءم مع نظم خواتيم ما قبلها وما بعدها من السور ، ذكر ذلك في موضع واحد حينما بين كيفية انتظام مقطع الرحمن قوله تعالى : ↓ ✍♦❷♦⏳♦🕓❷♦☒ ✂🖐🖋✂⇳☹↖ ✂❒◆✂🖋"💣🖋✂■🖫■🖮🖳✂■🖋◆❻ ✂◆❷◆✂ ❶🙰❽ 🖋♑🕓■🖫■🖮♑🖳✂■🖋◆❻ ✂◆❷◆✂ ↑ [1] مع الآية قبلها ↓ ✍♦↖ ♦✓✖🙰★🖹✱☝↖✍ ❻◆▫◆❷◆🖋✇ ↑ [2].

يقول : " في الترتيب وفيه وجوه أحدها : أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى : " ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " ختم نعم الآخرة بقوله : " تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام " إشارة إلى أن الباقي والدائم لذاته هو الله تعالى لا غير والدنيا فانية ، والآخرة وإن كانت باقية لكن بقاؤها بإبقاء الله تعالى . ثانيها : هو أنه تعالى في أواخر هذه السورة كلها ذكر اسم الله فقال في السورة التي قبل هذه " عند مليك مقتدر " وكون العبد عند الله من أتم النعم كذلك ههنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم قال : " تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام " إشارة إلى أن أتم النعم عند الله تعالى ، وأكمل اللذات ذكر الله تعالى ، وقال في السورة التي بعد هذه " فروح وريحان وجنة نعيم ثم قال تعالى في آخر السورة " فسبح باسم ربك العظيم " [3] .

فالوجه الأول جعلها ترجيعاً لعناصر من نظم معان مشابهة لها داخل السورة ذاتها ، فكان التصريح باسم الله في المقطع منعطفاً على الوسط ، ومعانقاً له لما بينها من اشتراك في أصل المعنى وهو ذكر الإنعام ، وهذا وإن كان شافياً في تمكين وضع الآية ونسجها في لحمة

---

(١) الرحمن ، آية : ٧٨ .

(٢) الرحمن ، آية : ٧٦ .

(٣) " التفسير " ٣٨٢/١٠-٣٨٣

بيان الأغراض داخل السورة ، إلا أنه تجاوزه ليزيد في تمكينها بتنسيقها مع خواتم السورة السابقة واللاحقة لها حيث ختمت كلتاهما بذكر تمام نعم الآخرة واقتران ذلك المعنى بالتصريح باسمه تعالى إشعاراً بكمالها .

فتناسب الآية داخل دائرة السورة لا يحول دون ملاحظة مناسبتها بآيات خارج أسوارها وترتيبها عليها للكشف عن أسرار تنظيم عناصرها من خلال نظائر المعنى الواحد في سياقات متتابعة .

الفصل الثالث

التناسب

على مستوى السياق العام للقرآن

أبان الفصلان المتقدمان عن مستوى من الوحدة تنتجه خصوصيات الترتيب بالتوالي والتتابع بين السور أو ترجيع أصول مقاصد بعض السور بمداخلة عناصر ومكونات من بيانها في سورة بعيدة ليحث التشابه الذهن على الجمع بين السياقات والمقاربة بين المتباعدات وانحصر ذلك في المناسبة بين ما تشابهت فيه المطالع .

وهذا الفصل يلفت إلى إجراءات يتخذها المفسر في تحليله للآيات تلتقي مع مباحث التناسب في أنها تتبع وجوه الترتيب في النظم القرآني على مستوى السياق العام من خلال عمل بعض العناصر والمكونات في الإحالة على مواقع مشابهة ورصد ما ثبت واضطرد وما تغير منها وافترق ، وما وراء ذلك من أسرار يتشربها النظم من السياق الخاص ، وليس القصد بالضم والاستدعاء لتلك المواقع طلب التآلف وإنما هو مسلك من مسالك فتح الدلالة بوضعها في نطاقات بيانية مشتركة ما ينتج من الموازنة بين ما تشابه من فوائد وتنبيهات تكشف عن أحوال مستترة في النظم لا يحركها إلا ملاحظة تصرفات وترتيبات أخرى فتحلل الأسرار وتدل عليها . لذلك حرص علماؤنا القدماء على استصحاب جميع مكونات القرآن وعناصره في تفسيرهم حتى موقع الكلمة لا يحلل في غياب مواقع مشابهة وسواء كان مرد هذا الحرص الأمانة وإدخال الطمأنينة على القارئ لقبول رأي المفسر أو إظهار ثقافة المفسر وقدرته على استيعاب بيان المتكلم كله إلا أنه أصبح منهجاً شائعاً في كتب التفسير صح معه عده ضابطاً من ضوابط فقه الدلالة وبيان المقاصد .

ولما كان مدار القرآن على مقاصد معدودة وأغراض متفقة أنتج ذلك تشابهاً في بعض آياته ؛ فجاءت أبحاث المتشابهة للكشف عن الجانب الآخر في تشابه السياق القرآني وتناسبه على المستوى الكلي للقرآن مقاصده وأساليبه ، وبحث المتشابه باب من أبواب علوم القرآن دارت حول تصانيف متعددة أشهرها : " درة التنزيل وغرة التأويل " للخطيب الإسكافي ت ٤٢٠هـ ، و " البرهان في توجيه متشابه القرآن " للكرماني ت ٥٠٥هـ ، و" ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل " لابن الزبير الغرناطي ت ٧٠٨هـ .

وقد تعددت الأقوال في تحديد المراد بالمتشابه ، وقد جعله أكثر الأصوليين نوعين: النوع الأول: ما استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليهم أحد من خلقه وكلفهم الإيمان به، مثل الحروف المقطعة في أوائل السور وهي من أسرار الله التي استأثر الله تعالى بعلمه [1].

والنوع الثاني : يكون التشابه بين شيئين فأكثر يتوقف فهم أحدهما على تحصيل الآخر: "فلا يتبن المراد من لفظه كان مما يدرك مثله بالبحث والنظر أم لا"؟ [2]

فالخفاء صادر من دخول " شبهه بعضه في بعض" [3] مما لا يتأتى الإطلاع على المعنى بذات اللفظ، ولما كان المراد يتجلى بالقرائن الخارجية جعله البعض داخلا في المجمل نقل ذلك الشيرازي في قوله: " وأما المتشابه فاختلف أصحابنا فيه ، فمنهم من قال : هو والمجمل واحد ، ومنهم من قال : المتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه ، وما لم يطلع عليه أحد من خلقه ، ومن الناس من قال : المتشابه هو : القص والأمثال والمحكم والحلال والحرام ، ومنهم من قال : المتشابه : الحروف المجموعة في أوائل السور كـ " المص وغير ذلك ، والصحيح الأول ؛ لأن حقيقة المتشابه: ما اشتبه معناه ، وأما ما ذكروه فلا يوصف بذلك" [4] .

فالشيرازي يرجع دخوله في المجمل ومناط ذلك الرأي الأصل اللغوي لكلمة المتشابه ، فالمتشابه اللفظي يتداخل مع المجمل لأن الآية تؤدي المعنى الكلي الذي يفاد من سابقتها ، فإذا ما رتبت عليها وردت إليها اتجهت معانيها نحو التفصيل والبيان .

ومن جعله قسما بذاته عول على قوة وجه الخفاء وشدته في المتشابه عنه في المجمل[5]، وسبب ذلك حاجته لقرينة أوسع مترددة بين عناصر تركيبية في سياقات خارجية وهذه أعلى منازل الاجتهاد وأرقاها ولا يستطيعها إلا الراسخون في العلم.

---

(١) " قواطع الأدلة" للسمعاني ٢٦٥/١ ، و"التقرير والتحبير" ابن أمير الحاج ٢٠٦/١ .

(٢) " الموافقات " الشاطبي ٣٠٥/٣ .

(٣) " البرهان " الإمام الجويني ، ٢ /٨٦ .

(٤) " اللمع " ، ٥٢ .

(٥) "التقرير والتحبير" ابن أمير الحاج ٢٠٦/١ .

أما القول بالتوقيف في تأويل المتشابه فيتعاند مع أصل من أصول الاستنباط وهو الاجتهاد في محل الاجتهاد وتحريك القرائن ومجاذبة اللغة للمقاصد لأن الأصل في اللغة الإفادة [1]، وإن اختلفت درجات القرائن قوة وضعفا في الدلالة على المراد تظل الإفادة حاضرة في الخطاب تستثيرها الأذهان وتحركها نحو التفصيل.

وضابط المتشابه اللفظي أن يكون الكلام متساوي الأبنية والمعاني في الظاهر مع بعض التغيرات في المباني بزيادة أو حذف أو تقديم أو تأخير فيدرس " الفائدة في إعادتها ، وما الموجب للزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير ، والإبدال ؟ وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى ؟ وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها"[2] .

ومن هذا يتبين أن تداخل المتشابه مع المجمل لوجيهن : الأول أن فهم المراد منه لا يقع دفعة في نفس المخاطب وإنما يجعلك تتوهم أن المعنى المراد هو بذاته ما جاء سابقاً ثم تجد اللغة بثت تفصيلاً آخر دلالة بعد دلالة حتى تصل إلى فائدة أخرى غير ما ظفرت به من تلك فـ " ترى بالنظر الأول ، الوصف على الجملة ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ... كذلك نجد الجملة أبداً هي أسبق إلى الأوهام وتقع في الخاطر أولاً ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الرواية واستعانة بالتذكر " [3] .

فالتشابه لا يعني التماثل التام وإنما يشتركان في الغرض الكلي أو المعنى العام ويستقل كل منها بجزئيات تنسل من التغيرات وخصوصيات التصرف في تعليق الألفاظ وتأليفها ، وهذه التغيرات آثار يتركها المتكلم ليهتدي بها البصير إلى المعاني الإضافية وتدل على مواقع الزيادة .

---

(١) " المحصول" الرازي ، ٣٠٨/١ .

(٢) " البرهان " ٦٤ .

(٣)" أسرار البلاغة " عبد القاهر، ١٣٧ .

والثاني : يرجع إلى افتقارهما إلى القرينة ؛ لأن " المتشابه ما لم يحكم المراد بظاهرة ، بل يحتاج في ذلك إلى القرينة " [1] فالمتشابه لا تستقل اللغة بالإبانة عن معناه بل تحتاج في معرفته إلى رده إلى عناصر أخرى من السياق التركيبي أو إحالته إلى سياق ثان مشابه وإعمال ذلك التركيب في الكشف عن العناصر المجملة فيه واستنباطها .

فتتسع القرينة في إجمال التشابه ويمتد نطاقها وتتجاوز الكلمة والصيغة إلى مسافات أرحب وتراكيب تتصل بها وتنفصل عنها ، وهذه المراوحة بين الائتلاف والاختلاف لون من ألوان الإبانة الباعثة على الاجتهاد والحافزة " على البحث والتنقيب ثم ارتياد الآفاق وراء المعاني المنقبة " [2] ، والامتداد بها إلى بيان تفصيلي ، فتؤكد أصل المعنى في الآيات المتشابهة ثم تلحظ امتداد فروعها وأفنانها وموضع الفرع من الأصل حتى تحكم المراد من وضع كل آية ، ثم تدير الألفاظ باعتبار مواقعها من المقاصد فتجد الحرف غير الحرف والمعنى غير المعنى وإن أوهمك ظاهرة بتطابق الصورة وتشاكلها ، فإذا علمت مواقع اللغة من المقاصد وتأثيرها في تشعيث المعاني تجلى لك الإعجاز في الفروق وفتح لك ما تحت التشابه من معان متزاحمة .

ومباحث المتشابه فرع عن علم المناسبات ؛ لأن إحراز العلم بمقاصد كل آية من الآيات المتشابهة لا يكون إلا بعد إتقان العلم بمناسبتها للسياق الذي يكتنفها والمقاصد التي جرت فيها وملاحظة التراكيب السابقة لها وكيف غذت لغتها فنزعت بها إلى تلك الأغراض ووجهت دلالتها بما يلائم ذلك المعنى ويوافقه فـ " تخصيص كل آية من تلك الآيات بالواردة .. لسبب تقتضيه وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه ، ... من محرزات المعاني عند ذوي الأفهام ومقتضيات من لوازم جليل التراكيب من ذلك المعجز العلي من النظام ، فلا يليق بكل من تلك المواضع إلا الوارد فيه وأن تقرير وقوع آية منها في موضع نظيرتها ينافي مقصود ذلك الموضع وينافيه " [3].

---

(١)" متشابه القرآن " القاضي عبد الجبار ١٩-٢٠ .

(٢)" أثر القرآن في تطور النقد " زغلول ١٢١ .

(٣)" ملاك التأويل " الغرناطي ١/١٤٥ .

فالآية تتداخل وتتمازج بعناصر سياقية وتركيبية ينتج عنها مستتبعات خاصة ودلالات فارقة تختلف وتأتلف ويظل التشابه ظاهرياً لا يصل إلى حد التماثل . وإنما وسيلة لاستدراج الذهن لينفذ إلى باطن اللغة وإجراء السياق من أجل ترجيح المراد ، فالفروق والخصائص المائزة بين لفظة ولفظة وبين تركيب وآخر " وعناصر كثيرة في الأسلوب بينها فروق ترتبط بالسياق ارتباطاً بالغ الدقة والرهافة " [1] .

وكثيراً ما تأتي توجيهات الإمام للمتشابه متداخلة مع فن المناسبات مؤسسة على أصوله مراعية لضوابطه وقوانينه ؛ فالآية التي يداخلها مشابهة تميز خصوصيتها باعتبار سياقها وما اقترن بها من تراكيب سابقة ولاحقة ، ورعاية ذلك كله في تمييز معناها وتوجيه الفروق اللفظية وما يحدث فيها من شيات توشتها من الأغراض ومن محيط الملابسات فيكتسي المعنى هيئة أخرى تلائم مجراه .

وهذا أصل في دراسة علاقات الآيات داخل السورة وحسن اقترانها وتجاورها ، إلا أن العناية به أظهر في باب المتشابه حيث نجد الإمام ينيط ما يحدث من تغيرات بالسياق الكلي ويرتبها على الأغراض فيربط حركة اللغة بحركة المعنى كما في تفسيره لقوله تعالى : ↓

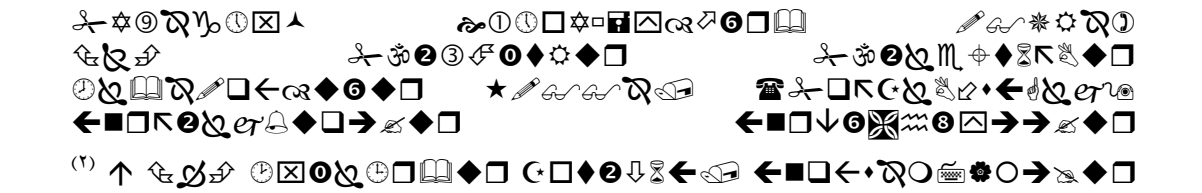

[2] ↑

، وقال في الأحزاب : ↓

[3] ↑ .

قال فيها : " ههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما الحكمة فيه ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة في ذكر الرسول صلى

---

(١)" دلالات التراكيب " د . أبو موسى، ٣٣٨ .

(٢) الفتح ، الآيات : ٨-٩ .

(٣) الأحزاب ، الآيات : ٤٥-٤٦ .

الله عليه وسلم وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك، ولم يفصل ههنا. ثانيهما: أن نقول الكلام مذكور ههنا لأن قوله " شاهداً " لما لم يقتضِ أن يكون داعياً لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا يدعو الناس قال هناك وداعياً لذلك ، وههنا لم يكن كونه " شاهداً " منبئاً عن كونه داعياً ، قال : " لتؤمنوا بالله و رسوله ... " دليل على كونه سراجاً لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه والتسبيح " [1] .

فمقصد الأحزاب حرك الأوصاف نحو الامتداد والبسط ؛ لأن مدارها حول الرسول عليه الصلاة والسلام والآداب .

بينما قبض الأوصاف في سورة الفتح وأجملها لأنها لا تعلق لها بالغرض وإنما جاء وصف الرسول مهيئاً لوصف المؤمنين فـ " أصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمنين " [2] فمدار السورة على " البشارة للمجاهدين من أهل هذا الدين بالفوز والنصر والظفر على كل من كفر " [3].

أما الوجه الثاني فيجعل مجيء قوله " لتؤمنوا بالله " إعلاماً وإنباء بما تتضمنه كلمة شاهد من الشهادة على الوحدانية لتجرد سياقها من القرينة المرجحة فصرح بجملة " لتؤمنوا " لهذه النكتة البديعة . بينما جاء الوصف داعياً في الأحزاب لأن شاهداً هناك لما كانت في سياق الثناء على الرسول عليه الصلاة والسلام أفادت معنى إثبات توحيده لله لخصوصية السياق دون أن تقتضي معنى الدعوة فجاءت داعياً لتفيد ذلك وتقوي الثناء عليه عليه الصلاة والسلام.

وهذا الوجه يعضد ما ذهب إليه الإمام من أن الشهادة في سورة الفتح بمعنى قوله لا إله إلا الله ويرد بذلك ما ذهب إليه المفسرون من أنها بمعنى الشهادة على الأمة . [4]

---

(١) " التفسير " ٧٢/١٠ .

(٢) السابق نفسه .

(٣)" نظم الدرر " البقاعي ١٨٣/٧ .

(٤) " التفسير " ٧٢/١٠ .

وكذلك اختلاف الترتيب واستعمال صيغة مغايرة لما اضطر في مواضع مشابهة يكون بموجب من المقاصد واتساقاً مع حركة السياق داخل السورة كما في قوله تعالى " أفرأيتم اللات والعزى " [1] وقد استعمل في مواضع بغير الفاء في قوله " أرأيتم ما تدعون من دون الله " [2] وقوله "أرأيتم شركاءكم " [3] يقول : " لما قدم من عظمة آيات الله في ملكوته أن رسول الله إلى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته لا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته ، قال أفرأيتم هذه الأصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم ، فقال بالفاء أي عقيب ما سمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى ، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى ، فانظروا إلى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم إليه وعولتم عليه "[4] .

فترتيب الرؤية على ما قبلها وجه دلالته باعتبار حركة المقاصد السابقة فجاء اختيار الفاء في النجم للتهويل والتعظيم ، بينما تركها في سياق الأحقاف وفاطر للإلزام والتقرير عليهم لأنها مجال للدعوة والتدليل لذلك تضمنت الرؤية معنى " أخبروني "[5] أما سياق النجم فلإبطال دعواهم ضلال الرسول عليه الصلاة والسلام وغوايته فجاءت الفاء بعد عرض الآيات لتدل على أن ما رآه سببا للاهتداء كما أن رؤيتهم لما يعبدون من دون الله مجالاً للعلم بأنها لا تصلح للألوهية فالفاء ردت دعواهم عليهم بالدليل لأن الرسول عليه الصلاة والسلام توصل بالرؤية إلى الهداية والاستقامة ، وضللتم بها فعميت أبصاركم ، فكأن " أفرأيتم " جاءت لتحقيق الرؤية ولفت لهم للمراجعة والتبصر بآلهتهم وأن مجرد الرؤية تكفي لإبطال دعواهم دون الحاجة معه والخصومة كما أن مجرد الرؤيا تكفي لليقين التام بتفرده سبحانه بالوهيته

---

(٥) سورة النجم ، آية : ١٩ .

(٦) سورة الأحقاف ، آية ٤ .

(٣) سورة فاطر آية : ٤ .

(٤) التفسير ٢٤٨/١٠ .

(٥) السابق ٢٤٤/٩ .

على ما في السموات وما في الأرض لذلك لم تصلح لمعنى أخبروني وإنما بمعنى " هل رأيتم هذه حق الرؤية ، فإن رأيتموها علمتم أنها لا تصلح شركاء " [1] .

وكذلك العدول بالاسم في قوله تعالى : " بل الذين كفروا في تكذيب " بعد مجيئها سابقاً بالفعل في قوله : " بل الذين كفروا يكذبون " فذكر في الأولى " أنه تعالى لما بين حال أصحاب الأخدود في تأذي المؤمنين بالكفار ، بين أن الذين كانوا قبلهم كانوا أيضاً كذلك ... فذكر تعالى من المتأخرين فرعون ، ومن المتقدمين ثمود ، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرة على هذا النهج " [2] .

وأما الثانية " فالمعنى أن الدلائل الموجبة للإيمان ، وإن كانت جلية ظاهرة لكن الكفار يكذبون بها ، إما لتقليد الأسلاف ، وإما للحسد وإما للخوف من أنهم لو أظهروا الإيمان لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها " [3] .

فكأن الرازي يجعل خلو سورة الانشقاق من ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم هيأت لاختيار الفعل ليدل على أن هذا دأب فئة تتقلب بها الأهواء وتتجدد بها النوازع فتعمى عن قوة البراهين الموجبة للتصديق والإيمان . واستخدام الفعل يناسب القسم " لأنه سبحانه أقسم بتغيرات واقعة في الأفلاك والعناصر ، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها وهو ضوء النهار ، ولما بعدها وهو ظلمة الليل ، وكذا قوله :" والليل وما وسق " فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور ، وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم ، وكذا قوله " والقمر إذا اتسق " فإنه بدل على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصاً " [4] .

أما البروج فالسورة " وردت في تثبيت المؤمنين وتبصيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتدوا بهم " [5] .

---

(١) " السابق " ٢٤٨/١٠ .

(٢) " التفسير " ١١٥/١١-١١٦.

(٣) السابق ، ١٠٤/١١ .

(٤) السابق ، ١٠٣/١١ .

(٥) السابق ، ١٠٩/١١ .

وابن الزبير الغرناطي يجعل مجيء الإخبار عن الوعيد الأخروي ولما لم يقع بعد وحالهم التكذيب بجميعه مكن للفظ بالمستقبل ليطابق الإخبار لأنه عما يأتي ولم يقع بعد ، فجيء بما يطابقه في استقبال ، وأما آية البروج فقد تقدمها " هل أتاك حديث الجنود فرعون و ثمود " وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه ، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقال " في تكذيب " وجيء بالمصدر ليحرز تماديهم ، وأن ذلك شأنهم أبداً . [1]

فبحث المتشابه ليس لتفضيل أحد التركيبين على الآخر وإنما بحث في مزيتين وما عرض لهما من معان إضافية زائدة على أصل المعنى بسبب من المعاني والأغراض التي اكتنفتها فتكيفت بكيفيات تلاءم سياقها وتناسبه . ويظهر ذلك بجلاء في تغير المنهاج فيما اضطرد واستمر فيه ترتيب واحد كما في محاجاة إبراهيم للنمرود في قوله " ربي الذي يحي ويميت"[2] قال الإمام : " لقائل أن يقول : إنه تعالى قدم الموت على الحياة في آيات منها قوله تعالى:"كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم " وقال : " الذي خلق الموت والحياة " وحكى عن إبراهيم أنه قال في ثنائه على الله تعالى " والذي يميتني ويحيين " فلأي سبب قدم في هذه الآية ذكر الحياة على الموت حيث قال: " ربي الذي يحي ويميت " .

والجواب : لأن المقصود من ذكر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح ، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر ، وإطلاع الإنسان عليها أتم ، فلا جرم وجب تقديم الحياة ههنا في الذكر " [3] .

ومن ذلك رده التغيرات في وضع صفة مكان أخرى إلى المقاصد والأغراض كما في سورة آل عمران في قوله تعالى : " من قبل هدى للناس " بعد قوله في البقرة " هدى للمتقين " ذكر أن : " فيه لطيفة وذلك لأنا ذكرنا في سورة البقرة أنها إنما قال : " هدى للمتقين " لأنهم هم المنتفعون به ، فصار من الوجه هدى لهم لا لغيرهم ، أما ههنا فالمناظرة كانت مع النصارى ، وهم لا يهتدون بالقرآن فلا جرم لم يقل ههنا في القرآن أنه هدى بل قال : إنه

---

(١) " ملاك التأويل " ١١٤١/٢-١١٤٢ بتصرف .

(٢) البقرة ، آية ٢٥٨ .

(٣) " التفسير " ٢٢/٣ .

حق في نفسه سواء قبلوه أو لم يقبلوه ، وأما التوراة والإنجيل فهم يعتقدون في صحتها ويدعون بأنا إنما نتقول في ديننا عليهما فلا جرم وصفهما الله تعالى لأجل هذا التأويل بأنهما هدى"[1].

وتأمل دقة اللفظ القرآني وأن منبع ذلك كله ملائمة الأغراض ومطابقتها ، فلما كانت آل عمران في محاجة النصارى ومناظرتهم نزعت بخصوصية الوصف الذي جاءت به البقرة إلى العموم ليدل على أنه حق في نفسه سواء اهتدوا به أم لم يهتدوا .

وتارة تتقارب الأغراض وتكاد تتحد فتأتي اللفظة لتنبه على المفارقة وتضع شارة تمايز بين السياقين كما في قوله تعالى : ↓ ③♦①❋❒⑨❒&✂"○✿○①Ⅱ←

[illegible]

↑ [2] " اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر[3] ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه ، وذلك من وجهين : الأول : أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين ، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم ؟ الثاني : أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها إما أن يقال : إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة .. وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد ... فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم ، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر ، وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال : " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " إلى أن قال : " فما يكذبك بعد بالدين " وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة ، وتصلح أيضاً مع من ينفي الابتداء والإعادة معاً ، لأن الخلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر ، فإن قيل بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم ، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا الاستدلال : " أليس الله بأحكم الحاكمين" فكان يجب أن يقول في هذه السورة

---

(١) " السابق " ١٣٣/٣ .

(٢) الإنفطار ، الآيات : ٦-٨ .

(٣)أي قوله : (علمت نفس ما قدمت وأخرت)

: ما غرك بربك الحكيم الجواب : أن الكريم يجب ان يكون حكيماً لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيراً لا كرماً . أما إذا كان مبنياً على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرماً ، إذا ثبت هذا فنقول : كونه كريماً يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه ، أما كونه حكيماً فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني ، فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم ، هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم " [1] .

فبنى الاستدلال في الآيتين على كونه تعالى حكيماً ولكن وصف الكريم نبه على خصوصية زائدة في سياق الانفطار فهي وإن اتفقت مع التين في إثبات وقوع الحشر والنشر والاستدلال عليه بقدرته تعالى على الخلق والتسوية والتعديل إلا أنه داخلها معنى آخر اقتضى اختيار وصف الكريم دون الحكيم ، وهذا المعنى هو ما تضمنته السورة من الوعد والوعيد الأخروي .

وفي سياق آخر يحيل اضطراد الأسلوب على اتفاق المعاني والأغراض كما في قوله تعالى: ↓ ❶•◷◉ ⌘Ⅱ✎ ⚐←♈↗⇔■🖬⬀🖮◆✎ 🖂🖮 ✂ 🖬➔ 🖬▫☠ 🖮◆❻ ✸ ◆❑➔ 🕭 ◆❑❒🕮 ⬋↘❒🖬■☠↖ 🖂☺Ⅱ ❍ ◷ 🕭 ❒◆ ❑➔🕭◆❒ 🕮 ⬋↘❒🖬■⚐ ❶ 🖂☺Ⅱ 🖮 ✂ 🕮 ◷ ✎ ↑ [2] يقول فيها : " قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدي في كثير من المواضع منها في سورة الأنعام ومنها في سورة " ن "ومنها هذه السورة ؛ لأن في المواضع كلها المذكور نبيه صلى الله عليه وسلم والمعاندون ، فذكرهم أولاً تهديداً لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام "[3].

فاختلاف وجوه التصرف في الألفاظ صورة لاختلاف المقاصد ، فالمقاصد والأغراض تنزع بالألفاظ نحو الثبات أو التغير ، وتعمل على توجيه اللغة بما يوافق تلك الأغراض المتوخاة ، وهذا أصل الدرس البلاغي ومذاق أسراره ولطائفة فأقدار المعاني تختلف باختلاف المقامات لأن اختلافها يسترعي أوصافاً وخصوصيات ينجر إليها النظم ويتأثر بها .

---

(١) التفسير ٧٤/١١ .

(٢) النجم ، آية : ٣٠ .

(٣) " التفسير " ٢٦٧/١٠ .

ونوع ثالث يعول في تأويل تغيرات النظم على ترتيب السور ويجعل التغير مناسباً لوقوعها متأخرة عن تلك الآية ، فتقديم السورة يوجب اعتبارات نظمية تناسب كونها ابتداء فيتكيف النظم بكيفيات تلائم ذلك الموقع وتأتي الجملة المتشابهة بناءً عليها وامتداداً لها ويتم ذلك من خلال تحولات تطرأ على نظم الجملة الأولى فتعيد أصل المعنى وتنبه على الزيادة من خلال بعض التحويرات التي تحفز الذهن للتأمل والارتداد على الأصل ليتبين حسن موقعها في تلك ، فكأن علم المتشابه بمثابة كشف لقصة المعنى داخل النظم ومراحل نموه من خلال تغيرات الألفاظ والتراكيب ، وكل ذلك عمل في نسيج اللغة ويوضح ما ذكرت تحليله للتشابه بين قوله تعالى : ﴿ ٱ ب ب ب پ پ پ پ پ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڍ ڍ ڌ ڌ ڌ ڌ ڎ ڎ ڎ ڎ ڏ ڏ ڏ ڏ ﴾ [2] .

ذكر أن فيها سؤالات :

السؤال الأول : لم قال في سورة البقرة " وإذ قلنا " وقال في الأعراف " وإذ قيل لهم " الجواب أن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام " اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم " ثم أخذ يعدد نعمه نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول " وإذ قلنا " أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى " وإذ قيل لهم " إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة .

---

(١) البقرة ، آية : ٥٨.

(٢) الأعراف ، آية : ١٦١-١٦٢ .

السؤال الثاني : لم قال في البقرة " وإذ قلنا ادخلوا " وفي الأعراف " اسكنوا " ؟ الجواب : الدخول مقدم على السكون ولابد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة .

السؤال الثالث : لم قال في البقرة " فكلوا " بالفاء وفي الأعراف " وكلوا " بالواو ؟ والجواب ههنا هو الذي ذكرناه في قوله تعالى في سورة البقرة " وكلا منها رغداً " وفي الأعراف " فكلا " .

السؤال الرابع : لم قال في البقرة " نغفر لكم خطاياكم " وفي الأعراف " نغفر لكم خطيئاتكم " ، الجواب : الخطايا جمع الكثرة والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة ، وفي سورة البقرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال : " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية " لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة ، وفي الأعراف لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال : " وإذ قيل لهم " لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة، فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة وفي الأعراف لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة .

السؤال الخامس : لم ذكر قوله " رغداً في البقرة وحذفه في الأعراف ؟ الجواب عن هذا السؤال كالجواب في الخطايا و الخطيئات لأنه لما أسند الفعل إلى نفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رغداً ، وفي الأعراف لما لم يسند الفعل إلى نفسه لم يذكر الإنعام الأعظم فيه .

السؤال السادس : لم ذكر في البقرة " وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة " وفي الأعراف قدم المؤخرة ؟ الجواب : الواو للجمع المطلق فالمخاطبون بقوله " ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة " يحتمل أن يقال : إن بعضهم كانوا مذنبين والبعض الآخر ما كانوا مذنبين ، فالمذنب لابد أن يكون اشتغاله بحط الذنوب مقدماً على الاشتغال بالعبادة لأن التوبة عن الذنب مقدمة على الاشتغال بالعبادة المستقبلة لا محالة ، فلا جرم كان تكليف هؤلاء أن يقولوا أولاً " حطة " ثم يدخلوا الباب سجداً ، وأما الذي لا يكون مذنباً فالأولى به أن يشتغل أولاً بالعبادة ثم يذكر التوبة ، ثانياً : على سبيل هضم النفس وإزالة العجب في فعل تلك

العبادة فهؤلاء يجب أن يدخلوا الباب سجداً أولاً ثم يقولوا حطة ثانياً ، فلما احتمل كون أولئك المخاطبين منقسمين إلى هذين القسمين لا جرم ذكر الله تعالى حكم كل واحد منهما في سورة أخرى .

السؤال السابع : لم قال " وسنزيد المحسنين " في البقرة مع الواو ، وفي الأعراف " سنزيد المحسنين " من غير الواو ؟ الجواب : أما في الأعراف فذكر فيه أمرين : أحدهما قول الحطة و هو إشارة إلى التوبة ، وثانيها دخول الباب سجداً وهو إشارة إلى العبادة ، ثم ذكر جزأين : أحدهما قوله تعالى : " نغفر لكم خطاياكم " وهو واقع في مقابلة قول الحطة ، والآخر قوله : " سنزيد المحسنين " وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزأين على كل واحد من الشرطين . وأما في سورة البقرة فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جزاءً واحداً لمجموع الفعلين أعني دخول الباب وقول الحطة .

السؤال الثامن : قال الله تعالى في سورة البقرة " فبدل الذين ظلموا قولاً " وفي الأعراف " فبدل الذين ظلموا منهم قولاً " فما الفائدة في زيادة كلمة منهم في الأعراف ؟ الجواب : سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة ههنا مبني على التخصيص بلفظ " من " لأنه تعالى قال : " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم فلما انتهت القصة قال الله تعالى : " فبدل الذين ظلموا منهم " فذكر لفظة " منهم " في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم فهناك ذكر أمة عادلة ، وههنا ذكر أمة جابرة وكلتاهما من قوم / موسى فهذا هو السبب في ذكر هذه الكلمة في سورة الأعراف ، وأما في سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله " فبدل الذين ظلموا " تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق .

السؤال التاسع : لم قال في البقرة " فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً " وقال في الأعراف: " فأرسلنا " الجواب : الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية ، وذلك إنما يحدث بالآخرة .

السؤال العاشر : لم قال في البقرة " بما كانوا يفسقون " وفي الأعراف " بما كانوا يظلمون " الجواب : أنه تعالى لما بين في سورة البقرة كون ذلك الظلم فسقاً اكتفى بلفظ الظلم في سورة الأعراف لأجل ما تقدم من البيان في سورة البقرة والله أعلم " [1] .

وفي هذا النص يكشف الرازي ما وراء الفروق من خصوصيات يتعلق بعضها بالجملة والبناء عليها ، وبعضها بالبناء على المعنى بين سور متباعدة يجمعها نطاق دلالي مشترك والقسم الخاص بتناسب الكلمات داخل الجملة أفاد في أكثره من علماء المتشابه[2] قبله وكرر ما ذكروه مع بيان شارح لما أجملته عباراتهم ولا يخلو الأخذ من توجيه يضيفه الإمام بالنظر إلى جانب آخر من جوانب النظم ،نحو ما جاء عند الكرماني في قوله : " وفي هذه السورة "وسنزيد " وفي الأعراف " سنزيد " بغير واو ، لأن اتصالها في هذه السورة أشد ، لاتفاق اللفظين واختلفا في الإعراب لأن اللائق " سنزيد " محذوف الواو ليكون استئنافاً للكلام .

وفي هذه السورة " فبدل الذين ظلموا قولاً " وفي الأعراف " ظلموا منهم "؛ لأن في الأعراف " ومن قوم موسى " ولقوله " منهم الصالحون ومنهم دون ذلك " [3] .

فخالف الكرماني في عده لها لفظين متفقين وجعل طرح الواو لأجل الترتيب فمكن لتوزيع كل لفظ ورده إلى ما يناسبه : فالتوبة قابلها بالغفران والعبادة بالإحسان ، أما في سورة البقرة فلما كان دخول الباب سجداً لبيان الكيفية لم يترتب عليه ا لجزاء منفرداً وإنما تعلق الجزاء بمجموع الفعلين لترتب أحدهما على الآخر بخلاف الأعراف .

وما ذكره في سبب زيادة " من " في قوله " ظلموا منهم "فقه واعٍ لما أجمله الكرماني واكتفى بالدلالة عليه بوضع الشاهد ففتح وجه المناسبة بين الموقعين فبناء القصة ابتداء على التخصيص نزع بالآخر إلى استدعاء تلك الزيادة لتحقيق مضمون أول الكلام .

بينما نجد بعض التوجيهات تفرد بها الإمام وعول فيها على اعتبار موقع الآيات المتشابهة فتقديم آية البقرة لخصوصيات في نظمها أوجبت ذلك الترتيب وتأخير آية الأعراف ا

---

(١) " التفسير " ٥٢٦/١–٥٢٧ .

(٢) ينظر : " درة التنزيل " الاسكافي ٢٣٣/١–٢٤٥ ، " البرهان" والكرماني ٢٨–٣٠ .

(٣) " البرهان " ٢٩–٣٠ .

ستلزم نوعاً من التأليف يقارب أصل المعنى في البقرة ويبتعد بمسافات بموجب مجيئها تالية لها ، فبناء الفعل للمجهول في الأعراف بعد إسناده لذات الله في البقرة نوعاً من الإحالة على ذلك السياق ومبنياً عليه .

واختيار " اسكنوا " بعد " ادخلوا " لأن الأصل أن السكنى تالية للدخول ومترتبة عليه ، وتقديم المؤخر في سورة الأعراف " وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً " خرج في تأويلها عن سياق الجملة التي جرى فيها التقديم إلى تعليقها بنظيرتها وإجرائها عليها فأفاد تصوير حالتين من أحوال بني إسرائيل فمنهم مقترف للأثم ومنهم مجانبه ، فمقارب الأثم ينبغي عليه التوبة ثم الدخول فقدم قول الحطة لذلك ، والمجانب أردف أردف الإنعام عليه بقول الحطة إزالة لبوادر العجب في نفسه فيزاد بذلك على ما ذكره العلماء قبله من أن تقديم الدخول على قول الحطة في سورة البقرة لأن السابق فيها " ادخلوا " فبين كيفية الدخول "[1] فترتيبها على ما قبلها يمكن للاختيار ويكشف عن حسن موقعها من النظم ، بينما ضمها إلى أصلها في سورة البقرة يزيد في معناه وتكتمل عنده الدلالة ، وزاد البقاعي اعتبار حال الأغراض في التقديم فسياق الإنذار الذي هو مقصود الأعراف زحزح " قولوا حطة " وأزالها عن مستقرها في آية البقرة ليناسب ما ذكره من مثالب بني إسرائيل ويقوي الإنذار و " ليكون أول قارع للسمع مما أمروا به من العبادة مشعراً بعظيم ما تحملوه من الآثام " [2] . وفي سورة البقرة جاءت في سياق تعداد النعم للامتنان والاستعطاف فجاءت على الأصل حيث قدم نعمة الدخول ورتب عليها طلب المغفرة فلما أعيدت القصة وداخلها معنى الإنذار والتقرير عليهم قدم طلب المغفرة ليتبين ما آل إليه حالهم من الطغيان والجبروت .

وترتيب الإرسال في سورة الأعراف على الإنزال في سورة البقرة أفاد معنى زائداً على مجرد حدوث العذاب وهو تصوير التدرج فيه يقول فيها : " فلإن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها ، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيراً " [3] فتسلط

---

(١)" البرهان" الكرماني ٢٨-٢٩ .

(٢) " نظم الدرر " ١٣٩/٣ .

(٣) " التفسير " ٣٩٠/٥ .

العذاب عليهم بالكلية مرحلة تالية تتناسب مع نمو اللغة والتراكيب في الآية وتطورها من الامتنان إلى التهديد والإنذار .

وصورة أخرى لهذا النوع في سورة النحل في قوله تعالى : ↓ ❒◆◑♌♌ ✍•➔⇖⑨❻❒✁☎ ☼⍉➔✐☺⍓❒• ✁✍✍★ •• ✌⇧♦⬂◷⍘❒♎⍓✍✍ ▤ ◑♌♍· ✁✍✍✎⮝ ⍝•⇔♦▦➔❒❻⌦ ❻▪❍♍⓿⍳⍉ ⍉⬀⍉⬀ ↑ [1] بعد أن جاء

ذات المعنى في إبراهيم بقوله : ↓ ❒◆◑♌♌ ✍•➔⇖⑨❻❒✁☎ ☼⍉➔✐☺⍓✲●❁ ✁✍✍★ •• ✌⇧♦⬂◷⍘❒♎⍓✍✍ ▤ ◑♌♍· ✁✍✍"✲●♠❍❁◷♊⌘ ⍝•→•⍞➔❒⍈⊲ ▤•▦⊙✍❻⌦ ⍉⍉▓⍉ ↑ [2] وذلك لـ " أنه لما بين أن الإنسان لا يمكنه القيام بأداء الشكر على سبيل التفصيل قال : " إن الله لغفور رحيم " أي غفور للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه ، رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عليكم بسبب تقصيركم " [3] .

فالنص توزيع لما جاء في النحل من أوصاف الإلوهية على ما جرى في إبراهيم من أوصاف الإنسان ، فالظلوم قابله بالغفور والكفور قابله بالرحيم فتولد من بين الفاصلتين معنى متكاملاً وهو " إن كنت ظلوماً فأنا غفور ، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء " [4] .

وهذا النمط من التحليل يكشف عن الزيادات التي تحصل في أصول المعاني ، وأن سبيل الوصول إليها يكون برد التغيرات وعطفها على اصولها في السياق السابق وملاحظة ما وراء العدول من تطور في المعنى ونمو للدلالة فالبناء على المعنى يخرج الألفاظ من التكرار إلى التكامل .

والجمع بين المعنيين لا يقتضي في كل سياق زيادة وإنماء للمعنى الآخر بل يأتي أحياناً قسيماً مكملاً لذلك المعنى كما في قوله تعالى : ↓ ◑♌♌❒ ✁✍✍⮝♎⇦×♦ ♎•✍✍♍⬀❒✁☎ ❼⌘⍈♎✡❒✍✍ ✁✍✍✦ ⚐➔☠▪

---

(١) النحل ، آية : ١٨ .

(٢) إبراهيم ، آية : ٣٤ .

(٣) " التفسير " ١٩٥/٧ .

(٤) السابق ١٠٠/٧ .

•• ❒ ⇔ ⑩ ↘ ♦ ■ ⌘ ▫ ☎ ❑ ← ☺ ♦ ☞ ⇔ ➔ ⑥ ♦ ❸ ☼ ← ❑ ♍ ✍ ↑ [1] قال فيها : " وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون " أن لا تخافوا ولا تحزنوا " وههنا رفع الواسطة من البين وذكر أنه " لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة من غير واسطة " [2] .

فلم يجعلها إحالة إلى بشرى الملائكة لأنه جاء قبلها " إن الله لا يهدي الظالمين " فناسب تهديد الظالمين إسناد بشرى المؤمنين إلى ذاته العلية تعظيماً لهم .

وذلك من خلال وجوه مختلفة في تصريف الكلام تنبه على سياقات أخرى إليها وتستحضرها ، ويهيء لذلك بناء الجملة وتأسيسها فتوضع وضعاً تفتقر فيه إلى غيرها ، مما يحرك الذهن إلى استدعاء سياقات مماثلة لبيان و جه الكلام وإيضاح معناه كما في قوله تعالى : "قل الله يحييكم ثم يميتكم ... "

قال فيها : " فإن قيل هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول " ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر " فهذا القائل كان منكراً لوجود الإله ولوجود يوم القيامة ، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله " قل الله يحييكم ثم يميتكم " وهل هذا إلا إثبات للشيء بنفسه وهو باطل ، قلنا إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مراراً وأطواراً ، فقوله ها هنا " قل الله يحييكم " إشارة إلى تلك الدلائل التي بينها وأوضحها مراراً وليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله بقول الإله ، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر .

ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة

---

(١) الأحقاف ، آية : ١٣ .

(٢) " التفسير " ١٣/١٠ .

ممكنة في نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة"[1] .

فالرازي يجعلها جواباً مرتباً على قولهم " ما هي إلا حياتنا الدنيا " بينما ردها الزمخشري إلى ما قبلها وجعلها جواباً لها ، فجاء إثبات الإحياء لله تبكيتاً لذلك القول لأنهم " لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت ، الزموا ماهم مقرون به : من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم ، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به ، انصفوا واصغوا إلى دواعي الحق ، وهو جمعهم إلى يوم القيامة ، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه " [2] .

فالابتداء بإثبات الخلق الأول لله مع إقرارهم به وثبوته لديهم تهيئة واستدراج لإلزامهم بما ينكرونه مع أن الواجب الإقرار به ، وضم هذا الأمر إلى ما هم مقرون به حرك دواعي التأمل والتدبر لديهم ليعلموا أن من كان قادراً على ذلك ابتداء كان بعثهم وبعث أبائهم أهون شيء عليه .

وتعليقها بما قبلها وإن كان فيه تبكيت لقولهم إلا أنه يعطل الفائدة في دلالة الإثبات التي ينميها رد الجملة إلى رأس الكلام في قوله " وما هي إلا حياتنا ... " ويحول دون استيعاب ما تشربته الآية من مقاصد باعتبار موقعها من الآيات السابقة ، لأن قطعها عن تلك الجمل وحصر دلالتها في الرد على إنكار البعث يحول دون اكتمال الدلالة واستخراج ما تحت الإثبات من مضامين فقوله " الله يحييكم " وإن كان توطئة لإثبات اليوم الآخر إلا أن الإثبات بهذه الصورة أعاد للذهن سياق الإنكار في قولهم " وما يهلكنا إلا الدهر " فالتفت الكلام إليه وأثبت الإلوهية مع الدليل القاطع وهو النشأة الأولى استدلالاً بها على وجود الفاعل ثم بنى عليها الرد على منكري يوم القيامة في قوله " ثم يميتكم ثم يحييكم " لذلك كان حصر دلالتها وتوجيهها للرد على قولهم " قل ائتوا بآبائنا .. " فحسب يخل بالاحتجاج عليهم .

---

(١) " التفسير " ٦٧٩/٩ .

(٢) " الكشاف " ٢٩٢/٤ .

وأشار الإمام إلى أن غياب الاستدلال والتعويل على الإثبات المجرد مع قائل حاله الإنكار لوجود الإله أحدث تبايناً استدعى التأمل والتفكر وأعاد للذهن نمط الرد في سياقات مشابهة ويؤكد ما ذكرت قوله " فقوله ها هنا " قل الله يحييكم " إشارة إلى تجريد الإثبات عن الدلائل في مقام الإنكار ليس المقصود منه توافر الكلام على الإثبات وإنما للتنبيه على الدليل وكأن الإثبات نتيجة قاطعة لتلك السياقات .

ونحو ذلك جاء في بيان موقع قوله تعالى : " لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ " [1]، بعد قوله " قالوا أساطير الأولين " فانجر الكلام بعدها إلى التهديد والوعيد وصرف إليه وأعرض عن الشبهة والرد عليها ، فأحال ذلك القطع إلى استحضار نظائرها في مواقع أخرى من الكتاب . ذكر ذلك في قوله :× " فإن قيل : إنه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فيه ؟

قلنا : السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزاً بطريقين : الأول : أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم بكل القرآن، وتارة بعشر سور ، وتارة بسورة واحدة ، وتارة بحديث واحد ، وعجزوا عن المعارضة ، وذلك يدل على كونه معجزاً . الثاني : أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهو قوله : " اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً " وأبطلها بقوله "قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض " ومعناه أن القرآن مشتمل على الإخبار بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مراراً كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب على هذه الشبهة . والله أعلم " [2] .

ويجعل البقاعي قوله " ليحملوا أوزارهم " من تمام ما قبلها لأن صدهم بيان عن ضلالهم ، وليحملوا بيان آخر لصدهم عن الهدى وهو أن ذلك الصد تعدى على غيرهم فأضلوهم ومن أضل كان عليه وزر من ضل " [3] .

---

(١)سورة النحل ، آية : ٢٥ .

(٢) " التفسير " ١٩٨/٧ .

(٣) " نظم الدرر " ٢٥٨/٤ .

وزاد الرازي في عنايته بتشابه القرآن وإبراز ما تحت نظمه من تآلف وتوافق حرصه على اضطراد أساليبه ولغته فلا يضمر فيه شيء من خارج وإنما يلاحظ ما اعتيد مثله مثله وجرى عليه نظم القرآن كما في توجيه موقع " إذ " في قوله تعالى : " وإذ قال ربك ... " [1] يقول : " في إذ قولان : أحدهما : أنه صلة زائدة إلا أن العرب يعتادون التكلم بها والقرآن نزل بلغة العرب . الثاني : وهو الحق : أنه ليس في القرآن مالا معنى له وهو نصب بإضمار ذكر ، والمعنى : اذكر لهم قال ربك للملائكة، فأضمر هذا لأمرين : أحدهما : أن المعنى معروف ، والثاني : أن الله تعالى قد كشف ذلك في كثير من المواضع كقوله " واذكر أخاً عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف " ، وقال : " واذكر عبدنا داود " ، و " واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين " والقرآن كله كالكلمة الواحدة ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصرحة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك ههنا اكتفاء بذلك المصرح " [2] .

وزاد في بيانه في إنكاره على الزمخشري تأويله وجه النصب والجر في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] " قال صاحب الكشاف : ... أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم و حذفه والرفع على قولهم أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ، يكون قوله " إن هؤلاء قوم لا يؤمنون " جواب القسم كأنه قيل وأقسم بقيله يا رب أو قيله يا رب قسمي ، واقول هذا الذي ذكره صاحب " الكشاف " متكلف أيضاً وههنا إضمار امتلأ القرآن منه وهو إضمار اذكر ، والتقدير واذكر قيله يا رب ، وأما القراءة بالجر ، فالتقدير واذكر وقت قيله يا رب ، وإذا وجب التزام الإضمار فلأن يضمر شيئاً جرت العادة في القرآن بالتزام إضمار أولى من غيره ، وعن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله " وقيله يا رب " المراد وقيل يا رب والهاء زيادة " [4] .

---

(١) البقرة ، آية : ٣٠ .

(٢)" التفسير " الرازي ٣٨٣/١-٣٨٤ .

(٣) الزخرف ، آية : ٨٨ .

(٤) " التفسير " ٦٥٠/٩ .

وهنا أبعد الإمام الشأو في دراسته لبيان المتكلم و جعله سياقاً واحداً في تناسب معانيه وتنظيم عناصره ، وفي وحدة تأليفه واتساق ألفاظه ، فإذا حذفت منه كلمة لا يقدرها الدارس بتأويله ، وإنما يعود إلى فلي ألفاظ المتكلم وتتبع السياقات المتشابهة فينظر ما أظهر هناك ويضمره في هذا السياق ، ولا يقدر من معجم اللغة لأن كل لفظة لم تجر في بيان ذلك المبين تعد دخيلة عليه وغريبة في أرضه فأنس الألفاظ المضمرة وتمكنها يكون بأخية نظائرها .

وهذا الجانب وإن كان نبعه من المحافظة على لغة الإعجاز حتى لا يدخلها بيان بشري فطلب سلامة اللغة وبيان استقامتها بالتأويلات التي يلجأ إليها أصحاب المعاني والنحاة لابد أن يضبطها سياق القرآن ، إلا أنه يعود بفائدة كبيرة على دراسة الشعر والبيان عامة ويضبط حركة ما طوى من معان واضمر من ألفاظ بما ظهر في كلام المتكلم وبهذا نسلم قيادة اللغة وزمامها إلى صاحب البيان ، ويصبح بياناً متفقاً متناسباً له خصوصية واحدة و وسماً متشاكلاً وهذا توجيه بالغ من الإمام يحدد به مدى تدخل القارئ في تأويل الكلام وأن الذي يناط بالدارس ليس السلامة اللغوية لأن المعهود في كلام المبين رعايتها وإنما يراد منه الخصوصية في تلك السلامة التي توحد بين سياقات المتكلم وتحفظ تناسب نظمه وتأليفه .

وحرك الرازي بعلم المناسبة قضية مرتبطة بالإعجاز حفت الأقلام في تتبعها وتصاعدت النصوص في التنبيه على أهميتها وأنه لا سبيل إلى دركها وإحاطة العلم بها ومزاولتها ولم يحل ما يكتنف غيبها من غموض لتشعث مسالكها والتباس نهجها دون الإلحاح على مدارستها وهذه القضية هي التوسل بالكلام إلى أقدار المتكلمين لأن منازلهم في البلاغة " من حيث ما نطقوا وأبانوا " [1] .

فالأبنية اللغوية لها زوايا متعددة في كل منها خبايا تسكن فيها أحوال مختلفة ومتنوعة وتحريك هذه الخبايا واستثارتها ينبه على مستويين للبيان مستوى يتوسل به الوصول إلى الدلالة ، وآخر يقف عند تصريف اللغة وطرائق تأليف نظومها واقتفاء آثار المتكلم في نظمه والمستوى الثاني أي الذي تتجلى فيه صورة قائلة في الترتيب والتأليف هو مناط الإعجاز والأصل فيه ، فإذا حاد الدارس عن هذا المدخل حارت عليه السبل وتاه في محيط البيان

---

(١)" البيان " الجاحظ.

ولججه المتداخلة . وقد أشار الخطابي إلى أن تداخل هذين المستويين سبب في تحير بعض الدارسين في وصف البلاغة المعجزة وأي شيء داخلها حتى أعجزت وقهرت الأطماع ؟ "ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا إنه لا يمكننا تصويره " [1] . فجاذب الباقلاني ذلك التساؤل وفتح باب البلاغة الخاصة التي تنعكس فيها صورة قائلها وملامحه وسماته من خلال تصريفه للغة ؛ لأن التصريف ينزع باللغة من الخطاب الجمهوري إلى الخصوصية فتتشبع الدلالة بأنفاس قائلها وتحوم أحوال وخصوصياته في أبنية التراكيب فتستدل بالبيان على المبين " كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه بين الخطوط " [2] ، وكذلك التأليف والترتيب يحمل هوية قائله ينسبه إذا اشتبه نسبه بغيره " [3] .

وزاد الرازي في هذا الباب وامتد به إلى ما خلف العادات الكلامية أو الأساليب المضطردة من إحالة إلى قائلها ووجه تعلقها به ، وما في ذلك من فوائد وأسرار لا تحصل صورتها مجتمعة في عبارة واحدة ولا يتفق للغة الإحاطة بها دفعة لاختلافها وتنوعها وإنما سبيلها انتهاج المتكلم لمسلك يستمر ويضطرد فيكون بمثابة منارة تهدي إلى تلك المعاني المتكاثرة وتحفز الذهن إلى ارتياد ما يستتر في ضميرها من أحوال تدل على قائلها وتحيل عليه . وقد فتح ذلك في نص يدل على فقه واع بطرائق الإبانة وأن حصر ذلك في حدود اللغة والتصرف فيها يحول دون استيعاب جميع مقاصد المتكلم وأغراضه وأن الوصول إلى معرفة المبين وخصوصيته لا يكون إلا بتتبع سياقات كلامه وترتيب معانيه و استقراء كامل لمسالكه .

فشيوع نوع من التآليف ينبه على منزع أسلوبي وخصوصية بيانية تنطوي تحتها مقاصد لا تتناهى ، فقد ذكر أن استمرار القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد إذا كان السياق لمحض ذلك فإنه يتبع أحدهما بالآخر ، أما إذا تضمن معنى أخر وجرى في تكميل سياق

---

(١) " بيان إعجاز القرآن " ص ٢٤.

(٢)" إعجاز القرآن " الباقلاني ص١٢٠ .

(٣) ينظر : " مراجعات بلاغية " د . أبو موسى ٢٢٦ ، و " الإعجاز البلاغي " ٤٣ .

سابق لا يلتزم الإرداف كما في قوله :

فالآية [1]

جاءت وصفاً لمن تولى وأعرض بعد أقامة الحجة في قوله :

. [2] "[3]

ووراء الاستمرار في الاقتران بين الوعيد والوعد له معان و فوائد متكاثرة يقول فيها "اعلم أنه سبحانه و تعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجانبها آية في الوعد ، وذلك لفوائد : أحدهما : ليظهر بذلك عدله سبحانه ، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان . وثانيها : أن المؤمن لابد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه على ما قال عليه الصلاة والسلام : " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا " وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق . وثالثها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته " [4] .

فتأمل تزاحم المعاني وتدفقها من تحت تكرار هذا اللون واستمراره ، وما في ذلك من إيحاءات بمقاصد تتصل بالمبين وأحواله فهي تنبيه على عدله سبحانه وعلى كمال رحمته وكمال حكمته ، وأحالت أيضاً إلى معان إحسانية خلف تداخل الوعد والوعيد وأنه سبيل لتحقيق التوازن والاعتدال النفسي للمؤمن فتتكامل بذلك المقاصد وتتألف سياقات التشريع لتؤدي بياناً متفقاً يصدق بعضه بعضاً .

---

(١) آل عمران ، آية : ٢١ .

(٢) آل عمران ، آية : ٢٠ .

(٣) ينظر " التفسير " ، ١٧٦/٣ .

(٤) " التفسير " ٥٨٤/١ .

والنص يؤكد على أن هذا الاقتران بينهما صار عادة مستمرة ونهجاً متكرراً ذكر ذلك في أكثر من موضع منها قوله : " اعلم أن عادة الله إذا ذكر وعداً أو و عيداً عقبه بما يضاده "[1]، وفي آخر " وهذا الترتيب مدار كل القرآن عليه " [2] . وكونه عادة للمتكلم يوجب على المفسر أن يلحظ ما تحت الخطاب فليحق النظير بالنظير ولا يخرج الكلام مخرجاً بعيداً عن المقابلة كما جاء في تفسيره لقوله تعالى : [3] . ذكر فيها أن " قوله : " واعلموا أنكم ملاقوه " وفيه إشارة إلى أني إنما كلفتكم بتحمل المشقة في فعل الطاعات و ترك المحظورات لأجل يوم البعث والنشور والحساب ، فلولا ذلك اليوم لكان تحمل المشقة في فعل الطاعات وترك المحظورات عبثاً وما أحسن هذا الترتيب ، ثم قال : " وبشر المؤمنين " والمراد منه رعاية الترتيب المعتبر في القرآن وهو أن يجعل مع كل وعيد وعداً أو المعنى وبشر المؤمنين خاصة بالثواب والكرامة فحذف ذكرهما لما أنهما كالمعلوم فصار كقوله " وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً " [4] .

فجملة " وبشر المؤمنين " نبهت على معنى الوعد وفتحت مجالاً دلالياً لحضور ذلك السياق ومداخلته بنقيضه فمجيئها جملة مصغرة في ساقة معنى التهديد والوعيد الذي تلاحقت الجمل لتنمية دلالته وإشباع سياقه فقد جاء النهي في قوله : 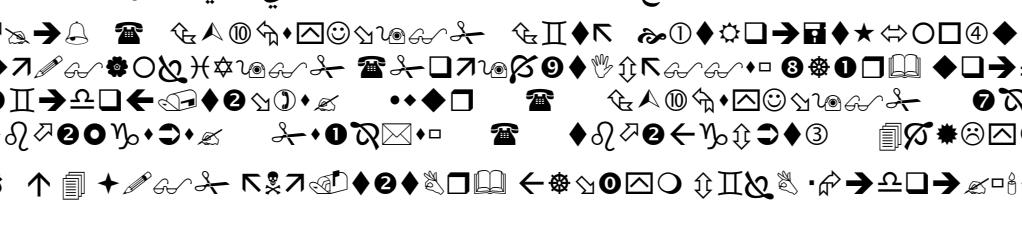 ثم تتابعت الجمل الثلاث وهي " وقدموا لأنفسكم " و " اتقوا الله " و "اعلموا أنكم ملاقوه " لتبين

---

(١) " السابق " ٥٣٥/١ .

(٢) السابق ، ٥٦١/٩ .

(٣) البقرة ، آية : ٢٢٣ .

(٤) " السابق" ٤٢٤/٢ .

قوة الإلزام وعظم الخطيئة على من أعرض عن التكليف وتعداه[1]، ثم جاءت " وبشر المؤمنين " قبضاً وإيجازاً بما للمطيع من أجر وثواب ، فكأن هذه التهديدات تأرز بالدلالة نحو الإيجاز فضيقت مساحتها للتناسب مع ما قبلها من تصعيد لمعنى التهديد فاكتفى بالإيحاء إلى سياقات معهودة في الوعد لتكميل الدلالة. أو يكون الإيجاز مناسباً للمبالغة في التهديد لما في الإيحاء من فتح الدلالة أمام الذهن لتذهب النفس كل مذهب في تصور البشرى وما للمؤمن من عطاء ثواب لا تحيط به العبارة . لذلك جعلها كقوله تعالى : " وبشر المؤمنين بأن لهم فضلاً كبيراً " أي أن الإيحاء جاء لذات الفائدة التي تولدت عن مطل البشرى في سورة الأحزاب .

ومن العادات الأسلوبية تقديم الرحمة على الغضب والعذاب حيث قال : " ثم إنه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله " إني أنا ربك " واختتمها بمحض القهر وهو " فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى " تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه وإشارة إلى أن العبد لابد له في العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف ، وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف هذا الترتيب هو النهاية في الحسن والجودة وأن ذلك لا يتأتى إلا من عالم بكل المعلومات " [2] .

فاستدل بالترتيب على أن هذا الكلام لا يصدر إلا عن الإلوهية الكاملة في علمها وإحاطته بأحوال الإنسان ومداخلة نفسه فيقدم ويؤخر رعاية لتلك الاعتبارات فيوقع الكلام موقعاً يزيل ذلك الإيحاش فتنقاد التكاليف راضية مقرة بعظمة منزلها .

وزاد في موضع آخر بيان تناسب هذا الترتيب مع المقاصد لـ " أن المقصود من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب ، قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب العزة سبحانه " خلقتهم ليربحوا على لا لأربح عليهم " وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتدأ بذكر أهل الثواب ... لأن تقديم الأشرف على الأخس في الذكر أحسن ... تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب " [3] .

---

(١) السابق نفسه.

(٢) " التفسير" ٨/٢٣– ٢٤ .

(٣) " السابق" ، ٣/٣١٩ .

فتقديم الرحمة للعناية ولكونها جارية على مقصد أصل حكاه الله عن نفسه وأن الأصل في الخلق إرادة الرحمة بهم والربح لهم ، وأن الغضب عارض إستلزمه إعراضهم وتمردهم على الحق لما جاءهم .

والإمام يستند في استنباطه تلك المعاني التي وراء عادات الترتيب على مواقعها في الأحاديث المنقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام والاستدلال بها على الخصائص الإلهية في النظم وقد أحسن في إعمال السنة في نظم القرآن فأخرج ما ذكره من معان من حدود الوهم إلى الحقيقة والحس ، و جلاها بعبارات منطوقة وصريحة في الحديث فقوله : " سبقت رحمتي غضبي " نبه على سر تقديم الرحمة وأن هذا الترتيب تجلية للطائف ربوبيته سبحانه ، وأن خلقه للناس لينعم عليهم ويحسن إليهم لا لفائدة تجنى من ذلك الخلق وهذا كمال الربوبية . وهذا المسلك في دراسة الأساليب باب لطيف يحتاج إلى فطنه وحذق في ملاحظة انتساب معاني السنة في وصف أحوال الإلوهية إلى التنبيهات المتولدة من أنماط ترتيب المعاني في القرآن وأحوال تنظيمها وما وراء ذلك من أوصاف تختص بقائلها وتدل عليه .

فالسنة ليست بياناً مكملاً للتشريع فحسب ، وإنما هي منطوق صريح لما تحت النظم من أحوال وخصوصيات ، وبهذا يزيد في مدى التداخل بين الكتاب والسنة ، وأن هذا التداخل يتعدى المعاني والمقاصد إلى أنها تشربت خصوصياته وفصلت ما أجمل من أسرار في تأليفه وترتيبه فأبانت عن إعجازه وشقت طريقاً أمام السالكين إليه فدلت على أحوال الإلوهية التي تخللت نظمه واندست في تصريف تراكيبه . فالارتداد إلى السنة عضد ما نبه عليه العلماء من أن الإعجاز حادث عن المنزع الإلهي في تآليفه وتصريف نظمه ؛ فالسنة تقع من القرآن موقع القرينة في السياق الواحد : لتداخل مقاصدها مع مقاصده وتشابه أحوالها مع أحواله فيصدق النص النص ، ويقوى دلالته ، فـ " كل حديث في القرآن أصله قرب أو بعد " [1] .

وهذا الضرب من الإبانة يسمى بالقرائن الخارجية وهي : ضرب من الدلالة المنفصلة حده التلمساني بـ " موافقة أحد المعنيين لدليل منفصل من نص أو قياس أو عمل " [2] أي

---

(١)" البحر المحيط الزركشي " ١٦٦/٤ .

(٢) " مفتاح الوصول " ، ٥٣ .

أنها مسلك قائم على الاقتران والتضام بين نصوص من خارج يجمعها نطاق دلالي مشترك . وهذا يعمل على توسيع دلالة الخطاب مثلها في ذلك مثل دلالة الإشارة والإيماء مسلك من مسالك الوصول إلى المعاني المستكنة في أعماق النصوص ، فالسنة تمد دلالة القرآن وتجليها بعد الخفاء " وهذا عجيب في فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم ، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به " [1] وهذا مرتبة عليا في فهم النصوص تستخرج قدراً زائداً على ما تحمله الألفاظ بأعمال سياقات خارجية تحرك الدلالة وتبعثها من بواطن التراكيب فيجاذب البيان النبوي العناصر المجملة في الجملة القرآنية ويفصل ما تحويه من معان متشابكة فتنكشف النسبة والمشاكلة بين وصف النبي – عليه الصلاة والسلام – لأحوال الإلوهية وجريان تلك الأحوال في سمت كلامه ونمط ترتيبه وتأليفه .

واستدل به أيضاً في تفسيره لقوله تعالى : [2] إذ قال : " وهذه الآية لطيفة عجيبة وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم كانوا كافرين ثم بين من حالهم أنهم اتخذوا دينهم لهواً أولاً ، ثم لعباً ثانياً ، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثاً ، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله ، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة كما قال عليه الصلاة والسلام : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " وقد يؤدي حب الدنيا إلى الكفر والضلال " [3] .

فتأخير " وغرتهم الحياة الدنيا " وما آل إليه حالهم بعدها من جحد آيات الله والكفر نبه على أن حب الدنيا هو أصل كل ضلالة ، وصدّق خفي التنبيه صريح ما جاء في السنة عنه صلى الله عليه وسلم .

---

(١)" إعلام الموقعين " ابن قيم ٢٦٧/١ .

(٢) الأعراف ، آية : ٥١ .

(٣) " التفسير الكبير " ٢٥٣/٥ .

وكذلك إرداف القضايا الكلية ببعض أجزائها عادة ومسلك بياني مضطرد في تقرير المعاني وتفريعها نحو ما جاء في قوله تعالى : " وينذر الذين قالوا أتخذ الله ولداً " ، " معطوف على قوله " لينذر بأساً شديداً من لدنه " ، .... فالأول عام في حق كل من استحق العذاب والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً ، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى : "وملائكته ورسله وجبريل وميكال " فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى " [1] .

فهو لم يطرح ثمرة عطف القضية الخاصة على معنى الكلي ويدل على أن المعنى في الآية أن أقبح الكفر إثبات الولد لله تعالى إلا بعد تتبع دقيق لمعاني القرآن وملاحظة مواقع المعاني الجزئية التي تقاذفت في رتبة خاصة واستقلت من قضايا كلية سابقة حتى إذا اطمأن إلى كونها نمطاً عاماً وعادة جارية مكن لما وراء ذلك من خصوصيات وفوائد .

ويندرج فيها أيضاً استمرار إيراد المعنى بمسلك محدد وضرب واحد من التصريف وأن تنوعت الصياغة كما في منهج القرآن في دفع شبهة الولد وتنزيهه عن ذلك تعالى عما يصفون بالاستدلال بملكه للسموات والأرض ونبه على ذلك في قوله : " واعلم أنه سبحانه في كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالكاً لما في السموات وما في الأرض فقال في مريم "إن كل من السموات والأرض إلا أتي الرحمن عبداً " والمعنى : من كان مالكاً لكل السموات والأرض ولكل ما فيها كان مالكاً لعيسى ولمريم لأنهما كانا في السموات وفي الأرض ، وما كانا أعظم من غيرهما في الذات والصفات ، وإذا كان مالكاً لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكاً لهما أولى ، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولداً وزوجة " [2] .

ولا يكاد يأتي موضع تردف فيه دلائل الآفاق من خلق السموات والأرض عقيب نفي الولد عنه سبحانه إلا نبه على تلك المناسبة ووجه تلك الدلائل تجاه ذلك الغرض والحقها به ونسبها إليه ، فجاء في تفسيره لقوله تعالى : ♦♌♎☒♎ ♌♑♋ ♎➔♎ ♋♑♦

---

(١) السابق ٤٢٤/٧–٤٢٥ .

(٢) " التفسير " ٢٧٢/٤ .

يقول : " فلما كان إلهاً للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إلهاً للسماء مع أنه لا يكون مستقراً فيها ، فإن قيل وأي تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله تعالى ؟ قلنا : تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض كن فيكون من غير واسطة النطفة والأب ، فكأنه قيل إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولداً لله سبحانه ، لأن هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والأرض وما بينهما مع انتفاء حصول الولدية هناك " [٢] .

وكذلك تتبعه بعض الصيغ وثبات استعمالها في معنى وملازمتها كما في العدول إلى المضارع بعد المضي في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [٣] قال فيها الإمام : " إذا كان بدلاً عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضي والاستقبال حيث قال تعالى : " الذين أحسنوا " وقال : " الذين يجتنبون " ولم يقل اجتنبوا ؟ نقول : هو كما يقول القائل الذين سألوني أعطيتهم ، الذين يترددون إلى سائلين أي الذين عادتهم التردد والسؤال سألوني وأعطيتهم فكذلك ههنا قال : " الذين يجتنبون " أي الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى ، فإن قيل في كثير من المواضع قال في الكبائر " والذي يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون " وقال في عباد الطاغوت " والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها

---

(١) الزخرف ، الآيات : ٨١– ٨٤ .

(٢) " التفسير " ٦٤٨/٩ ، وينظر : ٢٣/٢ .

(٣) النجم ، آية : ٣٢ .

وأنابوا إلى الله " فما الفرق ؟ نقول : عبادة الطاغوت راجعة إلى الاعتقاد والاعتقاد إذا وجد دام ظاهراً فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر ، وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زماناً ويعود غليه ولهذا يستبرأ الفاسق إذا تاب ولا يستبرأ الكافر إذا أسلم ، فقال في الآثام " الذين يجتنبون " دائماً ويثابرون على الترك أبداً ، وفي عبادة الأصنام " اجتنبوا " بصيغة الماضي ليكون أدل على الحصول ، ولأن كبائر الإثم لها عدد أنواع فينبغي أن يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال وعبادة الصنم أمر واحد متحد ، فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضي الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة " [1] .

فالرازي لم يقصر حديثه على فائدة استخدام الفعل المضارع ودلالته على ما جرى عليه البلاغيون وإنما تجاوزه إلى الالتفات لنمط الاستمرار والتلازم الدائم بين الصيغة والموقع دل عليه قوله " فقال في الأثام " الذين يجتنبون " دائماً ، فكأن وظيفة الدرس البلاغي ليس الوقوف على أسرار اللغة في مقامات محددة بل التتبع واستقصاء المقامات المطلقة التي جرت فيها الصيغة ورصد التغير والثبات وما وراءه من أحوال سياقية اندست في قالبها فأصبحت جزءاً من بنائها ومكوناً لبيانها لا تنفك عنها حتى أنها إذا جرت في سياق مخالف كسياق الصيغة السابقة نزعت بها عن التشابه مع ما قبلها من الكلام والعدول عن الجريان في سلك النظام واتصلت بالسياق العام لنظائرها في ذات المعنى ويمكن نقل العادات الكلامية إلى حقل الشعر وتنبع كل ظاهرة اضطردت واستمرت في شعر الشاعر حتى أصبحت عادة جارية وطبعاً في بيانه يسم قائله ويدل عليه ، ووصل تلك العادات بالسياق وهذا ليس خارجاً عن أصول دراسة الشعر أو مستحدثاً وإنما له جذوره الممتدة في قراءة العلماء بالشعر وشروحهم عليه فهذا ابن فورجه يدفع ما عابه ابن جني على شعر المتنبي في قوله " وإني لمن قوم كأن نفوسنا" فأعادا المذكور على لفظ الخطاب والواجب أن يأتي به على الغيبة يقول: "كلمته في هذا فاعتصم بأنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ... ولعمري إنه لكلما ذكر ، ولكن الحمل على المعنى عندنا لا يسوغ في كل موضوع ولا يحسن

---

(١) " التفسير " ٢٦٩/١٠ .

" فاستقرأ ابن فورجه كل شعر المتنبي فيجده مذهباً يستمر في سياق المدح ، أما في الذم فيجري الكلام على حال الغائب ويجعل " هذا من أدق ما في شعره من الخبث وأدله على حكمته واستيلائه على قصب السبق في شعره " [1] .

فابن فورجه راجع كلمة المتنبي وأن ذلك أبلغ في المدح في شعره فوجده مذهباً يستمر في ذلك الغرض ، ويطّرحه في الهجاء ويأتي بالكلام فيه على الأصل ، فأكد تخليه معنى المبالغة ، ودل على قصد الشاعر إلى المعنى وسوغ له الاضطراد والاستمرار مع الغرض فدل على اقتدار الشاعر وضبطه لبيانه وتصريفه للغة وحسن توجيهها وفق المقامات التي ينتهجها . فلا يضع العبارة إلا وقد راعى ائتلافها وتناسبها مع ما جرى في معناها حتى يصبح بياناً متفقاً متماسكاً مع سياقاته البعيدة .

فلما كان ظاهرة شائعة ومذهباً يؤمه الشاعر ويقصد إليه أخرجه ابن فورجه من المذمة والعيب إلى قوة المنة وشدة احتيال الشاعر ومكره في أداء المعاني وتقريرها ، وكأن الاستمرار يصحح بعض الظواهر ويخرجها من حيز الضرورة إلى البلاغة والاقتدار إذا ترتب عليه نوعاً من الإفادة .

ومن وجوه تناسب السياق القرآني ما لفت إليه من تلازم بعض المعاني واقترانها في بناء بيانه فلا يكاد يأتي أحدهما منفرداً عن الآخر فاستقصى معاني الكتاب وأصول دلالته وما يجتمع منها ويتلازم وما يأتي بعضه منفرداً دون بعض ، فوجد أن هناك معان يقترن بعضها ببعض في كثير من المواقع وصار حضور أحدهما مقتضياً للآخر مصرحاً أو مكنياً يؤول إليه التركيب ويوجبه طول الصحبة ، فالمعنى أحياناً يتصور في التركيب بصورة أخرى ويستبطن المعنى المواخي لما قبله ، فإذا رتب عليه ورد إليه تعطف على إلفه وانتسب إليه وكأن المعاني لما تلازمت وتصاحبت جرت طبائعها فيما صحبته من معان فمبجرد اقترانها تتلامح النسب وتتشاكل فيجري المؤول منه مجرى الصريح .

ومن ذلك اقتران معنى التعامل مع الله وتعظيمه بالتعامل مع الخلق والشفقة عليهم

---

(١)" تاريخ النقد " إحسان عباس ٣٩٤ .

والإحسان إليهم وتتبع هذا التجاور على مستوى الجملة الواحدة مثل قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [1] قال فيها : " اعلم أنه ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة على خلق الله فقوله " يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به" مشعر بالتعظيم لأمر الله ، وقوله " ويستغفرون للذين آمنوا " مشعر بالشفقة على خلق الله " [2] .

وجعل الزمخشري جملة " ويستغفرون للذين آمنوا " بعد وصف الملائكة بالإيمان تنبيهاً على أن الأجناس وإن تفاوتت واختلفت إلا أن جامع الإيمان أزال هذا التباعد وأحاله إلى تجانس كلي وتناسب حقيقي ، فالاشتراك في الإيمان داعي إلى النصيحة والشفقة . [3]

أي أنه يجعل هذه الجملة معنى إضافي زائد في معنى يؤمنون به وأن الإيمان يؤدي إلى التجانس التام وأن تباعدت الأجناس أما الرازي فيحتفي بكمال الدلالة فالإيمان يستلزم كماله حضور طرفيه ، وهما : تعظيم الله والشفقة على خلق الله ، فحرص الملائكة وقد بلغوا من درجات الإيمان مبلغاً عظيماً عند الله – على استكمال أعلى الخصال بالاستغفار للمؤمنين إحساناً منهم وتنزيهاً لله . ينمي معنى الإيمان وتستكمل عناصره .

أو يكون الاقتران بينهما في آيتين متجاورتين مثل قوله تعالى : ﴿ ... ﴾ [4] يقول فيها : " اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله تعالى وإليه الإشارة بقوله : ﴿ ...

---

(١) غافر ، آية : ٧ .

(٢) " التفسير " ٤٨٨/٩ – ٤٨٩ .

(٣) " الكشاف " ١٥٢/٤–١٥٣ .

(٤) الإنسان ، آية : ٨ .

[illegible] [1] ، والشفقة على خلق الله وإليه الإشارة بقوله " ويطعمون الطعام " "[2] .

وبالتأمل نجد أن هذا المعنى ليس منطوقاً صريحاً من النظم وإنما هي إشارات وتنبيهات أشعرت بها اللغة وحركها التجاور تجاه ذلك المعنى بينما جعلها البقاعي معنى مقابلاً لقوله " يوفون بالنذر " فالوفاء بالنذر فيه معنى الإلزام البالغ فـ " من وفّى بما أوجبه على نفسه كان بما أوجبه الله من غير واسطة أوفى .... وكان قد ذكر تذرعهم بالواجب ، اتبعه المندوب دلالة على أنهم لا ركون لهم إلى الدنيا ولا وثوق بها " [3] .

وخالف من قبله من المفسرين في تأويل بعض الآيات من أجل الحفاظ على سمت البيان القرآني بإجرائه على ما اضطرد وشاع في تناول المعاني ، كما في توجيه الزكاة في قوله تعالى : [illegible] [4] فابن عباس والجمهور على أن الزكاة بمعنى : لا إله إلا الله أي التوحيد لأن ما قبلها " فويل للمشركين " فناسب ذلك أن تكون بمعنى تزكية القلب وتطهيره من الشرك .

ورجحه ابن عطية بقرينة السياق لأن الآية مكية وزكاة المال فرضت بالمدينة . [5]

بينما يوجه الرازي دلالتها باعتبار السياق الترتيبي لمعاني القرآن ، فاقتران معنى توحيد الله مع الإحسان إلى الخلق أسلوب يكاد يكون مضطرداً ، فحملها على معنى الإشفاق على الخلق أولى لما في ذلك من تنويع للمعاني وخروج عن نمط التكرار والإعادة إلى الزيادة والإفادة ؛ لأن القول بأنها بمعنى التوحيد هو ذاته معنى " وويل للمشركين " فالتهديد على الشرك أمر ضمني بالتوحيد .

يقول في ذلك : " أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة أولها : أن يكون مشركاً

---

(١) الإنسان ، آية : ٧ .

(٢) " التفسير " ، ٧٤٦/١ .

(٣) " نظم الدرر " ٢٦٧/٨ ، وينظر الكشاف ٦٦٨/٤ .

(٤) فصلت ، آية : ٧ .

(٥) ابن عطية ، " المحرر الوجيز " ٥/٥ .

وهو ضد التوحيد . وإليه الإشارة بقوله " وويل للمشركين " . وثانيها : كونه ممتنعاً عن الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله " الذين لا يؤتون الزكاة " ، وثالثها : كونه منكراً للقيامة مستغرقاً في طلب الدنيا ولذاتها ، وإليه الإشارة بقوله : " وهم بالآخرة هم كافرون " وتمام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام : الأمس واليوم والغد . أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلي الخالق لهذا العالم . وأما معرفة أنه كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة ، وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيامة ، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال ، فلهذا حكم الله عليه بالويل ، فقال : " وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة و هم بالآخرة هم كافرون " وهذا ترتيب في غاية الحسن"[1].

فنقض بذلك كلام ابن عطية وأخرج دلالة " يؤتون الزكاة من حيز التأكيد إلى التأسيس؛ فالجمل الثلاثة استوعبت مراحل الإنسان المختلفة وإجرائها على التأكيد يقضي على ذلك التنوع والتكامل . ففصل الإمام دلالتها وبين خصائص كل منها وأن تجاورها وتقاربها لا يعني الاتفاق التام وإنما لكل مؤاده وغايته ومعان تؤسسها فتأكيدها للتوحيد لا يلغي خصوصية كل جملة وإمكانية حملها على معالجة أحوال مختلفة من أحوال الإنسان فمعرفة ماضيه بمعرفة خالقه ، وحصول العلم بمستقبله بتقرير اليوم الآخر ، وتوسط الزكاة افاد المعاملة مع الخلق الموجبة لمعرفة حاضره . واستحسنه البقاعي وتابعه في ذلك . [2]

أو يتوزع في مساحات مختلفة من السورة كما في سورة المزمل أشبعت معنى التعظيم ابتداء ثم جاء قوله : 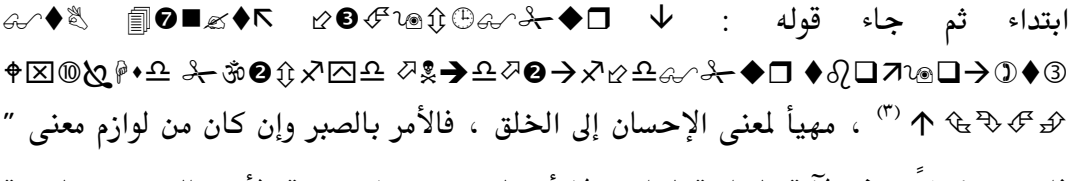 [3] ، مهيأ لمعنى الإحسان إلى الخلق ، فالأمر بالصبر وإن كان من لوازم معنى " فاتخذه وكيلاً " في الآية السابقة لها ، إلا أن الرازي يجعل داعية الأمر بالصبر هو الشفقة

---

(١) " التفسير " ٥٤٢/٩ .

(٢) " نظم الدرر " ٥٥٣/٦ .

(٣) المزمل ، آية : ١٠ .

على خلق الله ؛ لأن " المعنى أنك لما اتخذتني وكيلاً فاصبر على ما يقولون وفوض أمرهم إلي فإنني لما كنت وكيلاً لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك ، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين كيفية معاملتهم مع الله ، وكيفية معاملتهم مع الخلق ، والأول أهم من الثاني ، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول اتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني ، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطاً للناس أو مجانباً عنهم فإن خالطهم فلابد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم " [1] .

والنص يصور لك إصرار الرازي على إعمال المعاني المتقاربة والمتلازمة واستحضار الآخر وإن تداخلت العبارة وتمازجت مع نظم ما قبلها واتصلت بمعناها فقوله " واصبر " يجري مجرى التكميل لمعنى الوكالة وبيان لما يلاقيه فيها من الخطوب والمكاره[2] . فالوكالة تعني التفويض التام لله والانعتاق من سلطان النفس وزمها بأمر الله ، لكن تناسله من رحم تلك الفاصلة لا يلغي كونه قسيماً لذلك المعنى. أو يجعل هذين المعنيين هما مركز السورة ونقطة التقاء ما تشعث من معانيها وانتشر كما في سورة الأحزاب فجميع آياتها ترتد إليهما وتعمل على تفصيلها ، فقسم السورة إلى قسمين : الأول : إشباع لدلالة تعظيم الله ، والثاني : الإحسان إلى الخلق بصنفيهم الخاص وهم الزوجات ثم عامة المسلمين يقول في قوله تعالى :
↓ ③♦⌚❄♗❒⑨ゑ⁂❑ ✂ ✂ⓠ⌣❒□⌧ ⍟ ➔ ⇨ ⊠⌚⚘✠ ⊗ ❒◆⌚⊠⊠
⑨⊗♌ ✈⊼⇢⊖⊙⊡ ⑤ ➋⊗⑩♍ ✍➔❷⊗⑩⊏♍ ✂ ⑩♦⊠⑩◆❏▤□■
✂ ⑨⊙❻☼⊏❹◆ ✂ ❒◆⊗⊗③♈◆☞◆♑⊠ ⊏♦☞◆➔⊠✓⊏
⊡↑◆❀❀✎■⬡ ❒◆⊡↑❀❸⊗⊖⇕≣⊼⇗· ·❁❸◆✂■⊙⊖
⇝◆♈⑩⊠⌖ ⇗⊗⊗⊗⊗ ↑ [3] " وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام : " الصلاة وما ملكت أيمانكم" ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله " يا أيها النبي اتق الله " ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فأنهن أولى الناس بالشفقة " [4]

---

(١) " التفسير " ٦٨٩/١٠ .

(٢) ينظر " نظم الدرر " ٢١٠/٨ .

(٣) الأحزاب ، آية : ٢٨ .

(٤) " التفسير " ١٦٥/٩ .

.

وأشار في قوله : ↓ ③♦🕓✵⑨❐□🗅✂ ✂✡⑨ℵ🕓☒➹ 🖂📻🕓□✡▫🖬🖂🗟⬀❻❐🕮 ✎✍✵☼ℵ❶
✍🕐⑩ℒ↖✂🖂⑩◆❐ ✂☪❸🗞♏⌑♦⧖↖✍◆❐ ✂☪❸③🗞❼♦☼◆❐ ✂❀❷③🗞❼♦☼◆❐ ✂☪❸🗞♏⌑♦⧖↖✍◆❐
🔔☯Ⅱ✂◆❸🗞·◆❐ 🕘ℒ❍ℒ☼↘❶ℵ✉ℵ✍ ★✎✍✂ ❼■🖫ℵ❶

↑ (١) إلى القسم الثاني من الخلق وهم عامة الناس(٢) .

وبذلك تجاوز المعاني الجزئية الظاهرة من اللغة إلى الدلالة على جوامع تلتقي عندها هذه المقترنات فتوحد بناءها وتلم انتشارها في مشكاة واحدة هي مقاصد كلية تجاذب تلك الجزئيات المتفرقة إلى مركزها وتؤلف بينها وتجعل منها سياقاً متفقاً يكمل بعضه بعضاً وإذا ذكر أحدهما نبه على موقع نظيره فتتعانق بذلك أطراف الكلام وتتماسك حلقاته .

وهذا أصل جيد في فهم البيان بالنظر في الإلفة بين المعاني وتآخي بعضها مع بعض ، واقترانها من خلال المبين نفسه ، فكل متكلم له سياق خاص تجتمع فيه معان وتتعانق وتفترق أخرى وتتنافر ، وذلك يستلزم إحصاء دقيقاً وتتبعاً لما يأتي منها مقترناً وما يفترق ويختلف وهو نظير عمل البلاغيين في تحليل الكلام ومكمل لجهودهم ، فقد تداول دارسو البيان إحصاء لعناصر البلاغة وأبوابها عند الشعراء ومنازعهم في تصريف الكلام فيكثر عند بعضهم التقديم وعند الآخر الاستعارة والتشبيه ، أو تجتمع عند أحدهم ألوان بديعية مخصوصة دون أخرى ، وكل ذلك يعطي للكلام سمتاً خاصاً وطابعاً مميزاً ينبه على أسرار وخصوصيات تتصل بناظمها ، وكذلك القول في المعاني تتبع ما شاع منها وضروب تصريفها وما يأتي منها مجتمعاً متلازماً وما يفترق ويتباعد وما وراء ذلك من أسرار ولطائف تتعلق بأحوال المتكلم وتنبه على خصوصيات أسلوبية تكون بمثابة شارات تنسب الكلام إليه .

وبذلك تنتهي البلاغة إلى الإحاطة بكل ما صدر عن المبين ومصاحبة تصاريفه للغة وللمعاني فلا تحلل الكلمة إلا وقد تقصى موقعها في أقاصي بيانه ، ولا يقرن المعنى بالمعنى ويرتب عليه إلا بعد استدعاء سياقات الجمع وبيان ما تآلف منها واجتمع وما تنافر وافترق ،

---

(١) الأحزاب ، الآيات : ٤٥-٤٦ .

(٢) التفسير ١٧١/٩ .

فيؤول بعضه بعضاً وينبه ما ظهر في موضع على ما خفي في آخر .

نحو موقع قوله تعالى : ↓ ◌ٜ☼✵ ☐✍↗ ★☒⇔↗ ☮ ⌘⍓■⍓◑⬨☼☐◌🕓◌🡐 ↑ ⬁ذكر أن " المشهور أن قوله " إنا كل شيء " متعلق بما قبله كأنه قال : ذوقوا فإنا كل شيء خلقناه بقدر ، أي هو جزاء لمن أنكر ذلك ، وهو كقوله تعالى : " ذق إنك أنت العزيز الحكيم " والظاهر أنه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله " ذوقوا مس سقر " ثم ذكر بيان العذاب لأن عطف " وما أمرنا إلا واحدة" يدل على أن قوله " إنا كل شي خلقناه بقدر " ليس آخر الكلام ، ويدل عليه قوله تعالى " ألا له الخلق والأمر " وقد ذكر في الآية الأولى الخلق بقوله " إنا كل شيء خلقناه " فيكون من اللائق أن يذكر الأمر ، فقال : " وما أمرنا إلا واحدة " " [٢] .

وتأمل كيف صرف الكلام عن المشهور في تعليقها بما قبلها وجعلها ابتداء كلام ليخرج بها عن معنى التهديد ، ويهيئ لالتقائها بقوله : " وما أمرنا إلا واحدة " واستدل على كونها ابتداء بالجملة بعدها ، فزحزحتها عن الاتصال بما قبلها لتدخلها في حيزهما وتجريها في نظمها ، فكأن حضور ذكر الأمر يفتقر إلى الخلق لتلازمها وتصاحبها في السياق القرآني فكل منهما ينبه على الآخر ويبعثه من التراكيب السابقة .

وكذلك الإرداف المستمر لدلائل الأنفس بدلائل الأفاق في سياق إثبات التوحيد والابتداء بما تكثر ملابسة الإنسان له منها مثل قوله تعالى : ↓ ▫♦▫❽❶→☪◆❶▫❽ ✂✍"✵☼❁🕓♊←◌ٜ■❼ ⊂♦➔✍ ⌘◌ٜ◌ٜ🕓 ↑ ⬁ذكر فيها " واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأن كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الأفاق وبدأ بما يحتاج الإنسان إليه " [٣] .

وهذا ا لترتيب شائع في قالة الأنبياء مع أقوامهم واستدلالهم على وجود الله بالأنفس

---

(١) القمر ، آية : ٤٩ .

(٢)" التفسير " الرازي ٣٢٥/١٠ .

(٣) " التفسير " ، ٥٩/١١ ، وينظر أيضاً ٦٥٣/١٠ .

ثم لفتهم إلى ما حولهم : " واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال :" الذي خلقني فهو يهدين " وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهارون عليهما السلام " فمن ربكما يا موسى " قال موسى " ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " وأما محمد عليه السلام فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله : " إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق" ، هذا إشارة إلى الخلق ، ثم قال " أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم " وهذا إشارة إلى الهداية ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة فقال : " الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى " وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيراً لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر ، ومشاهدة الإنسان لها أتم ، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة " [1] .

وهذا النص يكشف عن سر تقديم الاستدلال بالخلق على الأفاق رغم أن الثانية أعظم وأظهر في الدلالة حيث قال تعالى " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس " ولكن مشاهدة الإنسان لعجائب خلق نفسه أتم وأكمل ؛ لذلك وقع الاستدلال بها مقدماً ثم اصطفى من دلائل الأفاق ما يلابسه الإنسان ويحتاج إليه أكثر من غيره فذكر حاجته إلى الماء في سورة عبس وحاجته إلى الضياء في قوله : " ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً " وهذا المنهج في الاستدلال يصور بلاغة الأسلوب القرآني وكيف يداخل نفس المنكر ويقارب له معان هي من المهمات الكبرى ، فيسلك الأقرب فالأقرب حتى يجعله يكاد يلامس تلك الحقائق .

ومن المعاني المقترنة ذكر الإيمان والعمل الصالح وتعقيبهما بالمغفرة والأجر كما في قوله تعالى : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم " . قال فيها : " قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح ، رتب عليها المغفرة والأجر كما قال : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم " ، وقال : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم

---

(١) " التفسير " ، ١٢٨/١١ ، وينظر : ٢٤٩/٦ .

ولنجزينهم " وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح ... فنقول ههنا جزاء ذلك قوله : " كفر عنهم سيئاتهم " إشارة إلى ما يثبت على الإيمان ، وقوله " وأصلح بالهم " إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح " [1] .

ويشير في بعض النصوص إلى أثر السياق في الجمع بين بعض المعاني أو نشرها وتفريعها كما في إفراد جبريل – عليه السلام – بالذكر بعد الملائكة مع دخوله ضمناً فيها ، وأحال ذلك التحول إلى السياق فغالباً ما يأتي في سياق العذاب والتهديد يقول في قوله تعالى : " تعرج الملائكة والروح ... " : " اعلم أن عادة الله تعالى في القرآن أنه متى ذكر الملائكة في معرض التهويل والتخويف أفرد الروح بعدهم بالذكر ، كما في هذه الآية ، وكما في قوله " يوم يقوم الروح والملائكة صفاً " " [2] .

وهذا النص نتيجة لدراسات ممتدة ونظر فاحص لمواقع الملائكة في القرآن ومتى تجمع ومتى يفرد بعض أجزائها بالذكر وسياقات الجمع وسياقات الإفراد يضعها الإمام في سطر أو سطرين ، وكأنه بذلك يستحث الذهن لارتياد تلك المواقع ومعاناة سياقاتها ومتابعتها حتى يلامس بيديه ما توصل إليه ويقنع بما هدى إليه . وتأمل المواقع وتصنيفها يزيد في بيان هذه الفكرة ويجلو حقيقتها ويثريها بالالتفات إلى الجانب الآخر وسبب ترك الإفراد فنجد ذلك في سياق الإنعام مثلاً في قوله تعالى : " الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة أولي أجنحة .... " ، وفي سياق الثناء " وترى الملائكة حافين ... " وكلما أنعمت النظر اتسعت القضية وانفسح المجال أمام دراسات بيانية تؤسس على النظر المتكامل للسياق القرآني .

وكذلك اقتران لفظ الحكمة وعطفه على العلم ينحو بمعنى الحكيم إلى الاختصاص بالأفعال يقول في قوله تعالى : " وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ..... وكان الله عليما حكيماً " : " والمعنى أنه تعالى عليم بأنه لم يقصد ولم يتعمد حكيم في أنه ما يؤاخذه بذلك الفعل الخطأ ، فإن الحكمة تقتضي أن لا يؤاخذ الإنسان إلا بما يختار ويتعمد ... في كل موضع من القرآن ورد فيه لفظ الحكيم معطوفاً على العليم كان المراد من الحكيم كونه محكماً في

---

(١) " التفسير " ٣٤/١٠ .

(٢) السابق ، ٦٣٨/١٠ .

أفعاله ، فالإحكام والإعلام عائدان إلى كيفية الفعل " [1] .

فخرج معنى الحكيم عن ما ذكر أهل السنة من أن معناه العلم بعواقب الأمور[2] ، إلى مقتضى الحكمة وهي المؤاخذة أو عدم المؤاخذة على الفعل ويرجح ذلك اضطراد مجيئها موالياً للعلم في سياق الأفعال خاصة مما يؤكد خصوصية ذلك الأسلوب بالفعل .

□

□

(١) " السابق " ١٨٢/٤ .

(٢)" التفسير " ١٨٢/٤

الخاتمة

يعد علم التناسب من البحار الزاخرة التي لا تزال تنتظر جهوداً متواصلة ودأب لا يكل من أجل وضع قوانينه وضبط أصوله في قاعدة تقررها لأنه وصل إلينا مكتملاً بصورة عملية بخلاف غيره من العلوم ، وقد حاولت جهدي في تتبع بعض أصوله في مرحلة النشأة عند الإمام الرازي وقد جاءت نتائج هذا البحث فيما يلي :

إن تراث التفسير قبل الإمام لم يخل من إشارات تغري بفتح هذا الباب واستقصائه .

إن المسالك والأدوات المستخدمة في تنظيم السورة هي ذاتها أدوات تحليل الجملة والكشف عن وجوه ترتيبها نحو رد العجز على الصدر والمطالع والمقاطع والتقديم والتأخير ، وعلاقات الفصل والوصل ، واللف والنشر . وغيرها ولو تتبعنا جميع تلك الأدوات وأجريناها في تحليل النصوص ونقلناها إلى الدائرة الأوسع لكانت اللبنة التي يكتمل بها بناء الدرس البلاغي .

الوقوف على وحدة الكلام ليس السبيل فيها الحس والعقل وإنما هناك أدوات وضوابط كلية .

معاني القرآن مجال من مجالات إعجازه نبه عليها أكثر العلماء ولكن أصل الأصول في باب الإعجاز هو تأليفه لمعانيه وجمع معاقدها والملائمة بينها .

إن علم الأسلوب تقررت أصوله في الدرس البياني ووضعت ضوابطه بصورة عملية تتطلب من الباحثين تصنيفها من خلال علم المناسبات لأنه البديل لعلم الأسلوب الوافد .

أول من خص الأسلوب بالترتيبات الحاصلة بين المعاني وما ينتج عنها من تنبيهات ولطائف هو الإمام الرازي ثم ضبطه حازم تحت قانون كلي واضح المنهاج .

إن الواحدة في علم المناسبات ليست بالتتابع والتدرج المنطقي وإنما بالارتدادات المستمرة والتثني الدائم بين عناصر المعنى المتوزعة في مساحات السورة المختلفة ومجاذبتها عند مركز واحد أو ما يسمى بمقصد المتكلم فتؤلف للكلام هيئة متفقة هي الوحدة متى افتقدت هذه الهيئة صح معه وصف الكلام بفقدانه للوحدة .

أحكام بنية السورة بدراسة حركة المعنى بين الفواتيح والوسط والخواتيم والمزاوجة بينها فترد المقاصد على الفواتيح والخواتيم ثم الخواتيم مع الفواتيح فيحدث توزيع الدراسة بين هذه العناصر الثلاثة تجلية للمقاصد.

العناصر اللغوية ليست وحدها سبيل اكتمال الدلالة بل وراء ذلك وشائج معنوية دقيقة تقصيها تكتمل عنده الأغراض .

مداخل الكلام لها خصوصية في الإبانة ويكتنفها كثير من الغموض الناتج من اكتناز اللفظة لحمولات دلالية تكاد أن تحتوي جميع مقاصد السورة وهذه الخصوصية يسرت لها أن تصحب الكلام في جميع تحولاته .

جملة الخاتمة تستقر عندها المقاصد ويعول عليها غالباً في تنظيم ما تشعث في الكلام من أغراض وما تفرق وسطها من سياقات .

دراسة الترتيب بين الآيات عند الإمام أشبه بباب التقديم والتأخير كلاهما دراسة لاعتبارات اختيار الموقع ومنازل الكلام إلا أنه في الآيات أصعب مراساً منه في المفردات لأنه ليس لها حد يحصره بل هو باب متسع .

الترتيب بين الآيات ليس له علاقة محددة ولا يتخذ مسار واحداً مما يؤكد أن هناك ضوابط تضبط مجال كل آية وحركتها داخل ما قبلها من آيات فكل آية تستبطن إيماضات تومي إلى معان ضمنية لسياقات سابقة تتصل بها .

المناسبة امتدت بفكرة التنظيم من النسب بين الألفاظ إلى ملاحظة التجاوب وأسباب الوصل المعنوية بين الآيات في مساحات السورة بأكملها وبين تناسب الأغراض والهيئات التي تشكل من علاقات الانتظام والتحولات في البنى المعنوية والأغراض داخل السورة بأكملها على اختلاف توزيعها قرباً وبعد إئتلافاً واختلافاً .

إن تحليل مباني كل سورة في ضوء سابقتها بكشف عن المدى الذي حازه النظم القرآني حتى أصبح الكتاب على تعدد دسوره واختلاف مقاصدها كالسورة الواحدة يراعى فيها اتشاق العناصر اللغوية فلا توضع فيه عبارة إلا باعتبارات تلتئم فيها مع نظائرها في الكتاب .

دراسة التناسب فيما بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها كشف عن جانب وضيء في إعجاز الجملة القرآنية وما يراعي فيها من خصوصيات بيانية تمكن للسياق السابق وتداخله وتؤسس به المقاصد أخرى . وهذا يتطلب خصوصية وبراعة في التأليف .

العناية بالتناسب بين السور المتشابهة المطلع تنبيه على أن المطالع أبرز المكونات التي تشكل مقاصد السورة و أغراضها فتكرارها في أخرى مهيئ لوصلها وترتيبها عليها .

مباحث التشابه مسلك من مسالك فتح الدلالة بوضعها في نطاقات بيانية مشتركة تكشف عن أحوال مستترة في النظم .

فتح الإمام الباب لدراسة العادات الكلامية من خلال تتبع الأساليب المضطردة وما وراءها من إحالة إلى قائلها وما في ذلك من أسرار لا يحاط بها دفعة ، وتكون بمثابة منارة تهدي إلى تلك المعاني المتكاثرة .

حصر الإبانة في حدود اللغة والتصرف فيها يحول دون استيعاب جميع مقاصد المتكلم وأغراضه ، وأن الوصول إلى أقدار المتكلمين لا يكون إلا بتتبع سياقات كلامه وترتيب معانيه واستقراء كامل لمسالكه .

من وجوه تناسب السياق القرآني ما لفت إليه من تلاؤم المعاني واقترانها في بيان المتكلم ، وبذلك تنتهي البلاغة إلى الإحاطة بكل ما صدر عن المبين من وجوه تصريفه للألفاظ والمعاني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

الفهارس

أ- فهرس الآيات القرآنية .
ب- فهرس الأحاديث النبوية .
ج- فهرس الأشعار .
د- فهرس المصادر والمراجع .
ه- فهرس الموضوعات .

أ- فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
البقرة	چ.....ھھےۓچ	١٩٥	٤٥
	چ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ..... ھ ھ چ	٢١٧	٥٠
	چ.....ڃڃڃڃچ	١-٥	٨٥ و ٣٣٨
	چ.....ٹٹٹٹچ	٦٢	٨٩
	چ ڳ ڳ ڳ ڳ گ گ گ ..... □ □ □ □ □ چ	٢٨٥- ٢٨٩	١٤٨ و ٣٦٢
	چ.....ےۓۓٮچ	٢١٣	١٤٩
	چ.....ٺٺٺٺچ	٣٨	١٤٩
	چ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ..... ڳ ڳ ڳ ڳ گ گ چ	١٤٣	١٤٩
	چ□□□ی ی ی ی□ ..... □□□□چ	١٤١	١٤٩
	چ.....ۇۇۆۆچ	١٣	١٦٨-١٦٩
	چ ک ک گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ گ گ چ	١١	١٦٩
	چ.....ڃڃڃڃچ	١٦٤	١٦٩
	چ ی ی ی ی□□ ..... □□□چ	١٦١	١٦٩
	چ ٹ ٹ ٹ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ چ	١٧٩	١٧٨
	چ ٹ ٹ ٹ ۇ ..... □□□□□□چ	٢١٤	١٩١
	چ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ..... گ گ گ ں چ	١٥٨	١٩٣
	چ.....ڤڤڤچ	١٥٥	١٩٣
	چ□□□□□□□چ	١٥٢	١٩٣
	چ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ چ	١٥٤	١٩٤
	چ.....ٹٹڤڤچ	٧	١٨٤ و ٢٤٦
	چ.....ڃڃڃڃچ	٢١٢	١٨٤ و ٢٤٦

	چأبپپپ.....ثثثٹٹچ	٢١١	١٨٤ و ٢٤٦

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
البقرة	چأ ب ب پ پ پ ..... ث ڈ ڈ ٹ ٹ ڈ چ	١٧٠	١٨٧
	چگگں.....ۋۋووۇۇۈۈچ	١٤٤	١٨٨
	چچچچچ.....گگگگگگگچ	٦٠	١٩٥ و ٣٦٥
	چأبپپپ.....ثثثٹٹچ	٢١١	٢٠٢ و ٢٤٦
	چھے..... ۆۇۇۈۈۋچ	٢٠٨	٢٠٣ و ٢٤٦
	چكك..... وۋۇۈىېچ	١١٠	٢٠٣ و ٢٤٦
	چەہ..... □□□□چ	٢٢٩	٢٠٦
	چأ ب ب پ پ پ پ پ پ ڀ ڀ ٹ چ	١٥٤	٢٠٨
	چ ف ف ڤ ڤ..... گ گ گ گ گ گ چ	١٤٣	٢٠٨
	چەہ..... ۇۈىېچ	٨٧	١١٣
	چڟڟۀھ..... ۆۇۇۈچ	٢٠٠	٢٣٦
	چچچ..... ژژڑککچ	١٩٨	٢٣٦
	چگگں..... چچچچچ	٢١-٢٥	٢٣٨ و ٢٣٩
	چ ٹ ڈ ڈ ف ڤ ڤ ڤ ڤ ..... چ□ چ چ	١٠٧	١٤١
	چگگگگ..... ںںڻڻٹچ	١١٥	١٤١
	چڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ڭ چ	١٢٢	١٤١
	چأبپپپپ..... چ□ چ چچ	١٥٤- ١٥٦	٢٤٤
	چچچچچ..... وۋۇۈىېچ	١٦٥- ١٦٧	٢٤٤
	چپ□□□□□..... □□□□□چ	١٦٨	٢٤٤ و ٢٤٥
	چٹڤڤ..... چچچچچ	١٧١	٢٤٥

	چچچچ..... ڈڈڈڑڑچ	۱۷۲	۲٤٥
	چڤو..... پپ□□□□چ	۲۰۹	۲٤٦
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
البقرة	چڪڪڪوُوُ..... □□□□□□□□چ	۲۱٤	۲٤٦
	چ□□□□..... □□□□□چ	۲۱٥	۲٤٦
	چڤڤ..... □□□چ	۲٤٥	۲٤٨
	چڤڤڤڤچچ..... ککگچ	۲٦٦	۲٥۰
	چچچچچ..... ےےےےڪچ	۲۱۳	۱۹۲
	چچچچ..... گگگگپچ	۲٦۱	۲٤۹
	چڪڪڪ..... ووۏۏچ	۲٦۸	۲۱٥
	چٹٹٹٹٹٹ..... چچچچچچ	۲۷۱	۲۱٥
	چۏۏووۏۏ..... ی □□□□□ چ	۲۳۷	۲٥۳
	چاٌبببببپپچ	۲۳۸	۲٥۳
	چڈڑڑڑڑکککچ	۲٤۱	۲٥٤
	چگگگگ گں ..... ڪ ڪ ڈڈۏچ	۲٤۳	۲٥٤
	چاٌبببپ..... ٹڤڤڤڤڤچ	۳۰	۳۷۳
	چوۏۏیییپپ□ ..... □ □ چ	۲۲۳	۳۷۷
	چڈۀہہہھ..... □□یییچ	۲٥٥	٦۱
آل عمران	چاٌب..... ٹٹٹٹچ	۱-۳	۱۰٥
	چٹٹڤڤ..... چچچچچچ	٤	۱۰٥
	چٹٹٹٹٹڤڤ..... ککگگگچ	۱۸-۱۹	۱۰۷
	چگگگں..... □□□چ	۸۱-۸۳	۱۰۷

	چچچچدد..... گگگں چ	١١٨	١٠٧
	چأب..... پپپپ چ	١٤٩	١٠٨
	چھےےئئ..... وۈۋۉ چ	١٤٦	١٠٨
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
	چہھھھھ..... □□□□ چ	١٧٩	١٩٥
	چأبب..... پپپپ چ	١٤٩	١٩٦
	چ أ ب ب ب پ پ پ ..... ڈڈڈٹ ٹ چ	١٨٧	١٩٨
	چتتتٹٹٹٹفففقققق چ	١٠٢	١١٣
	چۋۉپپ..... □□ □□□□□ ی چ	١٦٤	٢٢٨
	چۇۇۆۆۈ..... ۈپپ □□ چ	١٠٦	٢٨٩
	چ□□□□□□□□□□□□ چ	١٠٧	٢٨٩
	چکککۇۇۆ..... ۉپپچ	٢١	٣٧٦
	چگگگگگگگ.....ےےککچ	٢٠	٣٧٦
	چقققجججج.....ڈڈژژچ	٧٩	٥٩
	چ□□□.....□□□چ	١٣٠	٦٩
	چ□□□□.....□□□چ	٢٠٠	١٣٤
النساء	چأبپپ.....قققققچ	١	٤٥ و ٩٧ و ١٥٠ و ٣٤٤
	چأبپپپپ..... ججججچ	١٣٥	٩٨
	چققج.....ججججدچ	٢	٩٨
	چگگگ.....ےککککۇۇۆۆچ	٣٦	١٠٠
	چأبپپپپ.....نننتتتچ	٨٧	١٠٠
	چججدد.....گگگگگں چ	٩٧	١٠٠

	چڈڈڑڑ ڑڑ ک ک ک گ گ چ	٤١	١٠٠
	چ ڑ ڑ ڑ ڑ ک ک ک ..... ڭ ڭ ۇ ۇ چ	٥٦-٥٧	١٠٠
	چٹٹۀۀہہ..... ڭ ڭ ۇ ۇ چ	٤٨	١٠٢
	چۇۇۋۋۋۋۇ ۈ ۋ ۋ □ چ	١٣٢	١٠٢

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
	چ چ چ چ ..... ڈ ڈ ڈ ڈ ژ چ	١٢٩	١٠٢
	چ گ گ گ گ ..... ۋ ۋ ۇ ۇ چ	١٣١	١٠٢ و ١٩٠
	چ □ □ □ □ □ ..... □ □ □ □ □ چ	٥٩	١٠٢
	چ ٱ ب ب پ ..... ج ج چ چ چ	٣٤	١١٩
	چ ۇ ۋ ۋ ۇ ۇ ۇ ..... □ □ □ □ □ □ چ	٥٨	١٢٠
	چ ٱ ب ب ب پ ..... پ ڈ ڈ ڈ ڈ چ	١٧٦	١٥٠
	چ ٹ ٹ ۀ ۀ ..... ھ ھ ے ے چ	١٢٦	١٧٢
	چ ڈ ڈ ڑ ڑ ک ک ک گ گ چ	٤١	١٧٥
	چ ٱ ب پ ..... ق ق ف ف چ چ چ چ	٩٥	١٧٧
	چ ۀ ۀ ہ ہ ..... □ □ □ □ چ	٩٤	١٧٧
	چ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ چ	٥٣	١٨٥
	چ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ گ گ چ	١٣٠	١٩٠
	چ چ چ چ ..... ڑ ڑ ڑ ڑ چ	٦٩	١٩٠
	چ □ □ □ □ □ ..... □ □ □ □ □ چ	٥٩	١٠٢
	چ چ چ ید ..... ک ک ک چ	٦٢	٢٠٤
	چ ے ڭ ڭ ..... ڭ □ □ □ □ □ ی چ	١٢٧	٢١٠
	چ ک ک گ ..... ں ں ڻ ڻ چ	١٢٥	٢١٠
	چ ٹ ٹ ..... چ چ چ چ چ	١٢٣	٢١١

	چچجچجچيـ......چيدٍچ	٩	٢١١
	چپ□□□□........ىىيِيـ□ چ	١٧٠	١٣٥
	چ□□□□□□ىىيِـ.......پپپپچ	٤٤-٤٥	٢٦٥
المائدة	چژژڑڑ........ڳںںڻڻٹچ	١	١١٣
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
المائدة	چآٻٻپپپ.......ککچ	٦	١١٤
	چ□□□□□□□□□□□□□ چ	١٢٠	١٥٩
	چڃڃڃچ........ڻڻٹۀچ	١٢	٢٠١
	چپپپ.......ڦڦڦڄچ	١١	٢٠١
	چکگگگگ.......ںںڻڻٹچ	٨٧	٣٢٥
	چ□□□□□........□□□□□ چ	١٠٣	٣٢٥
الأنعام	چ□□□□........□□□□ چ	١٦٥	١٣٦
	چڈڈژ........ھھھےچ	١٢٨	١٧٠
	چآٻٻپ........ٹٹٹچ	١١١	١٨٠
	چچ□□□ □........□ ىيِيچ	١٠٩	١٨٠
	چچڃڃ.......ڎڎڈژچ	٣٨	١٩١
	چٺٺٺٺ.......ڦڦڦڄچ	٣٧	١٩١
	چٿٿٿٹٹڤڤڦچ	٢٩	١٩٩
	چٺٿٿٿ.......ڦڦڦچ	٢	١٩٩
	چںںڻڻ.......ڭڭۇۇچ	١٤	٢٠٩
	چچگگگگگ.......ۋۋېېچ	٩٩	٢٠٩
	چ□□ىىيِـ□□ □□□ چ	١١٨	٢٠٩

	٧٤	چأبپپ.....پپپنننچ	٢٠٩
	١٠٢	چأب.....ننننتتچ	٢٣١
	١	چأب.....پپپنننچ	٣٣٢
	٨٤	چققڤ.....ددددچ	٥٨
الأعراف	١٩٦	چأبببپپپپپچ	١٦٠
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
الأعراف	چچچ.....ددددڈچ	١٩٩-٢٠٠	١٦٠
	چڈژژڑک.....ۋووچ	٢٠١-٢٠٤	١٦٠
	چۆۆ.....ىىيچ	٢٠٥-٢٠٦	١٦٠
	چأبپپ.....نننتچ	٣١	١٩٢
	چپپ□□.....□□□□چ	٢٩	١٩٢
	چچچچچ.....ڈڈڈچ	٢٦	١٩٣
	چپىپپ.....□□□چ	٥٧	٢٠٣
	چچددڈ.....ههههچ	١٦١-٦٢	٣٦٥
	چ□□□□.....□□□□چ	٥١	٣٨٠
الأنفال	چھےےئ.....ۇۆۆچ	٢٣	٤٦
	چأبپپ.....تتتٹچ	١	٩٥
	چٹٹ.....چچچچ	٢	٩٥
	چڭڭ.....ىىپپ□چ	٤٤	١٨٣
	چڑڑکک.....گگگگچ	٢٠	٢٣٦
	چڑکککک.....ۀہہچ	٥-٦	١٢٨

	٧٥	چ□□□□□□.....□□□□چ	١٢٧
التوبة	١٢٨-١٢٩	چھھے.....□□□□□چ	١٤٣
	٣٩	چگگگ.....ںٹٹٹڈۀچ	١٧٤
	٤٠	چۀہ.....□□□□□چ	١٧٤
	٤١	چاٰپ.....نںنںنںچ	١٧٤-١٧٥
	١٠٤	چھے.....ۆۆۈۈۇۇچ	١٧٨
	١٢٢	چپپ□□□.....ییییچ	٢٠٤
السورة	رقم الآية	الآية	الصفحة
	١١١	چگُوُوۆۆۈ.....یی□□چ	٢٢٨
	٣٨	چ ڃ ڃ ڃ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ گ چ	٢٣٤
	٥٥	چاٰپپ.....نثثثچ	٢٣٥
	١٢٨	چھھے.....ۆۆۈچ	٢٩٧
	٧١	چکگگگگ.....ہہھھھچ	١٧٩
هود	٦	چاٰپپپپپپ.....ننننثثچ	٤٤
	٤٤	چ□□□□.....□□□□یچ	٧٨
	١-٣	چگگگ گگگ.....ووۇۇیيچ	١١٧
	٥٠-٥١-٢٥	چھھےےئ.....ی□□□چ	١١٧
	٨٠	چ□□□□□□□□□□□□چ	٥٧
يوسف	٢٣	چاٰپپپپ.....ٹٹٹففچ	٦٠
	٤٢	چكككُ.....ووۇۇیيچ	٨
	١١١	چ□□□□.....□□□□چ	١٥٨

يونس	چڤڦڤڦج.......ککگگچ	١٠٨-١٠٩	١٣٧
	چ□□□□□□□□□□□□□چ	٤٢	١٧٣
	چ□□ىىيې□□□□□□□□چ	٤٠	١٧٣
	چڤڤڤڤ.......ےےۓۓۓچ	٢٢-٢٣	١٧٨-١٧٩
	چگگںڻ.......ہھھچ	٦٧	١٨٢
	چچڇڍڌ.......گگگگچ	٦٦	١٨٢
	چگگگںں.......ھھھےےۓچ	٣٧	١٩٨
	چ□□□□□□.......□□□چ	٢٠	١٩٨
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
	چٱٻپ.......ڤڤڦجچ	٦٢-٦٤	٢٢٥
	چ□□□□□.......□□□ □□چ	٦١	٢٢٦
	چٹٹڤڤڦ.......ڃڃچ	٩٩	٢٣١
الأنبياء	چگگگگ.......ہہھچ	٦-٧	٩٦و ٣٢٩
	چڍڌڎ.......ککککچ	٥	٩٧
	چچڇڇڍڌچ	١٦	٢٠١
	چٱٻٻپپپپپچ	١١	٢٠٢
	چگگگگ گگ.......□□ □□□□□چ	٣٠-٣٣	٢٢٦
	چۇۇۆ.......پپٺٺچ	٢١-٢٥	٢٢٨
	چٱٻٻ.......ڃڃڃچ	١-٢-٣	٩٦ و٣١٩
الحج	چڌڎڎڈژژ.......گگگگچ	٦٠	١١٨

	چ□□□□□.....ىىيي□□□چ	١٤	١٧١
	چىىيي□□□□□□□□□□□□□□چ	٣٨	١٧١
	چپپپٺٺٺٺ.....ڦڃڃڃچ	٢٥	١٧١
	چگگگگگ.....ںںڻڻچ	٧٧	٣٢١
	چٱٻٻٻپپپپپپپپچ	١	٣٤٤
	چڻڻڈڈۀہہ.....ےۓڭڭڪڪچ	٧٠	١٨٢
	چگگگگگگگڳڳںںڻچ	٦٩	١٨٢
فاطر	چ□□□□□□□□.....□□□چ	٣	٩٦ و١٠٨
	چٱٻٻہہ.....ٹٹٹٹڤڤڤڤچ	٣٩	١٧٦
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
	چەەہہھھ.....ۈۇۇ ۆۆچ	٣٦	١٩٧
	چ□□□□□□.....□ □□□□چ	٢٩	١٩٧
	چگگگگگگگ.....ڻڻڈڈۀچ	٣٥	١٩٧
	چںںڻڻڻ.....ڭڭۇۇ ۆۆچ	١	٣٣٢
	چٱٻٻٻپپپپپپپپچ	٤	٣٦٠
الكهف	چ□□□□□□□□.....□□□□ىى□□□چ	١٠٩	١٣٣ و ١٥٧
	چ□□□□□□□□.....□□□□□□□چ	١١٠	١٥٧
	چگگںںڻ.....ۈۇۇۆۆچ	٥٠	١٩٩
	چچچچ.....گگگگگگگچ	٤٩	١٩٩
	چۋۋۈۈۇۇوووۇۇ ۍۍېېچ	١	٣٣٢

غافر	چڤڤو.....□ىىيچ	٨٤-٨٥	١٤
	چگگگگ.....ەەہہھھچ	٨٢	١٣٠
	چےےكّ.....□□□□چ	٧	٢١٨ و ٣٨٥
	چٹٹۀۀ.....ھھےےےےچ	١٣	٢١٨ و ٣٨٥
الشورى	چڤڤڤ.....ججچچچچچچ	٥	٤١
	چەہہھھھ.....وُوُوٗوٗوٗچ	٢٧	٢٢٥
	چگگگگ.....ٹٹۀۀەچ	٢٦	٢٢٥
	چاٗبببپ.....ٹٹٹٹٹچ	١١	٣٧
النبأ	چاٗبببچ	١	٤٢
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
النبأ	چڤڤڤڤڤڤچچجججچ	٣٧	٤٢
	چچچچ.....ججچچچچدددٹچ	٣٨	٤٢
الطور	چدددٹٹٹڈڑڑڑڑکچ	٣٨	٤٦
	چیییبببچ	١١	١٦٣
الواقعة	چتتتتتتٹٹٹٹڤچ	٢٠-٢١	٤٨
	چڈڑڑڑڑککچ	٢٨-٢٩	٥١
	چ□□□□□.....ىىيچ	٤٥-٤٧	٢٢٢-٢٢٣
لقمان	چہھھھ.....ببب□□□چ	٣٣	٨٣ و١٢٣

	چ□□□□□□.....□□□□□□چ	٣٤	١٢٣
	چأبببپپپپ.....ڤڤقچ	٢٠	١٨١
	چأبببپپپپ.....ٹٹٹٹٹٹچ	٢٩	١٨١
	چچچچچچچ.....ڑڑکککچ	٣١	١٨٢
	چدددڈڈڈڈ.....گگگگچ	٧	٢٩٠
	چأببببپ.....ڤڤڤقچ	١-٥	٣٣٧
	چپپنننٹٹٹٹچ	٤	٣٣٨
	چگگگگگگگگ.....ەەہچ	٨-٩	٣٤٢
	چڤڤڃچچچ.....چچیچ	٦	٣٤١
	چڈڈڑڑڑڑ.....گگگگگچ	٢٢	٣٤٢

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
المؤمنون	چگگگگگگگگچ	١٢	٩٧
	چیییی□□□.....□□□□□چ	١١٧	١٤٧
	چچچچچچچچچچچچچ	٧٨	١٦٤
	چۇۇۈ.....أببببپچ	٨٦-٩٠	٢٣٣
الزمر	چچچچچ.....ۇۇۆۆۈۈۇچ	١-٤	١٠٩
	چیییی.....□□□□چ	٦٧	١١٠
	چ□□□.....یییی□چ	٢٩	١١٠
	چڤڤڤڤڤڤچ	١٤	١١٠
	چەەھھھھےچ	٦٤	١١٠
	چأببپ.....ٹٹٹٹٹچ	٦٨	١١٢

	چیییی□□□□.....□□□□□□□چ	٢١	١١٢
	چتتتتططفقچ	٣٣	١١٢
	چآبببپ.....ثتتتطچ	٢٢	٢٣٤
إبراهيم	چ□□□.....□□□□چ	٥٢	١٢١
	چآبببپپ.....ننننتچ	٣٤	٣٦٩
النور	چآبببپپپپپچ	١	١١٣
	چچچجج .....ززڑڑچ	٣٩	١٧١
الاحقاف	چگگںںڻڻ.....ھھےےۓۓكك	٣٣	١١٥
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
الاحقاف	چھھےےۓ.....پ□□□چ	٤	٣٦٠
	چ□□□□□□□.....□□□□چ	١٣	٣٧٠
فصلت	چآبببپپ.....ننتتتتطچ	١٢	١٢٠
	چوُوُۆ.....پ□□□□چ	٣٧	١٨٦-٢٢٤
	چچچچچچجج.....ددذذڈڈ	٣٣	١٨٦- ٢٢٤
	چآبببپپ.....ثتتتططچ	٣٩	٢٢٤
	چںںططئئ.....ھھےےچ	٩	٢٢٤
	چططفف.....ججججچ	٥	٢٥٦
	چآبببپپ.....گگگگںچ	٨-١	٢٥٦

	چںڻڻڈڈ.....ٹٹٹٹٹچ	٩-١٢	٢٥٧
	چٹٹٹفف.....□□□□□□چ	١٣-١٨	٢٥٧
	چ□□□□.....ژژڑڑکککچ	١٩-٢٤	٢٥٨
	چکگگگ.....□□□□□□□□چ	٢٥-٢٩	٢٥٨
	چاٌبببپپ.....جججچچچ	٣٠-٣٢	٢٥٩
	چچچچچچیی.....ےٰٰٰٰکچ	٣٣-٣٦	٢٥٩
	چوُوُوٗ.....ٹٹٹٹٹٹچ	٣٧-٣٩	٢٦٠
	چڤڤڤڤڤ.....گںںڻڻچ	٤٠-٤٢	٢٦٠
	چڈڈۂۂۂۂھھ.....□□□□□□چ	٤٣-٤٦	٢٦٠
	چاٌبببپپپ.....□□□□□□□چ	٤٧-٥٤	٢٦١
	چڑڑکککگگگچ	٧	٣٨٦
ص	چ ڹ ں ڹ ڹ ٹ ٹ.....ڤ ڤ ڤ ڄ ڃ چ	٨٦-٨٨	١٢٤
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
ص	چ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڄ ڃ.....ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ چ	٦٥-٧٠	٢٣٠
الصافات	چ□ □ □ □ □□ □ .....□ □ □ □ □ چ	١٨٠-١٨٢	١٢٥
مريم	چۇ ۈ ۋ ۋ .....□ □ □ □ □ چ	٩٨	١٣٠-٣٢٨
	چپ پ پ .....ڈ ٹ ٹ ڈ ڈ چ	٩٧	٩١
الجاثية	چہ ہ ہ .....ۆ ۆ و و ۇ ۇ چ	٢٧-٢٨	١٣٢

	چ ۀ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ك	٢٧	١٨١
الحاقة	چ ٹ ٹ ٹ ٹ ..... ڦ ڦ ڦ ڦ چ	٣٨-٤٠	١٣٣
النمل	چ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ .....ڳ ڳ ڳ گ گ گ چ	٩١-٩٣	١٣٩
	چ ٱ ٻ ٻ ٻ .....ٹ ٹ ٹ ٹ چ	١-٣	٢٥٤-٢٥٥
	چ ٹ ٹ ٹ ڦ ڦ .....ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ	٤-٥	٢٥٥
يس	چ□□□□□ □□ ىى چ	٨٣	١٤١
	چ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ چ	٨	٦٥
	چ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ	٤٥	١٦٦
	چ ۋ ۇ ۇ ..... ۇ ۇ ې ې ې □□ چ	٢٣	١٧٣
	چ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ك ك ك ك ۇ ۇ ۋ ۋ چ	٨٠	٢٠١
	چ ۋ ۇ ۇ ..... ې ې □□ چ	٨١	٢٠٠-٢٠١
	چ ۇ ۋ ۋ ۇ ۇ ۇ ۇ ۋ ۋ و و چ	٣٧	٢٢٤
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
الرعد	چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ ..... ٺ ٺ ٺ ٺ چ	٤٣	١٤٢
القيامة	چ گ گ گ گ ں چ	٣٦	١٥٦
الحجرات	چ□□□□□□□□□□□□□□□□□□چ	١٨	١٥٦
	چ و ۇ ۇ ې ..... □□□□□ چ	١٦	١٥٧
	چ ۇ ۇ ۇ و و ۇ ۇ ې ې ې چ	١٠	١١٣

الحاقة	چﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣ ﭤچ	٣٨-٤٠	١٣٣
النحل	چ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞﯟ□ □ □ □ □ □ چ	١٢٦	١٦٤
	چﭽﭾﭿﮀ......ﮏﮐﮑﮒﮓچ	٣٦	١١٢
	چﭑﭒﭓ......ﭪﭫﭬﭭﭮچ	٣٥	١٣٥
	چﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱچ	١٨	٣٦٩
	چﯗﯘﯙ ﯚﯛﯜ......ﯝ□□□□□□چ	٢٥	٣٧٢
	چﭴﭵﭶﭷﭸﭹ......ﮏﮐﮑﮒﮓچ	١٠-١١	٦٨
الشعراء	چ□□□......□□□□ﯤﯥچ	٢٧٦	١٢٨
العنكبوت	چﭛﭜﭝﭞ......ﭨﭩﭪ ﭫﭬﭭچ	٨	١٧٥
	چﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶچ	٩	١٧٥
	چﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚچ	٣	١٧٥
	چ□□ □□......□□□□□□چ	٢٣	٢٣٢
السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
الإسراء	چﯧ□□□......□□□□□□□چ	٩٦	١٨٠
سبأ	چﯩﯪ□□□□□□□......□□□□چ	٤٧	١٨٢
	چﯙﯚﯛﯜﯝ......□□□□□ﯤﯥچ	٤٦	٢٢٢
	چﭑﭒﭓﭔﭕﭖ......ﭛﭜﭝﭞچ	١	٣٣٢
القصص	چﯕﯖﯗﯘﯙ......□□□□چ	٦٨	١٨٩

النجم	٤٧	چپپٻٻٺچ	١٨٩
	٤٢	چ□□□□□چ	١٨٩
	٤١	چ□□□□□چ	١٨٩ و٣٦٤
	٣٠	چچچچچ.....ڈڈڈڑڑچ	٣٦٤
	٣٢	چگگں ٹچ.....ۈۇۋۋوچ	٣٨٢
	١٩	چھھےۓچ	٣٦٠
الفرقان	٣٤	چپپپپپٺچ.....ٹٹٹچ	١٣٥
	٣٦-٣٥	چٹٹٹٹچ.....جججچ	٢٧٤
الإنسان	٢٣	چ□□□□□□□چ	٢٢٦
	٨	چٹٹٹٹٹٹٹچ	٣٨٥
	٧	چپپپپپٺٺچ	٣٨٥

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
القمر	چۇۈۋېې□□چ	٤	٢٣٧
	چ□□□□□□چ	٤٩	٣٨٨
الذاريات	چېې.....□□□□□چ	٥-١	٢٨١
ق	چہہھھ.....ۋۋووۇۇچ	٤٥-٤٤	٢٨١

الروم	٥٨	چۋۋېېپ□□□□چ.....□□□□□چ	٢٩٠ و٣٣٩
محمد	١	چأب ببببپ پپچ	٢٨٦
الأحقاف	٣٥	چ□□ □□□چ.....□□□□□چ	٢٨٦
المجادلة	٢٢	چأبببببپپپپچ.....ڈڈڈچ	٢٩٢
الممتحنة	١	چأبببببچ.....چچچدڈچ	٢٩٢ و٣٠٠
المزمل	١	چأبببچ	٣٨٧
الكوثر	١	چڈڈڈڈچ	٣٠٧
الزخرف	٨٨	چ□□ىىيېې□□چ	٣٧٣
السورة	رقم الآية	الآية	الصفحة
الزخرف	٨١-٨٤	چڑڑڑکککچ.....ےےےےڭچ	٣٨٢
	٢٩-٣٠	چگگگگچ.....ٹٹۀۀہہھھھچ	٦٤
الصف	١٤	چىىيې□□چ.....□□□چ	٢٩٤
	١٠-١١	چںںڻڻڻۀچ.....ۆۆۇۇچ	٣٠٠

الفتح	١٦	چأبببچ.....ققققچ	٢٩٧
	١٧	چققجچچ.....ڈڈڑڑڑچ	٢٩٧
	٢٩	چأبببچ.....ڑڑڑچ	٢٩٨
التغابن	١	چأبببپپپ چ.....ننننتتتچ	٢٩٦
	٢	چتتٹچ.....ققققققچ	٣٠٢
	٩	چ□□□□چ.....□□□□چ	٣٠٢
	٨-٧	چےےےئئكككچ.....□□□□□چ	٣٠٢
الجمعة	٨	چۇۇ ىىبببچ.....□□□ □□چ	٣٠٢
	٥	چڑڑڑڑچ.....ںںںٹٹٹتتچ	٣٠١
	١١	چجججچچ.....ڑڑکککچ	٣٠١
	٣	چجججچچچچچ چچچ	٣٠٢
الحجر	٩٢	چپپپپچ	٣٢٢
الطلاق	١٢	چ□□□□ چ.....□□□□□□□□چ	٣٢٧
السورة	رقم الآية	الآية	الصفحة
الفاتحة	٢	چپپپپپچ	٣٣٢ و٣٣٨
الرحمن	٧٨	چڈڈڈڈڑڑڑچ	٣٥٢
	٧٦	چچچچچچچچچ	٣٥٢

الأحزاب	چپپپٹٹچ.....ٹٹٹچ	٤٥-٤٦	٣٥٨
	چھھےچ.....ۇۆۆۈچ	٢٨	٣٨٨
	چپپپٹٹچ.....ٹٹٹچ	٤٥-٤٦	٣٨٨
الانفطار	چٹٹٹفچ.....ججججچچچ	٦-٨	٣٦٣
الفتح	چۈۈۇچ.....پپ□□چ	٨-٩	٣٥٨
السجدة	چپپپپپپپپپچ	٢	٣٤٠
	چڤڤڤڤچ.....ججججچچچ	٢٣	٣٤٤
العاديات	چپپپپپپپپچ	١١	٢٩١

ب- فهرس الأحاديث النبوية

• ابدأ بنفسك ثم بمن تعول	٦٨
• اعبد الله كأنك تراه	١٢١
• حب الدنيا رأس كل خطيئة	٣٨٢
• "خلقتهم ليربحوا على لا لأربح عليهم " قدسي	٣٨٠
• سبقت رحمتي غضبي	٣٨٠
• " الصلاة وما ملكت أيمانكم "	٣٩٠
• لله أقدر عليك منك عليه	١٢٠
• " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا "	٣٧٨
• " والله لأمثلن بسبعين منهم "	١٦٤

ج- فهرس الأشعار

مطلع البيت	القافية	اسم الشاعر	الصفحة
دنيا دعوتك مسمعاً	فأثيبي	أبي عيينة المهلبي	٧٦
وإن أحدثوا شغباً	الشغبُ	-	٢١٧
أرواحنا ليس تدري	الجثثُ	الفخر الرازي	٢٦
تتمة أبواب السعادة	الفردِ	الفخر الرازي	٢٥
الدين ممدود الرواق	مبددُ	الفخر الرازي	١١
فدعها وسل الهمَّ	وهجروا	امرؤ القيس	٤٤
علم الأصول بفخر الدين	إعجاز	الصفدي	٧
يابان وادي الأجرع	-	بهاء الدين زهير	٧٢
هل ملت من طرب معي	-	المغربي	٧٣
أيتها النفس اجملي	وقعا	أوس بن حجر	٩٣
جاءت سليمان الزمان	خاطفي	ابن عنين	١٣
ريح الشمال عساك	الأفضلي	ابن عنين	٨
وكل هوى وان عنى	تجلى	عروة بن أذينة	٧٧
نهاية إقدام العقول	ضلالُ	الفخر الرازي	٢٤
الحمد لله ذي الآلاء	الكرمِ	الفخر الرازي	٢٤
فلو كانت الأقدار	والجسمِ	الفخر الرازي	٢٥

مطلع البيت	القافية	اسم الشاعر	الصفحة
وإني لمن قوم	والدمَ	المتنبئ	٣٨٥
خيل صيام وخيل	اللجما	النابغة الذبياني	٤٤
الروح عند إله العرش	والبدنِ	حكيم الشعراء	٢٦
أرى معالم هذا العالم	وأحزانِ	الرازي	٢٦
يا طالب التوحيد والإيمان	وأمانِ	الرازي	٢٤
اعلما علماً يقيناً	رب العالمين	أبو يعقوب السكاكي	١٩
غلط امرؤ بأبي على	أبو علي	ابن عنين	١٩

د- فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- " أثر القرآن في تطور النقد العربي " محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة د.ت .
- " أحكام القرآن " ، لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي. راجعه : محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
- " أسرار البلاغة " لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني . تحقيق : محمود محمد شاكر – مكتبة المدني – القاهرة – جدة . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .
- " الأسس النفسية للإبداع الفني " ، مصطفى سويف ، دار المعارف – مصر .الطبعة الرابعة١٩٨١هـ.
- " الإسلام والحضارة العربية " ، محمد كرد علي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة – الطبعة الثالثة ١٩٦٨م .
- " إشكاليات القراءة وآليات التأويل " ، نصر أبو زيد ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء – بيروت . الطبعة السادسة ٢٠٠١م .
- " إعجاز القرآن " لأبي بكر محمد بن الطيب . تحقيق : السيد أحمد صقر . دار المعارف – مصر . الطبعة الثالثة . د – ت .
- " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " مصطفى صادق الرافعي . دار الفكر العربي – د . ت .
- " الإعجاز البلاغي " د . محمد محمد أبو موسى . مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الأولى١٤٠٥هـ.
- " الإعجاز البياني للقرآن " ، د . عائشة بنت عبد الرحمن دار المعارف – مصر . الطبعة الثانية.

- – " إعلام الموقعين عن رب العالمين " شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية . ضبطه : محمد عبد السلام إبراهيم – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٧هـ .
- " الإمام فخر الدين حياته وآثاره " ، د . علي العماري .المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٨٨هـ .
- " البحر المحيط " ، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض وشارك فيه زكريا النوفي ، وأحمد الجمل . دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .
- " البحر المحيط في أصول الفقه " بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي . تحقيق عبد القادر العاني . مراجعة عمر الأشقر ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . الكويت ، دار الصفوة ، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ .
- " البداية والنهاية " لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي ، مكتبة المعارف – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٦٦م .
- "البرهان في أصول الفقه" إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني ، علق عليه: صلاح محمد عويضة . دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٨هـ
- " البرهان في تناسب سور القرآن " لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي . تحقيق : سعيد الفلاح . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض ١٤٠٨هـ . د . ط .
- " البرهان في توجيه متشابه القرآن " ، محمود بن حمزة بن نصر . تحقيق عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .
- " البرهان في علوم القرآن " بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي . قدم له : مصطفى عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة " جلال الدين السيوطي . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية – بيروت . د . ت .
- " البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية " ، د . محمد أبو موسى . مكتبة وهبة – القاهرة . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ .

- " بلاغة القرآن " محمد الخضر حسين . طبعة على رضا التونسي ١٣٩١ هـ – د .ط .
- " البلاغة عند السكاكي " د. أحمد مطلوب .مكتبة النهضة – بغداد . الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.
- " بيان إعجاز القرآن " لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم . نشر ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . تحقيق : محمد خلف الله أحمد و د . محمد زغلول سلام . د – ت .
- " البيان والتبين " لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي – القاهرة . الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ .
- " التاريخ الإسلامي " الشيخ : محمد شاكر . المكتب الإسلامي – بيروت ، دمشق . الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ .
- " تاريخ الحكماء" .جمال الدين أبي الحسن علي يوسف القفطبي . مطبعة الخانجي – مصر . د.ت .
- " تاريخ النقد عند العرب " د . إحسان عباس . دار الثقافة – بيروت . الطبعة الخامسة١٤٠٦هـ
- " تأويل مشكل القرآن " أبو محمد عبد الله بن مسلم . تحقيق : السيد أحمد صقر . دار التراث – القاهرة . الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ .
- " التبيان في علم المعاني والبديع والبيان " شرف الدين حسين بن محمد الطيبي . تحقيق : د . هادي عطية الهلالي . عالم الكتب – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- " تراث أبي الحسن الحرالبي " أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسين التجيبي . تحقيق : محمادي عبد السلام الخياطي . مطبعة النجاح – الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٩٧هـ.
- " تشنيق المسامع بجمع الجوامع " بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي . تحقيق : أبي عمرو الحسين بن عمر بن عبد الرحمن . دار الكتب العلمية – بيروت . ١٤٢٠هـ .

- " درء تعارض العقل والنقل " .لأبي العباس تقي الدين أ؛مد بن عبد الحليم . تحقيق : محمد رشاد سالم . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
- " التفسير الكبير " للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي .دار إحياء التراث العربي — بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ .
- " التفسير ورجاله " الفاضل بن عاشرو . تونس . الطبعة الأولى ١٩٦٦م .
- "التقرير والتحبير" ابن أمير الحاج الحلبي ، ضبطه : عبد الله محمود عمر . دار الكتب العلمية — بيروت — الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .
- " التناسب البياني " أحمد أبو زيد .
- " تناسق الدرر في تناسب السور " جلال الدين السيوطي تحقيق : عبد الله الدرويش عالم الكتب — بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ .
- " حلية المحاضرة في صناعة الشعر " لأبي علي محمد بن الحسن الحاتمي . تحقيق : جعفر الكتاني . وزارة الثقافة والأعلام — العراق . دار الرشيد — بغداد — ١٩٧٩م .
- "جامع البيان عن تأويل أي القرآن " لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . مكتبة البابي الحلبي وأولاده — مصر . الطبعة الثالثة ١٩٦٨م .
- " الدرر الكامنة في إخبار المائة الثامنة " ابن حجر العسقلاني شاهب الدين أحمد بن علي . مجلس دائرة المعارف العثمانية — الهند . الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ .
- " دلائل الإعجاز " أبو بكر عبد القاهر الجرجاني . تحقيق : محمود شاكر . مكتبة المدني — القاهرة ، جدة . الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ .
- " دلالات التراكيب " د . محمد أبو موسى . مكتبة وهبة — القاهرة .الطبعة السادسة ١٤٢٥هـ
- " الرازي مفسراً " محسن عبد الحميد . دار الحرية — بغداد . ١٣٩٤هـ .
- " الرسالة " محمد بن أدريس الشافعي . تحقيق : أحمد شاكر . دار التراث القاهرة . الطبعة الثانية . ١٣٩٩هـ .

- " روح المعاني " في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني " لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي .إحياء التراث العربي – بيروت . د . ت .
- " الروض المربع في صناعة البديع " ابن البناء المراكشي . تحقيق رضوان بشقرون – دار النشر المغربية – الدار البيضاء – ١٩٨٥م .
- " سر الفصاحة " لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي . ت حقيق : عبد المتعال الصعيدي . مكتبة محمد علي صبيح وأولاده . ١٣٨٩م . د . ط .
- " سيرة أعلام النبلاء " شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مؤسسة الرسالة – بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .
- " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " ابن العماد الحنبلي . دار الآفاق الجديدة – بيروت . د.ت
- " شرح حديث النزول " ابن تيمية . طبع المكتب الإسلامي – بيروت . ١٣٩١هـ .
- " طبقات الشافعية " عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير . تحقيق : عبد الحفيظ منصور . دار المدار الإسلامي – بيروت . الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .
- " طبقات الشافعية الكبرى " . تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي تحقيق : محمود محمد الطنامي وعبد الفتاح محمد الحلو . الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ .
- " طبقات الشافعية " لأبي بكر أحمد بن محمد تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي . صححه د. الحافظ عبد العليم خان . عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- " طبقات المفسرين " جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . تحقيق : علي محمد عمر مكتبة وهبة – القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ .
- "عجائب القرآن" محمد بن عمر الرازي . دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٤هـ . د.ط .
- " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد . دار الجيل بيروت . د . ت .

- " عيار الشعر " لأبي الحسن محمد بن أحمد ابن طباطبا . تحقيق : عبد العزيز المانع . مكتبة الخانجي – القاهرة . د . ت .
- " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة . الطبعة الوهبية ١٢٩٩هـ .
- " فخر الدين الرازي بلاغياً " ماهر مهدي هلال .
- " الفكر الإسلامي قراءة علمية " محمد أركون . مركز الإنماء القومي –بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٦م ترجمة : هاشم صالح .
- "قواطع الأدلة في الأصول" للإمام أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني . تحقيق: محمد حسن الشافعي . دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .
- " الكامل في التأريخ " لأبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير . راجعه : نخبة من العلماء . دار الكتاب العربي – بيروت . الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ .
- " الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل صححه : مصطفى حسين أحمد . دار الكتاب العربي ١٤٠٦هـ .
- " كشف الظنون عن امامي الكتب والفنون " مصطفى بن عبد الله الفسطنطي الرومي . المعروف بحاجي خليفة . دار الفكر . ١٤٠٢هـ .
- " المحرر الوجيز " القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلس المعروف بابن عطية تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
- "المحصول في علم الأصول" محمد بن عمر الرازي . علق عليه: محمد عطا . دار الكتب العلمية .
– بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .
- " مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان " لأبي محمد عبد الله بن سعد بن علي اليافعي اليمني المكي . مؤسسة الأعلمي – بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ .

- " مراجعات في أصول الدرس البلاغي " د . محمد أبو موسى . مكتبة وهبة ٠- القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ .
- " معترك الاقران في إعجاز القرآن " جلال الدين السيوطي .تعليق : أحمد شمس الدين . دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
- " المقدمة " عبد الرحمن بن خلدون . دار الفكر . د . ت .
- " ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل " لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي تحقيق : محمود كامل أحمد . دار النهضة العربية – بيروت ١٤٠٥ هـ د . ط .
- " مفتاح الوصل إلى بناء الفروع على الأصول " لأبي عبد الله محمد بن أحمد التلمساني . تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف وأبو سعيد النجري . مكتبة الشروق . ومكتبة العروضي – طنجة . الطبعة الأولى ١٩٩٧م .
- " المنار " محمد رشيد رضا .دار المعرفة – بيروت . الطبعة الثانية . د . ت .
- " الموافقات " أبو اسحاق إبراهيم بن موسى اللخصي الشاطبي . ضبطه : أبو عبيده مشهور بن حسن آل سليمان . دار ابن عفان – الخبر . الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .
- " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " حازم القرطاجني . تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجه . دار الغرب الإسلامي – بيروت . الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .
- " مناظرات فخر الدين الرازي " تحقيق : د . فتح الله خلي . دار الشرق – بيروت . ١٩٦٦م
- " نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم " محمد الغزالي . دار الشروق – القاهرة . الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ .
- " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي . دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ .
- " نقد النص " على حرب المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٥م

- " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " فخر الدين محمد بن عمر الرازي . تحقيق : بكري شيخ أمين . دار العلم للملايين – بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٥م .
- " الوافي بالوفيات " صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي . أخرجه : هملوت ريتر . الطبعة الثانية . دار النشر فرانز شتايز بقيسباون . ١٣٨١هـ .
- " الوسيط في تفسير القرآن المجيد " لأبي الحسن علي بن أحمد . تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود . وعلي محمد معوض وآخرين . دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .
- " الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية " حسين المرصفي . تحقيق : د . عبد العزيز الدسوقي . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٩١م .
- " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان . تحقيق : د . محمد محي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية – القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٤٨م .

هـ ـفهرس الموضوعات

المقدمة	١
التمهيد	٦-٦٩
١- المبحث الأول : الرازي حياته وتفسيره	٧
اسمه ونشأته	٧
تصانيفه	٢٧
قضية صحة نسبة التفسير	٣٢
تفسير مفاتيح الغيب	٤٠
٢- المبحث الثاني : النظم والتناسب بين الجملة والنص	٥٥

الباب الأول : التناسب في بناء السورة	٧٠-٢٧٤
الفصل الأول : التناسب في الفواتيح والخواتيم	٧١-١٦١
صورة عناية الدرس البياني بالمطالع والمقاطع	٧٢
شيوع مصطلح الفواتيح والخواتيم في الدراسات القرآنية	٧٨
وصف بنية السورة بتقسيمها إلى وحدات	٧٩
عناية الإمام بتحديد موقع جملتي الفاتحة والخاتمة	٨١
التنبيه على علل وضع الأشياء مقدم على دراسة الاعتبارات	٨٢
مساحة جملة الافتتاح تخضع لمنهج حسن في الضبط	٨٥
التدقيق في تحديد الخاتمة	٩١
محاور العلاقة بين وحدات السورة	٩٢

المبحث الأول : التناسب بين الفواتيح والمقاصد	٩٣
دراسة مكونات الافتتاح وخصوصياتها	٩٤
حسن الترتيب في الافتتاح منظم لبناء المعاني داخل السورة	١٠٥
علاقة الأغراض الفرعية بالافتتاح	١١١
تنوع دراسته للفواتيح بتنوع الجملة القرآنية	
التشابه في توزيع معاني المطلع مع توزيعها في بناء القصص داخل السورة	١١٦
المبحث الثاني : التناسب بين الخواتيم والمقاصد	١١٨
جذر هذا الباب دراسة البلاغيين لموقع الفاصلة القرآنية من معاني الجملة	١١٨
تنبيهه على أسرار لم يبعثها المفسرون قبله	١٢١
لم يتجاوز البعض إطار موضوع الخواتيم دون بحث أسرار تعلقها	١٢٢
جملة الختام تذييل لا تستقل بتمام الفائدة إلا بوضعها في محيط معاني السورة	١٢٣
تفقده للجمل التي ينقطع عندها الكلام	١٢٧
أسرار اختيار نوع الخاتمة باستنفار موقعها في فصول السورة	١٢٩
أضرب رد الخواتيم على المقاصد	١٣٤
الضرب الأول : تعليق الخاتمة بجميع عناصر السورة وأغراضها	١٣٤
الضرب الثاني : تنتخب فيه الخاتمة معنى من وسط السورة	١٤١
الضرب الثالث : تضيف فيه الخاتمة بعداً آخر للمقاصد والأغراض	١٤٣
المبحث الثالث : التناسب بين الخواتيم والفواتيح	١٤٥
التناسب بين الأول والآخر من علم حق المعنى في الدرس البلاغي	١٤٥
غموض هذا الباب لتجاوزه الجملة وامتداده في منازل أبعد	١٤٦

جملة الختام مخاض الابتداء والوسط	١٤٨
رد الخواتيم على الفواتيح بحكم تماسك الكلام ويوحد مختلفة	١٥٠
وضوح علاقة المصاحبة بين الخواتيم والفواتيح في بعض السور	١٥٢
غموض العلاقة بتغير مكونات الخاتمة عن صورتها في الافتتاح	
غموض العلاقة بالتعويل في الربط على البناء والترتيب دون عناصر اللغة	١٥٣
نسب التعالق بين الخاتمة والفاتحة	١٥٥
أولاً : المقابلة	١٥٥
ثانياً : التأكيد	١٥٥
ثالثاً : التفصيل	١٥٧
رابعاً : تكميل المعاني	١٥٩
الفصل الثاني : التناسب بين الآيات	١٦٢-٢١٥
استجلاء الإمام لعلاقات الاقتران بين كل الآيات سبب سعة هذا اللون عنده	١٦٣
الضبط المحكم لمجال التناسب بدراسة ما وراء الاقتران في غياب الروابط اللفظية	١٦٣
البحث في التناسب مع وجود الروابط لا يكون إلا فيما لا تظهر معه مجانسة	١٦٣
الترتيب أقوى القرائن في ترجيح المراد	١٦٤
ضوابط رد الآيات بعضها على بعض	١٦٥
ملاحظة تجاوز الآيات تنظيم لعناصر السورة	١٦٧
أشكال علاقات الاقتران بين الآيات :	١٦٨
١. المقابلة	١٦٨

٢. تكميل المعاني	١٧٢
٣. زيادة بيان	١٧٦
٤. التفصيل	١٧٩
٥. العموم والخصوص	١٨١
٦. التأكيد	١٨٢
٧. السببية	١٨٤
الترتيب بين الآيات ليس لما أشكل فيه وجه التعلق بل هو منهج تحليل	١٨٥
نمو السورة واكتمالها بملاحظة اعتبارات اقتران آياتها	١٨٦
تحديد منطوق الآية لا يكون في غيبة جاراتها	١٨٩
تنوع مسارات ترتيب الآيات وما وراءه من غزارة	١٩١
ترتيب الآية على ما قبلها	٩١
ترتيب الآية وتعليقها بجملتين	١٩١
تعليق الآية بآية جذر لما بعدها من آيات	١٩٤
آيات يجعلها نهاية للمقطع كله	١٩٧
آيات لا تجد شيئاً ظاهراً ترد إليه فتعلق بالسياق	١٩٩
آيات تعلق مرة بما قبلها وأخرى بالغرض الكلي	٢٠٠
آيات مرة يجعلها متصلة وأخرى غرضاً مستقلاً	٢٠٣
آيات تقع في البين ولها غرض	٢٠٤
ما ذكره حازم في وجوه التصرف في مقاصد الكلام وجهاته تنظيراً محكماً لتحليل الرازي لأنواع التعالق بين الآيات	٢٠٦
التماسك بين الآيات أصبح موضع عناية المتأخرين	٢٠٧

تنوع الجهات وليد إعجاز الجملة القرآنية	٢٠٨
المعاني الإنتاجية عند البقاعي ربط محكم لمنازل الآيات	٢١١
لفت الرازي لهذا النوع دون التصريح به	٢١٣
الفصل الثالث : التناسب بين الأغراض	٢١٥-٢٧٤
التناسب بين الأغراض كشف عن الهيآت المتصورة من علاقات التحول والاستمرار في البنى المعنوية	٢١٦
أصل الأصول في البلاغة الخاصة بالقرآن جمعه وتأليفه للأغراض المختلفة	٢١٦
لم يغفل البلاغيون الإشارة إلى هذا الأصل	٢١٧
استقرار هذا الأصل عند حازم تحت مسمى الأسلوب	٢١٩
إفادة حازم من الرازي تحديد موضوع الأسلوب	٢٢٠
التفسير جهد ضخم في دراسة المعنى	٢٢١
هذا الباب ليس له قانون يحيط به ويحصر أنواع تصاريفه	٢٢٢
اتفاق معاني القرآن لا يعني ثبات الدلالة	٢٢٣
تحديد مقاطع الكلام للوقوف على النقلة والاستمرار في المعاني	٢٢٥
بواعث الاستمرار في الأغراض	٢٢٥
النقلة بين الأغراض	٢٢٦
النقلة أحياناً تكون بالرجوع إلى الغرض الأصل	٢٢٨
نوع تكون فيه النقلة لتناسي المعنى لغرض	٢٢٩
مقاطع يعيد عندها تنظيم وترتيب الفصول	٢٣٠

آيات وظيفتها جمع ما تفرق واختلف	٢٣٢
العناية بوجوه الترتيب داخل فروع الأصل الواحد	٢٣٣
منهج الرازي في دراسته للتناسب بين الأغراض	٢٣٧
سورة الفاتحة تمثل النمط الذي يحدد فيه الغرض الكلي ثم تدار عليه الآيات	٢٣٧
سورة البقرة الوصول إلى الغرض من قلب السورة وتحولات بيانها	٢٣٨
سورة فصلت أنموذج مكتمل لدراسة بناء الكلام بعضه على بعض	٢٥٦
نمط التحليل أصل وحدة الكلام	٢٦٢
مذهب البقاعي في ترتيب فصول سورة فصلت	٢٦٣
سورة النساء من الكلام الذي يقصد فيه إلى الاختلاف	٢٦٥
السور القصار تنجرد لغرض محدد	٢٦٥
تنوع فوائد القصص باعتبار تداخلها مع الأغراض	٢٦٧

الباب الثاني : التناسب بين السور	٢٧٥-٤٠٣
الفصل الأول : التناسب في ترتيب السور	٢٧٦-٣٣٠
حال التراث في الإبانة عن هذا اللون من الإعجاز	٢٧٧
غموض هذا اللون سبب في عدم ظهور مكتملاً ابتداء	٢٧٨
سورة محمد بدء الضبط المحكم للتناسب في ترتيب السور	٢٨١
الذي فتح للرازي هذا الباب ولعه بالتفتيش في علائق الإئتلاف	٢٨٣
مستويات العلاقات في هذا اللون	

أولاً : تناسب أول السورة مع آخر ما قبلها	٢٨٥
تدبر أحوال الإبانة في جملة المطلع والبحث عن نميمة تشي بمعاني السورة السابقة	٢٨٦
تضمن الخاتمة قضايا كلية فيأتي افتتاح ما بعده جزء منها	٢٨٧
نوع تكون فيه الفاتحة إشباع لمعنى الخاتمة في السورة السابقة	٢٨٧
اللف والنشر ضرب من ضروب تنظيم المعاني بين السور أيضاً	٢٨٩
تصريح السورة التالية بتلميح خاتمة ما قبلها	٢٩٠
صور متنوعة للتناسب بين السور	٢٩١
ما يراعي في مقطع السور السابقة من خصوصيات تمكن لانسلال ما بعدها من تحتها	٢٩٤
ثانياً : التناسب بين مقاصد السورة والسورة التي قبلها	٢٩٥
تحقق التناسب والمصاهرة بين السور بإيذان من المقاصد	٢٩٥
التفتيش في بنية السورة السابقة عن جهات تتعلق بها لاحقتها	٢٩٦
نوع آخر تكون فيه سورة أم تتوالى بعدها عدة سورة متفرعة عنها	٣٠١
مواضع يكتفي فيها بالإشارة إلى علاقات ظاهرة	٣٠٣
ثالثاً : تعلق السورة بأكثر من سورة	٣٠٤
إعجاز سورة الكوثر يبعثه السور المحيطة بها	٣٠٤
لام العهد في كلمة ((الكوثر)) خصوصية هيأت لإجرائها في السور السابقة	٣٠٨
سورة الكوثر كالشريان الذي تلتقي عنده جزيئات المعاني	٣٠٩
هذه الصفحات المعدودة كانت موضع عناية العلماء بعده	٣١١
فكرة الإمام أصبحت منهجاً في دراسة القرآن عند البقاعي	٣١٢
تفصيل المتأخرين لهذا الباب فدلوا على مداخل متنوعة للسورة في السورة	٣١٣

البحث في العناصر المؤثرة عندهم فتح الباب لرصد نقاط الالتقاء المتكاثرة بين السورتين	٣٢٤
اعتبار التناسب بين السور لفت إلى علل تقديم بعض السور ومراتب كل سورة	٣٢٥
قد تقع السورة موقع الجملة المعترضة بين متصلين	٣٢٩
الفصل الثاني : التناسب بين السور المتشابهة المطالع	٣٣٠-٣٥٣
اختيار المطالع المتشابهة لتحقيق التماسك لأنها الوحدة المشكلة للمقاصد	٣٣١
قصد المتكلم إلى التشابه للتعليق بين ما تباعد	٣٣٢
الفواتح المبدوءة بالحروف المقطعة	٢٤٥
الإبانة عن حقائقها من خلال رد بعضها على بعض	٣٤٧
تتبع السياقات التي تعقب هذا النوع من التنبيه	٣٤٩
رعاية التشابه يمكن تعديته إلى الخواتيم	٣٥٢
الفصل الثالث : التناسب على مستوى السياق العام للقرآن	٣٥٤-٣٩٢
عمل بعض العناصر والمكونات في الإحالة على مواقع متشابهة	٣٥٥
اتفاق مقاصد القرآن وأغراضه أنتج التشابه	٣٥٥
تعدد أقوال العلماء في تحديد المراد بالتشابه	٣٥٦
تداخل المتشابه مع المجمل من وجهين	٣٥٦
مباحث المتشابه فرع من علم المناسبات	٣٥٧
توجيهات الإمام للمتشابه متداخلة مع فن المناسبات مراعية لضوابطه وقوانينه	٣٥٨

البناء على المعنى بين سورة متباعدة خصوصية مستمدة من علم المناسبات	٣٦٧
الجمع بين معنين لا يقتضي زيادة في كل سياق	٣٧٠
حرص الإمام على اضطراد أساليب القرآن واتفاق لغته	٣٧٣
العادات الكلامية المضطردة مدخل للإعجاز	٣٧٥
الإمام يستند في استنباط المعاني التي وراء عادات الترتيب على مواقعها في الأحاديث النبوية	٢٧٩
نقل دراسة العادات الكلامية إلى حقل الشعر ليس غريباً عن أصول دراسة الشعر وتحليله	٣٨٣
من وجوه تناسب السياق القرآني تلازم المعاني واقترانها المستمر	٢٨٤
إعمال هذا اللون ينتهي بالبلاغة إلى الإحاطة بكل ما صدر عن المبين	٣٨٩
الخاتمة	٣٩٣
الفهارس	٣٩٦